الـروايـــة المدهشـــة والأكــثر مبيعــاً على قـــائمة «نيـو يـورك تـايـمـز»

م. ل. ستدمان

M. L. STEDMAN

نورٌ بَيْنَ مُحيطين

THE LIGHT BETWEEN OCEANS

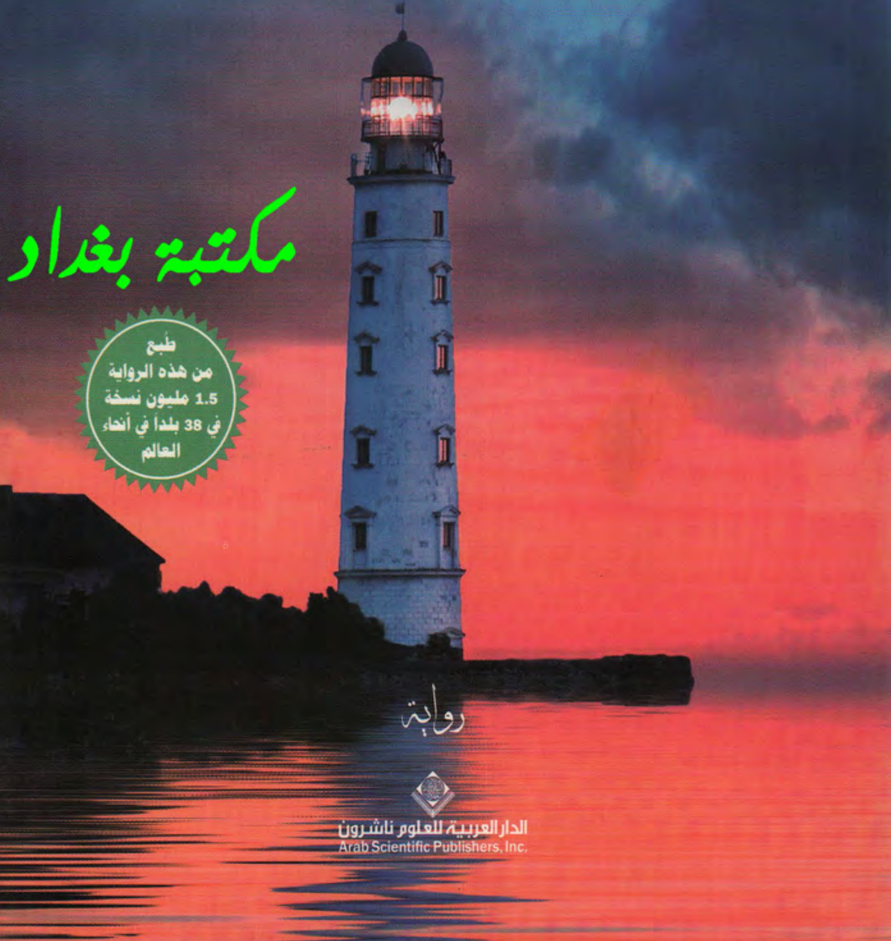

مكتبة بغداد

طُبع
من هذه الرواية
1.5 مليون نسخة
في 38 بلداً في أنحاء
العالم

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نورٌ بَين مُحيطين
The Light Between Oceans

رواية

م. ل. ستدمان

M. L. STEDMAN

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Light Between Oceans
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Transworld Publishers
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2012 by Grasshill Communications

M. L. Stedman has asserted her right under the Copyright, Designs and Patents Act 1988 to be identified as the author of this work.

All rights reserved
Arabic Copyright © 2014 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

2014 م - 1435 هـ

ردمك 978-614-01-1243-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **سامح الخلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

ذكرى لوالديّ

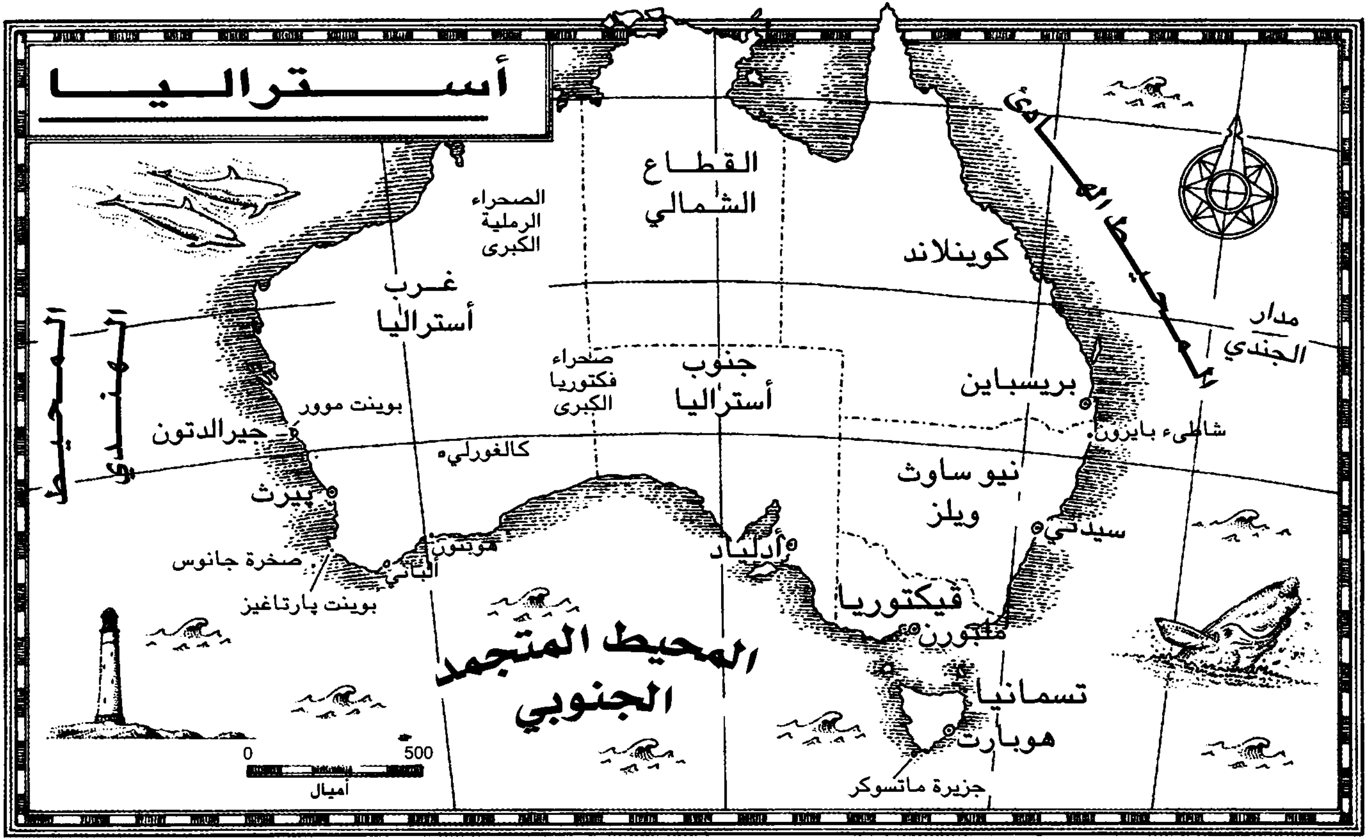
أستراليا
المحيط الهندي
الصحراء
الرملية
الكبرى
القطاع
الشمالي
كوينلاند
غرب
أستراليا
مدار
الجدي
صحراء
فكتوريا
الكبرى
جنوب
أستراليا
بريسباين
بوينت موور
جيرالدتون
شاطىء بايرون
كالغورلي
نيو ساوث
ويلز
بيرث
سيدني
أدليد
صخرة جانوس
الباني
بوينت بارتاغيز
فيكتوريا
ملبورن
المحيط المتجمد
الجنوبي
تسمانيا
هوبارت
0
500
أميال
جزيرة ماتسوكر

القِسْمُ الأوَّل

السابع والعشرون من نيسان 1926

في يوم الأعجوبة، كانت إيزابيل جاثية عند حافة الجرف، تعتني بالرمز الديني الخشبي المصنوع حديثاً. تحرّكت غيمة كثيفة ببطء في سماء آخر نيسان التي امتدت فوق الجزيرة عاكسة المحيط أسفلها. رشّت إيزابيل مزيداً من الماء، ومشت متمهلة على التربة حول رقعة إكليل الجبل التي زرعتها للتو.

همست: «... ولا توقعنا في الإغراء، لكن نجّنا من الشرير».

للحظة واحدة فقط، خُدع عقلها بسماع بكاء طفل، لكنها أبعدت عن مخيلتها ذلك الوهم، ولفت انتباهها بدلاً من ذلك قطيع حيتان يشق طريقه بموازاة الساحل ليصل إلى المياه الأكثر دفئاً، وينبثق أحدها بين الحين والآخر فتبدو فَلكَة ذيله مثل إبر عبر نسيج مطرّز. سمعت البكاء مجدداً؛ أعلى هذه المرة في نسيم الصباح الباكر: مستحيل!

من هذا الجانب من الجزيرة، لا توجد إلا مساحات شاسعة، وصولاً إلى أفريقيا، وهنا يتصل المحيط الهندي بالمحيط المتجمّد الجنوبي ويمتدان معاً مثل سجادة صقيلة تحت الجرف، وتبدو المياه في أيام مثل تلك جامدة جداً فينتابها انطباع أن بمقدورها المشي إلى مدغشقر في رحلة على أزرق يتلوه أزرق. يحدّق الجانب الآخر من الجزيرة إلى الخلف نكداً، نحو البر الرئيس الأسترالي على بعد مئة ميل تقريباً، من دون أن يتصل به تماماً، لكنه ليس متحرّراً منه أيضاً، فأعلى نقطة في سلسلة جبلية تحت الماء ترتفع من قاع المحيط مثل أسنان على طول عظم فك محزّز، تنتظر أن تفترس أي سفن بريئة في

رحلتها الأخيرة نحو ملاذ آمن.

في محاولة للتكفير عن ذنوبها، قدّمت الجزيرة- صخرة جانوس- منارة، يوفّر شعاعها عباءة أمان على نطاق ثلاثين ميلاً. في كل ليلة، يصدح الهواء بالطنين المستمر للفانوس وهو يدور، ويدور، ويدور؛ بانتظام، لا يلوم الصخور، أو يخشى الأمواج إنه يوجد هناك من أجل النجاة.

استمر صوت البكاء، وقعقع باب المنارة من بعيد، وظهر توم الفارع الطول على الشرفة ناظراً إلى الجزيرة عبر منظار. صرخ: «إيزي، مركب!». وأشار إلى الخليج الصغير. «على الشاطئ- مركب!».

اختفى عن الأنظار، ومن ثمَّ ظهر مجدداً بعد لحظة عند مستوى الأرض. صاح: «يبدو أن هناك شخصاً على متنه». أسرعت إيزابيل قدر استطاعتها للقائه، وأمسك ذراعها حين سارا على الدرب المنحدر إلى الشاطئ الصغير.

أعلن توم: «إنه مركب حقاً، و... يا إلهي! يوجد رجل أيضاً، لكن -». كان الجسد ساكناً، مرمياً على المقعد، لكن الصرخات لا تزال تصدح. اندفع توم إلى المركب الصغير، وحاول رفع الرجل قبل أن يفتّش مساحة المقدّمة حيث يأتي الصوت، من ثمَّ عاد حاملاً حزمة صوفية: سترة صوفية نسائية أرجوانية تلف طفلا ضئيلاً يزعق.

صرخ: «يا للهول! يا إلهي يا إيزي. هذا -».

«طفل! يا الله! أوه يا توم! توم! هيا- أعطني إياه!».

سلّمها الطفل، وحاول مجدداً إنقاذ الغريب: لا نبض. استدار إلى إيزابيل التي كانت تفحص المخلوق الصغير. «إنه ميت يا إيزي، ماذا عن الطفل؟».

قالت: «إنه بخير؛ كما يبدو. لا توجد جروح أو كدمات، لكنه

صغير جداً!». ومن ثمَّ التفتت إلى الطفل وهي تضمّه: «حسناً، حسناً، أنت بأمان الآن أيها الصغير. أنت بأمان أيها المخلوق الجميل».

وقف توم ساكناً، ممعناً النظر إلى جثة الرجل، وهو يغمض عينيه بقوة ويفتحهما مجدداً ليتوثق من أنه لا يحلم. كان الطفل قد توقف عن البكاء، ويستنشق الهواء بقوة بين ذراعي إيزابيل.

«لا أرى أي علامات على الرجل، ولا يبدو عليلاً، أو أنه طافٍ منذ أمدٍ طويل... لا يمكن التوثّق من هذا». توقّف. «خذي الطفل إلى المنزل يا إيزي، وسأُحضر شيئاً لأغطّي الجثة».

«لكن، يا توم -».

«سيكون نقله صعوداً على الدرب مهمة شاقة، ومِن الأفضل أن أتركه هنا حتى تصل المساعدة. لا أريد أن تهاجم الطيور أو الذباب جثته. هناك بعض الأشرعة في السقيفة ينبغي أن تفي بالغرض». تكلم بهدوء، لكنه شعر أن يديه ووجهه باردة؛ كأن ظلالاً قديمة حجبت أشعة شمس الخريف الساطعة.

كانت صخرة جانوس ميلاً مربعاً من اللون الأخضر، وفيها أعشاب كافية لتغذية الأغنام والماعز القليلة ومجموعة الدجاج الصغيرة فيها، وتربة كافية للحفاظ على رقعة الخضار البدائية. والشجرتان الوحيدتان عليها من نوع صنوبر نورفولك، وهما مرتفعتان زرعهما طاقم سفينة من بوينت بارتاجو كانوا قد بنوا المنارة قبل ثلاثين عاماً، عام 1889. يُتذكّر حُطام سفينة قبل ذلك بوقت طويل على أنه مجموعة مقابر قديمة، حين غرقت مفخرة بيرمنغهام على الصخور الجشعة في وضح النهار، وعلى متن مثل تلك السفينة كان المشعل نفسه قد جُلب من إنكلترا، حاملاً بفخر اسم «الإخوة تشانس»؛ ضمانة التقانة الأكثر تقدّماً

في ذلك الوقت، وكان يمكن تجميعه في أي مكان، مهما يكن مقفراً أو يتعذّر الوصول إليه.

جلبت التيارات كل أنواع الأشياء؛ حطام سفن، ومطروحات تدور وكأنها تتحرّك بين داسرين توأمين، وقطع خشبية، وصناديق شاي، وعظام حيتان. ظهرت أشياء في أوقاتها، وبطريقتها الخاصة، في حين بقيت محطة الضوء جاثمة برسوخ في وسط الجزيرة، وكوخ العامل والمباني الإضافية بجانب المنارة متهالكة نتيجة عقود من التعرّض لرياح عاتية.

في المطبخ، جلست إيزابيل إلى الطاولة القديمة، والطفل بين ذراعيها ملفوفاً ببطانية صفراء ناعمة. مسح توم نعليه ببطء على الحصيرة حين دخل، ووضع يده على كتفها. «لقد غطّيت الشخص المسكين. كيف حال الصغير؟».

قالت إيزابيل مبتسمة: «إنها فتاة، وقد غسلتها. تبدو موفورة العافية».

التفتت الطفلة إليه بعينين واسعتين، تحدّق إليه. تساءل بصوتٍ عالٍ: «ماذا يمكن أن تفهم من هذا كله؟».

همست إيزابيل، محوّلة ذلك إلى سؤال للطفلة: «أطعمتها بعض الحليب أيضاً، أليس كذلك يا حلوتي؟ أوه، هي مثالية جداً يا توم». وقبّلت الطفلة. «الله يعلم ما قد تعرّضت له».

أخرج توم قارورة شراب من خزانة خشب الصنوبر، وسكب لنفسه كمية صغيرة، من ثم تجرّعها دفعة واحدة. جلس بجانب زوجته، مراقباً إشراقة وجهها وهي تمعن النظر إلى الكنز بين ذراعيها. تابعت الطفلة كل حركة بعينيها؛ وكأن إيزابيل قد تفر إن لم تثبّت بصرها عليها.

ترنّمت إيزابيل حين دفعت الطفلة وجهها نحو صدرها: «أوه أيتها

الصغيرة، الصغيرة المسكينة، المسكينة». سمع توم بكاء في صوتها، وعلقت ذكرى وجود خفي في الجو بينهما.

قال: «هي تحبك». ومن ثمَّ لنفسه تقريباً: «يجعلني هذا أفكّر: كيف كانت الأمور ستبدو؟». أضاف بسرعة: «أعني... لم أعنِ... تبدين وكأنك قد وُلدت لهذا». داعب وجنتها.

نظرت إيزابيل إليه. «أعرف يا حبي، أعرف ما تعنيه. يراودني الشعور نفسه».

وضع ذراعيه حول زوجته والطفلة، وشمّت إيزابيل رائحة الشراب في أنفاسه. تمتمت: «أوه يا توم، الحمد لله لأننا وجدناها في الوقت المناسب».

قبّلها توم، ثمَّ وضع شفتيه على جبين الطفلة. بقي الثلاثة على تلك الحال لوقت طويل، حتى بدأت الطفلة تتلوّى، وأخرجت قبضتها من تحت البطانية.

تمطّى توم حين وقف: «حسناً، سأذهب وأرسل برقية، وأبلّغ عن الزورق، وأجعلهم يرسلون مركباً لأخذ الجثة، ومن أجل الآنسة موفيه هنا».

قالت إيزابيل وهي تلامس أصابع الطفلة: «ليس بعد. أعني، لا داعي للعجلة وفعل ذلك في هذه اللحظة. لن تصبح حال الرجل المسكين أسوأ الآن، وقد اكتفت هذه الفتاة الصغيرة من المراكب حالياً. دع الأمر قليلاً، وامنحها فرصة لتلتقط أنفاسها».

«سيستغرق وصولهم إلى هنا ساعات، وبحلول وقت وصولهم ستكون حالها أفضل، لقد قمت بعمل رائع معها وجعلتها تهدأ».

«دعنا ننتظر فحسب. بالمحصلة، لن يُحدث هذا فرقاً كبيراً».

قال توم: «ينبغي ذكر كل شيء في السجل يا حبيبتي، وتعرفين

أنني يجب أن أبلّغ عن كل شيء فوراً». كان يفترض به تدوين كل حادثة مهمة في المحطة أو قربها؛ من سفن عابرة، وحال الطقس، إلى المشكلات في الأدوات.

«افعل ذلك في الصباح؟».

«لكن، ربما كان المركب من سفينة».

قالت: «إنه زورق صغير، لا قارب نجاة».

«إذاً، ستكون للطفلة على الأرجح أمّ تنتظرها في مكان ما على الشاطئ، وهي تشدُّ شعرها خوفاً عليها. كيف سيكون شعورك لو كنت مكانها؟».

«رأيت السترة الصوفية، لا بدّ أن الأم قد سقطت من المركب وغرقت».

«حبيبتي، ليست لدينا أي فكرة عن الأم، أو عن هوية الرجل».

«هذا هو التفسير الأكثر ترجيحاً، أليس كذلك؟ الأطفال لا يهيمون بعيداً عن آبائهم».

«إيزي، أي شيء ممكن، ونحن لا نعرف فحسب».

«متى سمعت بطفل صغير يبحر على متن مركب من دون أمه؟».

ضمّت الطفلة بقوة أكبر قليلاً.

«هذه قضية جدّية، والرجل ميت يا إيزي».

«والطفلة حيّة، كن حنوناً يا توم».

فاجأه شيء في نبرتها، وبدلاً من معارضتها ببساطة، تريّث وفكّر ملياً بحجّتها. ربما كانت تحتاج إلى بعض الوقت مع الطفلة، وربما يدين لها بذلك. أطبق السكوت، واستدارت إيزابيل إليه برجاء صامت. أقرَّ: «أفترض، عند الضرورة...». خرجت الكلمات من فمه بصعوبة بالغة، «يمكنني... تأخير البرقية حتى الصباح. لكن، في الصباح الباكر،

حين يبزغ الضوء».

قبّلته إيزابيل، وضغطت على ذارعه.

قال: «من الأفضل أن أعود إلى غرفة الفانوس، فقد كنت أستبدل أنبوب البخار».

عندما مشى على الدرب، سمع النغمة العذبة لصوت إيزابيل وهي تنشـد: «تهـبُّ الريـاح الجنوبيـة، الجنوبيـة، الجنوبية، تهبُّ الرياح جنوباً فوق البحر الأزرق الجميل». رغم أن صوتها بدا رخيماً، إلا أنه فشل في تهدئته حين صعد سلالم المنارة، مضطرب البال من التنازل الذي أقدم عليه.

الفصل الأوّل

السادس عشر من كانون الأول 1918

قال توم شربورن: «نعم، أدرك ذلك». كان جالساً في غرفة تتسم بالبساطة، بالكاد أبرد من النهار الحار جداً في الخارج. هطل مطر صيف سيدني بقوة على النافذة، ما جعل الناس على الرصيف يهرعون بحثاً عن ملتجأ.

«أعني قاسياً جداً». مال الرجل الجالس خلف المكتب إلى الأمام توكيداً. «إنها ليست نزهة. لا أعني أن إدارة المنارة في خليج بايرون أسوأ وظيفة في إدارة المنارات، لكن أريد أن أتوثّق من أنك تفهم هذا». رصَّ التبغ بإبهامه وأشعل غليونه. كانت رسالة عمل توم قد سردت القصة نفسها مثل الكثير من الزملاء في ذلك الوقت: مواليد 28 أيلول 1893، قضى فترة الحرب في الجيش، خبرة في شيفرة مورس الدولية، لائق بدنياً ومعافى، تسريح مشرّف. نصّت الشروط على منح أولوية لجنود سابقين.

«لا يمكنني –»، توقف توم، وبدأ مجدداً. «مع فائق الاحترام يا سيد كوغلان، لا يبدو ذلك أقسى من الجبهة الغربية».

نظر الرجل مجدداً إلى التفاصيل في أوراق التسريح، ومن ثمَّ إلى توم، باحثاً عن شيء في عينيه، أو وجهه. «لا يا بني، أنت على الأرجح محق بهذا الشأن». سرد بسرعة بعض القواعد: «ستدفع ثمن تذكرتك

في كل مرة. أنت مؤقت، لذا لن تحصل على إجازات. يحظى الفريق الدائم بإجازة شهر في نهاية كل عقد مدّته ثلاث سنوات». أخرج قلمه الضخم ووقع النموذج أمامه، وعندما حرّك الختم يميناً ويساراً على المحبرة قال: «أهلاً وسهلاً». دمغ الختم في ثلاثة أماكن على الورقة؛ «إلى إدارة منارات الكومنولث». على النموذج، تلألأ تاريخ «السادس عشر من كانون الثاني 1918» بحبر رطب.

علّمت الوظيفة المؤقتة التي دامت ستة شهور في خليج بايرون، على ساحل نيوساوث ويلز، مع عاملين آخرين وأسرتيهما، توم أساسيات الحياة في المنارات، وأتبع ذلك بعمل محدّد في ماتسويكر؛ الجزيرة المقفرة جنوب تاسمانيا حيث تمطر معظم أيام العام، وتدفع العواصف الدجاج إلى البحر.

في المنارات، يحظى توم شربورن بوقت طويل للتفكير بشأن الحرب؛ في وجوه الرجال الذين قد وقفوا بجانبه، الذين أنقذوا حياته بطريقة أو بأخرى، أولئك الذين سمع كلمات احتضارهم، والذين تمتموا جملاً لم يفهمها، لكنه أومأ لهم بأي حال.

توم ليس من الرجال الذين كانوا يجرّون أقدامهم تثاقلاً، أو تبرز بطونهم مثل أنقليس لزج، أو تتحوّل رئاتهم إلى غراء، أو تُصاب أدمغتهم بتخمة من الغاز، لكن الندوب بقيت رغم ذلك، واضطر إلى العيش على الحال نفسها مثل الرجل الذي فعل الأشياء التي ينبغي القيام بها آنذاك. هو يحمل ذلك الخيال الآخر، الذي يلقي ظلاً إلى الداخل.

حاول ألا يمعن التفكير في الأمر: لقد رأى الكثير من الرجال يصبحون أسوأ من عديمي الفائدة بتلك الطريقة. لذا، مضى قدماً بحياته، متفادياً التماس مع هذا الشيء الذي لا يعرف اسماً له. حلم

بشأن تلك السنين، وتوم الذي اختبرها؛ توم الموجود هناك والدم على يديه، فتى في الثامنة من عمره أو نحو ذلك؛ ذاك الفتى الصغير الذي واجه رجالاً يحملون بنادق وحراباً، وشعر بالقلق لأن جوربيه المدرسيين قد انزلقا إلى الأسفل ولا يستطيع رفعهما؛ لأنه سيضطر إلى إلقاء بندقيته، وهو بالكاد كبير كفاية ليمسكها، وليس بمقدوره العثور على أمه في أي مكان.

ثمَّ استفاق ووجد نفسه في مكان حيث لا توجد إلا رياح وأمواج وضوء، والآلة المعقّدة التي تبقي اللهب مشتعلاً والفانوس يدور، يدور باستمرار، ويظلُّ دائماً من فوق كتفه.

لو أن بمقدوره الابتعاد كفاية؛ عن الناس، عن الذكرى... سيداوي الوقت الجرح.

بعيدة آلاف الأميال على الساحل الغربي، تعدُّ صخرة جانوس أبعد مكان في القارة عن موطن طفولة توم في سيدني، لكن الضوء المنبعث من صخرة جانوس كان العلامة الأخيرة عن أستراليا التي قد رآها حين أبحرت سفينته الحربية نحو مصر عام 1915. كان شذا الأوكالبتوس قد فاح على بعد أميال قبالة الشاطئ من ألباني. وعندما تلاشت الرائحة شعر فجأة بالغثيان من فقدان شيء لم يعرف أنه سيفقده. ثمَّ، بعد ساعات، انبثق الضوء للعيان وهو يومض كل خمس ثوان - أقصى مكان يمكن الوصول إليه في وطنه - وبقيت ذكراه معه في سنوات الجحيم التي تبعت ذلك، مثل قبلة وداع. عندما وصله نبأ، في حزيران 1920، عن وظيفة عاجلة في جانوس، بدا أن الضوء هناك يستدعيه إليه.

مترنّحة على حافة الحيد القارّي، لم تكن جانوس مكاناً مرغوباً.

ورغم أن تصنيف مشقة العمل عليها من الفئة الأولى؛ أي يتطلّب راتباً أعلى قليلاً، إلا أن كبار السن قالوا إنها لا تستحق ذلك المال؛ الهزيل بالمحصلة. كان العامل الذي استُبدل به توم على جانوس يدعى تريمبل دوشرتي، وقد أحدث اضطراباً بالإبلاغ أن زوجته ترسل برقيات إلى السفن العابرة بكتابة رسائل من رايات الرموز الدولية الملوّنة، ولم يكن هذا مرضياً للسلطات لسببين: أولاً، لأن نائب مدير المنارات قد حظر قبل سنوات التراسل باستخدام رايات على جانوس، فذلك يعرّض السفن للخطر؛ لأنها تبحر قريباً جداً لحل رموز الشيفرة. وثانياً، لأن الزوجة المعنية قد توفيت أخيراً.

أثار الموضوع مراسلات جمّة ثلاثية النسخ بين فريمانتل وملبورن، مع قيام نائب المدير في فريمانتل بعرض قضية دوشرتي وسنوات خدمته الممتازة في المكتب الرئيس المهتم أساساً بالفاعلية والتكلفة والالتزام بالقوانين. توصل الطرفان إلى تسوية يتولّى بموجبها عامل مؤقت الوظيفة، في حين يحصل دوشرتي على إجازة طبّية مدّتها ستة شهور.

كان مسؤول المقاطعة قد قال لتوم: «نحن لا نرسل عادة رجلاً واحداً إلى جانوس، فهي نائية جداً، وزوجة وأسرة قد يكونان ذوي فائدة عملية. لكن، نظراً إلى أن هذا مؤقت فقط... ستغادر إلى بارتاجو في يومين». ووقّع على عقد الشهور الستة.

لم يكن هناك الكثير لتنظيمه، أو أحد لتوديعه. وبعد يومين، مشى توم على اللوح الخشبي إلى المركب، مسلحاً بحقيبة عسكرية ولا شيء غيرها. شقّت الباخرة بروميثوس طريقها على طول السواحل الجنوبية لأستراليا، متوقفة في موانئ عديدة في رحلتها بين سيدني وبيرث، وكانت الحجرات القليلة المخصّصة لركاب الدرجة الأولى في الطابق

الأعلى، نحو المقدّمة، وفي الدرجة الثالثة. تشارك توم قمرة مع بحّار عجوز. كان الرجل قد قال بمرح: «أقوم بهذه الرحلة منذ خمسين عاماً. لـن يجـرؤوا علـى أن يطلبـوا منـي أجرة. حظ سـيئ، كما تعرف». ومن ثمَّ صب اهتمامه على القارورة الكبيرة من الشراب التي تبقيه مشغولاً. هرباً من الأبخرة، كان توم يمشـي على سـطح السـفينة في أثناء النهار، في حين يتابع في المساء عادة لعبة ورق في داخل السفينة.

لا يزال من الممكن أن تعرف من نظرة من كان هناك ومن قضى الحرب في المنزل، ويمكن أن تشمَّ هذا على رجل؛ فكل واحدٍ يحاول الانضمـام إلـى مجموعتـه. أعـادت التواجد في أعماق الباخرة ذكريات السفن الحربية التي نقلتهم أولاً إلى الشرق الأوسط، ولاحقاً إلى فرنسا. وبعد دقائق من صعودهم على متنها عرفوا، بإحساس تقريباً، من يكون ضابطاً، ومن يحمل رتبة أدنى، وأين سيكونون.

مثلما يحصل على السفن الحربية تماماً، ركّز الجميع على إيجاد نوعٍ من الرياضة لتمضية الرحلة، وبدت اللعبة التي وقع الاختيار عليها مألوفة كفاية: أول من يجلب تذكاراً من راكب درجة أولى يفوز، لكن ليس أي تذكار. كانت المادة المنتقاة سروالاً داخلياً نسائياً. «يُضاعف مال الجائزة إن كانت مالكته ترتديه في ذلك الوقت».

قال الزعيم؛ رجل يدعى مكغوان، وهو ذو شارب وأصابع اصفرّت مـن عشـبة زهـر العسـل، إنـه قـد دردش مـع أحـد الخـدم بشـأن قائمة الركّاب: بدت الخيارات محدودة. كانت الحجرات عشراً فقط: محامٍ وزوجته – من الأفضلِ الابتعاد عنهما – بعض الأزواج الكبار في السن، زوج من العوانس (واعد)، لكن الخيار الأفضل على الإطلاق كان ابنة رجل ميسور تسافر وحدها.

أعلن: «أظن أنه بمقدورنا تسلّق الجانب والدخول عبر نافذتها، وسأل، من معي؟».

لم يفاجئ خطر المغامرة توم، فقد سمع عشرات القصص المماثلة منذ عودته عن رجال خاطروا بحياتهم من أجل نزوة، وعاملوا الأبواب الدوّارة عند المعابر على أنها منصة قفز، وسبحوا في أمواج متلاطمة لمعرفة إن كان بمقدورهم الخروج منها. لذا، بدا رجال كثيرون تفادوا الموت هناك مولعين بإغرائه، لكن هذه المجموعة تتكوّن من عاملين آنذاك، وعلى الأرجح ثرثارين فقط.

في الليلة التالية، عندما أصبحت الكوابيس أسوأ من المعتاد، قرّر توم أن يهرب منها بالمشي على السطح. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ويمكن أن يتجوّل حيث يريد في تلك الساعة، لذا ذرع المكان جيئة وذهاباً، مراقباً ضوء القمر وهو يترك أثره على الماء. صعد إلى السطح الأعلى، ممسكاً درابزين السلالم لمقاومة التأرجح البسيط، ووقف لحظة في أعلاها، مستنشقاً النسيم المنعش وناظراً إلى النجوم التي زيّنت سماء الليل.

بطرف عينه، رأى وميضاً جاء من إحدى الحجرات، وبدا أن أحد ركاب الدرجة الأولى يعاني مشكلة في النوم أحياناً، كما تخيّل. من ثمَّ، تنبّهت حاسة سادسة لديه؛ تلك التي يتعذّر تحديدها عند وجود مشكلة. تحرّك ببطء نحو القمرة، ثم نظر إلى الداخل عبر النافذة.

في الضوء الضعيف، رأى امرأة تستند إلى الجدار، متسمّرة هناك رغم أن الرجل أمامها لم يكن يمسّها، لكنه بعيد بوصة عن وجهها، وينظر إليها نظرة خبيثة سبق لتوم أن رآها كثيراً. تعرّف الرجل من الأسفل، وتذكّر الجائزة، وفكّر أنهم حمقى وأغبياء. جرّب الباب، وفتحه.

قال حين دخل القمرة: «اتركها وشأنها». تكلم بهدوء، لكنه لم يترك مجالاً للنقاش.

استدار الرجل بسرعة ليرى المتكلم، وكشّر حين تعرّف توم. «يا إلهي! ظننت أنك خادم! يمكن أن تساعدني، كنت فقط -».

«قلت اتركها وشأنها! ابتعد، الآن».

«لكنني لم أنته، وكنت سأجعل يومها أفضل». فاحت منه رائحة الشراب والتبغ.

وضع توم يداً على كتفه، وأحكم قبضته القوية جداً عليه ما جعل الرجل يصرخ. كان أقصر بست بوصات من توم، لكنه حاول أن يتملّص منه رغم ذلك. أمسك توم معصمه وأداره. «الاسم والرتبة!».

«مكنزي، جندي، 3277». جاء الرقم التسلسلي غير المطلوب بشكل غير إرادي.

«أيها الجندي، ستعتذر لهذه السيدة الشابة وستعود إلى سريرك ولن تُظهر وجهك على السطح حتى نرسو، هل تفهمني؟».

«نعم يا سيدي!». استدار إلى المرأة. «أعتذر منك يا آنسة، لم أقصد أي أذى».

بالكاد أومأت المرأة وهي لا تزال مرتعبة.

قال توم: «الآن، اخرج!». فغادر الرجل المضطرب القمرة متثاقلاً جرّاء الصحوة المفاجئة.

سأل توم المرأة: «هل أنت بخير؟».

«أظن... أظن هذا».

«هل آذاك؟».

«لم يفعل...» - كانت تقول ذلك لنفسها وله أيضاً - «لم يمسّني في الواقع».

أمسك وجه المرأة، بدت عيناها الرماديتان أكثر هدوءاً آنذاك. كان شعرها الداكن متحرّراً، ومتموجاً يصل إلى ذراعيها، ولا تزال قبضتاها تمسكان ثوب نومها إلى عنقها. أمسك توم رداء الحمام من عقيفة على الجدار وألقاه فوق كتفيها.

قالت: «شكراً».

«لا بدّ أنك شعرت برعب بغيض، وأخشى أن بعضنا ليس معتاداً على الرفقة المتحضّرة هذه الأيام».

لم تتكلم.

«لن تواجهي أي مشكلة أخرى معه». عدّل كرسياً كان قد انقلب في المواجهة. «الأمر منوط بك إن أردت الإبلاغ عنه يا آنسة. لكن، سأقول لك إنه لن يؤذيك بعد الآن».

طرحت عيناها سؤالاً.

«التواجد هناك يغيّر الرجل، ولا يبدو الصواب والخطأ مختلفين جداً بعد ذلك بالنسبة إلى بعض الأشخاص». استدار ليغادر، لكنه أعاد رأسه عبر المدخل. «لك كل الحق بتوجيه تهم له إن أردت، لكن أظن أنه على الأرجح يعاني مشكلات كافية. كما قلت، الأمر منوط بك». واختفى عبر الباب.

الفصل الثاني

حصلت بوينت بارتاجو على اسمها من الرحّالة الفرنسيين الذين رسموا خريطة الرأس البحري البارز من الزاوية الغربية الجنوبية للقارة الأسترالية قبل بداية حملة البريطانيين لاستعمار الغرب عام 1826. منذ ذلك الوقت، توافد المستعمرون شمالاً من ألباني، وجنوباً من مستعمرة «نهر البجعة»، مدّعين لأنفسهم الحق في الغابات العذراء في مئات الأميال بينهما. كانت أشجار بارتفاع كاتدرائية تلقي ظلالاً كثيفة فوق أراضي رعي؛ مساحات رفيعة مهّدها بوصة إثر أخرى أشخاص شاحبون مع قطعان خيول شاير؛ تلك المساحات التي لم يترك إنسان أثراً عليها من قبل، مثل هذه الأرض كُشطت وحُرقت وخُطّطت وقيست ومُنحت لأولئك الراغبين بتجربة حظهم في عالم قد يسبّب لهم يأساً، أو موتاً، أو يكسبهم ثروة خارج نطاق أحلامهم.

كانت جماعة بارتاجو قد ارتحلت معاً مثل غبار كثيف، واستقرت في هذه البقعة حيث يلتقي محيطان، بسبب وجود مياه عذبة وميناء طبيعي وتربة خصبة. لم يكن مرفؤها منافساً لألباني، لكنه ملائم لسكان محليين يشحنون ألواحاً خشبية أو خشب صندل أو لحم بقر، وقد ازدهرت أعمال صغيرة وتشبّثت بالمكان مثل أشنة على وجه صخرة. وضمّت البلدة مدرسة، وعدّة دور عبادة ذات طُرز معمارية مختلفة، وبضعة منازل آجرية وحجرية متينة، والكثير غيرها بُني من ألواح خشبية

وصفيح بـالٍ، وبُنيَـت تدريجيـاً متاجر متنوّعة، ودار بلدية، وحتى وكالة دالجتي للأسهم والسندات...

فـي أثنـاء نشـأتها، كان الاعتقـاد السـائد فـي بارتاجـو أن الأشـياء الحقيقيـة تحـدث فـي مـكان آخر، وتواردت أنبـاء عن العالـم الخارجي إليها مثل مطر يهطل على الأشـجار؛ قصاصة هنا وإشـاعة هناك. كان التلغـراف قـد سـرّع الأمـور قليـلاً حيـن وصـل الخط فـي العام 1890، ومنذ ذلك الوقت حظي بضعة أشـخاص بهواتف، وقد أرسـلت البلدة جنوداً إلى ترانسـفال عام 1899 وخسـرت مجموعة منهم، لكن عموماً بقيت الحياة في بارتاجو هامشـية، لا يمكن أن يحدث فيها أبداً شـيء سيئ جداً أو رائع جداً.

كانت بلدات أخرى في الغرب قد عرفت أشياء بطريقة مختلفة طبعاً. تميّزت كالغورلي مثلاً – جزيرة مساحتها مئات الأميال – بعروق ذهـب تحـت الأرض تحدّهـا صحـراء، فـي بلدة تضم على نحو سـاخر شـوارع تحمـل أسـماء مثـل كروسـوس. لقـد أراد العالـم مـا تملكـه كالغورلي، في حين لم تكن بارتاجو تقدّم إلا ألواحاً خشـبية وخشـب الصندل وشراباً خفيفاً؛ لم تكن جذّابة وقت الازدهار مثل كال.

من ثمَّ في عام 1914 تغيّرت الأمور، واكتشفت بارتاجو أن لديها أيضـاً شـيئاً يريـده العالـم؛ لديهـا رجال، رجال يافعـون، رجال لائقون، رجـال قـد أمضـوا حياتهـم وهم يسـتعملون فأسـاً أو يمسـكون محراثاً ويعيشـون حياة قاسـية؛ رجال في ريعان الشـباب سـتتم التضحية بهم على مذابح حربية في نصف الكرة الآخر.

كانـت سـنة 1914 سـنة رايـات وجلـد تفـوح رائحتـه الجديدة من بزّات رسـمية، واسـتغرق الأمر عاماً آخر لتبدو الحياة مختلفة – كأنها

لم تعد هامشية بالمحصلة - حين شرعت النساء يستقبلن - بدلاً من أزواجهن وأبنائهن الأعزّاء أقوياء البنية - برقيات؛ قصاصات الورق تلك التي قد تسقط من أيدي النساء المذهولات وتطير في ريح حادّة مثل سكين، وتخبرهن أن أولادهن الذين أرضعنهم وغسلنهم ووبّخنهم وصرخن عليهم لم يعودوا موجودين. انضمت بارتاجو إلى العالم متأخرة وبجهد مؤلم.

طبعاً، يكون فقدان الأبناء دائماً شيئاً ينبغي أن يعانيه المرء، وليست هناك أي ضمانة أن الحمل سيؤدي إلى ولادة حياة، وأن الولادة ستؤدي إلى حياة مديدة، وقد سمحت الطبيعة فقط للأقوياء والمحظوظين بمشاركة الولادة الجديدة. انظر داخل غلاف أي كتاب مقدّس يخص أسرة وسترى الحقائق. وسردت المقابر أيضاً قصص الأطفال الذين صمتت أصواتهم أخيراً؛ بسبب لدغة أفعى أو حمّى أو سقوط من عربة. اعتاد الأولاد الناجون على الطريقة الجديدة في تحضير الطاولة وترك مكان فارغ حولها، ونشأوا معتادين على التلاصق على طول المقعد الخشبي حين يصل قريب آخر. ومثل حقول القمح حيث تُبذر حبوب أكثر مما يمكن حصاده، بدا أن هناك أولاداً إضافيين في الجوار، ويتوفى بعضهم لأسباب مختلفة؛ وقد سجّلت مقبرة البلدة هذا دائماً بصدق، وسردت شواهدها - التي يتراخى بعضها مثل أسنان متقلقلة وسخة - بصراحة قصص حيوات قضت باكراً نتيجة الأنفلونزا أو الغرق أو سقوط ألواح خشبية، وحتى صواعق برق. لكن، عام 1915، بدأت المقبرة تكذب، فقد كان فتيان ورجال من كل أنحاء المقاطعة يموتون بأعداد كبيرة، لكن المقابر لم تقل شيئاً.

كانت الحقيقة أن الجثامين اليافعة ترقد في الطين بعيداً، وفعلت السلطات ما يمكنها فعله؛ فحيث سمحت الظروف والمعركة، حُفرت

قبور. وعندما كان من الممكن وضع مجموعة أوصال وتعريفها بجندي واحد، بُذل كل جهد ممكن لفعل ذلك، ودُفن بطقوس جنائزية من نوعٍ ما. احتُفظ بسجلات، ولاحقاً التُقطت صور للقبور، ومقابل مبلغ جنيهيْن وشلن وستة سنتات، يمكن لأسرة شراء صفيحة تذكارية رسمية. بعد ذلك، ستنبثق مذكرات الحرب من أرجاء الأرض، وستتكلم بإسهاب؛ ليس عن الراحلين، وإنما عمّا كسبه الراحلون، والمعنى المجيد لتكون منتصراً. تمتم بعضهم: «الانتصار والموت نوع هزيل من النصر».

كان المكان مثل جبن سويسري مليء بالثقوب؛ من دون الرجال. لم يكن هناك تجنيد إلزامي، ولم يرغمهم أحد على الذهاب والقتال.

كانت أقسى دعابة عن الرجال الذين يدعوهم الجميع «محظوظين» لأنهم استطاعوا العودة: العودة إلى الأطفال الذين تأنّقوا للترحيب بهم في المنزل، إلى الكلب مع شريط مربوط بطوقه ليستطيع الانضمام إلى المرح. كانت الكلاب عادة أول ما يلحظ أن شيئاً قد تغيّر، ولا يتعلق الأمر بفقدان الجندي عيناً أو ساقاً فقط، وإنما أنه تائه عموماً؛ لا يزال تائهاً عن الفعل، رغم أن جسده لم يغب قطّ عن البصر. بدا كلام بيلي ويشارت من مطحنة سادلر مثلاً - ثلاثة صغار وزوجة طيبون كما يحق للرجل أن يأمل - هراء، ولم يعد بمقدوره أن يمسك ملعقة من دون أن تهتز في يده مثل قطّاعة تبن ويريق حساءه في كل مكان فوق الطاولة، ولا يستطيع إغلاق أزراره بسبب الارتعاش، وعندما يكون وحيداً في الليل مع زوجته لا يخلع ثيابه، ويتكوّر على نفسه في السرير ويبكي. أو الشاب سام دوست الذي نجا من أول إنزال في غاليبولي فقط ليفقد كلتا ذراعيه ونصف وجهه في بوليكورت، وتجلس أمه الأرملة في الليل قلقة بشأن من سيعتني بابنها اليافع بعد أن ترحل عن الدنيا،

ولم تكن هناك فتاة في المقاطعة سخيفة كفاية لتتزوجه آنذاك. ثقوب في جبن سويسري، وشيء مفقود.

لوقت طويل، ظهر على الناس تعبير ذهول مثل ممارسي لعبة قد تغيّرت فيها القواعد فجأة. حاولوا جاهدين أن يستمدّوا الراحة من حقيقة أن الفتيان لم يموتوا عبثاً: كانوا جزءاً من صراع ذي معنى من أجل إحقاق الحق. وانقضت لحظات صدّقوا فيها ذلك، وبلعوا الصرخة الغاضبة اليائسة التي أرادت أن تشق طريقها خارج حناجرهم.

بعد الحرب، حاول الناس التسامح مع الرجال الذين عادوا مولعين جداً باحتساء الشراب، أو أولئك الذين لم يستطيعوا أداء عمل أكثر من بضعة أيام. استقرّت الأعمال في البلدة بعد مدّة، واستمرت كيلي في متجر البقالة، في حين أن الجزّار بقي لين برادشو العجوز، رغم أن الشاب لين كان متشوقاً ليحل مكانه: يمكن أن تعرف ذلك من الطريقة التي يشغَل بها جزءاً كبيراً من مساحة أبيه عند النضد حين يميل خلفه ليلتقط شيئاً ما. تولّت السيدة أنكبن (التي لم يبدُ اسمها نصرانياً قطّ، رغم أن شقيقتها تدعوها بوبسي) عمل الطبيب البيطري حين لم يعد زوجها ماك من غاليبولي، واتصف وجهها بقسوة كبيرة مثل الحديد الذي يستخدمه الرجال لوضع حدوات على حوافر الخيول، وكان لديها قلب مماثل. كان رجال ضخام قد عملوا لديها، وكل ما يقولونه: «نعم يا سيدة أنكبن، لا يا سيدة أنكبن، ثلاث حقائب مملوءة يا سيدة أنكبن». رغم أن أياً منهم يستطيع رفعها بإصبع تقريباً.

عرف الناس من يجدر منحهم ثقتهم، وممن يطلبون المال صراحة، ومن يصدّقون حين يعيدون بضائع ويطلبون إعادة نقودهم. أبلى موشمور ودرابر لتجارة الألبسة والسلع الصغيرة حسناً قبل

الكرسمس والفصح، رغم أن المدة قبل الشتاء جلبت لهما تجارة سريعة في الصوف المحبوك، ثم أدارا عملاً مربحاً في أشياء السيدات التي لا يليق ذكرها. اعتاد لاري موشمور ملامسة شاربه المشذّب حين يصحّح خطأ تهجية اسمه (يُلفظ «موش»، لا «ماوش»)، وراقب خائفاً ونكداً السيدة ثوركل وهي تكمل طريقها لتفتح باب محل الفراء المجاور. متجر فراء؟ في بوينت بارتاجو؟! إذا سمحت! ابتسمَ بلطف حين أُغلق المتجر بعد ستة شهور، واشترى البضائع الباقية «في بادرة صدقة جوار» وباعها محققاً ربحاً كبيراً لقبطان باخرة أبحرت إلى كندا، قال إنهم يُفتنون بهذا النوع من الأشياء هناك.

لذا بحلول عام 1920، تمتّعت بارتاجو بذلك المزيج من الكبرياء والتجربة الصلبة التي تتصف بها أي بلدة أسترالية غربية. انتصبت في وسط وشاح الأعشاب قرب الشارع الرئيس المسلّة الغرانيتية الجديدة التي تحمل أسماء الرجال والفتيان - بعضهم بالكاد بلغ السادسة عشرة - الذين لن يعودوا لحراثة الحقول أو قطع الأشجار، أو إنهاء دروسهم، رغم أن كثيرين في القرية حبسوا أنفاسهم، وهم ينتظرونهم بأي حال. تدريجياً، نُسجت حياة الناس معاً مرة أخرى في نوع عملي من النسيج؛ يتقاطع فيه كل خيط مراراً وتكراراً مع الخيوط الأخرى عبر الدراسة أو العمل والزواج، مُطرّزة علاقات خفية لأولئك الوافدين من خارج البلدة.

وتدلّت صخرة جانوس التي يصلها مركب المؤن أربع مرات سنوياً فقط، من حافة الثوب مثل زر متحرّر قد ينفصل بسهولة إلى آنتاركتيكا.

كان الرصيف الطويل الرفيع في بوينت بارتاجو مصنوعاً من الخشب نفسه الذي يطقطق في عربات السكك الحديدية في أثناء

نقلها إلى السفن. كان الخليج الواسع الذي نمت البلدة بجانبه فيروزياً صافياً، ويلمع في اليوم الذي رسا فيه مركب توم مثل كأس صقيلة.

برز على الفور رجال يحمّلون ويُفرغون، يدفعون ويرفعون الشحنة بصرخات أو صفارات عَرَضية. على الشاطئ، استمر النشاط، وتابع الناس حياتهم التي اعتادوا عليها، سيراً على الأقدام أو على متن خيول وعربات.

كان الاستثناء لعرض الفاعلية هذا شابة تُطعم خبزاً لسربٍ من النوارس، وتضحك في أثناء إلقائها كل كسرة في اتجاه مختلف، وتراقب الطيور وهي تتنازع في ما بينها وتزعق، متشوقة إلى الجائزة. التقط نورس يطير في الجو كسرة بمنقاره وتابع الانقضاض للحصول على الأخرى، ما جعل الفتاة تطلق نوبة جديدة من الضحك.

بدا أن سنوات قد انقضت منذ أن سمع توم ضحكة لم تكن مصطبغة بقسوة أو مرارة. كان أصيلاً شتوياً مشمساً، ولا مكان يذهب إليه في تلك اللحظة، ولا شيء يفعله، فهو سيغادر إلى جانوس بعد يومين، بعد أن يلتقي الأشخاص الذين ينبغي أن يلتقيهم ويوقّع النماذج التي يجب توقيعها. لكن آنذاك، لم تكن هناك سجلات يدوّن عليها، أو مناظير يلمّعها، أو خزّانات يزوّدها بالوقود مجدداً، وهناك شخص يستمتع قليلاً، وبدا ذلك فجأة برهاناً أكيداً على أن الحرب قد انتهت فعلاً. جلس على مقعد خشبي قرب الرصيف، وترك الشمس تداعب وجهه، مراقباً الفتاة وهي تلهو في الجوار، وخصلات شعرها الداكن تتمايل مثل شبكة ملقاة في الرياح، وتابع أصابعها الرشيقة وهي تترك ظلالاً على الأزرق، وتدريجياً فقط لاحظ أنها حسناء، وتدريجياً أكثر لاحظ أنها على الأرجح فائقة الجمال.

صرخت الفتاة، وقد لاحظت توم في غفلة منه: «ما الذي يجعلك

تبتسم؟».

«آسف». شعر أن وجهه قد احمرَّ خجلاً.

قالت بصوت فيه نبرة حزينة نوعاً ما: «لا تأسف على الابتسام أبداً!». ومن ثمَّ أشرق تعبير وجهها. «أنت لست من بارتاجو».

«لا».

«أنا منها، وعشت هنا طوال حياتي. هل تريد بعض الخبز؟».

«شكراً، لكنني لست جائعاً».

«ليس من أجلك أيها السخيف! لتُطعم النوارس».

قدّمت له قطعة بيدها الممدودة. قبل عام، ربما حتى قبل يوم، كان توم سيرفض ويمشي مبتعداً عنها، لكن فجأة جعله الدفء والحرية والابتسامة، وشيء لم يتمكن من تسميته، يقبل العرض.

قالت: «أراهن أن بمقدوري جذب عدد أكبر إلي مما تستطيع أنت».

قال توم: «حسناً، دورك!».

أعلنت: «هيا!». وبدأ كلاهما يرميان القطع عالياً في الهواء أو بزوايا مُحكمة، ويخفضان رأسيهما حين تزعق النوارس وتنقضُّ وتخفق بأجنحتها ضد بعضها بعضاً بغضب.

أخيراً، عندما انتهى كل الخبز، سأل توم ضاحكاً: «من فاز؟».

«أوه! نسيت الحكم على هذا». هزّت الفتاة كتفيها. «لنقل إنه تعادل».

قال وهو يضع قبعته على رأسه ويمسك حقيبته القماشية: «هذا منصف كفاية، والأفضل أن أتابع طريقي. شكراً، استمتعت بذلك».

ابتسمت. «كانت مجرد لعبة سخيفة».

قال: «حسناً، شكراً على تذكيري أن هناك ألعاباً سخيفة ممتعة».

رفع الحقيبة فوق كتفه العريضة، واستدار نحو البلدة، ومن ثمَّ أضاف: «أتمنى لك أصيلاً ممتعاً الآن يا آنسة».

رنَّ توم الجرس في النُّزل في الشارع الرئيس، وكان بإدارة السيدة مويت؛ امرأة في العقد السادس من العمر، وعنيفة مثل قدر فلفل، وقد وبّخته: «تقول رسالتك إنك عازب، ومن الولايات الشرقية، لذا سأطلب منك أن تتذكر أنك في بارتاجو الآن. هذه منشأة نصرانية، وغير مسموح تناول الكحول أو التبغ في هذا العقار».

كاد توم يشكرها وهو يهمّ بأخذ المفتاح من يدها، لكنها أمسكته بإحكام حين تابعت: «لا شيء من عاداتك الغريبة مسموح به هنا: أعرف كل شيء. فأنا أبدّل الملاءات حين تغادر ولا أتوقع أن أضطر إلى فركها، إن كنت تعرف ما أعنيه. الأبواب تُغلق عند العاشرة، والفطور يُقدّم عند السادسة صباحاً، وإذا لم تكن هناك فستخرج جائعاً، والشاي عند الخامسة وثلاثين دقيقة، والقاعدة نفسها تنطبق هنا، في حين يمكنك البحث عن غداء في مكان آخر».

قال توم مقرراً ألا يبتسم؛ تحسباً كي لا يخرق ذلك قاعدة أخرى: «أنا شاكر لك يا سيدة مويت».

«الماء الساخن مقابل شلن إضافي اسبوعياً، والأمر منوط بك إن كنت تريده. برأيي، لا يصيب الماء البارد أبداً رجلاً في مثل عمرك بأي أذى». دفعت مفتاح الغرفة نحوه، وعندما مشت ببطء على الممر، تساءل توم عن إمكانية وجود سيد مويت حبّب الرجال إليها كثيراً.

في غرفته الصغيرة في مؤخر النزل، أفرغ حقيبته القماشية، ووضع صابونة وأدوات حلاقته بأناقة على أحد الرفوف الموجودة، وطوى ثيابه الداخلية وجواربه ووضعها في درج، وعلّق قمصانه الثلاثة وسروالين

إلـى جانـب بزّتـه وربطـة عنقـه الجديدة في الخزانة الضيقة. وضع كتاباً في جيبه وخرج لاستكشاف البلدة.

كان واجـب تـوم شـربورن الأخيـر فـي بارتاجو تناول العشـاء مع مدير الميناء وزوجته؛ فالقبطان بيرسي هاسلك مسؤول عن كل الوافدين والمغادرين عبر المرفأ، ومن المعتاد أن يُدعى أي عامل جديد في منارة جانوس ليأكل معه قبل أن يغادر إلى الجزيرة.

اغتسل توم وحلق مجدداً بعد الظهر، ووضع ملمعاً على شعره، وأغلق أزراره حتى ياقته، وارتدى بزّته. كانت قد استُبدلت بأشعة شمس الأيام السـابقة غيوم وريح عاتية تهبُّ مباشـرة من آنتاركتيكا، لذا أخذ معطفه معه تحسباً لأي طارئ.

لا يـزال ملتزمـاً بمعاييـر سـيدني. كان قـد خصّـص وقتـاً طويـلاً ليمشـي علـى الـدرب غيـر المألـوف، ووصل إلى المنـزل باكراً. رحّب مضيفه به بابتسامة عريضة، وعندما اعتذر توم عن وصوله قبل الأوان، صفّقت «السيدة القبطان هاسلك»، كما عرّفها زوجها، بيديها وقالت: «يا لتهذيبك يا سيد شربورن! لا داعي إلى الاعتذار عن تشريفنا بحضورك باكراً، خاصة أنك قد أحضرت مثل هذه الورود الجميلة». شمّت شذا الورود النضرة التي قد فاوض توم على قطفها، مقابل مبلغ مادّي، من حديقة السيدة مويت، ورفعت بصرها إليه من موقع رؤيتها المنخفضة وقالـت: «عجبـاً! أنـت طويـل مثل المنـارة تقريباً!». وضحكت بصوت خافت من دعابتها.

أخـذ القبطـان قبعـة تـوم ومعطفـه وقـال: «تفضّـل إلـى الردهـة». وأضافت زوجته فوراً: «قال العنكبوت للذبابة!».

صرّح القبطان: «آه، هي ظريفة، هذه المرأة». خشي توم أن تكون

أمسية طويلة.

عرضت المرأة: «الآن، أترغب في بعض الشّاي؟ أم الشراب؟».

قال زوجها ضاحكاً: «أظهري بعض الرحمة واجلبي للرجل المسكين كأساً من الشراب أيتها السيدة القبطان». وربت على ظهر توم. «اجلس وأخبرني كل شيء عن نفسك أيها الشاب».

أنقذ رنين الجرس توم، وقال القبطان هاسلك: «أرجو المعذرة». سمع توم في آخر الممر: «سيرل، بيرثا، مسرور لأنكما استطعتما المجيء، ناولاني قبعتيكما».

عندما عادت السيدة القبطان إلى قاعة الاستقبال مع قارورة شراب وكؤوس على صينية فضّية، قالت: «فكّرنا بدعوة بعض الأشخاص؛ فقط لتعريفك إلى بعض السكان المحليين. إنه مكان ودّي جداً، أعني بارتاجو».

تقدّم القبطان الضيفين الجديدين؛ زوج صارم يكوّنان الرئيس الريّان لمجلس الطرق المحلية؛ سيرل تشيبر، وزوجته بيرثا الرقيقة جداً.

سأل سيرل حين تعرّفوا إلى بعضهم بعضاً: «حسناً، ما رأيك بالطرق هنا؟ لا كياسة من فضلك. مقارنة بالشرق، كيف تصنّفها؟».

قالت الزوجة: «أوه، اترك الرجل المسكين وشأنه يا سيرل». كان توم شاكراً؛ لا لذلك التدخّل فقط، وإنما لجرس الباب أيضاً الذي رنَّ مجدداً.

قال القبطان حين فتح الباب الأمامي: «بيل، فيوليت، تسرّني رؤيتكما. آه، وأنتِ تصبحين أجمل كل يوم أيتها الشابة».

اصطحب إلى القاعة رجلاً قوي البنية بلحية رمادية، وزوجته؛ قوية ومتورّدة. «هذا بيل غرايسمارك، وزوجته فيوليت، وابنتهما...». استدار إلى الخلف. «إلى أين ذهبت؟ بأي حال، توجد ابنة في مكان

ما هنا، وستصل قريباً، كما أتوقع. بيل مدير المدرسة هنا في بارتاجو».

قال توم مصافحاً الرجل، وهو يومئ بتهذيب للمرأة: «سُررت بلقائكما».

قال بيل غرايسمارك: «إذاً، أتظن أنك ملائم لجانوس؟».

قال توم: «سأكتشف هذا قريباً».

«المكان كئيب هناك، كما تعرف».

«هذا ما سمعته».

ردَّ سيرل تشيبر: «لا توجد طرق على جانوس، طبعاً».

قال توم: «هه، حسناً، لا».

تابع تشيبر بنبرة تضمّنت وجود معانٍ أخلاقية: «لست واثقاً أنني فكّرت كثيراً في مكان لا توجد فيه طرق إطلاقاً».

انضم غرايسمارك مجدداً: «عدم وجود طرق هو أهون مشكلاتك».

«أبي، دعه وشأنه، هلاّ تفعل». دخلت الابنة المفقودة آنذاك حين أدار توم ظهره إلى الباب. «آخر شيء يحتاجه الرجل المسكين هو حكاياتك عن الخراب والعتمة».

قال القبطان هاسلك: «آه! أخبرتكم أنها ستظهر. هذه إيزابيل غرايسمارك. إيزابيل - أعرّفك بالسيد شربورن».

وقف توم لتحيتها والتقت عيونهما فعرفا بعضهما. كاد يشير إلى النوارس، لكنها أسكتته بالقول: «سُررت بلقائك يا سيد شربورن».

قال توم، مخمّناً أنه لم يكن يُفترض بها أن تقضي فترة بعد الظهر في رمي الخبز لطيور النورس، بالمحصلة: «توم، تشرّفت». وتساءل عن الأسرار الأخرى التي تكمن خلف ابتسامتها اللعوب.

انقضت الأمسية بخير، وأخبر هاسلك توم عن تاريخ المقاطعة، ومبنى المنارة الموغلة في القدم. طمأنه مدير الميناء: «إنها مهمة جداً للتجارة. المحيط الجنوبي غادر كفاية على السطح، فضلاً عن وجود ذلك الحيد تحت الماء. النقل الآمن هو مفتاح العمل، والجميع يعرف هذا».

بدأ تشيبر مجدداً: «طبعاً، الأساس الحقيقي للنقل الآمن هو الطرق الجيدة». وكاد ينتقل إلى شقٍّ آخر في موضوع حديثه الوحيد. حاول توم أن يبدو مجاملاً، لكن طرف عينه شرد بفعل إيزابيل. غير منظورة من قبل الآخرين - بفضل زاوية كرسيها - كانت قد بدأت تُظهر تعابير ساخرة على تعليقات سيرل تشيبر، وتؤدي حركات إيمائية صغيرة ترافق كل ملحوظة.

استمر العرض، وتوم يكافح لإبقاء وجهه جاداً، حتى هربت ضحكة كاملة أخيراً، حوّلها بسرعة إلى نوبة سعال.

سألت زوجة القبطان: «هل أنت بخير يا توم؟ سأجلب لك بعض الماء».

لم يستطع توم رفع بصره، وقال وهو لا يزال يسعل: «شكراً لك، سآتي معك، لا أعلم ماذا أصابني».

عندما وقف توم، حافظت إيزابيل على رصانة تعابير وجهها وقالت: «الآن، عندما يعود، ينبغي أن تخبر توم كل شيء عن طريقة بنائك للطرق من الخشب القاسي يا سيد تشيبر». ثم استدارت إلى توم وقالت: «لا تتأخر، فالسيد تشيبر لديه الكثير من القصص المثيرة للاهتمام». وابتسمت ببراءة، ومن ثمَّ ارتعشت شفتاها لحظة حين نظر توم إلى عينيها.

عندما اقترب عقد الجمع من الانفراط، تمنّى الضيوف لتوم الخير في أثناء بقائه على جانوس. قال هاسلك: «يبدو أنك قد جُبلت من المادة المناسبة». وأومأ بيل غرايسمارك موافقاً.

قال توم مصافحاً أيدي الرجال، وهو يومئ للسيدات: «شكراً لكم، سرّني لقاؤكم جميعاً». وقال بهدوء لإيزابيل: «وشكراً لتوثّقكم من تزويدي بهذه المقدّمة الرائعة عن تشييد طرق أستراليا الغربية. المؤسف أنني لن أحظى بفرصة لأردَّ لكم الجميل». وافترق الجمع الصغير في الليلة الماطرة.

الفصل الثالث

كان «طيف مهبّ الريح» - وهو قارب المؤن لكل محطات المنارات على طول ذلك الجزء من الساحل - مركباً قديماً، لكنه كما قال رالف أديكوت موثوق مثل كلب رعي. كان رالف العجوز قد قاد المركب مدة طويلة جداً، وتباهى دائماً أن عمله هو الأفضل في العالم.

قال مشيراً إلى السطح الخشبي المكشوف والطلاء المقشّر نتيجة الملح حين صعد توم على متن المركب قبل الفجر في رحلته الأولى إلى صخرة جانوس: «آه، لا بد أنك توم شربورن، أهلاً بك إلى مركب سروري!».

قال توم حين صافحه: «سُررت بلقائك». كان المحرّك يدور ببطء، وملأت أدخنة الديزل رئتيه. لم يكن الجو في القمرة أكثر دفئاً من الهواء القارس في الخارج، لكنها على الأقل خفّفت من حدّة الريح.

ظهرت كتلة من خصلات مجعّدة حمراء عبر الباب الأرضي في مؤخر القمرة. قال الشاب صاحبها: «أظن أننا جاهزون يا رالف، إنه جاهز تماماً الآن».

قال رالف: «بلوي، هذا توم شربورن».

ردَّ بلوي، دافعاً نفسه عبر الباب: «يوماً طيباً».

«صباح الخير».

قال بلوي نافخاً بين يديه: «تكلموا عن طقس عاصف! آمل أن

تكون قد حزمت ثيابك الداخلية الصوفية. إذا كان الجو مثلما هو هنا، فسيكون الحال أسوأ كثيراً على جانوس».

عندما رافق بلوي توم على متن المركب، أجرى القبطان إجراءات التوثّق الأخيرة، ومسح الكأس الملطّخة بماء البحر أمامه بقطعة قماشية من راية قديمة، ثمَّ نادى: «الحبال جاهزة الآن أيها الفتى، استعدّ للإبحار». فتح المخنق، وتمتم، مستميلاً المركب ليخرج من مرساه: «هيا أيها العجوز، سنبحر».

أمعن توم النظر إلى الخريطة على الطاولة، ورغم تكبيرها إلى حد كبير، بدت جانوس بالكاد نقطة في المياه الضحلة قبالة الساحل. ثبّت بصره على البحر الشاسع أمامه، واستنشق الهواء المشبع بالملح؛ من دون أن ينظر إلى الخلف؛ نحو الشاطئ تحسباً من أن يجعله ذلك يغيّر رأيه.

مع انقضاء الساعات، ازدادت المياه عمقاً تحتهم، وأضحى لونها أدكن. من وقت إلى آخر، كان رالف يشير إلى شيء مثير للاهتمام؛ نسر بحري، أو قطيع دلافين تلعب عند مقدّمة المركب. مرة، رأوا مدخنة باخرة، تبرز بالكاد من الأفق، ودورياً انبثق بلوي من المطبخ ليقدّم الشاي في أكواب ملوّنة قديمة. أخبر رالف توم قصصاً عن عواصف عاتية وأحداث رائعة عن المنارات في ذلك الجزء من الساحل، وتحدّث توم قليلاً عن الحياة في خليج بايرون على جزيرة ماتسويكر؛ على بعد آلاف الأميال إلى الشرق.

قال رالف: «حسناً، إذا كنت قد عشت في ماتسويكر، فهناك احتمال في أن تنجو على جانوس، على الأرجح». نظر إلى ساعته. «لماذا لا نخلد إلى النوم قليلاً طالما أننا نستطيع فعل هذا؟ لا يزال الطريق طويلاً أمامنا».

عندما ظهر توم مجدداً بعد نومه في الأسفل، وجد بلوي يتكلم بصوت خافت إلى رالف الذي يهزُّ رأسه.

كان بلوي يقول: «أردت أن أعرف فقط صحة الأمر، ولا ضير في سؤاله، أليس كذلك؟».

قال توم: «تسألني عن ماذا؟».

نظر بلوي إلى رالف: «إذا...». محتاراً بين تشوّقه لطرح السؤال وعبوس رالف الشديد.

قال توم: «هذا منصف كفاية، لا شأن لي بالموضوع». ونظر خارجاً إلى المياه التي قد تحوّلت آنذاك إلى لون رمادي مثل فقمة، في حين ارتفعت الأمواج حولهم.

«كنت يافعاً جداً، ولم تسمح لي أمي في مثل ذلك العمر بالانضمام إليهم، وقد سمعت فقط...».

نظر توم إليه، رافعاً حاجبيه استفساراً.

قال بلوي فجأة: «حسناً، يظنون أنك حصلت على وسام الخدمة العسكرية. أخبروني أن هذا مذكور في أوراق تسريحك؛ من أجل وظيفة جانوس».

أبقى توم ناظريه على الماء، وبدا بلوي خائباً ومحرجاً. «أعني، أنا فخوز حقاً بقدرتي على القول إنني صافحت يد بطل».

قال توم: «الخدمة في الجيش لا تجعل من أحد بطلاً». وأضاف: «معظم الرجال الذين يستحقون فعلاً أوسمة لم يعودوا موجودين. لم أكن لأهتم كثيراً بالموضوع لو كنت مكانك يا صديقي». واستدار ليمعن النظر إلى الخريطة.

هتف بلوي: «هذه هي!». وأعطى توم المنظار.

ضحك رالف بصوت خافت: «الوطن، ما أحلى الوطن، في الشهور الستة القادمة».

نظر توم عبر العدستين إلى المساحة الواسعة التي بدا أنها تنبثق من الماء مثل وحش بحري. حدّد الجرف على أحد الجانبين أعلى نقطة، تلك التي تنحدر الجزيرة منها برفق حتى تصل إلى الشاطئ المقابل.

قال رالف: «سيكون نيفيل العجوز سعيداً لرؤيتنا. فهو لم يتقبّل بسهولة أن يُستدعى من التقاعد بعد إجازة تريمبل الطارئة. لكن، إذا أصبحت عامل منارة مرة... فليس هناك رجل في الإدارة سيترك محطة من دون عامل، مهما كلّفه ذلك. أحذّرك، هو ليس أسعد جثّة في المشرحة، ولا يحب الكلام كثيراً، نيفيل وايتنيش».

امتد الرصيف نحو مئة قدم من الساحل، حيث بني متيناً ليقاوم أعتى أمواج المد وأشدَّ العواصف. كانت البكرة والحبال مشدودة وجاهزة لشدّ المؤن على الطريق المنحدر إلى المباني الملحقة، وظهر رجل صارم وقاسي الوجه في الستينيات من عمره، ووقف بانتظارهم في أثناء رسو المركب.

قال بإيماءة فاترة: «رالف، بلوي». في حين كانت تحيته إلى توم: «أنت البديل».

رد توم، ماداً يده: «توم شربورن، سُررت بلقائك».

نظر الرجل العجوز إليها من دون اكتراث للحظة؛ قبل أن يتذكر ما تعنيه الإشارة، ومن ثمَّ شدّها بقوة؛ وكأنه يختبر إمكانية انفصال الذراع. قال: «من هنا». ومن دون أن ينتظر توم ليجمع أشياءه، بدأ يمشي مجهداً صعوداً إلى محطة الفانوس. كان الوقت بداية الأصيل، وبعد ساعات طويلة على المركب، احتاج توم إلى لحظة ليشعر بالأرض مجدداً حين أمسك حقيبته القماشية وترنّح في مشيته بعد العامل، في

حين استعدَّ رالف وبلوي لتفريغ المؤن.

قال وايتنيش حين اقتربا من بناء منخفض بسقف حديدي مضلّع: «كوخ العامل». ظهرت ثلاثة خزانات مياه أمطار كبيرة خلفه، إلى جانب مجموعة من مستودعات التخزين الخارجية للكوخ والفانوس. قال حين فتح الباب الأمامي: «يمكن أن تترك حقيبتك في الردهة. هناك الكثير مما ينبغي مراجعته». ثم استدار على عقبيه وتوجّه مباشرة إلى البرج. ورغم طوله الفارع، كان بمقدوره التحرّك مثل جرو.

لاحقاً، عندما تكلم الرجل العجوز عن المنارة، تغيّر صوته؛ وكأنه يتحدّث عن كلب مخلص أو وردة مفضّلة. قال: «إنها لا تزال جميلة، بعد كل تلك السنين». كان برج المنارة الحجري الأبيض يبرز تحت السماء الرمادية الداكنة مثل قطعة جص، ويبلغ ارتفاعه مئة وثلاثين قدماً، قرب الجرف عند رأس الجزيرة، وذُهل توم ليس بمدى ارتفاعها مقارنة بالمنارات التي عمل فيها فقط، وإنما بأناقتها ونحولها أيضاً.

عندما مشى عبر بوابتها الخضراء، بدت كما توقعها تقريباً: يمكن قطع المساحة في بضع خطوات واسعة، وتردّدت أصوات وقع خطواتهما مثل رصاصات شاردة ترتد عن أرضيات مطلية بلون أخضر لامع وجدران مبيّضة. كانت قطع الأثاث القليلة - خزانتا مؤونة، وطاولة صغيرة - مرتّبة بشكل دائري لتلائم دائرية البناء، حيث يمكن جمعها أمام الجدران مثل حدبات، وتبرز في الوسط تماماً الأسطوانة الحديدية السميكة التي تمتد كل الطريق إلى غرفة الفانوس، وتضم أثقال الآلية التي قد أدارت الضوء أصلاً.

بدأت مجموعة سلالم لا يزيد عرضها على قدمين مساراً حلزونياً عبر أحد جانبي الجدار، واختفت في المعدن الصلب لمنبسط السلّم في الأعلى. تبع توم الرجل العجوز إلى المستوى التالي الأضيق،

حيث يستمر السلم الحلزوني من الجدار المقابل صعوداً إلى الأرضية التالية، ومجدداً حتى يصل إلى الطبقة الخامسة، تحت غرفة الفانوس مباشرة؛ القلب الإداري للمنارة. رأى هناك في غرفة المراقبة المكتب مع السجلات، ومعدّات مورس، والمنظار. طبعاً، كان وضع سرير أو أي أثاث في برج الفانوس يمكن أن يستلقي المرء عليه ممنوعاً. لكن، هناك على الأقل كرسي خشبي مستقيم الظهر، ذراعاه باليتان وصقيلتان نتيجة أجيال من الأيادي الخشنة.

يمكن أن يبدو مقياس الضغط الجوي جيداً بملمّع، كما لاحظ توم، قبل أن يقع بصره على شيء جاثم بجانب الخرائط البحرية. كانت كرة صوف مع صِنّارات حياكة مغروزة بها، وما بدا أنه بداية وشاح.

قال وايتنيش بإيماءة: «دوشرتي العجوز».

كان توم يعرف مجموعة النشاطات التي يمارسها العمّال لقضاء أي لحظات هادئة في أثناء الخدمة: نحت عاج أو أصداف، أو صنع قطع شطرنج، في حين بدت الحياكة شائعة كفاية.

راجع وايتنيش السجلات وملحوظات الطقس، ومن ثَمَّ قاد توم إلى الفانوس نفسه، في المستوى الأعلى التالي. لم يكن يعكّر لمعان غرفة الفانوس إلا شبكة متقاطعة من القطع الحجرية الصغيرة التي تثبّت الألواح الزجاجية في أماكنها. في الخارج، أحاطت الشرفة المعدنية بالبرج، وبدت سلالم طوارئ مقوّسة على القبة، صعوداً إلى الممر الضيق تحت دوّارة الطقس تماماً التي تتأرجح في الرياح.

قال توم، ناظراً عبر العدستين الضخمتين في المنظار الأطول منه كثيراً، فوق القاعدة الدوّارة: «إنها جميلة حقاً». قصر مواشير مثل خلية نحل مصنوعة من زجاج. كانت قلب جانوس حقاً، بكل الضوء والصفاء والصمت.

مرّت ابتسامة بالكاد تُلحظ فوق شفتي العامل العجوز حين قال: «لقد عرفتها منذ أن كنت فتى. ونعم، إنها جميلة».

في الصباح التالي، وقف رالف على الرصيف. «نحن جاهزون تقريباً للإبحار، هل تريد منا إحضار كل الصحف التي لم تحصل عليها في الرحلة الآتية؟».

ردَّ توم: «لن يكون النبأ مهماً بعد شهور، وسأوفّر نقودي بدلاً من ذلك وأشتري كتاباً جيداً».

نظر رالف حوله، متوثقاً من أن كل شيء منتظم. «حسناً، هذا كل شيء، لا يمكن أنّ تغيّر رأيك الآن يا بني».

أطلق توم ضحكة كئيبة. «أظن أنك محق بهذا الشأن يا رالف».

«سنعود قبل أن تدرك ذلك، فثلاثة شهور لا شيء ما دمتَ لا تحاول حبس أنفاسك!».

قال وايتنيش: «عامل المنارة بإنصاف ولن تسبّب لك أي مشكلة، وكل ما تحتاج إليه هو الصبر وبعض العقل».

قال توم: «سأرى ما يمكنني فعله». ومن ثمَّ استدار إلى بلوي، الذي كان يستعد للإبحار. «أراك بعد ثلاثة شهور إذاً يا بلوي؟».

«بالتأكيد».

أبحر المركب مبتعداً، ماخراً عباب المياه، ومكافحاً الريح بزئير مفعم بالدخان. تباعدت المسافة أكثر فأكثر؛ إلى الأفق الرمادي مثل إبهام يضغط في معجون، حتى اندمج فيه تماماً.

ومن ثمَّ، سكون لحظة، لا صمت: تحطّمت الأمواج على الصخور، وزعقت الرياح حول أذنيه، وقرع باب مفتوح في أحد المخازن نقراً ساخطاً، لكن شيئاً داخل توم كان ساكناً لأوّل مرة منذ أعوام.

مشى إلى أعلى الجرف ووقف، وسمع رنين جرس ماعز، ودجاجتين تتشاجران. اكتست هذه الأصوات الصغيرة فجأة أهمية جديدة: فهي أصواتٌ صادرة من كائنات حية. صعد توم 184 درجة على السلالم إلى غرفة الفانوس، وفتح الباب إلى الشرفة. انقضّت الريح عليه مثل مفترس، وضربته بعنف فأرجعته إلى الخلف نحو البوابة حتى استجمع قوته ودفع نفسه إلى الخارج وأمسك الدرابزين الحديدي.

نظر إلى المشهد الواسع لأوّل مرة. وعلى ارتفاع مئات الأمتار فوق سطح البحر، فتنته الهوة إلى المحيط الذي تتلاطم مياهه على الجرف تحته مباشرة. تراشق الماء مثل طلاء أبيض، بكثافة الحليب، وانكشطت الرغوة أحياناً وقتاً طويلاً كفاية لتكشف عن طبقة زرقاء عميقة. على الطرف الآخر من الجزيرة، كوّن صف من صخور ضخمة حاجزاً ضد الأمواج المتكسّرة، وترك الماء في داخلها هادئاً مثل حمّام، وانتابه انطباع أنه يتدلّى من السماء، ولا يرتفع من الأرض. ببطء شديد، التف دورة كاملة، ناظراً إلى فراغ المكان كله، وبدا أن رئتيه لا يمكن أن تكونا كبيرتين كفاية لاستنشاق هذه الكمية من الهواء، ولا يمكن لعينيه أن تريا هذه المساحة الكبيرة، أو يستطيع سماع المدى الكامل للمحيط المتقلّب الهادر. وللحظة قصيرة فقط لم تعد هناك حدود.

طرفت عيناه، وهزَّ رأسه بسرعة، وكاد يُصاب بالدوار، لكنه انتبه إلى دقّات قلبه ليسيطر على نفسه، وشعر أن قدميه على الأرضية وكعبيه في نعليه. سحب نفسه إلى الأعلى ليقف مشدود القامة، وانتقى نقطة على باب برج الفانوس - مفصّلة قد تحرّرت قليلاً من مكانها - وعقد العزم أن يبدأ بذلك؛ شيء صلب، ينبغي أن يتحول إلى شيء صلب؛ لأنه إذا لم يفعل، فمن يعرف إلى أين قد ينتهي الأمر بعقله أو روحه، مثل بالون من دون ثقالة. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي جعله يتحمّل

أربع سنوات من الدماء والجنون: أن تعرف تماماً موضع بندقيتك حين تغفو عشر دقائق في مخبئك، وتتوثّق دائماً من قناع الغاز، وترى أن رجالك قد فهموا أوامرهم حرفياً. لا تفكّر أبداً مسبقاً لسنوات أو شهور: فكّر في هذه الساعة، وربما الآتية، وأي شيء آخر مجرد توقّع.

رفع المنظار ونظر إلى أرجاء الجزيرة بحثاً عن المزيد من العلامات عن وجود حياة: احتاج إلى رؤية الماعز، والأغنام، وأن يعدّها. ابقَ مع الصُّلب، مع المعدّات النحاسية التي ينبغي تلميعها، والزجاج الذي يجب تنظيفه. أولاً الزجاج الخارجي للفانوس، من ثَمَّ المواشير نفسها. يجب عليه إضافة الزيت، وإبقاء المسنّنات تتحرّك بسلاسة، والتوثّق من الزئبق لجعل الضوء متوهجاً. تشبّثَ بكل فكرة مثل درجة سلم يعيد نفسه عليه إلى المعروف؛ عائداً إلى هذه الحياة.

تلك الليلة، عندما أشعل المصباح، تحرّك ببطء وحذر كما قد فعل أحد رجال الدين قبل آلاف السنين في المنارة الأولى على فاروس. صعد السلالم المعدنية الضيقة التي تقود إلى السطح حول الفانوس نفسه، واجتاز الفتحة نحو أدوات المصباح، وأسال الزيت بإيقاد شعلة تحت وعائه ما جعله يتبخّر ويصل إلى الرَّتينة بالحالة الغازية، ومن ثَمَّ أشعل عود ثقاب في الرَّتينة، فتحوّل البخار إلى لهب أبيض. نزل إلى المستوى التالي وشغّل المحرّك، وبدأ الضوء يدور بوميض دقيق كل خمس ثوانٍ. أمسك القلم، وكتب في السجل العريض المغلّف بالجلد: «أُشعل الضوء عند 5:09 بعد الظهر. الرياح شمالية/ شمالية شرقية 15 عقدة. الجو ملبّد بالغيوم، وعاصف. البحر 6». ومن ثَمَّ أضاف أول حرفين من اسمه: «ت. ش.». تابعت كتابته اليدوية القصة التي تسرد مغادرة وايتنيش قبل ساعات فقط، ودوشرتي قبل ذلك. كان جزءاً من

السلسلة المتصلة لعمّال يصبحون شهوداً على المنارة.

عندما شعر بالرضا لأن كل شيء منتظم عاد إلى الكوخ، وقد اشتهى جسده النوم، لكنه كان يعرف جيداً أنه إذا لم يأكل جيداً فلن يستطيع العمل. في مخزن المؤن خارج المطبخ، رأى علب لحم البقر والبازيلاء والإجاص جاثمة على رفوف بجانب السردين والسكر ومرطبان كبير من المربّى الذي كانت السيدة دوشرتي الراحلة تحبه بنحو أسطوري. من أجل عشاء ليلته الأولى، قطع كتلة من اللحم الذي تركه وايتنيش خلفه، وجلب قطعة جبن وتفاحة متغضّنة.

على طاولة المطبخ، تمايلت شعلة فانوس الزيت بين الحين والآخر، وتابعت الريح ثأرها العتيق ضد النوافذ، مترافقة بهدير الأمواج. شعر توم بوخزة خفيفة حين تذكّر أنه الوحيد الذي يسمع أياً من ذلك؛ إنه الإنسان الحي الوحيد ضمن نطاق مئة ميل في أي اتجاه. فكّر في النوارس التي أوت إلى أعشاشها العشبية على الجروف، والأسماك التي تسبح بهدوء في أمان الحيد البحري؛ محميّة بالمياه الجليدية. كان كل كائن يحتاج إلى مكان يلجأ إليه.

حمل توم المصباح إلى غرفة النوم، وأراح ظلّه نفسه على الجدار؛ عملاقاً مستوياً، حين خلع نعليه وتجرّد من كلّ ملابسه حتى ثيابه الداخلية. كان شعره مملوءاً ملحاً وجلده خشناً من الريح. شدَّ الملاءات واستلقى على السرير، واستغرق في الأحلام في حين استمر جسده يتمايل مع الأمواج والرياح. كل الليل، عالياً فوقه وقف المصباح حارساً، يضرب الظلام مثل سيف.

الفصل الرابع

بعد أن يُطفَأ المصباح عند شروق شمس كل صباح، ينطلق توم لاستكشاف جزء آخر من إقليمه الجديد قبل أن يمضي قدماً في عمله النهاري. الجزء الشمالي من الجزيرة جرف غرانيتي شديد الانحدار يغرس فكّه بإحكام في المحيط أسفله، وتنحدر الأرض نحو الجنوب وتختفي بهدوء تحت مياه بحيرة ضحلة، التي توجد إلى جانب شاطئها الصغير ناعورة تحمل الماء العذب من النبع إلى الكوخ: من البر الرئيس، وعلى طول قاع المحيط إلى الجزيرة وما وراءها، توجد صدوع تنبع منها مياه عذبة بنحو غامض. عندما وصف الفرنسيون الظاهرة في القرن الثامن عشر، عُدّت أسطورة، لكن يمكن بالتأكيد العثور على مياه عذبة في مناطق متفرّقة من المحيط، مثل لعبة سحرية تلعبها الطبيعة.

بدأ يكوّن روتينه، وتُلزمه الأنظمة بأن يرفع الراية كل أحد وهذا ما يفعله أول شيء، وهو يرفعها أيضاً حين يعبر أي «رجل حرب»، كما تنص القوانين على الجزيرة. يعرف عاملين يتذمرون همساً من ذلك الواجب، لكن توم يشعر بالراحة من الحفاظ على النظام. يعدُّ ترفاً أن تفعل شيئاً لا يحقق شيئاً عملياً: ترف الحضارة.

بدأ يصلح أشياء تحتاج إلى الترميم منذ تدهور حال تريمبل دوشرتي، والشيء الأهم فيها هو المنارة نفسها التي تحتاج إلى تثبيت القطع الحجرية بين زجاج الفانوس. تالياً جلب حجر صقل وفرك درج المكتب حيث انتفخ من الطقس، وعمل عليه بفرشاة، ورقع الطلاء

الأخضر على منبسط السلالم حيث كُشط أو أصبح بالياً: سينقضي وقت طويل قبل أن يأتي فريق لطلاء المحطة كلها.

استجابت الأدوات لعنايته، إذ يومض الزجاج، ويلمع النحاس، ويدور الضوء على بركة زئبقه بسلاسة مثل كركر ينزلق في تيارات هوائية. يستطيع بين الحين والآخر النزول إلى الصخور واصطياد أسماك، أو المشي على طول الشاطئ الرملي للبحيرة. يعقد صداقات مع زوجٍ من السقنقور السوداء التي قطنت سقيفة الخشب، ويمنحهما أحياناً بعض فتات الطعام، في حين أنه مقتصد بطعامه: فهو لن يرى مركب المؤن طوال شهور.

إنه عمل شاق، ويشغله طوال الوقت، ولا توجد لعاملي المنارات نقابة، وهم ليسوا مثل الرجال على متن مراكب المؤن؛ لا أحد يُضرب من أجل أجر أو شروط عمل أفضل. قد تنقضي أيام تتركه مرهقاً أو متألماً؛ قلقاً مما يبدو أنها بداية عاصفة قادمة نحوه بسرعة، أو مُحبطاً من الطريقة التي يُفسد بها البَرَد الخضار، لكن إذا لم يفكّر في ذلك دائماً، فهو يعرف من يكون وما يسعى إليه، وأن عليه إبقاء الضوء مشتعلاً، ولا شيء آخر.

كشّر وجه رالف؛ بلحيته الحمراء، بابتسامة كبيرة. «حسناً يا توم شربورن، كيف تعيش؟». لم ينتظر رالف رداً قبل أن يرمي الحبل الرطب السميك حول المربط. بدا توم لائقاً وسليماً بعد ثلاثة شهور مثل أي عامل قد رآه القبطان.

كان توم ينتظر مستلزمات الفانوس، ولم يفكّر كثيراً في الطعام الطازج الذي قد يأتي معها، وقد نسي أيضاً أن المركب سيجلب البريد، وتفاجأ حين سلّمه رالف آخر النهار بعض المغلّفات. قال: «كدت

أنسى». كانت هناك رسالة من مسؤول المقاطعة في إدارة المنارات، يعيد فيها التركيز على وظيفته وشروطها، ورسالة من وزارة إعادة اللاجئين توضّح بعض الإعانات التي تُقدّم أخيراً للجنود العائدين، وفيها معاش عجز أو قرض عمل، ولم يكن أيٌّ من ذلك ينطبق عليه، لذا فتح الرسالة التالية؛ كشْف من مصرف الكومنولث يؤكد أنه قد استحقَّ فائدة أربعة في المئة على الجنيهات الخمسة عشر في حسابه. ترك حتى النهاية المغلّف المعنون باليد، ولم يخطر بذهنه أي شخص قد يكتب إليه، وخشي أن يكون فاعل خير يرسل إليه نبأ عن شقيقه أو والده.

فتحه. «عزيزي توم، فكّرت فقط في أن أكتب لك وأتوثّق من أنك لم تطر في مهبّ الريح، أو تنجرف إلى البحر، أو شيئاً مماثلاً. وأن الافتقار إلى الطرق لا يسبب لك مشكلات جمّة...». تخطّى الكلام ليرى التوقيع: «مع فائق التحية، إيزابيل غرايسمارك». كان جوهر الكلام أنها تأمل ألا يشعر بوحدة موحشة هناك، وأنه ينبغي أن يتوثق من زيارتهم وتحيتهم قبل أن يغادر إلى حيث سيذهب بعد انتهاء عمله على جانوس، وقد زيّنت الرسالة برسم صغير لعامل يستند إلى برج منارته، مصفّراً نغمة، في حين ينبثق خلفه حوت ضخم من المياه، فاغراً فكّيه، وأضافت على سبيل الدعابة: «توثّق ألا يأكلك حوت قبل ذلك».

جعل ذلك توم يبتسم؛ بسبب سخافة الصورة، والأكثر من هذا براءتها. شعر أن جسده أخفّ بطريقة ما؛ لأنه حمل الرسالة بيده.

سألَ رالف الذي كان يجمع أشياءه لرحلة العودة: «هل يمكن أن تنتظر قليلاً؟».

اندفع توم إلى مكتبه باحثاً عن قلم وورقة، وجلس ليكتب، قبل أن يدرك ألا فكرة لديه عمّا يقوله. لم يكن يرغب بقول أي شيء: أرسل لها ابتسامة فقط.

عزيزتي إيزابيل

لم أطر في مهب الريح أو أنجرف (أكثر من هذا) في البحر، لحسن الحظ. لقد رأيت حيتاناً كثيرة، لكن لم يحاول أي منها أكلي حتى الآن: مذاقي على الأرجح ليس لذيذاً جداً.

أتحمّل المشقّة جيداً، مع الأخذ بالحسبان كل شيء، وأتدبّر أمري بنحو ملائم في غياب الطرق. أنا واثق أنك تواظبين على تغذية الطيور المحلية، وأتطلّع قدماً إلى رؤيتك قبل أن أغادر بارتاجو إلى – من يعرف أين؟ – بعد ثلاثة شهور.

كيف ينبغي أن يوقّعها؟

صرخ رالف: «هل أنت جاهز تقريباً؟».

ردَّ: «تقريباً». وكتب: «توم». أغلق المغلّف وعنونه، وسلّمه إلى القبطان. «هل يمكنك تسليم هذه من أجلي؟».

نظر رالف إلى العنوان وغمزه. «سأسلّمها شخصياً؛ لأنني سأتجاوز ذلك المكان بأي حال».

الفصل الخامس

عند نهاية شهوره الستة، استمتع توم بمسرّات ضيافة السيدة مويت مرة أخرى، لسبب غير متوقع: لقد أصبحت وظيفة جانوس دائمة. إذ بدلاً من أن يستعيد رشده، كان تريمبل دوشرتي قد فقد القليل الباقي له، ورمى بنفسه من فوق حافة المنحدر الغرانيتي الشاهق في ألباني المعروف «بالثغرة»، مقتنعاً كما يبدو أنه يقفز إلى مركب تقوده زوجته الحبيبة. لذا اسُتدعي توم إلى البر لمناقشة الوظيفة، وتجهيز الوثائق الورقية، وقضاء إجازة قبل أن يتولّى العمل، وبحلول ذلك الوقت كان قد أثبت أن بمقدوره القيام بها؛ لذا لم يُكلّف بريمانتل نفسه عناء البحث في مكان آخر على شخص آخر لشغل الوظيفة.

كان القبطان هاسلك قد قال وتوم يكاد يغادر مكتبه: «لا تقلّل أبداً من أهمية الزوجة الصالحة. كان بمقدور مويرا دوشرتي العجوز تشغيل الضوء بنفسها، فقد قضت مع تريمبل وقتاً طويلاً. يتطلّب الأمر نوعاً خاصاً من النساء للعيش على جزيرة المنارة، وعندما تجد الفتاة المناسبة، ينبغي أن تتزوجها بسرعة. لكن، ينبغي أن تنتظر قليلاً الآن...».

في طريق عودته إلى نُزل السيدة مويت، فكّر توم بشأن التذكارات الصغيرة في المنارة: حياكة دوشرتي، ومرطبان زوجته المليء بالمربّى الذي يجثم سليماً في خزانة المؤن. تستمر الحياة وتبقى الآثار، وتساءل عن يأس الإنسان الذي يدمّره الحزن، وأدرك أن الأمر لا يتطلّب حرباً

لترمي نفسك من فوق الحافة.

* * *

بعد يومين من عودته إلى بارتاجو، جلس توم متيبّساً مثل عظم حوت في حجرة جلوس آل غرايسمارك، حيث راقب كلا الوالدين ابنتهما كما يفعل نسرَين مع صوص. عانى توم صعوبة في طرح موضوعات مناسبة للحديث، لذا تكلم عن الطقس، والرياح التي تهبُّ كثيراً هناك، وعن أقرباء غرايسمارك في مناطق أخرى من أستراليا الغربية، وبدا سهلاً نسبياً توجيه الحديث بعيداً عن نفسه.

سألت إيزابيل عندما مشت معه إلى البوابة بعد ذلك: «ما المدة التي ستقضيها قبل عودتك؟».

«أسبوعان».

قالت وكأنها تُنهي حديثاً طويلاً: «إذاً، من الأفضل أن ننتهز هذه الفرصة».

سأل توم مسروراً ومتفاجئاً في الوقت نفسه: «حقاً؟». وراوده شعور أنه يُدفع ببطء إلى الخلف.

ابتسمت إيزابيل: «نعم، حقاً». وبالطريقة التي لمعت بها عيناها، تخيّل أن بمقدوره رؤية ما بداخلها؛ رؤية صفاء وانفتاح يجذبه إليه. «تعال وزرنا غداً، سأحضّر لنزهة، ويمكننا الذهاب إلى جانب الخليج».

«ينبغي أن أسأل أباك أولاً، أليس كذلك؟ أو أمك؟». أمال رأسه إلى الجانب. «أعني، إذا لم يكن سؤالاً فظاً، فكم عمرك؟».

«كبيرة بما فيه الكفاية لأخرج في نزهة».

«وبالأرقام العادية هذا يجعلك في...».

قالت: «التاسعة عشرة، بالكاد. لذا يمكنك أن تترك والديّ لي». ولوّحت له حين اتجهت عائدة إلى الداخل.

انطلق توم عائداً إلى نُزل السيدة مويت وهو يشعر بأن خطواته رشيقة. لماذا؟ لا يعرف. لم يعرف أي شيء عن هذه الفتاة، باستثناء أنها تبتسم كثيراً، وأن شيئاً داخله يجعله مرتاحاً.

في اليوم التالي، اقترب توم من منزل آل غرايسمارك وهو يشعر بالارتباك لا العصبية، غير واثق تماماً بالسبب الذي دفعه للعودة إلى هناك بهذه السرعة.

ابتسمت السيدة غرايسمارك حين فتحت الباب، وعلّقت؛ وكأنها تتوثّق من قائمة خفية: «لطيف ودقيق في مواعيده».

قال توم: «عادات الجيش...».

ظهرت إيزابيل وهي تحمل سلّة نزهة، سلّمته إياها. قالت: «أنت مسؤول عن إيصالها إلى هناك سليمة». واستدارت لتقبّل أمها على وجنتها. «إلى اللقاء يا أمي، أراك لاحقاً».

قالت الأم لابنتها: «ابقي بعيدة عن الشمس، فلا أريد أن يُفسد النمش بشرتك». ورمقت توم بنظرة حملت معنى أقسى من الكلمات: «استمتعا بنزهتكما، ولا تتأخرا كثيراً بالعودة».

«شكراً يا سيدة غرايسمارك، لن نتأخر».

تقدّمت إيزابيل الطريق حين تجاوزا الشوارع القليلة التي تحدّد نطاق البلدة واقتربا من المحيط.

سأل توم: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

«إنها مفاجأة».

تجولا على طول الطريق الترابي الذي يؤدي إلى الرأس البحري، وتحدّه أشجار كثيفة، خفيضة من الجانبين. لم تكن أشجاراً عملاقة مثل تلك الموجودة في الغابة على بعد ميل أو نحو ذلك، لكنها هزيلة

وقصيرة، ويمكن أن تتكيّف مع الملح والريح العاصفة. سألت: «ستكون مسيرة طويلة، ولن تتعب كثيراً، أليس كذلك؟».

ضحك توم. «سأتدبّر أمري من دون عصا مشي».

«حسناً، لقد فكّرت في الأمر، فلا توجد مسافات شاسعة تمشيها على جانوس، صحيح؟».

«صدّقيني، صعود سلالم المنارة وهبوطها كل يوم يُبقي المرء رشيقاً». كان لا يزال يفكّر في هذه الفتاة وقدرتها الغريبة على جعله يفقد توازنه قليلاً.

بدأت الأشجار تتناقص مع متابعتهما السير، وأضحت أصوات المحيط أعلى. تجرأت إيزابيل: «أفترض أن بارتاجو تبدو مملة كثيراً، للقادم من سيدني».

«لم أقضِ وقتاً طويلاً كفاية هنا لأعرف هذا، حقاً».

«أفترض هذا. لكن سيدني - أتخيّل أنها كبيرة وصاخبة ورائعة؛ الدخان الكبير».

«إنها مقلاة صغيرة مقارنة بلندن».

تورّدت إيزابيل. «أوه، لم أعرف أنك قد ذهبت إلى هناك. لا بد أنها مدينة حقيقية، وربما سأزورها يوماً ما».

«سأقول إنك أفضل حالاً هنا. لندن، حسناً، كان الجو كئيباً جداً حين ذهبت إلى هناك في إجازة. كان قاتماً ومظلماً وبارداً مثل جثة، وسأفضّل بارتاجو في أي يوم».

«نحن نقترب من أجمل بقعة، أو أنا أظن أنها الأكثر جمالاً». انبثق خلف الأشجار برزخ يمتد بعيداً داخل المحيط؛ شريط طويل ومكشوف من الأرض التي يبلغ عرضها بضع مئات من الياردات وتمسّها الأمواج من كل الجوانب. قالت إيزابيل: «هذا رأس بوينت

بارتاجو، ومكاني المفضّل في الأسفل هناك، إلى اليسار، حيث توجد كل الصخور الكبيرة».

تابعا السير حتى وصلا إلى وسط البرزخ. قالت: «اترك السلّة واتبعني». ومن دون سابق إنذار خلعت نعليها وانطلقت، تجري إلى الجلمود الغرانيتي الأسود الذي يمتد إلى داخل المياه.

لحق توم بها حين اقتربت من الحافة، ورأى هناك حلقة من الصخور، تتلاطم الأمواج داخلها. استلقت إيزابيل على الأرض ودفعت رأسها من فوق الحافة. قالت: «أصغِ، أصغِ فقط إلى الصوت الذي تُحدثه المياه؛ وكأنها في كهف أو كاتدرائية».

مال توم إلى الأمام ليسمع.

قالت: «ينبغي أن تستلقي أرضاً».

«ألأسمع على نحو أفضل؟».

«لا، حتى لا يغمرك الماء، هذه فتحة تنفث الماء بنحو رهيب. إذا اندفعت موجة كبيرة من دون إنذار، فستنزل إلى الأسفل بين الصخور من دون أن تدري».

استلقى توم بجانبها، ودفع رأسه في الفتحة، حيث تتردّد أصداء الأمواج وهديرها وتلاطمها. «تذكّرني بجانوس».

«كيف هي الحال هناك؟ يسمع المرء قصصاً، لكن لا أحد يذهب إلى هناك حقاً باستثناء عامل المنارة والمركب، أو طبيب، مرة قبل سنوات، حين حُجر صحياً على سفينة كاملة هناك نتيجة الحمّى التيفية».

«إنها تبدو... حسناً، إنها لا تشبه مكاناً آخر على وجه الأرض، وإنما هي عالم خاص بها».

«يقولون إنها قاسية،؛ أعني الطقس فيها».

«تشهد أوقاتاً جيدة».

نهضت إيزابيل. «هل تشعر بالوحدة؟».

«أنا مشغول جداً ولا أشعر بالوحدة. هناك دائماً شيء يحتاج إلى تصليح أو فحص أو تدوين».

أمالت رأسها إلى الجانب، تكاد تشي بارتيابها، لكنها تجاوزت ذلك. «هل تحبها؟».

«نعم».

كانت إيزابيل من ضحكت آنذاك. «أنت لا تتكلم كثيراً، أليس كذلك؟».

وقف توم. «هل أنت جائعة؟ لا بدّ أنه وقت الغداء».

أمسك يد إيزابيل وساعدها على الوقوف. كانت يداً صغيرة وناعمة، وراحتها مغطّاة بطبقة رقيقة من الرمال الخشنة، وتبدو صغيرة جداً في يده.

قدّمت إيزابيل له شطائر لحم بقر مشوي وقارورة من الشراب، ثم كعكة فاكهة وتفاحاً طازجاً.

سأل توم: «إذاً، هل تكتبين لكل عمّال المنارة الذين يذهبون إلى جانوس؟».

قالت إيزابيل: «كلهم! لم يكن هناك عدد كبير. أنت أول عامل جديد منذ سنوات».

تردّد توم قبل أن يتجرأ على طرح السؤال التالي. «ما الذي جعلك تكتبين لي؟».

ابتسمت له وشربت رشفة من الشراب قبل أن تجيب: «لأن رفقتك ممتعة في تغذية النوارس. لأنني شعرت بالملل. لأنني لم أبعث رسالة إلى عامل منارة من قبل...». أبعدت خصلة من شعرها عن عينيها ونظرت إلى الأسفل نحو المياه. «هل كنت تفضّل ألا أفعل؟».

«أوه، لا. كنت أحاول... أعني...». مسح توم يديه بمنديله. إنها تفقده توازنه قليلاً دائماً، وكان ذلك إحساساً جديداً له.

كان توم وإيزابيل جالسين عند نهاية الرصيف في بارتاجو، في اليوم الأخير تقريباً من 1920، والنسيم يعزف ألحاناً بالمويجات المتلاطمة على هياكل المراكب، ويشدُّ الحبال على الصواري. تأرجحت أضواء الميناء فوق سطح الماء، وتزيّنت السماء بالنجوم.

قالت إيزابيل، وقدماها الحافيتان تتدليان فوق الماء: «لكن، أريد أن أعرف كل شيء، ولا يمكن أن تقول فقط: لا شيء آخر أخبرك به». كانت قد استخلصت التفاصيل الدقيقة الأساسية لتعليمه في مدرسة خاصة، وإجازته في الهندسة من جامعة سيدني، لكنها تشعر بإحباط أكبر. «يمكن أن أخبرك الكثير - عن جدّتي وكيف علّمتني عزف البيانو، وما أتذكّره عن جدّي، رغم أنه مات حين كنت صغيرة. يمكن أن أخبرك عمّا يعنيه أن تكون ابنة مدير المدرسة في مكان مثل بارتاجو، وعن شقيقيّ هيو وألفي، وكيف اعتدنا أن نلهو بالزورق الصغير، ونذهب إلى صيد الأسماك في النهر». نظرت إلى المياه. «لا أزال أشتاق إلى تلك الأوقات». لفّت خصلة من شعرها حول إصبعها، وفكّرت في شيء، من ثمَّ سحبت نفساً. «إنها مثل... مجرّة كاملة تنتظر أن تكتشفها، وأريد أن أكتشف مجرّتك».

«ماذا تريدين أن تعرفي أيضاً؟».

«حسناً، عن أسرتك مثلاً».

«لدي شقيق».

«هل مسموح لي أن أعرف اسمه، أم إنك نسيت؟».

«من غير المحتمل أن أنسى ذلك بسرعة. سيسل».

«ماذا عن والديك؟».

حدّق توم إلى الضوء فوق صارية. «ماذا عنهما؟».

جلست إيزابيل منتصبة، ونظرت عميقاً في عينيه. «ماذا يجري هناك، أتساءل؟».

«أمي ميتة الآن، ولا أتصل بأبي». كان شالها قد انزلق عن كتفها، فأعاده إلى مكانه. «هل تشعرين ببعض البرد؟ أترغبين بالعودة؟».

«لماذا لا تريد أن تتكلم عن ذلك؟».

«سأخبرك إن أردت معرفة ذلك فعلاً، لكنني أفضّل ألا أفعل. أحياناً يكون ترك الماضي في الماضي مفيداً».

«أسرتك ليست من ماضيك مطلقاً، وتحملها معك إلى كل مكان».

«لسوء الحظ».

شدّت إيزابيل قامتها، وقالت: «لا يهم، سيكون أبي وأمي يتساءلان إلى أين ذهبنا». ومشيا ببطء على الرصيف.

تلك الليلة، عندما استلقى على السرير، عادت أفكار توم إلى الطفولة التي بدت إيزابيل متشوقة جداً إلى معرفتها، ولم يكن قد تكلّم مطلقاً إلى أحد عنها. لكن باستكشاف الذكريات الآن، كان الألم المبرّح مثل تمرير لسانه فوق سن مكسورة، واستطاع رؤية نفسه بعمر ثمانية أعوام، يشدُّ ردن أبيه ويصرخ: «أرجوك! أرجوك دعها تعود. أرجوك يا أبي، أنا أحبها!». ووالده يدفع يده بعيداً مثل شيء وضيع؟ «لا تذكرها مجدداً في هذا المنزل، هل تسمع يا بني؟».

عندما خرج أبوه من الغرفة، صفعه سيسل؛ شقيقه وعمره خمسة أعوام لكنه كان في تلك المرحلة أطول منه، على قفا رأسه. «أخبرتك أيها الأحمق، طلبت منك ألا تقول ذلك». وتبع أباه بالخطوات الغاضبة

نفسها، تاركاً الفتى الصغير واقفاً في وسط حجرة الجلوس. أخرج من جيبه منديلاً مزركشاً، يفوح منه عطر أمه، ومسَّ به وجنته، متفادياً دموعه وسائل أنفه. أراد تحسّس قطعة القماش، لا شمَّ العطر، أو استخدامه.

عادت أفكار توم إلى المنزل المهيب الفارغ، إلى الصمت الذي أطبق على كل غرفة بدرجة مختلفة، رائحة الفينول إلى المطبخ والذي أبقاه نظيفاً عدد كبير من المدبّرات. تذكّر تلك الرائحة المروّعة لرقائق لوكس، وانزعاجه حين رأى المنديل، وقد غسلته ونشّفته سيدة أو أخرى، بعد أن عثرت عليه في جيب سرواله القصير ووضعته بين الغسيل على نحو اعتيادي؛ مزيلةً رائحة والدته. كان قد بحث في المنزل عن زاوية ما، أو خزانة قد تعيد إليه تلك الرائحة الشذية، لكن حتى في غرفة نومها سابقاً، لم يكن هناك إلا لمعان، وكرات عث؛ وكأن طيفها قد طُرد أخيراً.

في بارتاجو، وكما يقولون في غرف الشاي، حاولت إيزابيل مجدداً.

قال توم: «لا أحاول إخفاء شيء، لكن التكلّم عن الماضي مضيعة للوقت».

«وأنا لا أحاول التطفّل. فقط... كانت لك حياة كاملة، قصة كاملة، وقد وصلت متأخرة. أحاول فقط فهم الأمور، وأن أفهمك أنت». تردّدت، ومن ثمَّ سألت بكياسة: «إذا لم أستطع التكلّم عن الماضي، فهل يمكنني التكلّم عن المستقبل؟».

«لا يمكننا التكلّم بإنصاف عن المستقبل أبداً، إذا فكّرت في الأمر. يمكننا فقط التكلّم عمّا نتخيّله، أو نتمناه، وهذا ليس الشيء نفسه».

«لا بأس، ما الذي تتمناه إذاً؟».

توقف توم. «حياة، سيفي هذا بالغرض كما أظن». سحب نفساً عميقاً واستدار إليها. «ماذا عنك؟».

صرّحت: «أوه، أتمنى كل أنواع الأشياء، طوال الوقت! أتمنى طقساً لطيفاً للنزهة المدرسية يوم الأحد. أتمنى - لا تضحك - أتمنى زوجاً صالحاً ومنزلاً مليئاً بالأطفال. صوت كرة كريكت تكسر زجاج نافذة، ورائحة يخنة في المطبخ، والفتيات ينشدن الأغاني معاً والفتيان يلهون... لا يمكن أن أتخيّل عدم إنجاب أولاد يوماً ما، هل تستطيع ذلك؟». بدا أنها قد شردت لحظة قبل أن تقول: «طبعاً، لا أريد ابنة الآن، ليس مثل سارة».

«من؟».

«صديقتي سارة بورتر، كانت تعيش في آخر الشارع، واعتدنا أن نلعب معاً. كانت أكبر مني قليلاً، وتؤدي دائماً دور الأم». تجهّمت سيماء وجهها. «هي... أصبحت حاملاً عندما بلغت السادسة عشرة. أرسلها والداها إلى بيرث، بعيداً عن الأنظار، وجعلاها تتخلّى عن ابنها لميتم. قالوا إن أحداً سيتبنّاه، لكنه أحنف القدم.

تزوجت لاحقاً، ونُسي كل ما يتعلّق بالطفل. ومن ثمَّ يوماً ما، طلبت مني الذهاب معها إلى بيرث لزيارة الميتم، سراً. يقع «ملجأ الأطفال» على بعد بضعة أبواب فقط من دار المجانين. وآه يا توم، لن ترى أبداً منظراً مثل جناح مملوء أطفالاً أيتاماً، من دون أحد يحبهم. لم تجرؤ سارة أن تنبس بكلمة لزوجها... كان قد أرسلها لتتسوق، وليست لديه أدنى فكرة، حتى الآن. كان طفلها لا يزال هناك: كل ما استطاعت فعله هو النظر إليه، والشيء الغريب أنني كنت الشخص الذي لم يتوقف عن البكاء، فالنظرة على وجوههم الصغيرة قد أحزنتني فعلاً. يمكن أن ترسل طفلاً إلى الجحيم مباشرة إذا وضعته في ميتم».

قال توم شارداً في أفكاره الخاصة: «أي طفل يحتاج إلى أمه».

قالت إيزابيل: «تعيش سارة في سيدني الآن، ولم أعد أسمع شيئاً منها».

في ذينك الأسبوعين، رأى توم وإيزابيل بعضهما كل يوم، وعندما اعترض بيل غرايسمارك على زوجته بشأن لياقة هذا «الخروج» المفاجئ، قالت: «أوه يا بيل، الحياة قصيرة، وهي فتاة واعية وتعرف ما تريده. إضافة إلى هذا، لا توجد فرصة كبيرة هذه الأيام أن تجد رجلاً كامل الأوصال، ولا يبدو حصاناً أسود...». كانت تعرف أيضاً أن بارتاجو صغيرة، ولا مكان ليفعلا فيه أي شيء، فعشرات العيون والآذان ستنقل أدنى دلالة على أي شيء غير لائق.

تفاجأ توم بتشوّقه إلى رؤية إيزابيل، فقد اخترقت بطريقة ما دفاعاته. استمتع بقصصها عن الحياة في بارتاجو، وتاريخها، وكيف اختار الفرنسيون ذلك الاسم للمكان بين محيطين؛ لأنه يعني «صالح للمشاركة» أو «التقسيم». تكلمت عن حادثة سقوطها عن شجرة وكسر ذراعها، واليوم الذي قامت فيه مع شقيقيها بطلاء بقع حمراء على معزاة السيدة مويت وقرعوا على بابها ليخبروها أنها مصابة بالحصبة. أخبرته بهدوء، رغم أنها توقفت مرات عديدة، عن موتهما في سوم، وكيف تمنّت أن تجعل والديها يبتسمان مجدداً.

توخى الحذر، فتلك بلدة صغيرة، وهي أصغر منه كثيراً، ولن يراها على الأرجح مجدداً بعد أن يعود إلى المنارة. قد ينتهز رجال آخرون الفرصة، لكن ليس توم؛ لأن فكرة الشرف كانت نوعاً من الترياق لبعض الأشياء التي قد عاناها.

لم يكن بمقدور إيزابيل نفسها أن تصف بكلمات الشعور الجديد – إثارة، ربما – الذي ينتابها في كل مرة ترى فيه هذا الرجل. كان هناك شيء غامض فيه. كأنه، خلف ابتسامته، لا يزال بعيداً. أرادت أن تصل إلى أعماقه.

إذا كانت الحرب قد علّمتها أمراً، فسيكون ألا تستهين بشيء: لم يكن تصرّفاً سليماً أن تؤجل أمراً مهماً. قد تُبعد الحياة الأشياء التي تقدّرها، ولا يمكن استعادتها بعد ذلك، وبدأت تشعر بضرورة ملحّة؛ حاجة إلى انتهاز الفرصة، قبل أن يفعل ذلك أي شخص آخر.

في الأمسية السابقة لرحلة عودته إلى جانوس، كانا يمشيان على طول الشاطئ، ورغم انقضاء يومين فقط من كانون الثاني، بدا أن سنواتٍ قد مرّت منذ أن حطَّ توم الرحال أول مرة في بارتاجو، قبل ستة شهور.

نظرت إيزابيل إلى البحر، حيث الشمس تنحدر في السماء نحو المياه الرمادية عند حافة العالم. قالت: «أتساءل إن كان بمقدورك أن تسديني معروفاً يا توم».

«نعم، ماذا؟».

قالت من دون أن تبطئ خطواتها: «كنت أتساءل إن كنت ستقبّلني».

تخيّل توم تقريباً أن الرياح قد صاغت الكلمات، ولأنها لم تتوقف عن المشي، حاول أن يفهم ما قد قالته حقاً.

خمّن شيئاً. «طبعاً سأفتقدك. لكن، ربما سأراك في المرة التالية حين أعود في إجازة؟».

رمقته بنظرة غريبة، وبدأ يقلق، حتى في الضوء الباهت بدا وجهها أحمر.

«أنا – أنا آسف يا إيزابيل، لا أتقن صياغة الكلمات... في مواقف مثل هذه».

سألت منزعجة من فكرة أن هذا شيء فعله طوال الوقت: «مواقف مثل هذه!». فتاة في كل ميناء.

«مثل – الوداع. أكون بخير وحدي، وبخير مع بعض الصحبة، لكن الانتقال من موقف إلى آخر هو الذي يربكني».

«حسناً، سأسهّل الأمر عليك إذاً، هل أفعل؟ سأذهب فحسب، الآن». استدارت إلى الخلف وسارت على الشاطئ.

«إيزابيل! إيزابيل، انتظري!». ركض خلفها وأمسك يدها. «لا أريد أن تذهبي من دون – حسناً، أن تذهبي على هذه الحال. وسوف أسديك معروفاً، سوف أفتقدك. أنتِ – حسناً، صحبتك ممتعة».

«إذاً، خذني إلى جانوس».

«ماذا؟ أتريدين الذهاب في رحلة؟».

«لا، بل لأعيش هناك».

ضحك توم. «يا إلهي، تقولين أشياء مدهشة أحياناً».

«أنا جادّة».

قال توم، رغم أن شيئاً في نظرتها أكّد ذلك: «لا يمكن أن تكوني جادّة».

«لِمَ لا؟».

«حسناً، هناك مئة سبب تقريباً يمكن أن أفكر فيه، وأوضحها أن المرأة الوحيدة التي يُسمح بوجودها على جانوس هي زوجة عامل المنارة». لم تقل شيئاً، لذا أمال رأسه قليلاً؛ وكأن ذلك قد يساعده على الفهم.

«إذاً، تزوّجني!».

طرفت عيناه. «إيز - أنا بالكاد أعرفك! وإضافة إلى هذا، أنا لم - حسناً أنا لم أقبّلك مطلقاً من قبل، لأقول هذا بصوتٍ عالٍ».

«أخيراً!». تكلّمت وكأن الحل واضح على نحو مدهش، ووقفت على أطراف أصابع قدميها لتشدَّ رأسه إلى الأسفل نحوها. قبّلته قبل أن يعرف ما يجري، من دون مهارة لكن بقوة كبيرة، ثمَّ أبعد نفسه عنها.

«هذه لعبة خطرة يا إيزابيل. ينبغي ألا تتجوّلي في الأرجاء وتقبّلي رجالاً فجأة، إلا إن كنت تعنين ذلك».

«لكنني أعني الأمر فعلاً!».

نظر توم إليها، ووجد عينيها تتحديانه، وذقنها الصغير ثابتاً. عندما يتجاوز ذلك الخط، فمن يعرف إلى أين سينتهي؟ أوه، يا للهول، ليذهب السلوك المهذّب إلى الجحيم، وليذهب الصواب إلى الجحيم. كانت هناك فتاة جميلة تلتمس أن يُقبّلها، والشمس قد غابت، والأسبوعان انقضيا، وسيذهب إلى أماكن وأشياء مجهولة لعينة هذه المرة، غداً. أمسك رأسها بيديه، وانحنى إلى الأسفل وقال: «إذاً، إليك كيف تفعلين هذا». وقبّلها ببطء، تاركاً الوقت يتلاشى، ولم يتذكّر أي قبلة أخرى شعر أنها مماثلة تماماً.

أخيراً، ابتعد عنها، وأبعد خصلة شعر عن عينيها. «من الأفضل أن أوصلك إلى المنزل وإلا فسيرسلون الشرطة بحثاً عني». وضع ذراعه حول كتفها وقادها على الرمال.

«عنيت ذلك، كما تعرف، بشأن زواجنا».

«ينبغي أن تكون هناك صخور في رأسك لترغبي بالزواج مني يا إيز. المال ليس وفيراً في عمل المنارة، وهي وظيفة قاسية لزوجة».

«أعرف ما أريده يا توم».

وقف متسمراً. «اسمعي، لا أريد أن أبدو متعالياً يا إيزابيل،

لكنك - حسناً، أنتِ أصغر مني بكثير؛ عمري ثمانية وعشرون عاماً، وأظن أنك لم تخرجي مع شبان كثيرين». كان بمقدوره أن يراهن، من محاولة القبلة، أنها لم تخرج مع أي شاب.

«ما علاقة ذلك بهذا؟».

«فقط - حسناً، لا تخلطي بين الشيء نفسه وأول مرة تواجهينه. فكّري في الأمر ملياً، وسأراهن بكل شاي الصين أنك بعد اثني عشر شهراً ستكونين قد نسيت كل شيء عني».

قالت: «لبِّ طلبي». ورفعت نفسها لتقبّله مجدداً.

الفصل السادس

في أيام الصيف الصافية، تبدو جانوس متمدّدة حتى آخر أطرافها: ستقسم أنها أعلى بروزاً من المياه في بعض الأوقات من أخرى، ليس بسبب المد والجزر فقط، ويمكن أن تختفي تماماً في عواصف مطرية، متنكّرة بزي أسطوري، أو تكوّن ضباباً بحرياً؛ هواء دافئاً مثقلاً ببلورات ملحية تمنع مرور الضوء. إذا اندلعت نيران في الأحراج، يمكن أن يصل دخانها حتى إلى ذلك المكان، حاملاً رماداً كثيفاً يصبغ غروب الشمس بالأحمر والذهبي، ويغلّف زجاج غرفة الفانوس بالسخام. لهذه الأسباب تحتاج الجزيرة إلى أقوى الأضواء وأكثرها سطوعاً.

من الشرفة، يمتد الأفق أربعين ميلاً، ولا يبدو مرجحاً لتوم وجود مثل هذه المساحة الشاسعة في الحياة نفسها التي خاض فيها حرباً على قدمٍ من الأرض قبل بضع سنوات فقط، حيث فقد رجال حيواتهم من أجلِ أن يصبح تصنيف بضع ياردات موحلة «لنا» بدلاً من «لهم»، قبل أن ينتزعها الطرف الآخر بعد يوم فحسب. ربما جعل هوس التصنيف نفسه علماء الخرائط يقسمون هذا الجسد المائي إلى محيطين، رغم استحالة مس نقطة محدّدة تبدأ عندها تياراتهما بالاختلاف. انقسام، وتصنيف، وسعي إلى التميز عن الآخر: بعض الأشياء لا تتغير.

* * *

على جانوس، لا سبب يدعو إلى الكلام، ويستطيع توم قضاء شهور من دون أن يسمع صوته. يعرف بعض عاملي المنارات الذين

يصدحـون بالغنـاء، مثـل تشـغيل محـرك للتوثّـق من أنـه لا يزال يعمل. لكن توم يجد حرية في الصمت، ويصغي إلى الريح، ويراقب التفاصيل الصغيرة للحياة على الجزيرة.

أحيانـاً؛ كأن النسـيم يجلبهـا، تطفـو ذكـرى قبلـة إيزابيل في وعيه: ملمـس جلدهـا، ورقتهـا الرائعـة. ويفكّـر فـي السـنوات حيـن لـم يكن بمقـدوره حتـى تخيّـل وجـود شـيء مماثل، وقد جعلـه الوجود بجانبها يشعر بنقاء أكبر نوعاً ما، وانتعاش، إلا أن الإحساس يعيده إلى الظلام، إلى دهاليز الجراح البشرية والأوصال الممزّقة. أراد فهم هذا؛ ذلك هو التحدّي؛ أن يقدّم شهادة على الموت من دون أن يحطّمه ذلك العبء، فلم يكن هناك سبب لبقائه حياً آنذاك، أو غير مشوّه. فجأة، يدرك توم أنـه يبكـي؛ ينـدب الرجـال الذيـن قضوا إلى يسـاره ويمينه، في حين لم يشتهه الموت، وينتحب على الرجال الذين قتلهم.

في المنارة، يدوّن بياناً عن كل يوم، فيكتب في السـجل، وينظّم تقريـراً عمّـا حـدث، ويقـدّم برهانـاً عـن أن الحياة لا تزال مسـتمرة. في الوقت المناسب، عندما تبدأ الأطياف بالتحلل في هواء جانوس النقي، يجرؤ توم على التفكير في حياته المسـتقبلية؛ شـيء بدا طوال سـنوات غير ممكن. إيزابيل هناك في أفكاره، ضاحكة رغم كل شـيء، تشـعر بفضـول نهـم بشـأن العالـم حولهـا، وتجعـل مـن كل شـيء لعبة. يتردّد صـدى نصيحـة القبطـان هاسـلك فـي ذاكرتـه حيـن يذهب إلى سـقيفة الحطب، وبعد اختياره قطعة من جذر الأوكالبتوس القصير، يحملها إلى الورشة.

صخرة جانوس

الخامس عشر من آذار 1921

عزيزتي إيزابيل،

آمل أن تكوني بخير حين تستلمين هذه الرسالة. أنا بأحسن حال، وأحب الحياة هنا. ربما يبدو هذا غريباً، لكنني أحبها فعلاً، فالهدوء يلائمني. هناك شيء سحري بشأن جانوس، وهي لا تشبه أي مكان قد ذهبت إليه من قبل.

أتمنى أن تستطيعي رؤية الشروق والغروب هنا، والنجوم التي تزخر السماء بها في الليل. الأمر يشبه مراقبة ساعة، ورؤية مجموعات النجوم وهي تنزلق في السماء. يريحني أن أعرف أنها ستظهر، مهما يكن النهار سيئاً، والأمور رديئة، وقد كان ذلك مفيداً في فرنسا. أضع الأمور في نصابها الصحيح؛ النجوم موجودة قبل الناس. إنها تستمر باللمعان، بغض النظر عمّا يجري، وأفكّر في الضوء هنا على هذه الحال، مثل شظية نجم قد سقط على الأرض: يلمع فحسب؛ مهما يحدث، وفي الصيف أو الشتاء، في أثناء العاصفة أو الطقس الجميل، يستطيع الناس الاعتماد عليه.

الأفضل أن أتوقف عن هذه الثرثرة. القصد هو أنني أرسل مع هذه الرسالة علبة صغيرة قد نحتّها من أجلك، وآمل أن تكون مفيدة. يمكن أن تضعي فيها حُلياً، أو مشابك شعر، أو أي شيء آخر.

ستكونين الآن قد غيّرت رأيك بشأن بعض الأمور، وأردت فقط القول إنه لا بأس بهذا، فأنت فتاة رائعة، وقد استمتعت بالوقت الذي قضيناه معاً.

يأتي المركب غداً، لذا سأسلّم هذه إلى رالف.

توم

صخرة جانوس

الخامس عشر من حزيران 1921

عزيزتي إيزابيل،

أكتب هذا بسرعة؛ لأن الرجال يستعدون للمغادرة. سلّمني رالف رسالتك، وجيدٌ أن أسمع منك. أنا سعيد لأنكِ أحببت العلبة. شكراً على الصورة، تبدين جميلة، لكنك لست ممتلئة الخدّين كما في الواقع. أعرف أين سأضعها، في غرفة الفانوس، حتى تستطيعي الرؤية عبر النافذة.

لا، لا يبدو سؤالك غريباً جداً حقاً؛ إذا فكّرت فيه. عرفت في الحرب رجالاً كثيرين تزوّجوا في إجازة ثلاثة أيام قضوها في إنكلترا، من ثمَّ عادوا فوراً لمواصلة العرض، وقد ظنَّ معظمهم أنهم لن يغيبوا طويلاً، وهذا ما ظنّته زوجاتهم على الأرجح. ببعض الحظ سأقدّم اقتراحاً لوقت أطول، لذا فكّري بحرص. أنا مستعد للمجازفة إن كنت مستعدة، ويمكنني طلب إجازة استثنائية إلى الشاطئ في نهاية كانون الأول، لذا سيكون لديك وقت لتفكّري فيه بالأمر. إذا غيّرت رأيك، فسأفهم، وإذا لم تفعلي، فأنا أعدك أن أعتني بك دائماً، وأبذل قصارى جهدي لأكون زوجاً صالحاً.

المخلص لك،

توم

انقضت الشهور الستة التالية ببطء، ولم يكن هناك شيء ينتظره قبل ذلك. إذ كان توم قد اعتاد على استقبال الأيام بوصفها غاية بحد ذاتها. آنذاك، كان هناك موعد زفاف، وترتيبات ينبغي إجراؤها، وتراخيص يجب الحصول عليها. في أي دقيقة فراغ، سيتجول حول الكوخ ويجد شيئاً آخر يصلحه: النافذة في المطبخ التي لا تُغلق بإحكام، والصنبور

الـذي يحتـاج إلـى قـوة رجـل لفتحه. إلام سـتحتاج إيزابيل هنا؟ عندما عاد المركب الأخير، بعث يطلب طلاءً لدهان الغرف، ومرآة للمزينة، ومناشـف وسـماطاً جديداً، وصحائف موسـيقية للبيانو البالي. لم يكن قد مسّه قطّ، لكنه يعرف أن إيزابيل تحب العزف. تردّد قبل أن يضيف إلى القائمة ملاءات جديدة، ووسادتين جديدتين ولحافاً.

عندمـا وصـل المركـب أخيـراً لنقـل تـوم من أجل اليـوم المنتظر، سـار نيفيل وايتنيش بخطوات واسـعة على الرصيف، مسـتعداً لشـغل مكانه في أثناء غيابه.

«هل كل شيء منتظم؟».

قال توم: «آمل هذا».

بعد توثّق قصير، قال وايتنيش: «تعرف كيف تعامل منارة، وسأقرُّ لك بهذا».

قال توم متأثراً حقاً بالإطراء: «شكراً».

سـأل رالف حين أوشـكوا على الإبحار: «هل أنت مسـتعد أيها الفتى؟».

قال توم: «الله وحده يعلم».

«ليس هناك ما هو أصدَق من هذا الكلام». أدار رالف عينيه إلى الأفـق. «سـنبحر الآن أيهـا المركـب الجميـل، وينبغـي أن ننقل القبطان شربورن، حامل وسام الخدمة العسكرية، إلى فتاته».

تكلم رالف إلى المركب بالطريقة نفسـها التي أشـار بها وايتنيش إلى الفانوس؛ ككائن حي قريب من قلبه. الأشياء التي يمكن لرجل أن يحبّها، كما فكّر توم. ثبّت ناظريه على البرج، وعرف أن الحياة ستتغيّر كثيراً حين يراه مجدداً. شعر بوخزة مفاجئة: هل ستحب إيزابيل جانوس مثله؟ هل ستفهم عالمه؟

الفصل السابع

«هل ترين؟ فعلى هذا الارتفاع فوق سطح البحر، يصل الضوء إلى قوس الأرض؛ خلف الأفق. ليس الشعاع نفسه، وإنما الطيف؛ وهجه». كان توم واقفاً خلف إيزابيل على شرفة المنارة، وذراعاه حولها، وذقنه يرتاح على كتفها. بعثرت شمس كانون الثاني نقاطاً ذهبية في شعرها الداكن. كانت سنة 1922، وفي اليوم الثاني لوجودهما وحدهما على جانوس، بعد عودتهما من إجازة شهر العسل التي امتدت بضعة أيام في بيرث مباشرة إلى الجزيرة.

قالت إيزابيل: «الأمر يشبه النظر إلى المستقبل. يمكن أن تمدَّ يدك سلفاً في الوقت لإنقاذ السفينة قبل أن تعرف أنها تحتاج إلى عون».

«كلما كان الضوء أعلى، والعدسات أكبر، أصبح الشعاع أكثر سطوعاً. هذا يصل إلى المكان الذي يستطيع أي ضوء بلوغه».

قالت: «لم أصعد إلى مثل هذا الارتفاع في كل حياتي قطّ! كأنني أطير». وأفلتت منه لتمشي حول البرج مرة أخرى. «وماذا تدعو الوميض مجدداً؟ تلك الكلمة...».

«الشخصية، يتمتع كل ضوء ساحلي بشخصية مختلفة. هذا يومض أربع مرات في كل دورة تمتد اثنتين وعشرين ثانية، لذا تعرف كل سفينة من وميض الثواني الخمس أن هذه جانوس، لا ليوين أو بريكسي أو أي مكان آخر».

«كيف يعرفون؟».

«تحتفظ السفن بقائمة المنارات التي ستعبر بجانبها في مسارها. الوقت من ذهب إن كنت قبطاناً، وهم دائماً متشوّقون إلى اجتياز زاوية الرأس، ويريدون أن يكونوا أول من يفرّغ الشحنة ويحمّل أخرى. قضاء أيام أقل في البحر يوفّر أجور الفريق أيضاً، والضوء هنا لإبعادهم عن المكان، وجعلهم يتابعون رحلتهم».

رأت إيزابيل عبر الزجاج الستائر السوداء الثقيلة لغرفة الفانوس، فسألت: «ما فائدتها؟».

«الحماية! لا تهتم العدسات بالضوء الذي تكبّره، وإذا استطاعت تحويل الشعلة الصغيرة إلى قدرة مليون شمعة، فتخيّلي ما يمكن أن تفعله بضوء الشمس عندما تبقى العدسات ثابتة طوال النهار. لا بأس بهذا إن كنت على بعد عشرة أميال، لكنه ليس جيداً جداً على بعد عشر بوصات، لذا ينبغي أن تحميها، وتحمي نفسك. سأشوى إذا دخلت في أثناء النهار من دون الستائر. ادخلي وسأريك كيف تعمل».

رنَّ الباب الحديدي خلفهما حين دخلا غرفة الفانوس، وعبر الفتحة إلى الضوء نفسه.

«هذه عدسات جديدة - ساطعة كما جاءت».

راقبت إيزابيل أقواس القزح التي تصنعها المواشير. «إنها جميلة جداً».

«الجزء الأوسط الكثيف من الزجاج هو عين الثور. يوجد في هذا الفانوس أربع عدسات، لكن قد يختلف الرقم وفقاً للشخصية. ينبغي أن يكون مصدر الضوء على الارتفاع نفسه تماماً حتى تركّزه العدسات».

«وكل دوائر الزجاج حول عيون الثيران؟». كانت أقواس منفصلة من زجاج مثلث الشكل مرتّبة حول مركز العدسات مثل حلقات لوحة رمي السهام.

«تكسر أول ثماني الضوءَ: تثنيه وبدلاً من أن يصعد إلى القمر أو ينزل إلى قاع المحيط حيث لا يفيد أحداً، يذهب مباشـرة إلى البحر: تجعلـه ينعطـف حـول زاويـة نوعـاً ما. الحلقات فوق العارضة المعدنية وأسفلها - أترين؟ أربعة عشر منها - تصبح أسمك وأبعد عن المركز: إنها تعكس الضوء إلى الأسفل مجدداً، لذا كل الضوء يُركّز في شعاع واحد، ولا ينتشر في كل الاتجاهات.

قالت إيزابيل: «إذاً، لا يذهب أي ضوء من دون أن يكسب قوته».

قـال مشـيراً إلـى الأدوات الصغيـرة علـى المنضـدة المعدنيـة فـي وسـط المسـاحة، المغطّاة بغلاف شبكي: «يمكنك قول هذا، وهذا هو الضوء نفسه».

«لا يبدو شيئاً مهماً».

«ليس مهماً الآن، لكن ذلك الغطاء الشبكي غلاف متوهج، ويجعل الزيت المتبخّر يشتعل ساطعاً مثل نجم، بعد تكبيره. سأريك الليلة».

«نجمنـا نحـن! كأن العالـم قـد خُلـق مـن أجلنـا فقـط! مع أشـعة الشمس والمحيط، لدينا بعضنا لنفسينا».

قـال تـوم: «أظـن أن إدارة المنـارات تعتقـد أنـه تـم توظيفي لأداء عمل لهم».

«لا جيـران فضولييـن أو أقربـاء مملّيـن». داعبـت أذنه. «أنت وأنا فقط...».

«والحيوانـات. لا توجـد أفـاعٍ علـى جانوس لحسـن الحظ. هناك بعـض الجـزر الصغيـرة، ولكـن... وتوجـد عنكبـوت أو اثنتان سـأدلّكِ عليهمـا، لـذا أبقـي عينيـك مفتوحتين. هنـاك...». واجه توم صعوبة في إنهاء جملته عن الحيوانات المحلية، مع استمرار إيزابيل في تقبيله، ومدِّ يديها في جيبيه بطريقة تجعل التفكير مجهداً، فضلاً عن التكلّم بوضوح.

«إنها قضية...»، كافح جاهداً، «جدّية التي أحاول إيضاحها هنا يا إيز. ينبغي أن تنتبهي من...». وأطلق أنيناً حين وجدت أصابعها هدفها.

قهقهت: «مني أنا... أنا المخلوق الأشد فتكاً على هذه الجزيرة!».

«ليس هنا يا إيز، ليس في وسط الفانوس. دعينا...». سحب نفساً عميقاً. «لننزل إلى الأسفل».

ضحكت إيزابيل. «بلى، هنا!».

«هذه ملكية حكومية».

«ماذا!؟ هل ستدوّن هذا في السجل؟».

أطلق توم سعالاً مرتبكاً. «تقنياً... هذه الأمور حسّاسة جداً، وتكلّف مالاً أكثر مما سترينه أو أراه في الحياة. لا أريد أن أكون الشخص الذي يختلق عذراً بشأن أي شيء يُكسر. تعالي، لننزل إلى الأسفل».

تدلّلت: «وماذا إن رفضت؟».

قال: «حسناً، أفترض أنني سأضطر إلى -»، ورفعها على وركه، «إرغامك يا حبيبتي». وحملها نزولاً على مئات درجات السلالم الضيقة.

أعلنت إيزابيل في اليوم التالي حين نظرت خارجاً إلى المحيط الفيروزي المنبسط: «أوه، إن المكان رائع هنا!». رغم تحذيرات توم الصارمة بشأن الطقس، أعلنت الريح هدنة ترحيب بها، وبدت الشمس دافئة على نحو رائع مجدداً.

كان قد أعادها إلى البحيرة الضحلة؛ بركة واسعة من اللازوردي الرائق لا يزيد عمقها على ست أقدام، والتي كانا يسبحان فيها آنذاك.

«كما تحبين تماماً؛ لأنه ستنقضي ثلاث سنوات قبل أن نحصل على إجازة للذهاب إلى الشاطئ».

وضعت ذراعيها حوله. «أنا حيث أريد أن أكون، ومع الرجل الذي أرغب في التواجد معه، ولا شيء آخر مهم».

حرّكها توم برفق دائرياً حين تكلّم. «أحياناً تجد الأسماك طريقها إلى هنا عبر فتحات في الصخور، ويمكنك اصطيادها بشبكة، أو حتى التقاطها بيديك».

«ماذا تدعى هذه البركة؟».

«ليس لها اسم».

«كل شيء يستحق اسماً، ألا تظن هذا؟».

«حسناً، يمكنك إطلاق اسم عليها إذاً».

فكّرت إيزابيل لحظة، وقالت: «أنا أسمّي هذه بركة الفردوس». ورشّت حفنة من الماء على صخرة. «ستكون هذه بقعة السباحة الخاصة بي».

«أنتِ بأمان عادة هنا، لكن أبقي عينيك مفتوحتين؛ تحسباً فقط».

سألت إيزابيل وهي تخوض في الماء، من دون أن تصغي إليه تماماً: «ماذا تعني؟».

«لا تستطيع أسماك القرش اجتياز الصخور عادة؛ إلا إذا حدث مدٌّ عالٍ أو عاصفة أو شيء ما، لذا أنت على الأرجح بأمان هنا...».

«على الأرجح؟!».

«لكن، ينبغي أن تتوخي الحذر بشأن أشياء أخرى؛ قنافذ البحر مثلاً. احترسي عندما تمشين على الصخور المغمورة بالماء، وإلا قد تخدش الأشواك قدمك وتصابين بمرض. والرّاي اللّساع تدفن نفسها في الرمال قرب حافة المياه. إذا دست على الشوكة في ذيلها فستواجهين مشكلة، وإذا ضربت إلى الأعلى وأصابتك قرب القلب، حسناً...».

لاحظ أن إيزابيل قد التزمت الصمت.

«هل أنتِ بخير يا إيز؟».

«يبدو الوضع مختلفاً نوعاً ما حين تتكلم على هذا النحو؛ حين نكون بعيدين إلى هذا الحد عن العون».

أمسك توم ذراعيها، وشدّها إلى الشاطئ، وقال بابتسامة: «سأعتني بكِ يا حبيبتي، لا تقلقي». قبّل كتفيها، ووضع قفا رأسها على الرمال ليقبّل فمها.

في خزانة إيزابيل، بجانب أكوام الثياب الصوفية الشتوية السميكة، عُلّقت بضعة فساتين بسيطة؛ وهي سهلة الغسل، وصعبة البلى في أثناء قيامها بعملها الجديد في تغذية الدجاج أو حلب الماعز أو قطف الخضار أو تنظيف المطبخ. عندما تتنزّه في أرجاء الجزيرة مع توم ترتدي سرواله القديم، وترفع طرفه أكثر من قدم، وتثبّته بحزام جلدي متشقّق، فوق أحد قمصانه من دون ياقة. تحب أن تشعر بالأرض تحت قدميها، وتمشي من دون حذاء كلما استطاعت، لكنها على الجرف تنتعل حذاءً خفيفاً لحماية كعبيها من الغرانيت، وتستكشف حدود عالمها الجديد.

* * *

في صباح يومٍ بعد وصولها بوقت قصير، منتشية قليلاً بالحرية، قرّرت أن تجرّب. قالت لتوم حين أحضرت له شطيرة إلى غرفة المراقبة ظهراً، وهي لا ترتدي شيئاً إطلاقاً: «ما رأيك بالمظهر الجديد؟ لا أظن أنني أحتاج إلى ثياب في يوم رائع مثل هذا».

رفع حاجباً ورسم ابتسامة. «هذا لطيف جداً، لكنك ستمرضين قريباً يا إيز». عندما أمسك الشطيرة داعب ذقنها. «هناك بعض الأشياء التي ينبغي أن تفعليها لتعيشي في منارة بعيداً عن الشاطئ يا حبي؛ أن تبقي عادية، حيث تأكلين في أوقات ملائمة، وتقلبين صفحات التقويم...»، ضحك، «وتُبقين ثوبك عليك. ثقي بي يا حلوتي».

متورّدة، عادت إلى الكوخ وارتدت ثياباً من عدّة طبقات؛ ارتدت قميصاً داخلياً، وتنّورة، وقميصاً، وسترة صوفية، من ثمَّ انتعلت حذاء ويلنغتون وذهبت لتنبش البطاطا بنشاط غير ضروري في أشعة الشمس الحادّة.

سألت إيزابيل توم: «هل لديك خريطة للجزيرة؟».

ابتسم. «أتخشين أن تتوهي؟ لقد قضيت هنا عدّة أسابيع الآن. ما دمت تذهبين في الاتجاه المعاكس للماء، فستصلين إلى المنزل عاجلاً أو آجلاً، والضوء قد يكون علامة أيضاً».

«أريد خريطة فحسب، ولا بدّ أن هناك واحدة؟».

«طبعاً توجد. وهناك خرائط للمنطقة كلها إن أردتها، لكنني لست واثقاً بما قد تفيدك. فلا مكان لتذهبي إليه».

قالت: «لبِّ طلبي فحسب يا زوجي». وقبّلت وجنته.

لاحقاً في ذلك الصباح، ظهر توم في المطبخ مع لفافة كبيرة، وقدّمها بكياسة متكلّفة إلى إيزابيل. «طلباتك أوامر يا سيدة شربورن».

ردّت بالنبرة ذاتها: «شكراً لك، هذا كل شيء حتى الآن. يمكنك الذهاب يا سيدي».

لعبت ابتسامة على شفتي توم حين فرك ذقنه. «ما الذي تنوين فعله يا آنستي؟».

«ليس من شأنك أبداً!».

في الأسابيع القليلة التالية، خرجت إيزابيل في رحلات استطلاع كل صباح، وبعد الظهر أغلقت باب غرفة النوم، رغم أن توم كان مشغولاً تماماً بعمله.

في إحدى الأمسيات، بعد أن جفّفت أطباق العشاء، جلبت اللفافة

وسلّمتها إلى توم. «هذه لك».

قال توم الذي كان يقرأ مجلداً بالياً عن ربط عُقد الحبال: «شكراً يا حبي». رفع بصره قليلاً. «سأعيدها غداً».

«لكن، هذه لك».

نظر توم إليها. «إنها الخريطة، أليس كذلك؟».

كشّرت بنحو ماكر. «لن تعرف حتى تنظر، صحيح؟».

بسَط الورقة ليجد أنها تغيّرت، وقد ظهرت حواشٍ صغيرة في كل مكان منها، إضافة إلى رسوم وسهام ملوّنة. كانت أول فكرة خطرت له هي أن الخريطة تعود ملكيتها إلى الكومنولث، وأنه سيتعرّض لتوبيخٍ قاسٍ في جولة التفتيش الآتية، فقد انبثقت أسماء في كل مكان.

ابتسمت إيزابيل: «حسناً، لم يكن صائباً ألا تُدعى الأماكن بأسماء، لذا منحتها أسماء، أترى؟».

حملت الخلجان الصغيرة والجروف والصخور والحقول العشبية حروفاً صغيرة، سُمّيت بها، مثل بركة الفردوس، والقمة العاصفة، والصخرة الغادرة، وشاطئ حطام السفن، والخليج الهادئ، وإطلالة توم، وجرف إيزي... والكثير غيرها.

قال توم مبتسماً: «أفترض أنني لم أفكّر فيها قط على أنها أماكن منفصلة. كلها جانوس بالنسبة إلي».

«هذا عالم الاختلافات، وكل مكان يستحق اسماً؛ مثل غرف في منزل».

لم يفكّر توم إطلاقاً في المنزل على أنه يتكوّن من غرف أيضاً، وإنما هو مجرد «منزل». حزن شيءٌ فيه من تفكيك الجزيرة، وتقسيمها إلى صالح وطالح، وآمن وخطر، وفضّل التفكير فيها على أنها كلٌّ واحد. الأهم هو شعوره بالقلق من أن تحمل مناطق اسمه، فجانوس لا

تخصّه: كان هو من ينتمي إليها؛ كأنه قد سمع فكرة السكان المحليين عن الأرض؛ لأن عمله هو العناية بها فقط.

نظر إلى زوجته التي كانت تبتسم بفخر من عملها اليدوي. إذا أرادت تسمية الأشياء، فربما لا ضير في ذلك، وربما ستفهم طريقته في النظر إليها أخيراً.

عندما يتلقّى توم دعوات للمّ شمل كتيبته، يردُّ عليها كتابياً دائماً، ويرسل على الدوام أطيب التمنّيات، وبعض المال من أجل الوليمة، لكنه لا يذهب أبداً. حسناً، نظراً إلى كونه يعمل في منارة فهو لن يستطيع الذهاب حتى إذا أراد، ويعرف أن هناك بعض الأشخاص الذين سيشعرون بالراحة لرؤية وجه مألوف، وإعادة سرد قصة، لكنه لا يرغب بالانضمام إليهم. هناك أصدقاء فقدهم، رجال قد وثق بهم، وقاتل وارتعش معهم؛ رجال يفهمهم من دون أن ينبسوا بكلمة، ويعرفهم وكأنهم امتداد لجسده. يفكّر في اللغة التي تربطهم معاً: كلمات صيغت لتغطّي ظروفاً لم يواجهها أحد من قبل؛ «قنبلة يدوية»، «قذيفة صغيرة»، «صاروخ»: كل أنواع القذائف التي قد تجد طريقها إلى خندقك. كان القمل «تسلية»، والطعام «فتاتاً»، و«الآفة» جرحاً يجعلهم يعيدونك إلى مستشفى في إنكلترا. يتساءل عن عدد الرجال الذين لا يزال بمقدورهم تحدّث هذه اللغة السرّية.

أحياناً عندما يستيقظ بجانب إيزابيل وهو لا يزال مشدوهاً، يرتاح لأنها ليست ميتة، ويراقب عن كثب تنفّسها، فقط ليتوثق منها، ومن ثمَّ يضع رأسه على ظهرها ويتحسّس نعومة جلدها، وارتفاع جسدها وهبوطه في أثناء نومها. إنها أعجوبة رائعة لم يرَ مثيلاً لها من قبل.

الفصل الثامن

«ربما كان كل ذلك الوقت في حياتي الذي قضيته من دونك اختباراً؛ للتوثّق من أنني أستحقّك يا إيز».

كانا ممددين على بطانية على العشب، بعد ثلاثة شهور من وصول إيزابيل إلى جانوس، فيما ليل نيسان لا يزال دافئاً تقريباً، ومزخرفاً بالنجوم. استلقت إيزابيل مغمضة عينيها، ترتاح في ثنية ذراع توم الذي يداعب عنقها.

قال: «أنت نصفي الآخر حتى النهاية».

«لم أعرف قط أنك شاعر!».

«أوه، لم أبدع هذا، وإنما قرأته في مكان ما. قصيدة لاتينية ربما، أو أسطورة إغريقية، أو شيء مماثل، بأي حال».

سخرت: «أنت وتعليم المدرسة الخاصة الخيالي!».

كان يوم ذكرى ميلاد إيزابيل، وقد حضّر توم فطورها وغداءها، وراقبها وهي تفك عقدة شريطة الفونوغراف الذي تآمر مع رالف وبلوي ليشحناه تعويضاً لها عن حقيقة أن البيانو الذي قدّمه لها بفخر حين وصلت لم يكن صالحاً للعزف بسبب سنوات من الإهمال. كانت قد أصغت طوال اليوم إلى شوبان وبرامس، وتصدح آنذاك الأنغام من المنارة، حيث وضعا الجهاز لتتردّد الأصوات في حجرة الصوت الطبيعية.

قال توم مراقباً سبابة إيزابيل وهي تلف خصلة من شعرها في

حلقة، ثمَّ تحرّرها وتبدأ بأخرى: «أحب طريقة قيامك بهذا».

قالت وهي تشعر بالخجل فجأة: «أوه، تقول أمي إنها عادة سيئة، وأنا أفعلها دائماً كما يبدو، من دون حتى أن ألاحظ». أمسك توم خصلة من شعرها، ولفّها حول إصبعه، ثمَّ تركها تتحرّر مثل راية خفّاقة.

قالت إيزابيل: «أخبرني أسطورة أخرى».

فكّر توم لحظة. «أتعرفين أن جانوس هي الكلمة التي اشتُق منها شهر كانون الثاني؟ سُمّيت تيمناً بإله هذه الجزيرة نفسه. له وجهان متعاكسان، وهو بشع جداً».

«إله ماذا؟».

«المداخل، وينظر دائماً في كلا الاتجاهين، مشتتاً بين طريقتين في رؤية الأشياء. ينظر كانون الثاني قُدماً إلى السنة الجديدة، وخلفاً إلى السنة القديمة، فيرى الماضي والمستقبل. والجزيرة تنظر في اتجاه محيطين مختلفين؛ جنوباً إلى القطب الجنوبي، وشمالاً إلى خط الاستواء».

قالت إيزابيل: «نعم، لقد فهمت هذا». قرصت أنفه وضحكت. «أضايقك فحسب، فأنا أحب أن تخبرني أشياء. علّمني المزيد عن النجوم. أين القنطورس مجدداً؟».

قبّل توم طرف إصبعها، ومدَّ ذراعه حتى أشارت إلى كوكبة النجوم. «هناك».

«هل هي محبوبتك؟».

«أنتِ محبوبتي، وأفضل من كل النجوم مجتمعة». نزل إلى الأسفل ليقبّل بطنها. «ينبغي أن أقول «أنتما الاثنان حبيباي»، أليس كذلك؟ أو ماذا إن كان توأماً؟ أو ثلاثة توائم؟».

ارتفع رأس توم ونزل برفق مع أنفاس إيزابيل حين وضعه هناك.

سألت: «هل تسمع شيئاً؟ هل بدأ يتكلم معك؟».

«نعم، هو يقول إنني يجب أن أحمل أمه إلى السرير قبل أن يصبح الليل بارداً جداً». وضم زوجته بذراعيه، وحملها بسهولة إلى الكوخ، في حين صدحت الموسيقى من الفونوغراف.

شعرت إيزابيل بفخر كبير حين كتبت إلى أمها تزف لها نبأ الوافد المتوقع. «أوه، أتمنى لو كان بمقدوري - لا أعرف، السباحة إلى الشاطئ أو القيام بشيء مماثل، فقط لأعلمهما. انتظار المركب يرهقني!». قبّلت توم، وسألت: «هل نكتب إلى أبيك؟ شقيقك؟».

نهض توم، وأشغل نفسه بالأطباق على لوح التجفيف، وكل ما قاله: «لا داعي».

أخبرتها ملامح وجهه المنزعج لكن من دون غضب، ألا تمضي قدماً، وأخذت بلطف المنشفة من يده. قالت: «سأفعل هذا، فقد فعلت الكثير».

مسَّ توم كتفها وقال: «ينبغي أن أتابع العمل على كرسيك». وحاول أن يبتسم حين غادر المطبخ.

في السقيفة، نظر إلى أجزاء الكرسي الهزّاز الذي يخطط لصنعه من أجل إيزابيل، وقد حاول أن يتذكّر الكرسي الذي هزّته أمه عليه وأخبرته قصصاً. تذكّر جسده شعوره لدى حملها إياه؛ وهو شيء غاب عنه عقوداً. تساءل إن كان طفلهما سيتذكّر لمسة إيزابيل، بعد عقود في المستقبل، وبدت الأمومة شيئاً غامضاً. كم ينبغي أن تكون المرأة شجاعة لتبدأ ذلك، كما ظن، حين أمعن التفكير في مسار حياة أمه، لكن إيزابيل بدت عاقدة العزم بشأن هذا. «إنها الطبيعة يا توم، ما المخيف في الأمر؟».

عندما اقتفى في نهاية المطاف أثر أمه، كان في الحادية والعشرين من عمره، وقد حصل للتو على إجازة الهندسة. أخيراً، أصبح مسؤولاً عن حياته، والعنوان الذي زوّده به المحقّق الخاص كان لنُزل في دارلينغرست، وقد وقف خارج الباب، يشعر بغصّة أمل وذعر. وعاد فجأة إلى عمر الثامنة مجدداً. سمع أصوات يائسين آخرين تنزُّ من تحت الأبواب على طول الممر الخشبي الضيق: نشيج رجل من الغرفة المجاورة، وصرخة «لا يمكننا الاستمرار على هذه الحال!» من امرأة، مترافقة مع صياح طفل، وفي مكان أبعد قليلاً، الحركة الصاخبة للوح السرير حيث تقيم المرأة المستلقية أمامه على الأرجح علاقة.

توثّق توم من الخربشة بقلم الرصاص على الورقة، ونعم، رقم الغرفة صحيح. بحث في ذاكرته مجدداً عن صوت أمه وهي تنشد له بلطف: «إنها الأوباس السامّة يا صغيري توماس. هل نضع ضمادة على ذلك الكشط؟».

لم يلقَ قرعه جواباً، فحاول مجدداً. أخيراً، أدار المقبض بتردّد، ولم يقاوم الباب. أسرعت الرائحة المميزة للقائه، لكنه أدرك بعد جزء من الثانية فقط أنها ملوّثة بكحول رخيص ولفائف تبغ. في العتمة، رأى سريراً متداعياً وكرسياً بالياً، في ظلال بنية، ولاحظ شرخاً في النافذة، ووردة وحيدة في آنية قد ذبلت منذ أمد بعيد.

«هل تبحث عن إيلي شربورن؟». كان الصوت يخص رجلاً أصلعَ نحيلاً قد ظهر عند الباب خلفه.

بدا غريباً جداً أن يسمع اسمها يُنطق «إيلي». «السيدة شربورن، هذا صحيح، متى ستعود؟».

شخَر الرجل. «لن تعود لسوء الحظ؛ لأنها تدين لي بإيجار شهر».

بدت الحقيقة كلها خطأً، ولم يستطع جعلها تتوافق مع صورة لمّ

الشمل الذي قد خطّط له وحلم به طوال سنوات. تسارع نبض توم. «هل لديك عنوان بريدي؟».

«ليس حيث ذهبت. فقد توفيت قبل ثلاثة أسابيع. دخلت فقط لإخراج آخر أغراضها».

من بين كل المشاهد الممكنة التي قد تخيّلها توم، لم ينتهِ أي منها على هذا النحو، ووقف متسمّراً تماماً.

سأل الرجل بفظاظة: «هل تخطّط للانتقال؟ أو الاستقرار؟».

تردّد توم، ثمَّ فتح محفظته وأخرج خمسة جنيهات، وقال بلطف: «من أجل إيجارها». ومشى بخطوات واسعة في الرواق، مكافحاً دموعه.

انقطع خيط الأمل الذي حافظ عليه توم طويلاً؛ في شارع خلفي في سيدني، حين كان العالم على شفا حرب. بعد شهر سيتطوّع في الجيش، ويسجّل أن أقرب الناس إليه هي أمه، وعنوانها ذلك النُّزل. لم يكن مسؤولو التجنيد يهتمون كثيراً بالتفاصيل.

الآن، مرّر توم يديه على قطعة الخشب الوحيدة التي قام بخراطتها، وحاول أن يتخيّل ما قد يقوله في رسالة إلى أمه اليوم - لو أنها حيّة - وكيف يمكن أن يخبرها عن انتظاره الطفل.

رفع شريط القياس، واستدار إلى القطعة التالية من الخشب.

«زبدي». نظرت إيزابيل إلى توم بوجه صارم، وفمها يرتعش قليلاً فقط عند الزاويتين.

سأل توم متوقفاً عن مهمة فرك قدميها: «ماذا؟».

كرّرت، بعد أن دفعت أنفها بين دفّتي الكتاب حتى لا يرى عينيها: «زبدي».

«أنت لست جادّة! ما هذا الاسم -».

ظهر تعبير إحباط على وجهها. «هذا اسم خال أبي؛ زبدي زانزيبار غرايسمارك».

رمقها توم بنظرة، حين تابعت: «وعدت جدّتي على فراش موتها أنني إذا رُزقت ابناً فسأُطلق عليه اسم شقيقها. لا يمكنني أن أخلف بوعدي».

«كنت أفكّر في شيء عادي».

«هل تقول إن اسم خال أبي شاذ؟». لم يعد بمقدور إيزابيل أن تتمالك نفسها وقتاً أطول، وانفجرت ضاحكة. «نلت منك! نلت منك تماماً!».

«وقحة صغيرة! ستأسفين على هذا!».

«لا، توقف! توقف!».

قال وهو يدغدغ بطنها وعنقها: «لا رحمة!».

«أستسلم!».

«فات أوان ذلك الآن!».

كانا مستلقيين على العشب المؤدي إلى شاطئ حطام السفن، والوقت بعد الظهر، والضوء الباهت يصبغ الرمال بالأصفر.

توقف توم فجأة.

سألت إيزابيل وهي تنظر من تحت الشعر الطويل العالق فوق وجهها: «ما الخطب؟».

أبعد الخصلات عن عينيها، ونظر إليها صامتاً. وضعت يدها على وجنته. «توم؟».

«يدهشني الأمر أحياناً. قبل ثلاثة شهور لم يكن هنا إلا أنا وأنت، والآن توجد حياة أخرى، ظهرت فجأة، مثل...».

«مثل طفل».

«نعم، مثل طفل. لكن، أكثر من هذا يا إيز. عندما كنت أجلس في غرفة الفانوس قبل وصولك، اعتدت التفكير بشأن معنى الحياة. أعني، مقارنة بالموت...». أوقف نفسه. «أنا أتفوّه بالهراء الآن، وسأصمت».

وضعت إيزابيل يدها حول ذقنه. «أنت لا تتكلم كثيراً عن الأشياء يا توم، أخبرني».

«لا يمكنني صوغ ذلك بكلمات. من أين تأتي الحياة؟».

«هل هذا مهم؟».

شكّك: «هل هذا مهم؟».

«إنه أمر غامض، وإننا لا نفهم».

«انقضت أوقات أردت فيها جواباً، وهذا كل ما يمكنني قوله لك. انقضت أوقاتاً رأيت فيها آخر أنفاس رجل، وأردت أن أسأله: إلى أين تذهب؟ كنت هنا بجانبي قبل ثوانٍ، والآن أحدثت بعض القطع المعدنية ثقوباً في جلدك؛ لأنها ضربتك بسرعة كافية، وفجأة أصبحت في مكان آخر. كيف يحدث هذا؟!».

ضمَّت إيزابيل ركبتيها بذراع واحدة، وباليد الأخرى استندت على العشب بجانبها. وتحدثت بوجدانية حول الموضوع.

فردّ على ما طرحته من وجدانيات بلامبالاة ظاهرة.

بإلحاح مفاجئ، سألت: «أتظن أننا سنكون في المكان عينه بعدما نرحل عن هذا العالم؟».

ضمّها توم. «انظري الآن إلى ما فعلته. كان ينبغي إبقاء فمي السخيف مغلقاً. هيا، نحن في وسط عملية انتقاء أسماء، وكنت أحاول فقط إنقاذ طفل مسكين من مصير حياة زبيدي شيء زانزيبار. أين نحن من أسماء البنات؟».

«أليس، إميليا، أنابيل، أبريل، أريادن –».

رفع توم حاجبيه. «ها قد بدأت مجدداً... أريادن! ستكون الحياة في منارة قاسية كفاية، فدعينا لا نثقل كاهلها باسم سيضحك الناس عليه».

قالت إيزابيل بتكشيرة: «لم تتبقَّ إلا مئتا صفحة فقط».

«ينبغي أن نسرع إذاً».

تلك الأمسية، عندما نظر من الشرفة، عاد توم إلى تساؤلاته عن الروح ومصدرها.

هنا، هو آمن وموفور الصحة، مع زوجة جميلة وينتظران طفلاً سيأتي عما قريب إلى هذه الحياة.

عاد إلى غرفة الفانوس، ونظر مجدداً إلى صورة إيزابيل المعلّقة على الجدار؛ غموض ذلك كله، الغموض.

كانت هدية توم الأخرى من المركب الأخير كتيّب رعاية الطفل بفاعلية للأم الأسترالية، تأليف د. صمويل ب. غريفيثس، الذي قرأته إيزابيل في أي لحظة متوافرة.

أمطرت توم بمعلومات منه: «هل كنت تعرف أن الرَّضفة ليست عظمة؟». أو «كم تظن عمر الطفل حين يستطيع تناول الطعام من ملعقة؟».

«لا فكرة لديّ يا إيز».

«هيا، خمّن!».

«صدقاً، كيف سأعرف؟».

اشتكت: «أوه، أنت لست مسلّياً!». وغاصت في الكتاب من

أجل حقيقة أخرى.

خلال أسابيع، أضحت الصفحات مزركشة الحواف وملطّخة ببقع عشبية من أيام تقضيها على الرأس البحري.

«ستنجبين طفلاً، ولست تتحضّرين لامتحان».

«أريد فقط فعل الصواب، فلا يمكنني الذهاب إلى المنزل المجاور وسؤال أمي، أليس كذلك؟».

«أوه، إيزي - بيلا»، ضحك توم.

«ماذا؟ ما المضحك؟».

«لا شيء، لا شيء إطلاقاً. لن أغيّر شيئاً فيك».

ابتسمت، وقبّلته. «ستكون أباً رائعاً، أعرف هذا». انبثق سؤال في عينيها.

حثّها توم: «ماذا؟».

«لا شيء».

«لا، حقاً، ماذا؟».

«أبوك، لماذا لا تتكلم عنه أبداً».

«لا أكنُّ له أي محبة».

«لكن، كيف كان؟».

فكّر توم في ذلك، وكيف يمكن أن يصفه بإيجاز؟ كيف يمكن أن يفسّر النظرة في عينيه، والثغرة الخفية التي تحيط به دائماً، وتمنعه من إجراء أي تواصل؟ «كان محقاً، محقاً دائماً، بغض النظر عن الموضوع، ويعرف القواعد ويلتزم بها؛ مهما حدث». عادت أفكار توم إلى الشخص الممشوق الطويل الذي ألقى ظلّه على طفولته؛ كان قاسياً وبارداً مثل قبر.

«هل كان صارماً؟».

أطلق توم ضحكة مريرة. «كلمة صارم لا تفيه حقه». وضع يده على ذقنه حين أمعن التفكير في الأمر. «ربما أراد فقط أن يتوثق من عدم تمرّد ولديه، وكنا نُضرب بحزام لأقل شيء. حسناً، كنت أُضرب بحزام لأقل شيء، وسيسل دائماً الفتى الذي يشي بي ينجو بنفسه». ضحك مجدداً. «بماذا أخبرك؟ إنه يجعل الانضباط العسكري سهلاً. لا تعرفين أبداً ما ستكونين شاكرة له». تجهّم وجهه. «وأفترض أن الوجود هناك يجعل الأمر أسهل، عارفاً أنه لا أحد سيُفطر قلبه إن استلم البرقية».

«أوه يا توم! لا تقل أبداً شيئاً مماثلاً!».

قرّب رأسها من صدره، وداعب شعرها بصمت.

هناك أوقات لا يكون فيها المحيط محيطاً؛ ليس أزرق، أو حتى ماء، وإنما هو انفجار عنيف من الطاقة والخطر. يقذف نفسه على الجزيرة، مثيراً رذاذاً فوق أعلى المنارة، وقاضماً أجزاء من الجرف، ومصدراً صوت زئير وحش لا يعرف غضبه حدوداً، وتلك هي الليالي التي تبرز فيها حاجة ماسّة إلى الضوء.

في أسوأ تلك العواصف، يبقى توم مع الضوء كل الليل إذا دعت الحاجة، ويستمد الدفء من سخّان الكيروسين، ساكباً شاياً حلواً من دورق معزول. وهو يفكّر بشأن الأوغاد المساكين على متن السفن ويحمد الله لأنه بأمان، ويراقب بحثاً عن أنوار استغاثة، ويُبقي الزورق الصغير مستعداً للإبحار، رغم أنه قد لا ينفع في بحر مثل ذلك، لكن من يعرف.

في ليلة أيار تلك، جلس توم يحمل قلم رصاص ودفتر ملحوظات ويجمع أرقاماً. كان راتبه السنوي 327 جنيهاً. كم يكلّف زوج أحذية

للأطفال؟ مما قاله رالف، يُبليها الأولاد بسرعة كبيرة، ومن ثمَّ هناك الثياب وكتب المدرسة. طبعاً إذا بقي في إدارة المنارات، فستعلّم إيزابيل الأولاد في المنزل، لكن في ليالٍ مثل تلك، تساءل إن كان جلب أحد إلى هذه الحياة المزرية أمراً منصفاً، فضلاً عن أطفال. حفّزت الفكرة كلمات جاك ثروسل، أحد عاملي المنارات في الشرق، وكان قد أخبر توم: «أفضل حياة في العالم للأطفال، أقسم. كل أولادي الستة أصحاء مثل المطر، وجاهزون دائماً للألعاب والإثارة، وهم يستكشفون كهوفاً، ويصنعون حجيرات. هم مجموعة ملائمة من الروّاد، والسيدة تتوثّق من إنجازهم دروسهم. صدّقني، تربية أطفال في محطة منارة سهلة مثل غمزة!».

عاد توم إلى حساباته. كيف يمكن أن يوفّر أكثر قليلاً، ويتوثّق من وجود مالٍ كافٍ للثياب والأطباء و... الله يعلم ماذا غير ذلك. جعلته فكرة أنه سيصبح أباً عصبياً ومتنبهاً وقلقاً.

عندما عاد ذهنه إلى ذكرياته عن أبيه، دوّت العاصفة حول المنارة، وأصمّت أذني توم عن أي صوت آخر تلك الليلة؛ أصمّتهما عن صرخات إيزابيل التي تصرخ طالبة العون.

الفصل التاسع

سأل توم مرتبكاً: «هل أحضر لك كوباً من الشاي؟». كان رجلاً عملياً: امنحه أداة تقنية حسّاسة فيحافظ عليها، أو شيئاً مكسوراً فيصلحه بتأنٍّ وكفاءة. لكن بمواجهة زوجته الحزينة، شعر بأن لا حول له ولا قوة.

لم ترفع إيزابيل بصرها، فحاول مجدداً: «بعض مسحوق فنسنت؟». تضمّنت الإسعافات الأوّلية التي يتعلّمها عمّال المنارات: إسعاف الغرقى، ومعالجة انخفاض حرارة الجسم والإصابة بضربة شمس، وتعقيم الجروح، وحتى مبادئ البتر، لكنهم لم يخبروهم شيئاً - على كل حال - عن أمراض النساء، وبقي الإجهاض غامضاً لتوم.

كان قد انقضى يومان منذ العاصفة المروّعة، ويومان منذ بدأ الإجهاض، والدم لا يزال ينزف، وإيزابيل لا تزال ترفض السماح لتوم بطلب العون. بعد بقائه في مرصده في تلك الليلة العاصفة، كان قد عاد أخيراً إلى الكوخ بعد إطفاء الضوء قبل الفجر تماماً، وجسده بأمسّ الحاجة إلى النوم، لكن عندما دخل غرفة النوم، وجد إيزابيل مكوّرة على نفسها، والسرير منقوع بالدماء، وبدت النظرة في عينيها يائسة بنحوٍ لم يره توم من قبل. قالت: «أنا آسفة، آسفة جداً، آسفة جداً جداً». ثمَّ غمرتها موجة أخرى من الألم فتأوهت، وضغطت بيديها على بطنها، على أمل أن توقفه.

قالت آنذاك: «ما الفائدة من الطبيب؟ لقد ذهب الطفل». شرد

بصرهــا، وتمتمــت: «كــم أنــا عديمــة الفائــدة! تنجب النســاء الأخريات أطفالاً بسهولة سقوط شجرة».

«إيزي – بيلا، توقفي».

«إنه ذنبي يا توم، أنا واثقة».

«هذا ليس صحيحاً يا إيز». سحب رأسها إلى صدره وقبّل شعرها مــراراً وتكــراراً. «ســتنجبين آخــر، ويومــاً ما عندما يصبح لديك خمســة أطفال يركضون في الأرجاء ويزعجونك، سيبدو هذا كله حلماً». لفَّ شــالها حــول كتفيهــا. «الجــو جميــل فــي الخــارج. تعالــي لنجلس على الشرفة، فهذا سيفيدك».

جلسا جنباً إلى جنب على كرسيين من الخيزران، وإيزابيل مغطّاة ببطانية زرقاء مقلّمة، وراقبا تحرّك الشمس في سماء آخر الخريف.

تذكّرت إيزابيل كيف أذهلها خواء ذلك المكان، مثل شراع أبيض، مع بداية وصولها، وكيف بدأت تراه تدريجياً كما يفعل توم، وتستمتع بالتغييرات الدقيقة: الغيوم في أثناء تكوّنها وطفوها في السماء، وأشكال الأمواج التي تتأثر بالرياح والموسم، ويمكن – إذا عرفت كيف تقرأها – أن تخبــرك عــن طقــس اليــوم التالــي. كانــت قد تآلفــت أيضاً مع الطيور التي تظهر من وقت إلى آخر؛ تأتي عشــوائياً مثل البذور التي تحملها الرياح، أو الطحالب البحرية التي تُلقى على الشاطئ.

نظرت إلى شــجرتَي الصنوبر وبكت فجأة من وحدتهما، وقالت على حين غرة: «ينبغي أن تكون هنا غابات. أنا أفتقد الأشجار يا توم، وأفتقد أوراقها ورائحتها وحقيقة وجود الكثير منها. أوه يا توم، أفتقد الحيوانات، أفتقد الكنغر كثيراً! أفتقد كل ذلك».

«أعرف هذا يا حبيبتي إيزي».

«لكن، ألا تفتقدها أنت؟».

«أنتِ الشيء الوحيد في العالم الذي أريده يا إيز، وأنتِ هنا. كل شيء آخر سيكون بخير، فقط امنحيه وقتاً».

غطّت طبقة شفّافة وناعمة كل شيء؛ مهما ثابرت إيزابيل على نفض الغبار عن صورة زفافها، وصورة هيو وألفي بزيهما الرسمي في أسبوع التحاقهما بالخدمة عام 1916، مكشّرين وكأنهما قد دُعيا إلى حفل. لم يكونا أطول رجلين في مستشفيات القوات المسلّحة، وإنما كانا متّقدين مثل خردل، ومفعمين بالحيوية، ويعتمران قبعتين مائلتين جديدتين.

كانت علبة خياطتها مرتّبة كما ينبغي لها، لا فوضوية مثل علبة أمها. وكانت إبرٌ ودبابيس تخترق البطانة الخضراء الفاتحة، وقطع ثوب ملقاة منفصلة، لم تنته درزاتها بعد؛ مثل ساعة محطّمة.

جثم عقد اللآلئ الصغير الذي قدّمه لها توم هدية بمناسبة زفافهما في العلبة التي صنعها لها. كانت فرشاة الشعر وأمشاط صدفة السلحفاة الأشياء الأخرى الوحيدة في مزيّنتها.

ذهبت إيزابيل إلى حجرة الجلوس تراقب الغبار، والشرخ في الجص قرب إطار النافذة، والحافة البالية للبساط الأزرق الداكن. كان الموقد يحتاج إلى تنظيف، وبطانة الستائر بدأت تتمزّق من التعرّض المستمر لعوامل الطقس القاسية، ويتطلّب مجرّد التفكير ببساطة في إصلاح أيٍّ منها طاقة أكبر مما يمكنها استجماعه. كانت قبل أسابيع فقط مملوءة توقّعاً وحيوية، في حين تبدو الغرفة الآن مثل تابوت، وحياتها توقّفت عند حافته.

فتحت ألبوم الصور الذي أعدّته لها أمها على أنه هدية مغادرتها المنزل، وفيه صورها وهي طفلة، واسم استوديو المصوّر؛ غوتشر،

ممهوراً على قفا كلٍّ منها. ورأت صورة لوالديها في يوم زِفافهما، وصورة للمنزل. مرّرت إصبعها على الطاولة، وأوقفته على المنديل المزركش الذي صنعته جدّتها من أجل جهازها، ومن ثمَّ انتقلت إلى البيانو، وفتحته.

كان خشب الجوز مشققاً في أماكن مختلفة، وقد كتب على الصفيحة الذهبية فوق لوحة المفاتيح إيفستاف، لندن، وقد تخيّلت كثيراً رحلته إلى أستراليا، والحياة الأخرى التي يمكن أن يحياها في منزل، أو مدرسة إنكليزية، وهو يئن تحت عبء سلالم موسيقية منقوصة تعزفها أصابع صغيرة متردّدة، أو حتى على مسرح. لكن في ظروف مستبعدة تماماً، انتهى به المطاف بالعيش على هذه الجزيرة، وقد سرقت العزلة والطقس صوته.

ضغطت على مفتاح سي ببطء شديد جعله لا يصدر صوتاً. كان المفتاح العاجي الدافئ ناعماً جداً مثل أصابع جدّتها. وأعادت اللمسة ذكرى دروس الموسيقى بعد الظهر، وإصدار نغمة بحركة مضادة؛ ثمانية واحدة، ثمَّ اثنتان وثلاث، وصوت كرة الكريكت على الخشب في أثناء لعب هيو وألفي في الخارج في حين تحقق هي، «السيدة الصغيرة»، «إنجازات» وتصغي لشرح جدّتها مجدداً عن أهمية الحفاظ على الرسغين مرفوعين.

ستتذمّر إيزابيل: «لكن هذا غباء؛ الحركة المضادة!».

علّقت جدّتها: «حسناً، ستعرفين كل شيء عن الحركة المضادة يا عزيزتي».

«ألا يمكنني لعب الكريكت يا جدتي؟ قليلاً فقط، ثمَّ سأعود».

«الكريكت ليست لعبة لفتاة. هيا الآن، دراسة شوبان». ستسحب

نفساً، وتفتح كتاباً موشوماً بعلامات قلم رصاص وأصابع صغيرة ملطّخة بالشوكولا.

لامست إيزابيل المفتاح مجدداً، وشعرت بحنين مفاجئ، ليس للموسيقى فقط، وإنما لذلك الوقت الذي استطاعت فيه الاندفاع إلى الخارج، وضم تنّورتها، والوقوف مثل حارس الوَكَت لشقيقيها. ضغطت على المفاتيح الأخرى؛ وكأن بمقدورها إعادة الماضي، لكن الصوت الوحيد الصادر كان الطقطقة المكتومة للخشب على قاعدة لوحة المفاتيح، حيث أصبح اللبّاد بالياً.

هزّت كتفيها لتوم حين دخل: «ما الفائدة؟ انتهى أمره كما أظن؛ مثلي تماماً». وبدأت تبكي.

بعد أيام، وقف كلاهما بجانب الجرف.

ضرب توم بالمطرقة على الرمز الديني الصغير الذي صنعه من بعض الخشب الطافي حتى ثبّته بالأرض، وبناءً على طلب زوجته نقش «31 أيار 1922، ستتذكرك دائماً».

أمسك المجرفة، وأعدَّ حفرة لشجيرة إكليل الجبل التي نقلها من حديقة الأعشاب، وشعر بغثيان داخله مثل شرارة ذاكرة تنتقل بين طرق الرمز الديني وتجهيز الحفرة. تعرّقت راحتا يديه، رغم أن المهمة لا تتطلّب جهداً بدنياً كبيراً.

راقبت إيزابيل من علٍ على الجرف رسو مركب مهبّ الريح، وعرفت أن رالف وبلوي سيصعدان قريباً، ولا حاجة إلى الذهاب والترحيب بهما. مدّا اللوح الخشبي، ولدهشتها، ترجّل رجل ثالث معهما، رغم عدم استدعاء أفراد صيانة.

ظهر توم في أعلى الدرب في حين تلكأ الثلاثة الآخرون عند

الرصيف. بدا الغريب، الذي يحمل حقيبة سوداء، كما لو أنه يواجه صعوبة في تثبيت نفسه بعد الرحلة.

كان وجه إيزابيل متجهماً وغضباً حين اقترب منها توم: «كيف تجرؤ!».

كرّر توم. «كيف أجرؤ؟!».

«طلبت منك ألا تفعل ذلك ومضيت قدماً بأي حال! حسناً، ينبغي أن تعيده أدراجه، ولا تزعج نفسك باستقباله هنا، فهو شخص غير مرغوب فيه».

بدت إيزابيل دائماً مثل طفلة حين تغضب، وأراد توم أن يضحك، لكن تكشيرته زادتها غيظاً. وضعت يديها على شفتيها. «أخبرتك أنني لا أريد طبيباً، لكنك فعلت هذا من وراء ظهري. لن أسمح له بفحصي ليخبرني شيئاً أعرفه سلفاً، وينبغي أن تخجل من نفسك! حسناً، يمكنك أن تعتني بهم؛ جميعاً».

نادى توم: «إيزي! إيزي، انتظري! لا تفقدي صوابك يا حبي. هو ليس...». لكنها كانت قد ابتعدت كثيراً آنذاك لتسمع باقي كلماته.

سأل رالف حين وصل توم: «حسناً؟ كيف تقبّلت الأمر؟ بسرور شديد كما أخمّن!».

«ليس تماماً». دفع توم قبضتيه في جيبيه.

«لكن...». نظر رالف إليه ذاهلاً. «ظننت أنها ستفرح حقاً، فقد تطلّب الأمر كل فتنة هيلدا لإقناعه بالمجيء، وزوجتي لا تستخدم فتنتها كيفما اتفق!».

«هي...». فكّر توم مليّاً بأن يقدّم تفسيراً. «فهمت الأمر على نحو خاطئ. آسف، إنها منزعجة قليلاً، وعندما تكون على هذه الحال، فكل

ما يمكن فعله هو التراجع وانتظار هدوء العاصفة. في هذه الأثناء سأعدُّ شطائر من أجل الغداء، كما أخشى».

اقترب بلوي والرجل، وبعد التعارف، دخل الأربعة المكان.

جلست إيزابيل على العشب قرب الخليج الصغير الذي أسمته الغادر وهي تستشيط غضباً. كرهت ذلك؛ حقيقة أن يكون غسيلها الوسخ من شأن كل شخص آخر. كرهت حقيقة أن رالف وبلوي سيعرفان، وسيقضيان على الأرجح الرحلة كلها وهما يناقشان مشكلتها الخاصة، والله وحده يعرف ماذا أيضاً. بدا استدعاء توم للطبيب ضد رغبتها الصريحة خيانة.

جلست تراقب الماء، وكيف يلعب النسيم بالأمواج التي بدت هادئة ومتكوّرة في النهار. انقضت ساعات، وشعرت بالجوع، ثمَّ بالهدوء، لكنها رفضت الذهاب إلى قرب الكوخ في أثناء وجود الطبيب هناك. ركّزت بدلاً من ذلك على محيطها، مدقّقة في بنية كل ورقة، ودرجة لونها الأخضر. في أثناء إصغائها إلى الأصوات المختلفة للرياح والماء والطيور، سمعت صوتاً غريباً؛ نغمة مستمرة، قصيرة، متكرّرة. أهي آتية من المنارة؟ أم من الكوخ؟ لم يكن الرنين المعتاد للمعدن من الورشة. سمعته مجدداً، هذه المرة بدرجة مختلفة. كانت للرياح على جانوس طريقة خاصة بتوزيع أصوات إلى تردّدات منفصلة، وتشويشها حين تعبر الجزيرة. حطّ طائرا نورس على الأرض قربها وتشاجرا على سمكة، واختفى الضجيج الخافت أصلاً.

عادت إلى تأمّلها، حتى أثار انتباهها صوت مميز حمله الهواء. كانت نغمة شاذّة، لكنها تصبح أعلى في كل مرة.

لم تكن قد سمعت قط رالف وبلوي يذكران البيانو، ولا يستطيع

توم أن يعزف نغمة، فظّنت أنه الطبيب البائس. يبدو مصمماً على وضع أصابعه حيث لا يُراد لها. لم تتمكّن قط من عزف نغمة على البيانو، وبدا آنذاك كما لو أنه يغني، ودفع الغضب إيزابيل إلى صعود الدرب، مستعدة لطرد المتطفّل بعيداً عن الأداة، وعن جسدها ومنزلها.

تجاوزت المباني الخارجية، حيث رأت توم ورالف وبلوي يكدّسون أكياس طحين.

شرع رالف: «مرحباً يا إيزاب -»، لكنها تجاوزته ودخلت المنزل.

اندفعت إلى حجرة الجلوس، وبدأت تقول: «إذا لم تمانع، فهذه أداة حسّاسة جداً -»، لكنها لم تُكمل، محتارة من منظر البيانو العاري تماماً، وعلبة الأدوات المفتوحة، والغريب الذي يدير الصمولة فوق أحد الأسلاك النحاسية بأداة صغيرة حين يضغط على المفتاح الموافق.

قال من دون أن ينظر إليها: «نورس متيبّس، هذه هي مشكلتك. حسناً، إحدى مشاكلك، إضافة إلى عشرين سنة من الرمال والملح والله يعلم ماذا غيرها. عندما أستبدل بعض قطع اللبّاد سيصبح الصوت أفضل». تابع تعيير المفتاح وتدوير الصمولة في أثناء كلامه. «لقد رأيت كل شيء في مهنتي؛ جرذان ميتة، شطائر، قطاً قماشياً. يمكن أن أؤلف كتاباً عن الأشياء التي يُعثر عليها داخل بيانو، رغم أنني لا أستطيع إبلاغك كيف وصلت إلى هناك، وأظن أن النورس لم يطر إلى الداخل من تلقاء نفسه».

شعرت إيزابيل بالدهشة تعقد لسانها، وكان فمها لا يزال مفتوحاً حين أحسّت بيد على كتفها، فاستدارت لتجد توم، وتورّدت خجلاً.

قال: «يا لها من مفاجأة! هه؟». وقبّل وجنتها.

«حسناً... حسناً، كانت...». تلاشى صوت إيزابيل.

وضع يده حول خصرها ووقف كلاهما لحظة، وجبيناهما متلامسان، قبل أن ينفجرا ضحكاً.

جلست في الساعتين التاليتين مراقبة المُدوزن وهو يُخرج أصواتاً جميلة، ويجعل النغمات ترنُّ مرة أخرى، أعلى من قبل، وأنهى عمله بعزف مقطوعة معروفة.

قال وهو يجمع أدواته: «لقد بذلت قصارى جهدي يا سيدة شربورن. ينبغي نقله إلى الورشة، لكن رحلة الذهاب والعودة ستضرّه بقدر ما ستفيده. لن يكون مثالياً على المدى الطويل، لكنه سيفي بالغرض». سحب كرسي البيانو إلى الخارج. «هل ترغبين بتجربته؟».

جلست إيزابيل مقابل لوحة المفاتيح، وضغطت على نغمة إيه بحركة مضادة.

قالت: «حسناً، هذه نغمة أفضل من قبل». شرعت تعزف بدايات لحن هاندل وتبحث في ذاكرتها حين تنحنح أحدهم. كان رالف واقفاً خلف بلوي عند البوابة.

قال بلوي حين استدارت لتحييه: «لا تتوقفي!».

قالت وهي تكاد تقف: «كان ذلك فظاً جداً، أنا آسفة!».

قال رالف: «لا شيء من هذا إطلاقاً». تكلّم، مقدّماً من خلف ظهره شيئاً مربوطاً بشريطة حمراء: «وإليك هذه؛ من هيلدا».

«أوه، هل أفتحها الآن؟».

«الأفضل أن تفعلي! إذا لم أقدّم لها تقريراً مفصّلاً، فلن ينتهي النقاش بشأن هذا أبداً!».

فتحت إيزابيل الغلاف، ووجدت منوّعات غولدبرغ من باخ.

«يظن توم أن بمقدورك عزف هذا النوع من الألحان بعينين مغمضتين».

«لم أعزفها منذ سنوات. لكن - أوه، أحبها كثيراً! شكراً لك!».

عانقت رالف وقبّلت وجنته. وقالت مع قبلة مسّت مصادفة شفتيه حين استدار: «وأنت أيضاً يا بلوي».

تورّد كثيراً ونظر إلى الأرض وقال: «لم يكن لي شأن بهذا، فأنا لا أعرف شيئاً». لكن توم اعترض. «لا تصدّقي كلمة من هذا، فقد قطع كل المسافة إلى ألباني لإحضاره، واستغرق الأمر منه كل يوم أمس».

قالت: «في هذه الحال، تستحق قبلة إضافية». وطبعت أخرى على الخد الآخر.

وقالت وهي تقبّل مدوزن البيانو: «وأنت أيضاً!».

تلك الليلة، حين توثّق من الرّتينة، استمتع توم بلحن باخ حين صعدت النغمات المنتظمة سلالم المنارة وصدحت في أرجاء غرفة الفانوس، متمايلة بين المواشير. كانت إيزابيل مثل الزئبق الذي جعل الضوء يشتعل؛ غامضة. يمكن أن يداوي ويسمّ، ويستطيع تحمّل ثقل الضوء كله، لكن بمقدوره الانكسار إلى ألف جزيء لا يمكن الإمساك به، ويطفو في كل الاتجاهات؛ هارباً من نفسه. خرج توم إلى الشرفة، وعندما تلاشت أضواء مركب مهبّ الريح خلف الأفق، تضرّع بدعاء صامت من أجل إيزابيل، وليس من أجل حياتهما معاً، ومن ثمَّ عاد إلى السجل، وكتب في عمود «ملحوظات» الأربعاء 13 أيلول 1922: «زائر على متن مركب المؤن: آرشي بولوك، مدوزن بيانو. موافقة سابقة».

القسم الثاني

الفصل العاشر

السابع والعشرون من نيسان 1926

كانت شفتا إيزابيل شاحبتين وعيناها كئيبتين، ولا تزال تضع يدها بمحبّة على بطنها أحياناً؛ قبل أن يذكّرها تسطّحه بأنه فارغ. رغم ذلك، ظهرت على قمصانها بقع من آخر كمية حليب أفرزها ثدياها بغزارة في الأيام الأولى؛ وليمة ضيف غائب، ثمَّ بكت مجدداً؛ كأن النبأ جديد.

وقفت وهي تحمل ملاءات بيديها: لم تتوقف الأعمال المنزلية، كما لم يتوقف الضوء. بعد ترتيب السرير وطي ثوب نومها ووضعه تحت الوسادة، ذهبت إلى الجرف لتجلس بجانب القبور قليلاً، وأولت القبر الجديد رعاية كبيرة، متسائلة عن إمكانية نمو شجيرة إكليل الجبل الصغيرة. انتزعت بعض الأعشاب الضارّة من حول الرمزين الدينيين الأقدم، الكالحين نتيجة سنوات من الملح، وإكليل الجبل ينمو بعناد رغم العواصف.

عندما وصلها صوت بكاء طفل مع الريح، نظرت من دون تفكير إلى القبر الجديد، وقبل أن يتدخّل المنطق، انقضت لحظة أخبرها عقلها فيها أن كل ذلك غلطة؛ فالطفل لم يولد ميتاً باكراً، لكنه حي ويتنفّس.

تلاشى الوهم، لكن البكاء استمر، ومن ثمَّ جاء صراخ توم من الشرفة - «على الشاطئ! مركب!» - ليخبرها أنه ليس حلماً، فتحرّكت

بسرعة قدر استطاعتها لتنضم إليه على الطريق المؤدي إلى الزورق الصغير.

كان الرجل على متنه ميتاً، لكن توم أحضر حزمة تصرخ من المقدّمة.

صرخ: «يا للهول! يا إلهي يا إيزي. هذا -».

«طفل! يا الله! أوه يا توم! توم! هيا... أعطني إياه!».

عند عودتهما إلى الكوخ، تسارع نبض إيزابيل حين رأت الطفلة، وعرفت ذراعاها فطرياً كيف تحملانها وتهدّئانها وتسترضيانها. عندما صبّت ماءً دافئاً على الرضيعة، لاحظت حيوية جلدها المشدود والناعم من دون تغضّن. قبّلت كلاً من أطراف أصابعها الصغيرة تباعاً، وهي تقضم برفق أظافرها قليلاً حتى لا تخدش الطفلة نفسها. ضمّت رأس الطفلة بكف يدها، وبالمنديل الحريري الذي تحتفظ به لمناسبات خاصة، أزالت قشرة رقيقة من المخاط من تحت أنفها، ومسحت الملح الجاف الناتج عن الدموع من حول عينيها. بدت كل لحظة كما لو أنها تندمج في أخرى؛ مع حمّام آخر، ووجه آخر؛ فعل واحد لم يقاطعه أحد.

كان النظر إلى تينك العينين مثل النظر إلى وجه رائع من دون قناع أو تظاهر: بدا عجز الطفلة رائعاً. هذه المخلوقة المعقّدة، والفاتنة من الدم والعظام والجلد وجدت طريقها إليها. كان ذلك أمراً مدهشاً؛ أنها وصلت آنذاك، بعد أسبوعين فقط من... بدا مستحيلاً عدُّ ذلك محض مصادفة. واهنة مثل هطول ندف الثلج، بدا من الممكن أن تذوب الطفلة بسهولة في النسيان لو أن التيارات لم تحملها، سليمة ومعافاة، إلى شاطئ حطام السفن.

فـي مـكان قبـل الأبجديـة، بلغـة أخرى من مخلوق إلى آخر، ومع ارتياح عضلاتها واسـترخاء عنقها، أشـارت الطفلة لها بأنها قد كسـبت ثقتها. بعد اقترابها كثيراً من يدي الموت، انصهرت حياة مع حياة آنذاك كما يلتقي الماء ماء.

غمرت المشاعر إيزابيل: الرهبة؛ من إمساك يدين صغيرتين حين مسّـتا إحدى أصابعها، والمتعة؛ من المؤخرة الصغيرة الناعمة التي لم تتميّز تماماً بعد عن السـاقين، والوقار؛ من الأنفاس التي تسـحبها من الهـواء فـي المـكان وتنقلـه إلـى دمهـا، وروحها، وتحـت كل ذلك طنّ الألم الكئيب عديم الجدوى.

قالـت إيزابيـل: «اسـمعي، لقـد جعلتنـي أبكـي يـا حبيبتـي. كيف اسـتطعتِ تدبّـر ذلـك؟ أيتهـا الصغيرة، أيتهـا المخلوقة المثالية». رفعت الطفلـة مـن حـوض الاسـتحمام مثـل هبة مبجّلة، ومدّدتها على منشـفة بيضاء ناعمة، وبدأت تجفّفها بلطف، مثل حبر لا تريده أن يُلطّخ شيئاً؛ وكأنها إذا لم تتوخَ الحذر فقد تمحيه كله. اسـتلقت الطفلة بصبر في أثناء مسحها بالبودرة. لم تتردّد إيزابيل إطلاقاً حين ذهبت إلى الخزانة فـي حجـرة نـوم الأطفـال واختـارت من بين الثيـاب الجديدة المتنوّعة، وأخرجت ثوباً أصفر مزيناً ببطّات صغيرة على الصدر، ألبسـته للطفلة بحذر.

همهمـت تهويـدة؛ متجـاوزة مقاطـع هنا وهناك، وفتحت كف اليد الصغيـرة وتأمّلـت خطوطهـا: هنـاك منـذ لحظـة الولادة درب قد رُسـم سـلفاً، وأحضرها إلى هنا، إلى هذا الشـاطئ. قالت: «أوه يا جميلتي، أيتهـا المخلوقـة الصغيـرة الجميلة». لكن الطفلة المرهقة نامت بسـرعة آنذاك، وهي تسـحب أنفاسـاً صغيرة وضعيفة، وترتعش أحياناً. حملتها إيزابيـل بيـد واحـدة حيـن وضعت ملاءة على المهـد، وغطّتها بالبطانية

التي حاكتها من صوف حملان. لم يكن بمقدورها وضع الطفلة في فراشها بسهولة، ليس بعد. في مكان ناءٍ تماماً، تضافر فيضان المواد الكيميائية التي كانت تحضّرها حتى وقت قريب للأمومة على تكوين مشاعرها، وتوجيه عضلاتها، وعادت مشاعر تضاءلت كثيراً إلى الحياة. أخذت الطفلة إلى المطبخ ووضعتها على حجرها في أثناء بحثها في كتاب أسماء الأطفال.

يضع عامل المنارة سجلات للأشياء، وكل مادة في محطة الضوء تُجدول، وتُخزّن، وتُحفظ، وتُفحص، ولا يُغفل التوثّق الرسمي أي شيء. يحتفظ نائب مدير المنارات بسجلات عن كل شيء من أنابيب الحرّاقات إلى حبر السجلات، ومن المقشّات في الخزانة إلى مكشطة الأحذية بجانب الباب، وكل منها موثّق في «سجل المعدّات» جلدي الغلاف؛ حتى الأغنام والماعز. لا شيء يُتلف، ولا يجري التخلّص من شيء من دون موافقة رسمية من فريمانتل أو - إن كان مُكلفاً جداً - من ملبورن. وليكن الله في عون العامل الذي تنقص لديه علبة رتينة أو غالون زيت ولا يتمكّن من تفسير ذلك. بغض النظر عن عزلة حياتهم، مثل عثٍّ في علبة زجاجية، عاملو المنارات عالقون في أماكنهم، ويخضعون للتدقيق، ولا يستطيعون فراراً، فلا يمكن أن يُعهد بالمنارة إلى أي شخص.

يسرد السجل حكاية حياة العامل بالقلم المنتظم نفسه، والدقيقة ذاتها التي يُشعل بها الضوء؛ هي الدقيقة عينها التي يُطفأ بها في الصباح الآتي. الطقس، والسفن التي عبرت، وتلك التي أرسلت برقيات، وغيرها التي مضت قدماً في بحر عاصف، تركّز على الأمواج لا على شيفرة مورس أو - في بعض الأحيان - الشيفرة الدولية، بشأن

ميناء إبحارها أو المكان الذي تقصده. أحياناً، قد يمازح العامل نفسه قليلاً، ويزّين بداية شهر جديد برمزٍ أو شكل ما، وقد يسجّل ببراعة أن «مفتش المنارات» قد وافق على إجازة خدمته الطويلة، على أساس ألا أحد سيشاهد ما يُكتب هناك، لكن ضمن حدود اللياقة. السجل موضع ثقة، وجانوس ليست محطة لويد: لم تكن محطة تعتمد السفن عليها لمعرفة الطقس، لذا عندما يُغلق توم صفحات الكتاب، لن تنظر إليه أي عيون على الأرجح مجدداً، وربما أبداً. لكنه يشعر بطمأنينة خاصة حين يكتب، ولا تزال الريح تُقاس باستخدام النظام من عصر الأشرعة: «هادئ (0-2، ريح كافية للسفن العاملة)» إلى «إعصار (12 - لا يستطيع شراع تحمّلها، حتى الممتاز)». يستسيغ اللغة، وعندما يعود تفكيره إلى الفوضى، وسنوات الحقائق القاسية، أو استحالة المعرفة، فضلاً عن وصف ما كان يجري حين تهز انفجاراتٌ الأرضَ حولهم، يستمتع بترف إقرار حقيقة بسيطة.

* * *

لهذا السبب كان السجل أول شيء يخطر ببال توم في يوم وصول المركب، فقد اعتاد تقديم تقرير بأي شيء صغير قد يكون مهماً؛ ملتزماً ليس بقواعد عمله فقط، وإنما بقانون الكومنولث أيضاً. قد تكون معلومته قطعة صغيرة فقط من أحجية؛ قطعة يستطيع وحده تقديمها، وبدا ضرورياً قيامه بذلك: وميض استغاثة، عمود دخان في الأفق، قطعة معدنية ترميها الأمواج وربما يتّضح أنها من حطام سفينة؛ كل ذلك مسجّل بيده الثابتة، والحروف تميل برفق وانتظام إلى الأمام.

جلس إلى المكتب تحت غرفة الفانوس، وقلم الحبر ينتظر بإخلاص تدوين تقرير اليوم. لقد مات رجل، وينبغي أن يعرف أشخاص

ذلك، وأن تُطرح أسئلة. سكب المزيد من الحبر في القلم، رغم أنه مملوء تقريباً، ودقّق في بعض التفاصيل على صفحات سابقة، ومن ثمَّ عاد إلى أول شيء قد دوّنه؛ ذلك الأربعاء الكئيب الذي وصل فيه إلى جانوس قبل ستة أعوام. كانت الأيام قد توالت منذ ذلك الوقت مثل تعاقب المد والجزر، وفيها كلها - عندما كان مرهقاً من إصلاحات عاجلة، أو مراقبة طوال الليل في أثناء عاصفة، أو متسائلاً عمّا يفعله هناك، وحتى في الأيام البائسة لإجهاض إيزابيل - لم ينقضِ يوم جعله وضع الحبر على الصفحة أكثر انزعاجاً، لكنها التمست منه انتظار النهار.

عادت أفكاره إلى الأصيل قبل أسبوعين حين عاد من صيد الأسماك، لتستقبله صرخات إيزابيل. «توم! توم! أسرع!». ركض إلى الكوخ، ووجدها مستلقية على أرضية المطبخ.

«توم! هناك خطب ما». كانت تتأوه بين الكلمات. «هو آتٍ! الطفل قادم».

«هل أنت واثقة؟».

قالت بسرعة: «طبعاً لست واثقة! لا أعرف ما يجري! أنا فقط - أوه، يا إلهي، توم، هذا مؤلم!».

حثّها، جاثياً بجانبها: «دعيني أساعدك على النهوض».

«لا! لا تحرّكني». كانت تلهث، وتكافح الألم مع كل نفس، متأوهة بين العبارات. صرخت حين نزَّ الدم عبر ثيابها إلى الأرضية: «هذا مؤلم جداً، أوه يا إلهي، أوقف هذا!».

بدا ذلك مختلفاً عن ذي قبل. كانت إيزابيل في الشهر السابع من حملها، وخبرة توم السابقة لا تجدي نفعاً. «أخبريني عمّا يجدر بي فعله يا إيز، ماذا تريدين مني أن أفعل؟».

كانت تتحسّس ثيابها وتحاول خلع سروالها.

أمسك توم ردفي السروال وأنزلهما من فوق كاحليها حين بدأت تئن بصوتٍ أعلى، وتتلوّى يميناً ويساراً، وصرخاتها تخرج إلى أنحاء الجزيرة.

كان المخاض سريعاً وباكراً، وراقب توم عاجزاً طفلاً – إنه طفل بالتأكيد، طفله – ينبثق من جسد إيزابيل. ظهر ملطخاً بالدماء وصغيراً: نموذج مصغّر وزائف من الرضيع الذي بقيا ينتظرانه طويلاً، مغموراً بالدماء والمشيمة من امرأة لم تكن مستعدة إطلاقاً لقدومه.

كان طوله قدماً تقريباً من الرأس إلى القدم، وليس أثقل من كيس سكر، لكنه لم يتحرّك، أو يُصدر صوتاً. حمله بيديه، محتاراً بين الدهشة والذعر، وهو لا يعرف ما ينبغي له أن يفعله، أو يشعر به.

صرخت إيزابيل: «أعطني إياها! أعطني الطفلة! دعني أحملها!».

كان كل ما استطاع توم التفكير بقوله حين سلّم الجسد الدافئ إلى زوجته: «إنه صبي صغير، كان صبياً صغيراً».

عصفت الريح بغضب، واستمرت شمس آخر الأصيل تضيء عبر النافذة، وتنسج بطانية من لون ذهبي ساطع على المرأة وطفلها الميت، وتابعت الساعة القديمة على جدار المطبخ طقطقة دقائقها بدقّة مزعجة. لقد وُلدت حياة وماتت، ولم تتوقف الطبيعة ثانية من أجلها، وتواصل آلة الوقت والمكان عملها، والناس يمرّون عبرها كما تمرُّ الحنطة عبر المطحنة.

استطاعت إيزابيل أن تنهض قليلاً مستندة إلى الجدار، ونشجت حين رأت الجسد الصغير الذي تجرأت على تخيّل أنه أكبر، وأقوى. إنه طفل من هذا العالم. همست وكأن تعويذة سحرية قد تحييه: «طفلي طفلي طفلي». لكن وجه المخلوق كان رزيناً، مثل راهب يتضرّع بعمق، عيناه مغمضتان، وفمه مغلق بإحكام: قد عاد إلى ذلك العالم الذي تردّد

كما يبدو في الخروج منه.

بقي عقربا الساعة الفضوليان يتكّان كالمعتاد، وقد مضت نصف ساعة من دون أن تنبس إيزابيل بكلمة.

«سأحضر لك بطانية».

«لا!». أمسكت يده. «»لا تتركنا».

جلس توم بجانبها، واضعاً ذراعه حول كتفيها وهي تنشج على صدره، وقد بدأت الدماء تجف على الأرضية. موت، دماء، مواساة الجريح؛ بدا كل ذلك مألوفاً. لكن ليس مثل هذا: امرأة، وطفل، من دون انفجارات أو طين. كان كل شيء آخر كما ينبغي له تماماً: الأطباق المزخرفة مرتّبة على مجفّفة الصحون، ومنشفة الشاي معلّقة فوق باب الموقد، والكعكة التي خبزتها إيزابيل ذلك الصباح مقلوبة على رف التبريد، والعلبة لا تزال مغطاة بقطعة قماش رطبة.

بعد مرور بعض الوقت، قال توم: «ماذا ينبغي أن نفعل؟ بالـ - به؟».

نظرت إيزابيل إلى المخلوق البارد بين ذراعيها. «أشعل السخّان».

نظر توم إليها.

«أشعله من فضلك».

كان لا يزال مرتبكاً، لكنه مهتم بألا يزعجها. نهض توم على قدميه، وذهب ليشعل سخّان الماء. وعندما عاد، قالت: «املأ حوض الغسيل، حين يصبح الماء دافئاً».

«إذا أردتِ الاستحمام فسأحملك يا إيز».

«ليس من أجلي، يجب أن أغسله، ومن ثمَّ في خزانة البياضات، توجد ملاءات جيدة - تلك التي طرّزتها. هلاّ تحضر واحدة».

«إيز يا حبيبتي، سيكون هناك وقت لكل هذا، وأنتِ أكثر ما يهم

الآن. سأذهب وأرسل برقية، وأجعلهم يرسلون مركباً».

«لا!». كان صوتها حاسماً. «لا! لا أريد - لا أريد أحداً آخر هنا. لا أريد أن يعرف شخص آخر، ليس بعد».

«لكن يا حبيبتي، لقد نزفت دماء كثيرة، وأنت بيضاء مثل طيف. ينبغي أن نأتي بطبيب إلى هنا ليعيدك معه».

«الحوض يا توم، من فضلك».

عندما أصبح الماء دافئاً، ملأ توم الحوض المعدني، وأنزله إلى الأرضية بجانب إيزابيل. أعطاها قطعة قماش غمستها في الماء، وبدأت برفق وهدوء شديد، والقماش يغطّي طرف إصبعها، تفرك الوجه وتمسح الدماء الممزوجة بالماء التي غطّت الجلد الناعم. تابع الطفل تأملاته، منشغلاً بحديث سري مع نفسه، حين غمرت القماش بالماء لتغسله، ومن ثمَّ عصرته وبدأت مجدداً، وهي تراقب عن كثب، وربما تأمل أن ترف العينان، أو ترتعش الأصابع الصغيرة.

قال توم بلطف، وهو يمسُّ شعرها: «إيز، ينبغي أن تصغي إلي الآن. سأحضّر لك بعض الشاي، وأضيف إليه الكثير من السكر، وأريد منك أن تشربيه من أجلي، هل تفعلين؟ وسأجلبُ بطانية لأضعها عليك، وسأنظّف كل شيء هنا. لا ينبغي أن تذهبي إلى أي مكان، لكن يجب أن تسمحي لي بالعناية بك الآن، من دون نقاش، وسأعطيك بعض الأقراص المهدئة لتسكين الألم، وبعض حبوب الحديد، وستتناولينها من أجلي». كان صوته لطيفاً وهادئاً، يسرد ببساطة بعض الحقائق.

منشغلة بعملها، تابعت إيزابيل التربيت على الطفل، والحبل السري لا يزال متصلاً بالمشيمة على الأرضية، وبالكاد رفعت رأسها حين وضع توم بطانية فوق كتفيها. عاد وهو يحمل دلواً وقطعة قماش، وجثا على

يديه وركبتيه وبدأ ينظّف بإسفنجة الدماء والأوساخ.

أنزلت إيزابيل الجسد إلى الحوض لتغسله، حريصة على ألا تغمر الوجه، ثمَّ جففته بمنشفة، ولفّته بأخرى نظيفة، فبدا - وهو لا يزال ملتصقاً بالمشيمة - مثل طفل هندي شمال أمريكي.

«توم، هلاّ تمدُّ الملاءة على الطاولة».

حرّك قالب الكعكة جانبياً، ومدَّ الملاءة المزركشة المطوية إلى نصفين. أعطته إيزابيل الحزمة، وقالت: «ضعه عليها». فسجّى الجسد الصغير هناك.

قال توم: «الآن، ينبغي أن نعتني بك. لا يزال هناك ماء ساخن، فدعينا ننظّفك. هيا، استندي علي، وافعلي ذلك ببطء، ببطء شديد». كوّنت قطرات قرمزية سميكة أثراً حين قادها من المطبخ إلى الحمّام، حيث قام هو هذه المرة بمسح وجهها بقطعة قماش؛ كان يغسلها في الحوض، ويبدأ مجدداً.

بعد ساعة، في ثوب نوم نظيف، وشعرها معقود في ضفيرة، استلقت إيزابيل على السرير، ومع قيام توم بملامسة وجهها، استسلمت أخيراً للإرهاق وأقراص المهدّئ. عاد توم إلى المطبخ، وأنهى التنظيف، ومن ثمّ وضع البيّاضات المتسخة في حوض الغسيل لينقعها، وعندما حلَّ الظلام، جلس إلى الطاولة وأشعل المصباح، ودعا قرب الجسد الصغير. المساحة الشاسعة، والجسد الصغير، والسرمدية، والساعة التي اتهمت وقت الوفاة؛ بدا كل ذلك أقل منطقية حتى مما حدث في مصر أو فرنسا. لقد رأى وفيات كثيرة، لكن كان هناك شيء بشأن هدوء هذا الجسد؛ وكأنه - في غياب إطلاق النار والصراخ - يراه بكل وضوح أول مرة. كانت هناك أمهات حزنّ على الرجال الذين رافقهم إلى حد الحياة. لكن في ساحة المعركة، يكون الأحبّاء بعيدين وخارج

نطاق الخيال، ورؤية طفل يُنتزع من أمه عند لحظة الولادة - يُنتزع من المرأة الوحيدة في العالم التي يهتم توم بها - جعلته يشعر بنوعٍ أكثر بغضاً من الألم. نظر مجدداً إلى الظلال التي يكوّنها الجسد، وبجانبه، الكعكة مغطّاة بقطعة قماش، مثل توأم في كفن.

كانت إيزابيل قد أصرّت في اليوم الآتي، وهي مستلقية على السرير: «ليس بعد يا توم، سأخبرهم حين أكون مستعدة».

«لكن أمك وأباك - سيرغبان أن يعرفا. هما يتوقّعان ذهابك إلى المنزل على متن المركب الآتي، وينتظران حفيدهما الأول».

كانت إيزابيل قد نظرت إليه، لا حول لها. «تماماً! هما يتوقّعان حفيدهما الأول، وقد فقدته».

«سيقلقان عليك يا إيز».

«إذاً، لماذا أزعجهما؟ أرجوك يا توم، هذا شأننا؛ شأني، لا ينبغي أن نخبر العالم كله عن ذلك. دعهما يحلمان وقتاً أطول، وسأبعث رسالة حين يأتي المركب مجدداً في حزيران».

«لكنه لن يصل قبل أسابيع!».

«توم، لا يمكنني فحسب». سقطت دمعة على ثوب نومها. «على الأقل سيقضيان بضعة أسابيع سعيدة أخرى...».

إذاً، لقد استسلم لرغبتها، وترك السجل ملتزماً الصمت.

لكن، كان ذلك مختلفاً؛ إنها قضية شخصية. لم يُفسح وصول الزورق الصغير مهلة، وبدأ آنذاك تسجيل رؤيته الباخرة في ذلك الصباح؛ ملكة مانشستر متجهة إلى كيب تاون، ومن ثمَّ دوّن ظروف الطقس الهادئ، والحرارة، ووضع القلم جانباً. سيسرد قصة وصول المركب كلها غداً، حينِ يرسل البرقية، لكنه توقف لحظة ليفكّر في

إمكانية ترك مساحة يمكن أن يعود إليها ليملأها، أو أن يسجّل ببساطة أن المركب قد وصل متأخراً عمّا حدث فعلاً: ترك مساحة. سيرسل برقية في الصباح ويقول فيها إنهما قد شُغلا جداً بالطفل فتأخرا في الاتصال، وسيسرد السجل الحقيقة، لكن متأخرة قليلاً؛ يوماً واحداً فقط. لمح انعكاس صورته على الزجاج فوق «ملحوظة بموجب قانون المنارات 1911» المعلّقة على الجدار، ولم يتعرّف لحظة الوجه الذي رآه هناك.

قال توم لإيزابيل بعد ظهر يوم وصول الطفلة: «لست خبيراً تماماً بهذا الشأن».

قالت مبتسمة: «ولن تصبح أبداً إذا بقيت بعيداً هكذا. أريد منك فقط أن تحملها حتى أتوثّق أن القارورة دافئة بما فيه الكفاية. هيا، لن تعضّك، ليس الآن بأي حال».

كانت الطفلة بطول ساعد توم تقريباً، لكنه حملها وكأنه يتعامل مع أخطبوط.

قالت إيزابيل وهي تشدُّ ذراعيه: «ابقَ ساكناً دقيقة فقط. حسناً، أبقهما هكذا، والآن...». قامت بتعديل أخير: «هي كلها لك في الدقيقتين التاليتين». وذهبت إلى المطبخ.

كانت تلك أول مرة يبقى فيها توم وحده مع طفلة، وتسمّر وكأنه واقف باستعداد؛ خائفاً من الفشل في التفتيش. بدأت الطفلة تتلوّى، وتركل بقدميها وتحرّك ذراعيها في مناورة أدهشته.

ناشدها وهو يحاول إمساكها بنحو أفضل: «اثبتي! كوني منصفة معي الآن».

نادت إيزابيل: «تذكّر أن تسند رأسها». فوضع فوراً يده تحت رأس الطفلة، ملاحظاً صغره في كفّه. تلوّت مجدداً، لذا هزّها برفق.

«هيا، كوني طيبة، ومنصفة مع عمك توم».

عندما طرفت له، ونظرت مباشرة إلى عينيه، شعر توم فجأة بألم جسدي تقريباً. كانت تمنحه لمحة عن عالم لن يعرفه أبداً آنذاك.

عـادت إيزابيـل مـع القـارورة وقالت: «خذ». وضعتها في يد توم، ووجّهتها إلى فم الطفلة، موضحّة كيف تمسُّ شفتيها برفق حتى تمصّها. دُهش توم من إنجاز العملية تلقائياً، وأثارت حقيقة أن الطفلة لم تطلب شيئاً منه إحساساً بالوقار من شيء خارج نطاق إدراكه.

عندما عاد توم إلى المنارة، شـغلت إيزابيل نفسـها في المطبخ، وهي تحضّر العشاء في أثناء نوم الطفلة، وحين سمعت بكاء، أسرعت إلى غرفة الأطفال، ورفعتها من المهد. كانت الطفلة مشاكسة، ودفعت أنفها مجدداً إلى صدر إيزابيل، وبدأت تمص القطن الرقيق لسترتها.

«أوه يا حبيبتي، ألا تزالين جائعة؟ يقول كتيب د. غريفيثس القديم أن نحرص على عدم إعطائك الكثير، لكن ربما مجرد قطرة...». سخّنت القليل من الحليب وقرّبت زجاجة الحليب من الطفلة، لكن هذه المرة أدارت الصغيرة رأسها بعيداً عن الحلمة وبكت حين انحنت بدلاً من ذلك نحو الصدر الدافئ الحنون الذي مسَّ وجنتها عبر القماش.

تكلّمت إيزابيل بصوت خافت: «هيا، خذي هذه، إليك القارورة أيتهـا الحلـوة». لكـن انزعـاج الطفلـة ازداد، فضربت بذراعيها وسـاقيها واستدارت إلى صدر إيزابيل.

تذكّرت إيزابيل الوجع الجديد لإدرار الحليب الذي جعل نهديها ثقيلين ومؤلمين من دون طفل يرضع؛ بدت عملية قاسية من الطبيعة. آنذاك، كانت تلك الرضيعة تسـعى يائسـة إلى الحليب، أو ربما الراحة فقط، بعد تفادي التضوّر جوعاً. توقفت لحظة طويلة، وأفكارها تتشابك

مع البكاء والحنين والخسارة، ومن ثمَّ تمتمت: «أوه يا حبيبتي». وفكّت أزرار سترتها ببطء. بعد ثوانٍ، وجد فم الطفلة مراده، وبدأت ترضع راضية؛ رغم خروج بضع قطرات فقط من الحليب.

بقيتا على تلك الحال لبعض الوقت حتى دخل توم المطبخ. «كيف هي -»، وتوقف في منتصف جملته مدهوشاً من المنظر.

نظرت إيزابيل إليه، وتعبير وجهها مزيج من البراءة والذنب. «كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لأجعلها تهدأ».

«لكن... حسناً...». منزعجاً، لم يستطع توم حتى صياغة أسئلته.

«كانت يائسة، ولم تقبل القارورة...».

«لكن - لكنها قبلتها سابقاً، وقد رأيتها...».

«نعم، لأنها كانت تتضوّر جوعاً، حرفياً على الأرجح».

تابع توم التحديق، عاجزاً عن الفهم تماماً.

«إنه أكثر الأمور طبيعية في العالم يا توم، وأفضل شيء يمكن أن أفعله لها. لا تنظر ذاهلاً». ومدّت يدها إليه. «تعال إلى هنا يا عزيزي، وابتسم لي».

أمسك يدها، لكنه بقي محتاراً، وعميقاً في داخله ازداد قلقه.

ذلك الأصيل، كانت عينا إيزابيل تتقدان حيوية لم يرها توم منذ أعوام. هتفت: «تعال وانظر! أليس جميلاً؟ إنه يناسبها تماماً!». أشارت إلى مهد الخيزران الذي تنام الطفلة فيه بهدوء، وصدرها الصغير يرتفع وينخفض مع إيقاع الأمواج حول الجزيرة.

قالَ توم: «تبدو مرتاحة مثل جوزة في قشرتها، أليس كذلك؟».

«سأقول إن عمرها لم يبلغ ثلاثة شهور بعد».

«كيف تعرفين هذا؟».

«بحثت عن ذلك». رفع توم حاجباً. «في كتيب د. غريفيثس. لقد اقتلعت بعض الجزر واللفت، وحضّرت يخنة بباقي لحم الضأن. أريد تحضير شيء خاص الليلة».

عبس توم محتاراً.

«ينبغي أن نرحّب بلوسي، وندعو من أجل والدها المسكين».

قال توم: «إن كان والدها حقاً، ولوسي؟!».

«حسناً، تحتاج إلى اسم، ولوسي تعني النور؛ لذا هو مثالي، أليس كذلك؟».

«إيزا بيلا». ابتسم، ومن ثمَّ داعب شعرها متجهماً قليلاً. «احذري يا حبيبتي، لا أريد أن أراك منزعجة...».

عندما أشعل توم الفانوس في المساء، لم يكن قد تخلّص من انزعاجه بعد، أو يعرف إن كان السبب هو الماضي - أسى قد أُيقظ - أو هاجساً ما. عندما نزل على السلالم الضيقة الملتوية، وعلى كل منبسط معدني، شعر بثقل في صدره، وانتابه إحساس بالانزلاق إلى ظلمة ظنَّ أنه قد فرَّ منها.

تلك الليلة، جلسا إلى مائدة العشاء يرافقهما تنشّق الطفلة، وجعلت القرقرة المتقطّعة ابتسامة تظهر على شفتي إيزابيل. فكّرت بصوتٍ مرتفع: «أتساءل عمّا سيحل بها؟ من المحزن التفكير في أنها ستنتهي في ميتم، مثل طفل سارة بوتر الصغير».

لاحقاً، أقاما علاقة لأول مرة منذ الإجهاض، وبدت إيزابيل مختلفة لتوم: جريئة، ومسترخية. قبّلته بعد ذلك وقالت: «لنزرع حديقة ورود حين يحلُّ الربيع؛ حديقة تبقى هنا سنوات بعد رحيلنا».

قال توم بعد الفجر مباشرة، حين عاد من إطفاء الضوء: «سأرسل البرقية هذا الصباح». تسلّل وهج النهار مثل أصداف اللآلئ إلى غرفة النوم، وقبّل وجه الطفلة التي كانت قد أفاقت في الليل ما جعل إيزابيل تجلبها لتنام بينهما. وضعت إصبعها على شفتيها حين أومأت نحو الطفلة الرضيعة، ونهضت من السرير لتتقدّم توم إلى المطبخ.

همست: «اجلس يا حبي، وسأحضّر الشاي». وجلبت كوبين وقِدراً ومِغلاة بهدوء شديد. قالت وهي تضع المغلاة على الموقد: «توم، لقد كنت أفكّر».

«فيمَ يا إيزي؟».

«لوسي، ليست مصادفة إطلاقاً أنها ظهرت بعد...». لم تكن الجملة تحتاج إلى إنهاء. «لا يمكننا إرسالها على متن مركب إلى ميتم». استدارت إلى توم وأمسكت يديه بيديها. «حبيبي، أظن أنها يجب أن تبقى معنا».

«لكن منصفين الآن يا حبيبتي! هي طفلة رائعة، لكنها ليست ابنتنا، ولا يمكننا الاحتفاظ بها».

«لِمَ لا؟ فكّر في الأمر. أعني، عملياً من يعرف أنها هنا؟».

«عندما يأتي رالف وبلوي بعد أسابيع فسيعرفان».

«نعم. لكن، خطر ببالي في الليلة الماضية أنهما لن يعرفا أنها ليست ابنتنا. لا يزال الجميع يظن أنني حامل، وسيُدهشان فقط من ولادتها باكراً».

راقبها توم فاغراً فمه. «لكن... إيزي، هل عقلك سليم؟ هل تدركين ما تقترحينه؟».

«أنا أقترح اللطف، هذا كل شيء، والحب لطفلة». ضمّت يديه بإحكام: «ما أقترحه يا حبيبي هو أن نقبل هذه الهبة التي قد أُرسلت

إلينا. كم أردنا طفلاً، وتضرّعنا من أجل أن نُرزق واحداً؟».

استدار توم إلى النافذة، ووضع يديه على رأسه وبدأ يضحك، ثمَّ مدَّ ذراعيه مناشداً. «بالله عليك يا إيزابيل! عندما أخبرهما عن الرجل في المركب، فسيتعرّف إليه شخص ما في النهاية، وسيعلم الجميع بوجود طفلة، ربما ليس فوراً، لكن على المدى الطويل...».

«إذاً، أظن أنك يجب ألا تخبرهما».

«لا أخبرهما!». كانت نبرته هادئة بنحو مفاجئ.

داعبت شعره. «لا تخبرهما يا حبيبي، فنحن لم نفعل شيئاً خاطئاً باستثناء منحنا ملتجأ لطفلة بائسة. يمكن أن ندفن الرجل المسكين بنحو لائق، والمركب، اجعله يطفو مجدداً».

«إيزي! إيزي! تعرفين أنني سأفعل أي شيء لك يا حبيبتي. لكن، أياً يكن ذلك الرجل وما فعله، فهو يستحق أن يُعامل كما ينبغي. وقانونياً، في ما يتعلق بتلك المسألة، ماذا إن لم تلقَ الأم حتفها، وكان لدى الرجل زوجة قلقة عليهما تنتظرهما؟».

«أي امرأة ستترك طفلتها تغيب عن ناظريها؟! واجه الأمر يا توم، لقد غرقت بالتأكيد». ضغطت على يديه مجدداً. «أعرف كم تعني قوانينك لك، وأعرف أن هذا يخرقها عملياً. لكن، لماذا وُضعت تلك القوانين؟ إنها لإنقاذ أرواح! هذا كل ما أقول إننا ينبغي أن نفعله يا حبيبي: إنقاذ هذه الحياة. هي هنا وتحتاج إلينا ويمكننا مساعدتها، أرجوك».

«لا أستطيع يا إيزي. هذا لا يتعلق بي، ألا تفهمين؟».

تجهّم وجهها. «كيف بمقدورك أن تكون متحجّر الفؤاد؟ كل ما تهتم به هو قوانينك وسفنك وضوؤك اللعين». كانت تلك اتهامات قد سمعها توم من قبل، حين صبّت إيزابيل - والأسى يتملّكها بعد

إجهاضها المتكرّر - جام غضبها على الشخص الوحيد هناك؛ الرجل الـذي تابـع القيـام بواجبـه، وواجههـا بأفضل طريقـة ممكنة، لكنه أبقى حزنه لنفسه. مرة أخرى، أحسَّ أنها قريبة من حافة خطرة، ربما أقرب هذه المرة مما وصلت إليه يوماً.

الفصل الحادي عشر

راقب نورس فضولي توم من صخرته المغطّاة بأعشاب بحرية، وتابعه بعين مثابرة حين لفَّ الجثة التي تفوح منها آنذاك رائحة الموت النفّاذة بالشراع. بدا من الصعب معرفة ما كان عليه الرجل في الحياة، فلم يكن وجهه عجوزاً جداً أو يافعاً كثيراً. كان نحيلاً وأشقر، وهناك ندبة صغيرة على وجنته اليسرى. تساءل توم عمّن يفتقده، ومن قد يكون لديه سبب ليحبه أو يكرهه.

تقع المقابر القديمة الخاصة بحطام السفن في أرض منخفضة، قرب الشاطئ. عندما بدأ يحفر حفرة جديدة، تولّت عضلاته الأمر، منفّذة مهمتها المألوفة من ذاكرة عمياء؛ مهمة لم يتوقع إطلاقاً تكرارها.

كان قد تقيّأ في أول مرّة شارك فيها بمهمة الدفن اليومية لدى رؤيته الجثث ممدّدة جنباً إلى جنب، تنتظر رفشه. بعد بعض الوقت، أضحى ذلك مجرد عمل، وسيأمل بأن يحظى بالرجل النحيل، أو ذاك الذي نُسفت ساقاه؛ لأن نقله أسهل رغم منظره الملطّخ بالدماء، ويدفنه، ويرقّم القبر، ومن ثمَّ يؤدي التحيّة العسكرية، ويغادر المكان. هذا ما كان عليه الأمر؛ يأمل بالرجل الذي فُجّرت معظم أوصاله: أُصيب توم بقشعريرة من فكرة ألا شيء يبدو غريباً بشأن ذلك آنذاك.

أطلق الرفش لهاثاً عند كل تماس له مع التربة الرملية، وعندما أصبحت الأرضية تلّة مرتّبة، توقف لحظة ليدعو من أجل البائس المسكين، لكنه وجد نفسه يهمس: «سامحني يا الله على هذا، وكل

ذنوبي. وسامح إيزابيل، فأنت تعلم مدى طيبتها، وتعلم كم عانت. اغفر لكلينا، وأدخلنا رحمتك». وعاد إلى المركب، مستعداً لإعادته إلى المياه. وعندما دفعه، وخز شعاع ضوء عينيه حين ومضت الشمس على شيء ما، فحدّق إلى بدن الزورق الصغير، ورأى شيئاً لامعاً تحت دعامة المقدّمة، وقاوم محاولته الأولى للإمساك به. بعد التردّد لحظة، أخرج شكلاً قاسياً وبارداً، نبض بالحركة آنذاك، محدثاً صليلاً: خشخيشة فضّية، مزيّنة بالرسوم وممهورة بدمغة.

قلّبها مراراً وتكراراً؛ وكأنه ينتظر أن تتكلم إليه، وتمنحه دليلاً من نوع ما، ومن ثمَّ دفعها في جيبه: قد تكون عدّة قصص ملائمة بشأن وصول هذا الثنائي الغريب إلى الجزيرة، لكن سرد قصة إيزي لنفسه بأن الطفلة يتيمة سيجعله ينام في الليل. لم يكن يطيق التفكير بغير ذلك، وبدا بحاجة إلى تفادي أي دليل على العكس، فثبّت ناظريه على الخط حيث يلتقي المحيط بالسماء مثل شفتين مزمومتين، وفكّر أنه من الأفضل له ألا يعرف.

توثّق من أن يجرف التيار الجنوبي المركب قبل أن يخوض في الماء عائداً إلى الشاطئ. كان شاكراً للرائحة الكريهة المالحة الصادرة من أعشاب البحر الخضراء والسوداء المتعفّنة على الصخور، التي غسلت رائحة الموت من منخريه. خرج سلطعون رمل أرجواني من تحت سلسلة صخور، وبدأ يتحرّك جانبياً إلى سمكة منتفخة نافقة، متضخّمة وشائكة حتى في الموت، وبدأ ينهش قطعاً صغيرة من البطن بفمه. ارتعش توم، وبدأ رحلة الصعود على الدرب.

«معظم الأيام، ليس هناك مكان للهروب من الرياح هنا. ولا بأس بهذا إن كنت نورساً. أترين كيف تطفو في تيارات الهواء وكأنها تأخذ

استراحة؟». عندما كان جالساً على الشرفة، أشار توم إلى طائر فضّي كبير قد طار المسافة من جزيرة أخرى، وبدا معلقاً في سماء صافية بخيط، رغم الهواء المضطرب.

تجاهلت الطفلة إصبع توم، وحدّقت بدلاً من ذلك إلى عينيه، مفتونة بحركة شفتيه وصدره، وأصدرت صوتاً يشبه حازوقة حادّة. حاول توم تجاهل الطريقة التي يخفق بها قلبه استجابة لها، وتابع محاضرته. «لكن في ذلك الخليج، ذلك التجويف الصغير، توجد بقعة واحدة حيث يمكنك على الأرجح إيجاد بعض الهدوء والسكينة؛ لأنه يواجه الشمال، والرياح لا تأتي عادة جنوبية تماماً. ذلك هو حد المحيط الهندي؛ إنه لطيفٌ وهادئٌ ودافئ. المحيط الجنوبي على الجهة الأخرى، وهو هائج وخطر جداً. ينبغي أن تبتعدي عن ذلك الجزء».

وضعت الطفلة ذراعاً فوق بطانيتها رداً على ذلك، وتركها توم تلف يدها فوق سبابته. بعد أسبوع من وصولها، كان قد اعتاد قرقرتها، وصمتها، ووجودها نائمة في مهدها، وبدا كل ذلك كما لو أنه يتغلغل في أرجاء الكوخ مثل رائحة الخَبز أو الأزهار. أقلقه أن يجد نفسه مصغياً لاستيقاظها في الصباح، أو مسرعاً إليها لا إرادياً ليحملها حين تبدأ بالبكاء.

قالت إيزابيل التي كانت تراقب من المدخل: «أنت تقع في حبها، أليس كذلك؟». عبس توم، فقالت مبتسمة: «مستحيل ألا تفعل ذلك».

«كل تلك التعبيرات الصغيرة التي تفعلها...».

«ستكون أباً رائعاً».

تحرّك على كرسيه. «إيز، لا يزال هذا خطأ، أعني ألا نرسل تقريراً».

«انظر إليها فقط، هل يبدو لك أننا قد فعلنا شيئاً خاطئاً؟».

«لكن، هذه هي الحال. لا ينبغي أن نفعل شيئاً خاطئاً، ويمكن أن نرسل تقريراً الآن ونطلب تبنّيها. لم يفت الوقت بعد يا إيز، ويمكننا تصحيح الأمر».

«نتبنّاها!». تسمّرت إيزابيل. «لن يرسلوا إطلاقاً طفلة إلى منارة في وسط مكان ناء؛ حيث لا طبيب، أو مدرسة. ثم إن عدم وجود دار عبادة سيكون على الأرجح أكبر مصادر قلقهم. وحتى إذا عرضوها للتبنّي، فسيرغبون بمنحها لزوجين في بلدة في مكان ما. وإضافة إلى هذا، ستستغرق الإجراءات المعقّدة وقتاً طويلاً، وسيرغبون بلقائنا، ولن تحصل أبداً على إجازة للذهاب ورؤيتهم، ولن نعود إلى الساحل قبل سنة ونصف». وضعت يداً على كتفه. «أنا أعرف أننا سنتدبّر أمرنا، وأعرف أنك ستكون أباً رائعاً، لكن هم لا يعرفون».

حدّقت إلى الطفلة، ووضعت إصبعاً على وجنتها الرقيقة. «الحب أكبر من كتب القوانين يا توم، ولو أنك أبلغت عن المركب، لكانت عالقة في ميتم مروّع الآن». أراحت يدها على ذراعه. «لقد استجاب الله لتضرّعاتنا ولاستغاثة الطفلة. فمن سيكون جاحداً كفاية لإبعادها عنا؟!».

كانت الحقيقة البسيطة - الأكيدة مثل غصن سينمو وبُرعم في أجمة ورود - أن جذور أمومة إيزابيل - حافزها، وأمومتها الفطرية وقلّة تجربتها، وتعرّضها للإجهاض مؤخراً - قد نمت وتحوّلت إلى غصن؛ الطفلة التي تحتاج إلى أم ترعاها. طوّق الأسى والبُعد الجرح، وأتقن صلة مع فرع لا يمكن أن تنتجها إلا الطبيعة.

عندما نزل توم من غرفة الفانوس ذلك المساء، وجد إيزابيل جالسة بجانب أول نار يوقدانها في الخريف، وهي ترعى الطفلة على

الكرسي الهزّاز الذي صنعه قبل سنوات. لم تلحظه، فراقبها بصمت لحظة، وبدا أنها تعامل الطفلة بطريقة طبيعية، وتُشركها في كل حركة منها، وكافح شكّه المزعج، وفكّر في أن إيزابيل ربما كانت محقّة. من هو ليفصل هذه المرأة عن الطفلة؟

كان بين يديها كتاب الأدعية، الذي لجأت إليه كثيراً بعد الإجهاض الأول. آنذاك، كانت تقرأ بصمت وتدعو...

في صباح اليوم التالي، وقفت إيزابيل بجانب توم تحت غرفة الفانوس، وهي تحمل الطفلة في أثناء إرساله البرقية. كان قد فكّر بعناية في الكلمات، ولم تكن أصابعه ثابتة حين بدأ: شعر بالفزع من إرسال نبأ المولود الميت، لكن ذلك بدا أكثر سوءاً. «ولدت طفلتنا باكراً نقطة، أُصيب كلانا بالدهشة نقطة، إيزابيل تتعافى جيداً نقطة، لا حاجة إلى مساعدة طبية نقطة، فتاة صغيرة نقطة، لوسي -» . استدار إلى إيزابيل. «هل هناك أي شيء آخر؟».

«الوزن، الناس يسألون دائماً عن الوزن». عادت أفكارها إلى طفل سارة بوتر. «قل سبعة أرطال وأوقية واحدة».

نظر توم إليها مندهشاً من سهولة تفكيرها بالكذبة، وعاد إلى المفتاح وأرسل الأرقام.

عندما وصل الرد، فكَّ الشيفرة وسجّله في كتاب البرقيات. «تهانينا نقطة، نبأ رائع نقطة، سُجّلت رسمياً زيادة في عدد سكان جانوس وفقاً للقانون نقطة، يعبّر رالف وبلوي عن بهجتهما نقطة، سيُبلّغ الجدّان فوراً نقطة». تنهّد، مدركاً الثقل في صدره، وانتظر لبعض الوقت قبل أن يذهب لينقل الرد إلى إيزابيل.

في الأسابيع التالية، أينعت إيزابيل، وغنّت في أثناء عملها حول الكوخ، ولم تستطع كبح نفسها عن إغداق توم بالعناق والقبلات طوال اليوم. أدهشته ابتسامتها؛ بفرحتها الغامرة الظاهرة. والطفلة؟ كانت الطفلة هادئة، وتثق بهما، ولم تعترض على الحضن الذي يحملها، والأيدي التي تعتني بها، والشفتين اللتين تقبّلانها وتنشدان لها: «ماما هنا يا لوسي، ماما هنا»، في أثناء هزّها لتنام.

لم يكن من الممكن إنكار أن الطفلة تنمو، وبدا أن بشرتها تتورّد بهالة رقيقة. استجاب نهدا إيزابيل لرضاعة الطفلة بدرٍّ الحليب مجدداً في أسابيع؛ «الإفراز» الذي وصفه د. غريفيثس بتفاصيل سريرية، وتغذّت الطفلة من دون تردّد إطلاقاً؛ كأن كلتيهما قد اتفقتا على عقدٍ من نوعٍ ما. لكن توم بدأ يبقى وقتاً أطول قليلاً في غرفة الفانوس في الصباح بعد إطفاء الضوء، وسيجد نفسه أحياناً يقلّب عائداً إلى صفحة سجل 27 نيسان؛ محدّقاً إلى المساحة الخالية.

يمكن أن تقتل رجلاً بالقوانين، وتوم يعرف هذا، لكنها أحياناً تكون ما يقف بين الإنسان والهمجية، بين الإنسان والوحوش. القوانين التي تنص على أن تأسر رجلاً بدلاً من قتله، والقواعد التي تنص على أن تحمل نقّالاتُ العدوَّ بعيداً عن الأرض المحايدة إضافة إلى رجالك، لكن دائماً ينتهي الأمر إلى سؤال بسيط: هل بمقدوره حرمان إيزابيل من هذه الطفلة؟ ماذا إن كانت الطفلة وحيدة في العالم؟ هل سيكون أمراً صائباً حقاً إبعادها عن امرأة تهيم بها، إلى مصير مجهول؟

في الليل، بدأ توم يحلم بأنه يغرق ويمدّ ذراعيه وساقيه يائساً ليجد أرضاً في مكان ما، لكنه لا يعثر على شيء يقف عليه، أو شيء يحمله طافياً باستثناء حورية سيتعلّق بذيلها، ومن ثمَّ ستسحبه عميقاً إلى مياه داكنة؛ فيفيق لاهثاً ومتعرّقاً، في حين تكون إيزابيل نائمة بسعادة بجانبه.

الفصل الثاني عشر

«طاب يومك يا رالف، سُررت برؤيتك. أين بلوي؟».

صرخ البحّار من مؤخر المركب، متوارياً عن الأنظار وراء بعض صناديق الفاكهة: «هنا في الخلف! كيف حالك يا توم؟ هل أنت سعيدٌ برؤيتنا؟».

«دائماً يا صاحبي. أنتما الرجلان اللذان تجلبان لي الشراب، أليس كذلك؟». وضحك حين أمسك الحبل. قرقر المحرّك القديم حين رسا المركب جانبياً، وهو يملأ الهواء بأدخنة ديزل كثيفة. كان الوقت منتصف حزيران، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يزورهما فيها مركب المؤن منذ وصول الطفلة قبل سبعة أسابيع.

«الثعلب الطائر مُعدٌّ، وقد جهّزت الرافعة أيضاً».

هتف رالف: «جيد، أنت مثابر يا توم! لا نريد الاستعجال الآن، أليس كذلك؟ هذا يوم رائع، ويمكن أن نقضي بعض الوقت؛ لأننا ينبغي أن نرى الوافدة الجديدة؛ بالمحصلة! أثقلت زوجتي هيلدا كاهلي مثل حصان حمل بأشياء للصغيرة، فضلاً عن الجدّين الفخورين».

بعد أن تجاوز رالف الممر الخشبي بخطوات واسعة، عانق توم بقوة. «تهانيَّ يا بني، هذا رائع حقاً، خاصة بعد... بعد كل ما حدث سابقاً».

فعل بلوي الشيء نفسه. «نعم، مبارك لكما، وماما ترسل أطيب تمنياتها أيضاً».

هام بصر توم إلى الماء. «شكراً، شكراً جزيلاً. أقدّر هذا».

عندما مشوا صعوداً على الدرب، كانت إيزابيل متوارية خلف سلك غسيل علّقت عليه ثياب الطفلة مثل رايات إشارة تخفق في الريح النشطة، وخصلات من شعرها قد أفلتت من اللفّة التي قد ثبّتتها بدبابيس.

مدَّ رالف ذراعيه إلى الأمام حين اقترب منها. «حسناً، لا يمكن أن يكون الأمر أوضح، أليس كذلك؟ لا شيء يجعل فتاة نضرة مثل إنجاب صغيرة. هناك ورود في وجنتيك وتألق في شعرك؛ كما حدث مع زوجتي هيلدا حين أنجبت كل واحدٍ من أبنائنا».

توردت إيزابيل من الإطراء، ومنحت الرجل العجوز قبلة سريعة، ومن ثمَّ قبّلت بلوي أيضاً الذي أحنى رأسه وتمتم: «تهانيَّ سيدتي».

قالت: «ادخلوا جميعاً، الماء في المغلاة ساخن، ويوجد كعك».

عندما جلسوا إلى الطاولة الخشبية القديمة، شرد بصر إيزابيل أحياناً إلى الطفلة النائمة في مهدها.

«كنتِ موضوع حديث كل امرأة في بارتاجو؛ بعد إنجابك طفلتك بمفردك. طبعاً، لم تهتز شعرة لزوجات المزارعين، فقد قالت ماري لينفورد إنها قد أنجبت ثلاثة من دون أي مساعدة. لكن أولئك في البلدة تأثّرن كثيراً، وآمل أن توم لم يكن عديم الفائدة؟».

تبادل الزوجان نظرة، وكاد توم يتكلم، لكن إيزابيل أمسكت يده وضغطت عليها بقوة. «إنه رائع لا يمكنني أن أتمنّى زوجاً أفضل منه». ظهرت دموع في عينيها.

قال بلوي: «إنها طفلة صغيرة وجميلة حقاً، مما يمكنني رؤيته». لكن كل ما ظهر من البطانية المنفوشة كان وجهاً رقيقاً في قلنسوة.

علّق رالف: «لها أنف توم، أليس كذلك؟».

«حسناً...»، تردّد توم. «لست واثقاً بأنك تريد لطفلة أن يكون لها أنفي!».

أطلق رالف ضحكة خافتة: «فهمت قصدك! حسناً سيد شربورن، يا صديقي، أريد توقيعك على النماذج، ويمكن أيضاً أن نملأها الآن».

شعر توم بالراحة حين نهض عن الطاولة. قال تاركاً بلوي يتكلّم بصوت خافت فوق المهد: «حسناً، تعال إلى المكتب يا قبطان أديكوت».

مدَّ الشاب يده إلى المهد وحرّك الخشخيشة للطفلة التي كانت مستيقظة تماماً آنذاك، فراقبتها بإمعان ما جعله يهزّها مجدداً. «أنتِ محظوظة لحصولك على خشخيشة فضية مزخرفة! إنها تلائم أميرة، لم أرَ قط شيئاً فخماً كهذا! الرسوم على المقبض وكل شيء... وبطانيتك الناعمة الرائعة...».

قاطعه صوت إيزابيل: «أوه، إنها باقية من... من قبل».

تورّد بلوي. «آسف، تدخّلت في ما لا يعنيني. أنا... من الأفضل أن أهتم بتفريغ الحمولة. شكراً على الكعك». وتراجع إلى الخلف عبر باب المطبخ.

صخرة جانوس

حزيران 1926

أيها العزيزان أبي وأمي،

حسناً، لقد وهبنا الله أميرة لتبقى بصحبتنا، وقد فتنت الطفلة لوسي قلبينا! هي طفلة صغيرة وجميلة؛ مثالية بالتأكيد. تنام هنيئاً وتتغذّى جيداً، ولا تثير أي مشكلة أبداً.

أتمنى أن تستطيعا رؤيتها وحملها. تبدو كل يوم مختلفة قليلاً، وأعرف أنه بحلول وقت رؤيتكما لها ستكون قد تجاوزت مرحلة الرضاعة، وستكون طفلة حين نعود إلى الساحل. لكن في هذه الأثناء، إليكما أقرب شيء يخصها، فقد ضمّنت الرسالة نعل حذائها في قطيفة! (ينبغي أن يكون المرء مبدعاً في منارة...). انظرا إلى التحفة المرفقة.

توم أب رائع، وتبدو جانوس مختلفة جداً الآن لأن لوسي هنا. حالياً العناية بها سهلة جداً، فأنا أضعها في سلّتها وتذهب معي حين أجمع البيض أو أحلب الماشية. قد يكون الأمر أصعب قليلاً حين تبدأ الزحف، لكنني لا أريد التسرّع بالحكم.

أريد أن أخبركما الكثير عنها، عن شعرها الداكن ورائحتها العطرة بعد غسلها. عيناها داكنتان جداً أيضاً، لكن لا يمكن أن أفيها حقها، فهي أروع حقاً من أن توصف. لم أعرفها إلا منذ بضعة أسابيع فقط، ولا أتخيل الآن حياتي من دونها.

حسناً، أيها الجدُّ والجدّة، من الأفضل أن أُنهي هذه الرسالة حتى يتمكّن المركب من الإبحار، وإلا ستنقضي ثلاثة شهور أخرى قبل أن تحصلا عليها!

مع خالص محبتي،

إيزابيل

جاشية: لقد قرأت للتو رسالتكما هذا الصباح. شكراً على بساط الأرنب الجميل، والدمية فاتنة، والكتب رائعة أيضاً. أشدو لها أغاني الأطفال طوال الوقت، لذا ستحب هذه الجديدة.

حاشية إضافية: توم يشكركما على السترة، فالشتاء أصبح قارساً هنا!

كان القمر الجديد بالكاد هلالاً معلّقاً في سماء معتمة، وتوم وإيزابيل جالسين على الشرفة في حين يتلاشى الضوء بعيداً فوقهما، ولوسي قد غطّت في النوم بين ذراعي توم.

قال محدّقاً إلى الطفلة: «من الصعب التنفّس بنحو مختلف عنها، أليس كذلك؟».

«ماذا تعني؟».

«هذا مثل نوع من التهويدة، أليس كذلك؟ عندما تنام على هذا النحو، ينتهي بي الأمر وأنا أتنفس بالإيقاع نفسه؛ كأنني أفعل أشياء في وقت ملائم حتى مطلع الفجر». قال لنفسه تقريباً: «هذا يخيفني».

ابتسمت إيزابيل. «إنه الحب فقط يا توم، ولا داعي إلى الخوف من الحب».

شعر توم برعشة تسري فيه، وكما لم يكن بمقدوره آنذاك أن يتخيّل العيش في ذلك العالم من دون لقاء إيزابيل، أدرك أن لوسي أيضاً تدفع نفسها داخل قلبه، وتمنّى أن يكون مكانها هناك.

يستطيع أي شخص عَمِلَ في منارة إبلاغك عن هذا: العزلة، والفتنة التي تُحدثها. مثل شرارات تتطاير من الفرن الذي يمثّل أستراليا، تتناثر تلك المنارات حولها، تومض وتخبو، وبعضها لا تراه إلا مجموعة صغيرة فقط من البشر، لكن عزلتها تنقذ القارة كلها من العزلة؛ فهي تحافظ على سلامة خطوط الشحن حين تبحر السفن آلاف الأميال لتجلب آلات وكتباً وثياباً، مقابل صوف وقمح، وفحم وذهب؛ ثمار الإبداع مقابل ثمار الأرض.

تغزل العزلة شرنقتها الغامضة، وتركّز الذهن على مكان واحد، ووقت واحد، وإيقاع واحد؛ دوران الضوء. لا تعرف الجزيرة أصواتاً

بشـرية أخـرى، أو آثـار أقـدام أخرى. فـي المنارات خارج البلاد يمكن أن تعيش أي قصة ترغب بسردها لنفسك، ولن يقول أحد إنك مخطئ: لا النوارس، ولا المواشير، ولا الريح.

هكـذا، تطفـو إيزابيـل أكثر فأكثر فـي عالمهـا الخيـري المبجّل، حيث تُستجاب التضرّعات، ويصل أطفال بإرادة الله وعمل التيارات. تقـول بتأمـل: «تـوم، أتسـاءل كم نحـن محظوظان؟». تراقب برهبة نمو ابنتها المباركة، وتستمتع بالأشياء التي تكتشفها كل يوم هذه المخلوقة الصغيـرة: تتقلّـب، تبـدأ الزحـف، تصدر أوّل الأصوات المتلعثمة. تتبع العواصف تدريجياً الشتاء إلى بقعة أخرى من الأرض، ويحلُّ الصيف، فتصبح السماء زرقاء باهتة، والشمس ذهبية وأكثر حدّة.

«تصبحيـن أكبـر». تضحـك إيزابيـل، وتحمـل لوسـي على وركها حين يسـلك الثلاثة الدرب إلى الشـاطئ المتلألئ للقيام بنزهة. يقطف توم أوراقاً مختلفة – أعشاباً بحرية – فتشمّها لوسي، وتمضغ أطرافها، ويتجهّم وجهها من الأحاسيس الغريبة. يجمع باقات صغيرة من الورود، أو يُريها الحراشـف اللامعة لسـمكة إسـقمري قد التقطها بين الصخور على جانب الجزيرة حيث يغور قاع المحيط في ظلمة مفاجئة. في ليالٍ ساكنة، ينتقل صوت إيزابيل عبر الهواء بإيقاع هادئ حين تقرأ للوسي حكايات سـنغلبوت وكودلباي في غرفة الأطفال، في حين يعمل توم على إجراء إصلاحات في السقيفة.

سـواء أكان مـا فعـلاه صوابـاً أم خطـأ، كانت لوسـي هناك آنذاك، وإيزابيل لا يمكن أن تكون أماً أفضل. كل ليلة في أثناء دعائها تحمد الله على أسرتها، وصحتها، وحياتها المباركة كثيراً، وتتضرّع لتستحق الهبات التي أُمطرت عليها.

توالـت أيـام وانقضـت فـي هـذا العالم الصغير مـن العمل والنوم

والتغذية والمراقبة. ذرفت إيزابيل دمعة حين وضعت في خزانة بعضاً من الأغراض الصغيرة للطفلة لوسي، وقالت لتوم: «يبدو أنها كانت صغيرة بالأمس فقط، والآن انظر إليها». كانت تطوي بعض الثياب، وتضع الأغراض بحرص في الخزانة - دمية، خشخيشة، أوّل أثوابها الصغيرة، زوج من أحذية الأطفال - كما قد تفعل أي أم، في أي مكان من العالم.

عندما لم تعد تحيض، شعرت إيزابيل بالتوتر، وبعد أن تخلّت عن كل أمل بالحصول على طفل آخر، أضحت توقّعاتها مربكة تقريباً، وقرّرت أن تنتظر وقتاً أطول قليلاً، وتستمر في الدعاء، قبل أن تقول أي شيء لتوم. لكن، وجدت أفكارها تهيم إلى أحلام يقظة بشأن أخ أو أخت للوسي، وشعرت بأن قلبها مثقل بالهموم، ومن ثمَّ عاد النزيف بقوة، أشدُّ وأكثر إيلاماً، بنحو لم تفهمه. سيؤلمها رأسها، وأحياناً ستتعرّق في الليل، ومن ثمَّ ستنقضي شهور من دون دم إطلاقاً. أخبرت توم: «سأذهب وأرى د. سومبتون حين نذهب في إجازتنا إلى البلاد، ولا داعي إلى القلق». واصلت من دون شكوى: «أنا قوية مثل ثور يا حبيبي، ولا شيء تقلق بشأنه». كانت مغرمة - بزوجها، وطفلتها - وذلك كافٍ.

انقضت الشهور، تميّزها الطقوس الخاصة للمنارة؛ إشعال الفانوس، رفع الراية، تفريغ حوض الزئبق لتصفية الزيت، كل المهمات المعتادة، والرد على المراسلات القاسية من «كبير المهندسين» التي يقول فيها إن أي ضرر يحدث لأنابيب البخار يكون نتيجة إهمال عامل المنارة فقط، وليس عيباً في الصناعة. تغيّر السجل من 1926 إلى

1927 في منتصف الصفحة: لم يكن من الممكن هدر الورق في إدارة المنارات؛ فقد كانت السجلات غالية الثمن. فكّر توم في عدم المبالاة المؤسساتية بمطلع العام الجديد، وكأن إدارة المنارات لم تُعجب بشيء مبتذل مثل انقضاء الوقت. وكان ذلك صحيحاً، إذ لم يختلف المنظر من الشرفة في يوم رأس السنة عنه في أمسية العام الجديد.

بين الفينة والأخرى، سيجد نفسه يعود مجدداً إلى صفحة 27 نيسان 1926، حتى أصبح السجل يُفتح هناك تلقائياً.

عملت إيزابيل بجد، فازدهرت رقعة الخضار، وبقي الكوخ نظيفاً، وغسلت ثياب توم ورقعتها، وطبخت الأشياء التي يحبها. نمت لوسي، ودار الضوء، وانقضى الوقت.

الفصل الثالث عشر

قالت إيزابيل: «لقد انقضى عام تقريباً، واقتربت كثيراً ذكرى ميلادها في السابع والعشرين من نيسان».

كان توم في الورشة، يكشط الصدأ عن مفصّلة باب ملتوية، فوضع المبرد جانباً. «أتساءل، ما تاريخ ميلادها الحقيقي؟».

«اليوم الذي وصلت فيه جيد كفاية بالنسبة لي». قبّلت إيزابيل الطفلة التي كانت جاثمة على وركها، تقضم رغيف خبز.

مدّت لوسي ذراعيها إلى توم.

«آسف يا صغيرتي، يداي متسختان، ومن الأفضل أن تبقي مع ماما الآن».

«لا أصدّق كم كبرت، فهي تزن طناً هذه الأيام». ضحكت إيزابيل، ودفعت لوسي لتستقر في مكان أعلى على وركها. «سأحضّر كعكة بمناسبة ذكرى ميلادها». استجابت الطفلة بأن دفعت رأسها في صدر إيزابيل ونثرت فتات الخبز عليها. «تلك السن تسبّب لك المتاعب، صحيح يا حلوتي؟ وجنتاك حمراوان جداً، فهل نضع بعض مسحوق الأسنان عليها؟». قالت حين استدارت إلى توم: «أراك بعد قليل يا حبيبي، فمن الأفضل أن أعود؛ لأن الحساء لا يزال على الموقد». وغادرت إلى الكوخ.

اخترق الضوء القوي النافذة، فظهر نضد عمل توم صقيلاً. كان عليه طرق المعدن لجعله مستقيماً، وتردّدت أصداء رنين كل ضربة بين

الجدران. ورغم أنه وجد نفسه يضرب بقوة أكبر من الضروري، لم يستطع التوقّف، ولم يكن هناك مفر من الشعور الذي أثاره الحديث عن ذكرى الميلاد والذكرى السنوية. شرع يعمل بالمطرقة مجدداً؛ بضربات ثقيلة، حتى طقطق المعدن من شدة القوة، فرفع النصفين المكسورين وحدّق إليهما.

رفع توم بصره عن الكرسي بذراعين، وكانت عدّة أسابيع قد انقضت منذ الاحتفال بذكرى ميلاد الطفلة.

قالت إيزابيل: «لا يهم ما تقرأه لها؛ لأنه سيكون جيداً أن تعتاد على سماع كلمات مختلفة». وضعت لوسي في حجره وذهبت لإنهاء تحضير الخبز.

قالت الطفلة: «داداداد».

قال توم: «بوبوبوب. إذاً، أتريدين قصة؟». مُدّت اليد الصغيرة، لكن بدلاً من أن تشير إلى كتاب الحكايات الخيالية الثقيل على الطاولة بينهما، أمسكت كتيباً ودفعته إليه. ضحك: «لا أظن أنك ستحبين هذا كثيراً، أيتها الأرنوبة الصغيرة، فلا توجد فيه صور مثلاً». مدَّ يده إلى كتاب الحكايات، لكن لوسي دفعت الكتيب في وجهه. «داداداد».

ضحك مجدداً: «إذا كان هذا ما تريدينه يا صغيرة!». فتحته الطفلة على صفحة، وأشارت إلى الكلمات، كما قد رأت توم وإيزابيل يفعلان. شرع توم: «لا بأس. تعليمات عمّال المنارة، رقم تسعة وعشرون: لا ينبغي أن يسمح عمّال المنارات إطلاقاً لأي اهتمامات – خاصة أو غيرها بالتأثير على أداء واجباتهم التي تعد بالغة الأهمية لسلامة الملاحة، ويجب أن يتذكّروا أن بقاءهم أو ترقيتهم في الإدارة تعتمد على طاعتهم الدقيقة للأوامر، والتزامهم بالقواعد المعتمدة لإرشادهم،

ومثابرتهم، ورصانتهم، والحفاظ على النظافة والترتيب في شؤونهم الشخصية والأسرية، إضافة إلى كل جزء من مؤسسة المنارات وعقاراتها. الرقم ثلاثون: إن سوء الإدارة، أو افتعال الشجار، أو الفسوق من جانب أي عامل»، توقف ليبعد أصابع لوسي عن منخريه، «ستجعل المذنب عرضة للعقوبة أو الفصل. واقتراف أي فرد من أسرة عمّال المنارات لأيٍّ من الجنح سيجعله عُرضة للاستبعاد من محطة المنارة». توقف، فقد سرت قشعريرة في أوصاله، وبدأ قلبه يخفق بقوة. عاد إلى الحاضر حين استقرّت يدٌ صغيرة على ذقنه، فنقلها إلى شفتيه شارد الذهن. كشّرت لوسي في وجهه وقبّلته بقوة.

قال: «هيا، لنقرأ الجميلة النائمة بدلاً من هذا». وأمسك كتاب الحكايات، رغم أنه وجد صعوبة في التركيز.

قال توم واضعاً الصينية بجانب إيزابيل: «كيف حالكما؟ شاي وخبز محمّص أيتها السيدتان!».

قالت إيزابيل: «انتبهي يا لوس». كانت قد جلبت الطفلة إلى السرير ذلك الأحد بعد ذهاب توم لإطفاء الضوء، وهي تتطاول نحو الصينية لتصل إلى كوب الشاي الصغير الذي قد حضّره توم لها أيضاً؛ بالكاد مثل حليب دافئ مع بعض اللون.

جلس توم بجانب إيزابيل، ووضع لوسي على ركبتيه وقال: «ها نحن ذا يا لولو». وساعدها في تثبيت الكوب بكلتا يديها حين شربت. كان يركّز على ما يقوم به، حتى انتبه لصمت إيزابيل، وحين استدار رأى دموعاً في عينيها.

«إيزي، إيزي، ما الخطب يا حبيبتي؟».

«لا شيء إطلاقاً يا توم، لا شيء إطلاقاً».

مسح دمعة عن وجنتها.

«أحياناً أشعر بسعادة غامرة وهذا يخيفني يا توم».

داعب شعرها، وبدأت لوسي تنفخ فقاقيع في الشاي. «اسمعي يا آنسة موفيه، ستشربين هذا، أم إنك قد اكتفيت الآن؟».

واصلت الطفلة تلويث الكوب بلعابها، سعيدة كما يبدو بالأصوات.

«لا بأس، أظن أننا سنتوقف قليلاً الآن». أبعد الكوب عنها بلطف، فتجاوزته وذهبت إلى إيزابيل وهي لا تزال تنفخ فقاقيع من بصاق.

قالت إيزابيل، ضاحكة رغم دموعها: «رائع! تعالي إلى هنا أيتها القردة الصغيرة!». ونفخت على بطنها، فقهقهت لوسي وتلوّت وقالت: «جدداً، جدداً!». فكرّرت إيزابيل ذلك.

قال توم: «أنتما الاثنتان سيئتان مثل بعضكما!».

«أحياناً أشعر أنني أنتشي قليلاً بمقدار حبّي لها ولك، وإذا طُلب مني تجاوز أحد هذين الخطّين المستقيمين فلن أستطيع».

قال توم: «لا توجد خطوط مستقيمة على جانوس، لذا لن تواجهي مشكلة في هذا».

«لا تسخر مني يا توم، أشعر بأنني كنت مصابة بعمى ألوان قبل لوسي. والآن، العالمُ مختلف تماماً، فهو أكثر إشراقاً ويمكنني الرؤية لمسافة أبعد. أنا في المكان نفسه بالضبط، والطيور نفسها، والماء على حاله، والشمس تشرق وتغرب كما فعلت دائماً، لكن لم أعرف قط السبب يا توم». قرّبت الطفلة إليها. «لوسي هي السبب... وأنت مختلف أيضاً».

«كيف؟».

«أظن أن هناك أجزاء منك لم تعرف أنها موجودة حتى جاءت إلينا، زوايا من قلبك قد أغلقتها الحياة». مرّرت إصبعاً على طول فمه.

«أعرف أنك لا تحب الحديث عن الحرب وكل تلك الأشياء، لكن، حسناً، لا بدّ أنها قد جعلتك متبلد الأحاسيس».

«قدماي، جعلت قدميَّ جامدتين كثيراً؛ الطين المتجمّد يفعل هذا بالرجل». استطاع توم إظهار ابتسامة باهتة من الدعابة التي ألقاها.

«توقف يا توم، فأنا أحاول قول شيء هنا. أتكلم بجدّية، بالله عليك، وأنت تقاطعني بإلقاء دعابة سخيفة؛ كأنني طفلة لا تفهم أو لا يمكن الوثوق بها لتعرف الحقيقة».

هذه المرة أصبح توم رزيناً جداً. «أنت لا تفهمين يا إيزابيل، ولا ينبغي لأي شخص متمدّن أن يفهم. وستكون محاولة وصف ذلك مثل نقل مرض». استدار نحو النافذة. «فعلت ما فعلته حتى يستطيع أشخاص مثلك ولوسي نسيان أن ذلك قد جرى، حتى لا يحدث مجدداً أبداً. الحرب لإنهاء كل الحروب، أتتذكّرين؟ لا مكان لهذا هنا، على هذه الجزيرة، وفي هذا السرير».

تجهّمت سيماء توم، ولمحت عزيمة لم ترها من قبل؛ العزيمة - كما تخيّلت - التي جعلته يجتاز كل ما قد مرَّ به.

شرعت إيزابيل مجدداً: «إنها مجرد... حسناً، لا أحد منا يعرف إن كان سيعيش سنة أخرى أو مئة عام أخرى، وأردت أن أتوثق بأنك تعرف كم أنا شاكرة لك يا توم؛ على كل شيء، خاصة على منحي لوسي».

تجمّدت ابتسامة توم مع الكلمات الأخيرة، فأسرعت إيزابيل تقول: «لقد فعلت يا حبيبي، فهمت كم أحتاج إليها، وأعرف أن ذلك كلّفك الكثير يا توم. لن يفعل رجال كثيرون ذلك من أجل زوجاتهم».

عاد توم منزعجاً من عالم أحلام ما، وشعر براحتيه تتعرّقان، وبدأ قلبه يخفق برغبة في الهروب؛ إلى أي مكان، لا يهم أين، ما دام بعيداً عن حقيقة الاختيار الذي قد اتخذه، والذي بدا فجأة ثقيلاً

مثل طوق حديدي.

قال: «حان وقت قيامي ببعض الأعمال. سأترككما لتتناولا الخبز المحمّص». وغادر الغرفة ببطء قدر استطاعته.

الفصل الرابع عشر

عندما انتهى العقد الثاني لتوم ومدّته ثلاث سنوات قبل الكرسمس عام 1927 تماماً، قامت الأسرة بأولى رحلاتها إلى بوينت بارتاجو، في حين أدار عامل مؤقت محطة المنارة. كانت زيارة الزوجين الثانية إلى البلاد هي أولى رحلات لوسي إلى البر الرئيس. وفي أثناء استعداد إيزابيل لوصول المركب، حاولت إيجاد عذر للتخلّف مع الفتاة الصغيرة في أمان جانوس.

كان توم قد سأل حين رآها - والحقيبة مفتوحة على السرير - تحدّق شاردة عبر النافذة: «هل أنتِ بخير يا إيز؟».

قالت بسرعة: «أوه، نعم، أتوثّق فقط من أنني حزمت كل شيء».

كاد يغادر الغرفة، لكنه استدار عائداً ووضع يده على كتفها. «هل أنت قلقة؟».

أخرجت جوربين ولفّتهما معاً على شكل كرة، وقالت وهي تضعهما في الحقيبة: «لا، إطلاقاً، على الإطلاق».

تلاشى القلق الذي حاولت إيزابيل إخفاءه عن توم حين رأت لوسي بين ذراعي فيوليت، وحين جاء والداها لاستقبالهم عند الرصيف. بكت أمها وابتسمت وضحكت في الوقت نفسه. «أخيراً!». وأمسكت رأسها مندهشة وهي تفحص كل بوصة من الطفلة، وتلامس وجهها

وشعرها ويدها الصغيرة. «يا حفيدتي المباركة، غريب أنني انتظرت عامين تقريباً لأنظر إليك! ألا تشبه صورة عمتي العجوز كليم؟».

كانت إيزابيل قد قضت شهوراً في تحضير لوسي للقاء الناس. «في بارتاجو يا لوس، يوجد الكثير من الناس، وهم جميعاً يحبونك. قد يكون الأمر غريباً قليلاً في البداية، لكن لا داعي إلى الخوف». عند أوقات النوم، سردت على مسمعَي الفتاة قصص البلدة، والناس الذين يعيشون فيها.

تفاعلت لوسي بفضول كبير مع العدد الكبير من البشر الذي أحاط بها آنذاك، وشعرت إيزابيل بوخزة حين قَبِلتْ أحرَّ التهاني من سكان البلدة على ابنتها الجميلة. حتى إن السيدة مويت العجوز داعبت الفتاة الصغيرة تحت ذقنها حين رأتها في متجر السلع الصغيرة في أثناء شرائها شبكة شعر، وقالت بكآبة: «آه أيتها الصغيرة، يا لها من نعمة». ما جعل إيزابيل تتساءل إن كانت تسمع أشياء.

عند وصولهم تقريباً، رافقت فيوليت الأسرة كلها إلى استوديو تصوير غوتشر، وأمام خلفية قماشية رُسم عليها سرخس وأعمدة يونانية، صُوِّرت لوسي مع توم وإيزابيل، ومع بيل وفيوليت، وبمفردها جالسة على كرسي خيزران فخم. طُلب نقل نسخ إلى جانوس، وإرسال أخرى إلى أقرباء خارج الوطن، وتأطير اثنتين من أجل رف الموقد والبيانو. ابتسمت فيوليت حين رأت نفسها مع لوسي على ركبتها، جالستين بجانب إيزابيل: «ثلاثة أجيال من نساء غرايسمارك».

كان جدّا لوسي شغوفين بها، وأيقنت إيزابيل أن الفتاة الصغيرة في المكان الملائم.

كانت فيوليت قد قالت لزوجها أمسية وصول الأسرة: «أوه يا بيل، الحمد لله، الحمد لله...».

لم تكن فيوليت قد رأت ابنتها منذ ثلاثة أعوام، وكانت لا تزال حزينة على إجهاضها الثاني، في أول إجازة قضاها الزوجان في البلاد. آنذاك، كانت إيزابيل قد جلست ورأسها على حضن أمها، تنتحب.

قالت فيوليت: «إنها طريقة الطبيعة، وينبغي أن تسحبي نفساً وتنهضي مجدداً. ستنجبين أولاداً إذا كانت هذه مشيئة الله لك. تحلّي بالصبر فحسب، وادعي، وتضرّعي إلى الله؛ فذلك أهم شيء».

لم تخبر إيزابيل الحقيقة كاملة، ولم تقل كم طفل رأته يُحمل حتى وقت المخاض، في الصيف القائظ أو الشتاء القارس، فقط ليلقى حتفه نتيجة حمّى قرمزية أو خناق، وتبقى ثيابه مطوية بعناية على أمل أن تلائم الوافد التالي. ولم تتطرّق أيضاً إلى صعوبة الرد على استفسار عادي بشأن عدد الأولاد الذين فُقدوا، وبدت ولادة ناجحة الخطوةَ الأولى في رحلة طويلة شائكة. في هذا المنزل الذي أطبق الصمت عليه قبل سنوات، عرفت فيوليت ذلك جيداً.

فيوليت غرايسمارك موثوقة ومطيعة، وزوجة محترمة لزوج محترم. أبقت الخزائن نظيفة من العث، وأحواض الأزهار خالية من الأعشاب الضارّة، وقلّمت الورود لتجعلها تزهر حتى في آب. كان شراب الليمون الذي تحضّره ينفد أولاً دائماً في مهرجان دار العبادة، وتُنتقى وصفتها لكعكة الفاكهة من أجل كتيب الأطعمة المحلي. صحيح، حمدت الله كل ليلة على نِعمه، لكن بعد ظهر بعض الأيام، حين تحوّل الشمس الحديقة من اللون الأخضر إلى الأشهب الداكن في أثناء تقشيرها البطاطا فوق المغسلة، لا تكون هناك فُسحة كافية في قلبها لتملأ

كل الحزن. عندما بكت إيزابيل في أثناء تلك الزيارة السابقة، أرادت فيوليت أن تنتحب معها، وتشدَّ شعرها وتخبرها أنها تعرف الأسى الناجم عن فقدان المولود البكر، وكيف أن لا شيء - لا شخص، أو مال، أو شيء موجود على هذه الأرض - يمكن أن يعوّض ذلك، وأن الألم لن ينتهي أبداً. أرادت إبلاغها كيف سيدفعها ذلك إلى الجنون، ويجعلها تتوسّل إلى الله ليمنحها طفلاً.

عندما خلدت إيزابيل إلى النوم بسكينة، وغفا بيل بجانب ما تبقى من جمرات مشتعلة، ذهبت فيوليت إلى خزانة ثيابها، وأخرجت علبة البسكويت القديمة، ومن ثمَّ بحثت في داخلها، فأبعدت جانباً الدبابيس القليلة، ومرآة صغيرة، وساعة، ومحفظة، حتى وجدت المغلّف الذي بليت حوافه آنذاك نتيجة أعوام من الاستعمال. جلست على السرير، وتحت الضوء الأصفر للمصباح، بدأت تقرأ النص المخربش، رغم أنها تحفظ الكلمات غيباً.

عزيزتي السيدة غرايسمارك،

آمل أن تسامحيني على الكتابة لك: أنتِ لا تعرفينني، اسمي بتسي بارمنتر وأعيش في كنت.

كنت قبل أسبوعين أزور ابني فريد الذي أُعيد من الجبهة نتيجة إصابته بجروح شظايا سيئة. كان في المستشفى العام الجنوبي في ستوربريدج، وأختي تعيش قريباً منه، لذا استطعت زيارته كل يوم.

حسناً، أنا أكتب لك لأنهم في أصيل أحد الأيام أحضروا جندياً أسترالياً جريحاً عرفت أنه ابنك هيو. كان في حالٍ يرثى لها؛ لأنه كما ستعرفين قد أُصيب بالعمى وفقد ذراعاً، لكن لا يزال بمقدوره نطق بعض الكلمات، وقد تكلم بحنان كبير عن

أسرته ومنزله في أستراليا. كان غلاماً شجاعاً جداً، ورأيته كل يوم. وفي إحدى المراحل، كانت الآمال كبيرة بأنه سيتعافى، لكنه أُصيب كما يبدو بتسمم الدم، وتدهورت صحته.

أردت فقط أن تعرفي أنني أحضرت له وروداً (كانت الخزامى الباكرة تزهر آنذاك وهي أزهار جميلة جداً) وبعض لفائف التبغ. أظن أنه وابني فريد اتفقا جيداً، وقد أكل بعض كعكات الفاكهة التي أحضرتها يوماً، فسررت كثيراً برؤية ذلك، وبدا أنها تجعله سعيداً. كنت هناك في الصباح حين تدهورت حالته، وتضرّعنا نحن الثلاثة إلى الله، وسكّن الأطباء ألمه بأفضل ما يستطيعون، وأظن أنه لم يعانِ كثيراً في النهاية.

أودُّ القول إننا جميعاً نقدّر التضحية الكبيرة التي قدّمها ابنك الشجاع. ذكر شقيقه ألفي، وأتضرّع أن يعود إليكِ سالماً.

آسفة لتأخري في الكتابة إليك، لكن ابني فريد تُوفي بعد أسبوع من وفاة ابنك، وتطلّب ذلك القيام بأشياء كثيرة كما تتخيّلين.

مع أطيب التمنيات والتحيّات

بتسي بارمنتر

لم يكن هيو يعرف الخزامى إلا من كتب الصور، كما ظنّت فيوليت، وأراحها أنه ربما قد لمس واحدة وتحسّس شكلها. وتساءلت إن كان للخزامى شذا.

تذكّرت كيف بدا ساعي البريد وقوراً ويشعر بالذنب تقريباً بعد بضعة أسابيع حين سلّمها الرزمة الملفوفة بورق بني ومربوطة بخيط، ومعنونة إلى بيل. شعرت بانزعاج شديد؛ لأنها لم تقرأ حتى الطباعة على النموذج: لم تكن بحاجة إلى ذلك، فقد تلقّت نساء كثيرات

مجموعة هزيلة من أشياء تكوّن حياة أبنائهن.

كان نموذج الاستلام من ملبورن يقول:

سيدي العزيز،

نرسل إليك مع هذا، بوساطة بريد مسجّل منفصل، حزمة واحدة تحتوي أغراض الراحل رقم 4497 الجندي غرايسمارك، الكتيبة الثامنة والعشرون، وفقاً للقائمة المرفقة.

سأكون شاكراً جداً إذا تكرّمت بإبلاغنا أنها قد وصلت سالمة إلى يدك، وبتوقيع وصل الاستلام المطبوع المرفق وإعادته.

المخلص،

الرائد ج. م. جونسون

الضابط المسؤول، سجلات القاعدة

كان قد كُتبت على قصاصة ورق منفصلة من «متجر الأدوات، 110 طريق غريهوند، فولهام، لندن إس دبليو» لائحة بالأغراض. دُهشت فيوليت من شيء حين قرأت اللائحة: «مرآة حلاقة، حزام، ثلاثة بنسات، ساعة يد بشريط جلدي، هرمونيكا». كم بدا غريباً وجود آلة ألفي الموسيقية بين أغراض هيو، ومن ثمَّ نظرت مجدداً إلى اللائحة، والنماذج، والرسالة، والرزمة، وقرأت الاسم بحرص. أ. هـ. غرايسمارك، وليس هـ. أ. غرايسمارك؛ ألفريد هنري لا هيو ألبرت، فركضت لتجد زوجها، وصرخت: «بيل! أوه بيل! هناك خطأ شنيع جداً».

تطلّب الأمر مراسلات عديدة، على ورق أسود الحواف من جانب الزوجين غرايسمارك، ليكتشفا أن ألفي قد توفي بفاصل يوم عن هيو، بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى فرنسا. انضم الشقيقان إلى الفوج نفسه في اليوم ذاته، وكانا فخورين برقمي خدمتهما المتعاقبين. تجاهل عامل

الإشارة الذي رأى بأم عينيه هيو يُحمل حياً على نقّالة، التعليمات بأن يرسل برقية «قُتل في معركة» من أجل أ. ه. غرايسمارك، مفترضاً أن المقصود هو ه. أ. كان أول شيء أخبر فيوليت بوفاة ابنها الثاني هو الرزمة الصغيرة بين يديها، وقالت إنها غلطة يمكن اقترافها بسهولة كبيرة في ساحة معركة.

عندما عادت إيزابيل آخر مرة إلى المنزل الذي ترعرعت فيه، تذكّرت العتمة التي أطبقت عليه مع وفاة شقيقيها، وكيف هيمن الشعور بالخسارة على حياة أمها مثل لطخة. بحثت إيزابيل في المعجم، وهي لا تزال في الرابعة عشرة من عمرها آنذاك؛ لأنها كانت تعرف أنه إذا خسرت زوجة زوجاً، فهناك كلمة جديدة تصف حالها: تصبح أرملة، والزوج يغدو أرملاً. لكن، إذا فقد والدان ابناً، فلم يكن هناك نعت خاص لحزنهما، ويبقيان رغم ذلك أماً وأباً، حتى إذا لم يعد لديهما ابن أو ابنة. بدا ذلك غريباً، وفي ما يخص حالتها، تساءلت إن كانت لا تزال شقيقة، بعد أن مات شقيقاها المحبوبان.

بدا الأمر وكأن قذيفة من الجبهة الفرنسية قد انفجرت في وسط أسرتها، مُحدثة حفرة لا تستطيع ملأها أو ترميمها أبداً. ستقضي فيوليت أياماً وهي ترتّب غرفتي ابنيها، وتلمّع الأُطر الفضية لصورهما، في حين أطبق الصمت على بيل. وبغض النظر عن موضوع الحديث الذي حاولت إيزابيل إشراكه فيه، لم يرد، أو حتى يخرج من الغرفة. كانت مهمتها - كما قرّرت - ألا تسبّب لوالديها المزيد من الإزعاج أو القلق، فهي جائزة الترضية؛ إنها من بقيت لهما بعد رحيل ابنيهما.

آنذاك، أكّدت سعادة والديها لإيزابيل أنها قد فعلت الصواب بالاحتفاظ بلوسي، وتلاشت أي شكوك قائمة لديها، فقد داوت الطفلة حياة أشخاص كثيرين: لا حياتها وتوم فقط، وإنما حياة هذين الشخصين اللذين قد أذعنا تماماً لخسارتهما.

عند غداء الكريسماس، أثنى بيل غرايسمارك على الطفلة، وحمد الله بصوت مختنق لأنه وهبهم لوسي. في المطبخ لاحقاً، أسرّت فيوليت لتوم أن زوجها بدأ يتفاءل مجدداً بالحياة من اليوم الذي سمع فيه عن ولادة لوسي. «هذا يفعل العجائب؛ كأنه دواء سحري».

حدّقت عبر النافذة إلى الخطمي الزهري. «تلقى بيل النبأ بشأن هيو بصبر، لكن عندما اكتشف وفاة ألفي، أثّر ذلك عليه سلباً، ولم يصدّق ما جرى لوقت طويل، وقال إن حدوث مثل هذا الشيء مستحيل. قضى شهوراً وهو يكتب إلى هذا المكان وذاك، عاقداً العزم على إثبات أنها غلطة، وبطريقة ما، كنت سعيدة بذلك، وفخورة بأنه يتوثّق من النبأ. لكن، الكثير من الناس في الجوار قد فقدوا أكثر من ابن واحد، وعرفت أن ذلك صحيح.

«في النهاية، خمدت ناره، ووهنت عزيمته». سحبت نفساً. «لكن، هذه الأيام -»، رفعت بصرها وابتسمت بتعجّب، «عاد هو نفسه مجدداً، بفضل لوسي. أظن أن ابنتك الصغيرة تعني لبيل كما تعني لك تماماً؛ فقد ردّته إلى العالم». تطاولت وقبّلت وجنة توم. «شكراً لك».

عندما شُغلت المرأتان بتنظيف الأطباق بعد الغداء، جلس توم في الخلف على الأعشاب الظليلة مع لوسي؛ حيث كانت تمشي بخطوات قصيرة، وتعود إليه بين الفينة والأخرى لتقبّله. «ياه، شكراً يا صغيرتي!». ضحك بصوت خافت: «لا تأكليني». نظرت إليه، بتينك العينين اللتين

لاحقتا عينيه مثل مرآة، حتى شدّها إليه ودغدغها مجدداً.

قال صوت من الخلف: «آه! الأب المثالي». استدار توم ورأى حماه يقترب.

«فكّرت في أن آتي وأتوثّق من أنكما تتفقان معاً. تقول في دائماً إنني كنت بارعاً مع أبنائنا الثلاثة». عندما خرجت الكلمة الأخيرة من فهمه تجهّم وجهه قليلاً، لكنه استعاد رباطة جأشه ومدَّ ذراعيه. «تعالي إلى جدّك، تعالي وشدّي لحيته. آه، أميرتي الصغيرة!».

ترنّحت لوسي ومدّت ذراعيها. قال وهو يرفعها: «تعالي إلى هنا». مدّت يدها إلى الساعة المعلّقة في جيب صدرته، وشدّتها إلى الخارج.

«تريدين أن تعرفي الوقت، أليس كذلك؟ مجدداً؟». ضحك بيل، وبدأ عملية فتح الغلاف الذهبي وعرض العقربين لها. أغلقتها فوراً، ودفعتها إليه ليعيد فتحها. قال لتوم: «هذا صعب على فيوليت، كما تعرف».

نفض توم الأعشاب عن سرواله حين نهض. «ما الأمر يا بيل؟».

«أن تبقى من دون إيزابيل، والآن ستفتقد هذه الصغيرة...». توقف. «لا بدّ أن هناك أعمالاً يمكنك القيام بها في بارتاجو...؟ أنت حاصل على إجازة جامعية، بالله عليك...».

نقل توم ثقله بارتباك إلى قدمه الأخرى.

«أوه، أعرف ما يقولونه: عامل المنارة يبقى كذلك دائماً».

قال توم: «هذا ما يقولونه».

«وهل هذا صحيح؟».

«تقريباً».

«لكن، يمكنك أن تترك إذا أردت هذا فعلاً!».

فكّر توم قليلاً قبل أن يرد: «بيل، يستطيع رجلٌ أن يترك زوجته، إذا أراد ذلك حقاً، لكن هذا لا يجعل الأمر صائباً».

رمقه بيل بنظرة.

«ليس منصفاً أن تجعلهم يدرّبونك وتحصل على الخبرة، ومن ثمَّ تغادر فجأة؛ خاصة بعد أن اعتدت الأمر». رفع بصره إلى السماء في أثناء إمعانه التفكير. «أنا أنتمي إليها، وإيزابيل تحبها».

مدّت الطفلة ذراعيها إلى توم الذي نقلها إلى وركه بحركة لا إرادية.

«حسناً، أنت لا تمانع أن تعتني بفتاتيَّ؛ وهذا كل ما أطلبه».

«سأبذل كل ما بوسعي، وأعدك بهذا».

كان أهم تقليد في بوينت بارتاجو هو مهرجان دار العبادة؛ وهو تجمّعٌ لسكانٍ من البلدة وخارجها، وقد أسسه منذ أمدٍ بعيد شخص لديه رؤية للأعمال قد رأى أفضلية إقامة مناسبة لجمع التبرّعات في يوم لا عذر فيه لأحد، ليقول إنه مشغول جداً بالعمل ولا يمكنه الحضور. ونظراً إلى أنه لا يزال وقت الكريسماس، لم يكن لديهم عذر للبخل أيضاً.

إضافة إلى بيع الكعك والطوفي، ومرطبانات مربّى تفور عادة تحت أشعة الشمس القاسية، اشتهرت المناسبة بأحداثها الرياضية والجديدة: سباق البيضة والملعقة، وسباق الأقدام الثلاث، وسباق الكيس؛ كلها جزء رئيس من اليوم. لا تزال مسابقة رمي جوز الهند قائمة، رغم أنهم قد أوقفوا مسابقة الرمي بعد الحرب؛ لأن المهارات المكتسبة حديثاً للرجال المحليين كانت تعني خسارة المال.

كانت المسابقات مفتوحة للجميع، والمشاركة شيء في منتهى السهولة، والأسر تجعل ذلك اليوم مميزاً؛ فتُشوى فطائر ونقانق فوق نصف برميل سعة أربعة وأربعين غالوناً، وتُباع بثمن ستة بنسات للقطعة.

جلس توم مع لوسي وإيزابيل على بطانية في الظل، يأكلان نقانق في كعك، في حين تفتّت لوسي غذاءها وتوزّعه مجدداً على الطبق بجانبها.

قالت إيزابيل: «كان الصبيّان عدّاءين رائعين، واعتادا الفوز في سباق ثلاث الأقدام. وأظن أن أمي لا تزال تحتفظ بالكأس التي فزت بها في مسابقة الكيس في إحدى السنين».

ابتسم توم. «لم أكن أعرف أنني قد تزوجت رياضية بطلة».

صفعت ذراعه مازحة. «أخبرك فقط عن أساطير أسرة غرايسمارك».

كان توم يهتم بالفوضى التي تهدّد بالفيض من طبق لوسي حين ظهر فتى يرتدي بزّة مارشال بجانبهم، حاملاً ورقة وقلم رصاص، قال: «عذراً، هل هذه ابنتك؟».

أفزع السؤال توم. «عفواً؟».

«أسأل فقط إن كانت هذه ابنتك».

رغم أن كلمات خرجت من فم توم، إلا أنها لم تكن مترابطة.

استدار الفتى إلى إيزابيل. «هل تلك ابنتك يا سيدتي؟».

عبست إيزابيل لحظة، ثمّ أومأت ببطء حين فهمت المراد. «أنت تحضّر لسباق الآباء؟».

«هذا صحيح». رفع قلم الرصاص إلى الصفحة وسأل توم: «كيف تهجي اسمك؟».

نظر توم مجدداً إلى إيزابيل، لكنه لم يرَ أثراً للانزعاج على وجهها. داعبته: «يمكنني تهجيته إذا كنت قد نسيت».

انتظر توم أن تفهم سبب قلقه، لكن ابتسامتها لم تهتز. أخيراً، قال: «ليست نقطة قوتي حقاً؛ الجري».

قال الفتى رداً على ما بدا أنه أول رفض يتعرّض له: «لكن كل الآباء يفعلون هذا».

انتقى توم كلماته بعناية. «لن أتجاوز دورة التصفيات».

عندما ابتعد الفتى ليجد المشارك التالي، قالت إيزابيل بلطف: «لا عليكِ يا لوسي، سأشارك في سباق الأمهات بدلاً من ذلك. على الأقل، أحد والديك مستعد لتقبّل السخرية من أجلك». لكن توم لم يبتسم بالمقابل.

غسل د. سومبتون يديه في أثناء ارتداء إيزابيل ثيابها خلف الستارة. كانت قد وفت بوعدها لتوم بزيارة الطبيب حين يعودان إلى بارتاجو.

قال: «لا مشكلة من الناحية البيولوجية».

«إذاً، ما الأمر؟ هل أنا مريضة؟».

قال الطبيب وهو يكتب ملحوظاته: «لا إطلاقاً، إنه التغيير في الحياة فقط. أنت محظوظة كفاية لأنك أنجبتِ طفلة، لذا لن يكون الحمل صعباً جداً عليك مقارنة بامرأة أخرى، حين تلدين على غير المعتاد باكراً هكذا. في ما يتعلّق بالأعراض الأخرى، حسناً، أخشى أنك ينبغي أن تكشّري وتتحمّليها؛ لأنها ستزول خلال سنة أو نحو ذلك، وهذه هي الحال». ابتسم لها بمرح. «ثمَّ سيكون الأمر مريحاً، وستتجاوزين كل مشكلات الحيض، وستحسدك بعض النساء على هذا».

في طريق عودتها إلى منزل والديها، حاولت إيزابيل ألا تبكي. كانت لديها لوسي وتوم؛ في وقت خسرت فيه نساء كثيرات إلى الأبد أعزَّ الناس إليهن. سيكون جشعاً أن ترغب بشيء أكثر.

بعد بضعة أيام، وقّع توم أوراق عقد آخر مدّته ثلاث سنوات، وأبدى مسؤول المقاطعة الذي جاء من فريمانتل ليشرف على الإجراءات الشكليّة، اهتماماً كبيراً بخطّه وتوقيعه، وقارنهما بوثيقته الأصلية؛ لأن

أي علامة على رعشة تتسلّل إلى يده لن تسمح له بالعودة إلى العمل. كان التسـمّم بالزئبق شـائعاً، وإذا اسـتطاعوا ملاحظته في المرحلة التي يسبّب بها اهتزاز الخط، فمن الممكن أن يتفادوا إرسال عامل سيُصاب على الأرجح بالخبل في نهاية مدّة عمله التالية.

الفصل الخامس عشر

كان الاحتفال الديني الخاص بلوسي، والمقرّر أصلاً في الأسبوع الأول من إجازتهم، قد تأجّل بسبب «التوعّك» المطوّل للموقّر نوركلس، لكنه جرى أخيراً قبل يوم من عودتهم إلى جانوس في بداية كانون الثاني. في ذلك الصباح القائظ، مشى رالف وهيلدا إلى دار العبادة مع توم وإيزابيل، وكان الظل الوحيد المتوافر في أثناء انتظارهم فتح الأبواب تحت مجموعة من أشجار أوكالبتوس بجانب شواهد القبور.

قال رالف: «لنأمل ألا يكون نوركلس واعياً».

قالت هيلدا: «رالف! حقاً!». لتغيير الموضوع، أشارت إلى حجر غرانيتي جديد على بعد بضع أقدام قائلة: «يا للأسف!».

سألت إيزابيل: «ما الأمر يا هيلدا؟».

«أوه، الطفلة المسكينة وأبوها اللذان غرقا. على الأقل حظيا بنصَب تذكاري أخيراً».

تجمّدت إيزابيل، وخشيت للحظة أن تفقد وعيها، وأضحت الأصوات حولها بعيدة وفجأة مدوّية. كافحت لتميّز الحروف الذهبية البرّاقة على الحجر: «إحياءً لذكرى فرانك جوهانس رونفيلدت، زوج حنّا الحبيب، وابنتهما الغالية غريس ألين. ليرحمهما الله». وتحت ذلك. «سليغ سيند داي دا ليد تراغن». رأت أزهاراً نضرة عند قاعدة النَّصب، وفي مثل تلك الحرارة، بدا من المستحيل أن تكون قد وُضعت هناك منذ أكثر من ساعة.

سألت وهي تحسُّ بوخز ينتشر إلى يديها وقدميها: «ماذا جرى؟».

قال رالف هازاً رأسه: «أوه، شيء مروّع أصاب حنّا بوتس».

تعرّفت إيزابيل الاسم فوراً. «سبتيموس بوتس، قطب المال العجوز كما يدعونه، أثرى رجل في المنطقة جاء إلى هنا من لندن قبل خمسين عاماً يتيماً ولا يملك شيئاً، وجنى ثروة من تجارة الأخشاب، وقد توفيت زوجته حين كانت ابنتاه لا تزالان صغيرتين. ما اسم الأخرى يا هيلدا؟».

«غوين، حنّا هي الكبرى، وذهبت كلتاهما إلى تلك المدرسة الداخلية الممتازة في بيرث».

«ثمَّ بعد سنوات، أنهت حنّا تخرّجها وتزوّجت ألمانياً... حسناً، لم يتكلم بوتس العجوز إليها بعد ذلك، وقطع عنها المال. عاش الزوجان في كوخ متداعٍ بجانب محطة الضخ، وزارهما الرجل العجوز أخيراً حين ولدت الطفلة. بأي حال، وقع شجار في مناسبة الجندي الأسترالي، قبل عام من الآن -».

حذّرته هيلدا بنظرة: «ليس الآن يا رالف».

«أخبرهما فقط...».

«هذا ليس المكان أو الوقت الملائم». استدارت إلى إيزابيل. «لنقل فقط إن سوء فهم وقع بين فرانك رونفيلدت وبعض السكان المحليين، وانتهى الأمر بأن قفز إلى قارب تجذيف مع الطفلة. هما... حسناً، هاجموه لأنه ألماني، أو هذا ما عرفناه. لا حاجة إلى ذكر كل هذا في مناسبة الاحتفال الديني للصغيرة، ومن الأفضل نسيان الأمر».

كانت إيزابيل قد توقفت عن سحب أنفاسها في أثناء إصغائها إلى الحكاية، لكنها لهثت آنذاك حين طلب جسدها هواء.

قالت هيلدا، لتُظهر موافقتها: «نعم، أعرف! والأمر يصبح أسوأ...».

نظر توم بإلحاح إلى إيزابيل وعيناه واسعتان، وحبّات العرق على شفته. تساءل إن كان بمقدور الآخرين سماع خفقان قلبه الذي يهدر بعنف.

تابع رالف: «حسناً، لم يكن الرجل بحّاراً، وكان قلبه عليلاً منذ أن كان طفلاً. وفقاً لكل الروايات، لم يكن مستعداً لتلك التيارات. هبّت عاصفة ولم يرَهما أحد أو يسمع شيئاً عنهما ثانية، وقد غرقا بالتأكيد. عرض بوتس العجوز مكافأة لمن يجلب معلومة: ألف جنيه! ما أدهش الجميع. كان ذلك سيريح أي شخص يعرف شيئاً من العمل بالخشب، وقد خطر لي حتى أن أبحث عنهما بنفسي! انتبها، أنا لا أحب الألمان، لكن الطفلة... كان عمرها بالكاد شهرين، ولا يمكن التهاون في ما يخص طفلة، أليس كذلك؟ فهي مخلوقة صغيرة».

تنهّدت هيلدا: «المسكينة حنّا لم تتعافَ مطلقاً، وأقنعها والدها بوضع النَّصب التذكاري بعد بضعة شهور». توقفت لتشدَّ قفازيها. «غريب كيف تتغيّر الحياة، أليس كذلك؟ وُلدت مع مالٍ أكثر مما يمكنها إنفاقه، ودرست حتى التحقت بجامعة سيدني لتحصل على إجازة في شيء ما، وتزوّجت حب حياتها، وتراها الآن أحياناً تهيم في الأرجاء؛ وكأن لا منزل لديها لتأوي إليه».

آنذاك، أحسّت إيزابيل بأنها تنغمس في الجليد، والأزهار على النصب توبّخها، وتهدّدها بقرب وجود الأم، فاستندت على شجرة وهي تشعر بدوار.

سألت هيلدا، قلقة من التغيير المفاجئ في لونها: «هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟».

«نعم، إنها الحرارة فحسب، وسأكون بخير خلال دقيقة».

فُتحت الأبواب الخشبية الثقيلة وخرج رجل الدين، وسأل مغمضاً عينيه من الضوء: «إذاً، جميعكم جاهزون لليوم المنشود؟».

«ينبغي أن نقول شيئاً، الآن! يجب أن نوقف الاحتفال الديني...».

كان صوت توم خافتاً وملحّاً حين واجه إيزابيل في الحجرة الداخلية في أثناء قيام بيل وفيوليت بتقديم حفيدتهما إلى الضيوف في دار العبادة.

«توم، لا يمكننا». كانت أنفاسها ضعيفة ووجهها شاحباً. قالت: «فات الأوان!».

«ينبغي أن نصوّب هذا! ينبغي أن نخبر الناس، الآن».

«لا يمكننا!». كانت لا تزال تشعر بالدوار، وبحثت عن أي كلمات قد تبدو منطقية. «لا يمكن أن نفعل هذا بلوسي! نحن الأبوان الوحيدان اللذان عرفتهما. إضافة إلى هذا، ماذا سنقول؟ أننا تذكّرنا فجأة أنني لم أنجب طفلة فعلاً؟». تجهّم وجهها. «ماذا عن جثة الرجل؟ لقد مضينا بعيداً في هذا». أخبرها حدسها أن تكسب الوقت، وشعرت بارتباك كبير، ورهبة شديدة من فعل أي شيء، فحاولت أن تبدو هادئة. «سنتكلم عن هذا لاحقاً، لكن الآن ينبغي أن نُنهي الاحتفال». لمعت القزحيتان الخضراوان لعينيها في الضوء، ورأى توم الخوف فيهما، وعندما تقدّمت خطوة منه تراجع؛ وكأنهما مغناطيسان متعاكسان.

سُمع وقع خطوات رجل الدين رغم تمتمات الضيوف في دار العبادة حين اقترب، وشعر توم بدوار في رأسه. «في المرض والصحة، وفي السرّاء والضرّاء». رنّت الكلمات التي نطقها في دار العبادة هذه قبل أعوام، في دماغه.

ابتسم رجل الدين: «الجميع جاهزون من أجلكم».

شرع الموقّر نوركلس بالاحتفال الديني إلى جانب توم وإيزابيل ورالف وفريدا قريبة إيزابيل.

حمل الجدّان الشموع، وترنّما بالأجوبة عن أسئلة القس: «هل

تتبرّأ أنت، باسم هذه الطفلة، من الشرير وكل أفعاله...؟».

ردَّ الجدّان معاً: «أتبرّأ منها كلها».

عندما تـرّددت أصـداء الكلمـات بين الجدران الحجرية، نظر توم عابساً إلى نعليه الجديدين اللامعين وركّز على بثرة حرق على عقبه. ومع كل وعد، ثنى توم قدمه على الجلد القاسـي، مسـبباً الألم لنفسه.

بـدت لوسـي مسـتمتعة بالألعـاب النارية خـارج النوافذ الزجاجية الملوّنـة، وخطـر لإيزابيـل - حتـى فـي محنتهـا - أن الطفلـة لـم ترَ قط مثل تلك الألوان الرائعة.

«أوه أيها الرحيم، ليكن الإنسـان الخاطئ في هذه الطفلة مدفوناً تماماً، وليكبر الإنسان الجديد فيها...».

فكّـر تـوم فـي القبـر المجهـول علـى جانـوس، ورأى وجه فرانك رونفيلـدت حيـن غطّـاه بالشـراع - خاليـاً مـن أي تعبيـر - ما جعل توم المتهم.

فـي الخـارج، مـلأت ضوضـاء أطفال يلعبون كريكت فرنسـي في سـاحة دار العبـادة الهـواء بضربـات وصرخـات: «هـدف». فـي الصف الثانـي مـن المقاعـد، همسـت هيلـدا أديكوت لجارتهـا: «انظري، هناك دمعـة فـي عيـن تـوم. هـذا يـدل على أن قلبه مرهف، ورغم أنه قد يبدو رجلاً قاسياً مثل صخرة، لكن قلبه رقيق حقاً».

حمـل نوركلـس الطفلـة بذراعيه وقال لرالف وفريدا: «سـمّيا هذه الطفلة».

قالا: «لوسي فيوليت».

قـال رجـل الديـن وهـو يسـكب الماء علـى رأس الطفلة الصغيرة التـي أطلقـت صرخـة احتجـاج: «لوسـي فيوليـت». وسـرعان مـا رافق

ذلـك عـزف السـيدة رافرتـي مقطوعـة موسـيقية على الأرغن الخشـبي البالي.

قبـل أن ينتهـي الطقـس الدينـي، اعتـذرت إيزابيـل وأسـرعت إلى المرحاض في نهاية الممر. كانت الفُسحة الآجرية الصغيرة حارّة مثل موقـد، وأبعـدت الذبـاب قبـل أن تميـل لتتقيأ بعنف. تعلّقت وزعة على الجدار، تراقبها بصمت، وعندما شـدّت السلسـلة، هربت إلى السـقف القصديري؛ نحو بر الأمان. عندما انضمّت مجدداً إلى والديها، قالت بضعـف: «معـدة متهيّجـة» لتتفـادى استفسـارات أمها، ثمَّ مدّت ذراعيها إلى لوسي، وعانقتها بقوة جعلت الطفلة تضع يديها على صدر إيزابيل وتدفع نفسها بعيداً قليلاً.

في الغداء الذي تلا الاحتفال في فندق بالاس، جلس والد إيزابيل إلـى الطاولـة مـع فيوليـت التـي ارتدت قميصها القطنـي الأزرق الفاتح بالياقة البيضاء المزركشة. كان مشد خصرها يضغط عليها، والتسريحة التـي عقـدت بهـا شـعرها تسـبّب لهـا صداعـاً، لكنها عاقـدة العزم بكل حـال علـى ألا يفسـد شـيء ذلـك اليـوم لأوّل حفيـدة لها، وكما فهمت من إيزابيل آنذاك، الوحيدة أيضاً.

«تـوم لا يبـدو بخيـر، أليـس كذلـك يا في؟ لم يكن عادة يكثر من الشراب لكنه يشرب كثيراً اليوم». هزَّ بيل كتفيه وكأنه يقنع نفسه. «إنه يحتفل بالطفلة، كما أفترض».

«أظن أنه متوتر، هذا يوم مهم. تبدو إيزابيل سريعة الغضب أيضاً، ربما بسبب مشكلة المعدة تلك».

إلى المشرب مع توم، قال رالف: «أحدثت تلك الطفلة الصغيرة كل الفرق لسيدتك، أليس كذلك؟ تبدو مثل امرأة جديدة».

أدار تـوم كأسـه الفارغـة مـراراً فـي يديـه. «أظهـرت جانباً مختلفاً منها، صحيح».

«عندما أتذكّر كيف فقدت الطفل...».

فزع توم بنحو لا إرادي، لكن رالف تابع: «... أول مرة. كان الأمر مثل رؤية طيف حين ذهبت إلى جانوس، والمرة الثانية بدت أسوأ».

«نعم، كانت تلك أوقاتاً عصيبة لها».

«أوه حسـناً، اللـه يسـبغ نعمتـه علـى الجميـع فـي النهايـة، أليـس كذلك». ابتسم رالف.

«لا يراها الجميع نعماً كما نفعل نحن».

«هذه ليست طريقة للكلام أيها الفتى!».

فكَّ توم ربطة عنقه وياقته. فجأة، بدا المشرب خانقاً.

سأل رالف: «هل أنت بخير يا صديقي؟».

«الجـو خانـق هنـا، وأظـن أننـي سـأخرج قليلاً». لكـن الهواء في الخـارج لـم يكـن أفضـل، وبـدا صلبـاً؛ مثل زجاج مصهـور يخنقه بدلاً من أن يجعله يتنفس.

إذا اسـتطاع أن يتكلم إلى إيزابيل بمفردهما، وبهدوء... فسـتكون الأمـور بخيـر، ينبغـي أن تكـون كذلـك؛ نوعاً ما. اسـتجمع قوته ليقف، وسحب نفساً عميقاً، ثمَّ مشى ببطء عائداً إلى الفندق.

قالت إيزابيل حين أغلقت باب غرفة النوم، حيث تستلقي الطفلة محاطة بوسادات لحمايتها من السقوط عن حافة السرير: «تنام بسرعة. كانت هادئة جداً اليوم، وتحمّلت كل الإجراءات، مع كل أولئك الناس، لم تبكِ إلا حين تبلّلت». مع انقضاء اليوم، كان صوتها قد فقد الارتعاش الذي أُصيب به نتيجة ما باحت به هيلدا.

قالـت فيوليـت مبتسـمة: «أوه، إنهـا رائعـة، ولا أعرف ما سـنفعله حين ترحل غداً».

قالت إيزابيل: «أعرف، وأعد بأنني سأكتب لك، وأخبرك عنها». ثـمَّ تنهّـدت، «مـن الأفضـل أن نـأوي إلـى الفـراش، كمـا أفترض؛ لأننا ينبغـي أن نسـتيقظ مـع أولـى خيـوط ضـوء الفجر لنلحق بالمركب. هل أنت قادمٌ يا توم؟».

أومـأ تـوم وقـال: «عمـتِ مسـاءً يـا فيوليت، عمتَ مسـاءً يا بيل». وتركهما للعبة الصور المقطّعة حين تبع إيزابيل إلى غرفة النوم.

كانـت تلـك أول مـرة يكونـان فيهـا بمفردهمـا معـاً طـوال اليوم، وعندما أُغلق الباب، سأل: «متى سنخبرهم؟». كان وجهه كئيباً، وكتفاه متيبّستين.

ردّت إيزابيل، بهمس عاجل: «لن نفعل».

«ماذا تعنين؟».

«ينبغي أن نفكر يا توم. نحتاج إلى الوقت للتفكير، وسنغادر غداً. سـيُفتح باب الجحيم إذا قلنا أي شـيء، ويُفترض أن تعود إلى عملك مسـاء غد. سـنقرّر ما سـنفعله حين نعود إلى جانوس، ولا ينبغي أن نتسرّع بشيء قد نندم عليه».

«إيز، توجد امرأة هنا في البلدة تظن أن ابنتها ميتة في حين أنها حيّـة. وهـي لا تعـرف مـا جـرى لزوجهـا. الله وحده يعلم ما قد عانته، وكلما أسرعنا في إخراجها من بؤسها -».

«هـذا كلـه صدمـة كبيـرة، وينبغـي أن نفعـل الصـواب، ليس لحنّا بوتـس فقـط، إنمـا للوسـي أيضـاً. أرجـوك يـا تـوم، لا يسـتطيع أيٌّ منا التفكيـر بوضـوح حاليـاً، فلنعالـج الأمـر برويّـة. الآن، لنحـاول فقط أن ننام قليلاً قبل الصباح».

قال: «سآوي إلى الفراش لاحقاً، أحتاج إلى بعض الهواء المنعش». وخرج بهدوء إلى الشرفة الخلفية، متجاهلاً طلب إيزابيل منه البقاء.

* * *

في الخارج كان الجو أكثر برودة، وجلس توم في الظلمة على كرسي خيزران، ورأسه بين يديه، وعبر نافذة المطبخ، سمع طق - طق حين أعاد بيل القطع الأخيرة من الأحجية إلى علبتها الخشبية. قال بيل وهو يضع الغطاء: «تبدو إيزابيل متشوّقة للعودة إلى جانوس، وتقول إنها لم تعد تحب الحشود، لكن من الصعب فعلاً جمع حشد في هذا الجانب من بيرث».

كانت فيوليت تشذّب فتيل مصباح الكاز. «حسناً، كانت دائماً عصبية المزاج. بيني وبينك، أظن أنها تريد أن تكون لوسي لها بمفردها». تنهّدت. «سيكون المكان هادئاً من دون الصغيرة».

وضع بيل ذراعه حول كتفي فيوليت. «هذا يعيد إلينا الذكريات، أليس كذلك؟ هل تتذكرين هيو وألفي حين كانا طفلين؟ كانا صبيين صغيرين رائعين». ضحك بصوت خافت. «هل تتذكّرين حين حبسا القطة في الخزانة أياماً». توقف. «لم تعد الحال نفسها، أعرف، لكن كوني جداً هو ثاني أفضل شيء، أليس كذلك؟ ثاني أفضل شيء يحصل في حياتي».

أشعلت فيوليت المصباح. «انقضت أوقات لم أظن فيها أننا سنمرُّ بكل هذا يا بيل، لم أظن أننا سنحظى بيوم سعيد آخر». نفخت على عود الثقاب فأطفأته. «يا لها من نعمة، أخيراً». أعادت الغطاء الزجاجي إلى مكانه، وتقدّمت الطريق إلى السرير.

تردّدت الكلمات في ذهن توم حين استنشق رائحة ياسمين الليل؛ وشذاه غافلاً عن يأسه.

الفصل السادس عشر

في أول ليلة بعد عودتهم إلى جانوس، عصفت الريح حول غرفة الفانوس، وراحت تضغط على الألواح الزجاجية السميكة في البرج، وتبحث عن نقطة ضعف فيها. وعندما أشعل توم الضوء، تذكّر مراراً النقاش الذي دار بينه وبين إيزابيل فور رحيل مركب المؤن.

لم تتأثر: «لا يمكننا إلغاء ما جرى يا توم. ألا تظن أنني كنت أحاول إيجاد جواب؟». كانت تحتضن الدمية التي التقطتها آنذاك عن الأرضية، وتضمّها إلى صدرها. «لوسي فتاة سعيدة وموفورة الصحة، وإبعادها الآن سيكون – أوه يا توم، هذا رهيب!». كانت تطوي الملاءات بعد كيّها، وتتحرّك جيئة وذهاباً بين السلّة والخزانة. «في مختلف الأحوال يا توم، فعلنا ما فعلناه. لوسي تهيم بك وأنت تهيم بها، ولا تملك الحق لتحرمها من أب محب».

«ماذا عن أمها المحبّة؟ أمها الحيّة اللعينة! كيف يكون هذا منصفاً يا إيز؟».

تورّد وجهها. «هل تظن أنه سيكون منصفاً أن نفقد نحن ثلاثة أطفال؟ هل تظن أنه سيكون منصفاً أن يُدفن ألفي وهيو على بعد آلاف الأميال في حين لم تُصب أنت بخدش؟ طبعاً هذا ليس منصفاً يا توم، ليس منصفاً إطلاقاً! ينبغي أن نقبل ما تعرضه الحياة علينا!».

كانت قد سدّدت ضربة إلى المنطقة الأكثر حسّاسية لدى توم، وبعد كل تلك الأعوام، لم يستطع التخلّص من ذلك الشعور المقزّز

بالغش. لم يغش الموت، وإنما رفاقه، بعد أن خرج سالماً من الأذى على حسابهم، رغم أن المنطق أبلغه أن السبب هو المنطق فقط ولا شيء غيره. أدركت إيزابيل أنها قد جرحته، فقالت بلطف: «توم، ينبغي أن نفعل الصواب؛ من أجل لوسي».

«إيزي، أرجوك».

اجتازت المسافة إليه. «لا تتفوّه بأي كلمة أخرى يا توم! الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله هو أن نحب تلك الفتاة الصغيرة كما تستحق، وألا نؤذيها أبداً!». ممسكة الدمية، أسرعت بالخروج من الغرفة.

آنذاك، حين نظر إلى المحيط الهادر الذي يرغي زبداً، كان الظلام يُطبق عليه من كل الجوانب، وأضحى تمييز الخط بين المحيط والسماء صعباً، مع تلاشي الضوء ثانية بعد أخرى. كان الضغط الجوي ينخفض، وعرف توم أن عاصفة ستهبُّ قبل الصباح، فتوثّق من المقبض النحاسي على الباب المؤدي إلى الشرفة، وراقب الضوء يدور بثبات.

عندما كان توم يهتم بالضوء في ذلك المساء، جلست إيزابيل بجانب مهد لوسي، تراقبها وهي تغفو، وقد تطلّب الأمر كل قوتها لتقضي النهار، ولا تزال أفكارها تدور مثل العاصفة التي تحتشد في الخارج. آنذاك، غنّت بهمس تقريباً، التهويدة التي تصرُّ لوسي عليها دائماً: «تهبُّ الريح جنوبية، جنوبية...»، وكافح صوتها لينشد المقطوعة: «وقفت بجانب المنارة في آخر مرة افترقنا، حتى حلَّ الظلام على البحر الهادر العميق، ولم أعد أرى سفينة حبيبي اللامعة...».

عندما غفت لوسي أخيراً، فتحت إيزابيل أصابعها الصغيرة لتأخذ الصدفة الزهرية التي تمسك بها. كانت لا تزال تشعر بالدوار الذي

رافقها منذ لحظة رؤيتها النصب التذكاري، وقاومته بملامسة الصدفة بإصبعها، تستمد الراحة من نعومتها، ودقة تفاصيلها. كان المخلوق الذي سكنها قد مات منذ أمدٍ طويل، ولم يترك إلا قوقعته، ثمَّ راودتها فكرة أن زوج حنّا بوتس أيضاً قد ترك قوقعته الحيّة؛ هذه الفتاة الصغيرة.

وضعت لوسي ذراعاً فوق رأسها، وظهر عبوس على سيمائها لحظة، حين أغلقت أصابعها بإحكام حول الصدفة المفقودة.

تمتمت إيزابيل: «لن أدع شيئاً يؤذيك يا عزيزتي، وأعدك بأن أحافظ على سلامتك دائماً». ثمَّ فعلت شيئاً لم تكن قد فعلته منذ سنين؛ إذ جثت على ركبتيها، وطأطأت رأسها ودعت: «يا الله، لا آمل أبداً أن أفهم حكمتك، وإنما أحاول فقط أن أستحق ما تهبه لي. امنحني القوة التي أحتاج إليها للمضي قدماً». للحظة، ثار الشك في داخلها يهزُّ بدنها، حتى استطاعت مجدداً تثبيت إيقاع أنفاسها. قالت متكيّفة مع الفكرة: «حنّا بوتس، حنّا رونفيلدت بأمان بين يديك أيضاً، أعرف. امنحنا السكينة، جميعنا». أصغت إلى الرياح في الخارج، وإلى المحيط، وشعرت بأن البعد يعيد إليها إحساس الأمان الذي زال في اليومين الماضيين. وضعت الصدفة بجانب سرير لوسي، حيث يمكنها أن تجدها بسهولة حين تستيقظ، وغادرت الغرفة بسرعة، عاقدة العزم مجدداً.

بالنسبة إلى حنّا رونفيلدت، صادف يوم الاثنين من كانون الثاني الذي تبع الاحتفال الديني ذكرى مهمة.

عندما ذهبت إلى صندوق البريد، توقعت أن تجده فارغاً. لقد توثّقت منه في اليوم السابق كجزء من طَقس أتقنته لقضاء الساعات منذ أمسية يوم الجندي الأسترالي المروّعة تلك قبل نحو عامين.

أولاً، ستزور المخفر من دون أن تفعل أحياناً شيئاً باستثناء إلقاء نظرة مستفسرة، وسيردُّ عليها الشرطي هاري غارستون بهزّة رأس صامتة. وعندما تخرج من هناك، قد يعلّق زميله الشرطي لينش: «امرأة مسكينة، ومن المؤسف أن ينتهي أمرها على هذه الحال...». وسيهزّ رأسه أيضاً، ويتابع أعماله الكتابية. ستمشي كل يوم إلى جزء مختلف من الشاطئ بحثاً عن علامة، دليل؛ قطع خشب طافية، أو شظية معدنية من مسند مجذاف.

ستُخرج من جيبها رسالة إلى زوجها وطفلتها، تضم عادة أشياء: قصاصة من صحيفة عن سيرك قادمٍ إلى البلدة، أغنية أطفال قد كتبتها بيدها وزيّنتها بالألوان. ستلقي الرسالة إلى الأمواج بأمل أن ينزَّ الحبر من المغلّف، في مكان ما، في ذلك المحيط أو غيره من المحيطات، ويصل إلى حبيبيها.

في طريق عودتها ستعرّج إلى دار العبادة، وستجلس صامتة على المقعد الأخير، وتبقى أحياناً حتى ترسل أشجار الصمغ الضخمة ظلالها الطويلة الهزيلة عبر الزجاج الملوّن، وتصبح الشموع بُريكات باردة. هناك، بطريقة ما، لا يزال فرانك وغريس موجودين ما دامت تجلس في الظلال. وعندما لا يعود بمقدورها تحمّل الأمر، ستعود إلى المنزل، وتفتح صندوق البريد فقط حين تشعر بقوة كافية لتواجه خيبة خوائه.

طوال سنتين، كانت قد كتبت إلى كل من فكّرت فيه؛ للمسؤولين في المستشفيات، وسلطات الموانئ، وشركات الرحلات البحرية؛ كل من يحتمل أن يكون قد سمع عن رؤية شيء. لكنها لم تتلقَ إلا تأكيدات مجاملة بأنهم سيعلمونها إذا عرفوا أي نبأ عن زوجها وابنتها المفقودين.

كان ذلك الصباح من كانون الثاني حاراً، ونعقت غربان مطوّلاً نغمات تناثرت فوق أشجار صمغ تحت السماء اللازوردية الصافية.

مشت حنّا بتمهّل الياردات القليلة من الشرفة الأمامية وصولاً إلى الدرب الحجري وكأنها منوّمة، وقد توقفت منذ وقت طويل عن ملاحظة الغردينيا والياسمين والمواساة المقدّمة من شذاها العذب الفوّاح. طقطق صندوق البريد الحديدي الصدئ حين فتحته بهدوء، وبدا مرهقاً ومتردداً مثلها. وجدت داخله رسالة بيضاء، فطرفت عيناها: رسالة!

كان حلزون قد رسم مساراً مخرّماً عليها، وهي تلمع مثل قوس قزح حول الأجزاء التي تآكلت؛ أثر واحد عند الزاوية. لم يكن هناك خَتم، والكتابة أنيقة وثابتة.

حملتها إلى الداخل ووضعتها على منضدة الطعام، ونسّقت حافّتها مع حافة الخشب اللامع. جلست أمامها وقتاً طويلاً، قبل أن تمسك فتّاحة الرسائل ذات المقبض المزيّن باللؤلؤ لتشّق المغلّف، حريصة على ألا تمزّق ما بداخله.

أخرجت الورقة؛ قصاصة واحدة صغيرة، كُتب عليها:

لا تقلقي عليها، فالطفلة بأمان، وهي موضع محبة ورعاية، وستكون هكذا دائماً. زوجك يرقد بسلام، وآمل أن يريحك هذا. ادعي من أجلي.

كان المنزل معتماً، والستائر القماشية مسدلة مثل درع ضد السطوع الشديد. أزّت حشرات الزيز في الكرمة عند مؤخر الشرفة بحدّة عالية جعلت أذنَي حنّا تطنّان.

أمعنت النظر إلى الكتابة، وتشكّلت الكلمات أمام عينيها، لكنها لم تستطع فك شيفرتها تماماً. خفق قلبها بقوة، وكافحت رئتاها لتتنفّس، وقد توقّعت أن تختفي الرسالة حين فتحتها؛ كما جرى معها سابقاً: تلمح غريس في الشارع ربما، والوهج الزهري لأحد فساتينها الصغيرة،

ثمَّ تكتشف أنها مجرد رزمة من اللون نفسه، أو تنورة امرأة. أو ترى ظل رجل تكاد تقسم إنه زوجها، فتشدُّ ردنه، لتجد تعبير ذهول على وجه شخص يشبهه كما تشبه الطباشير الجبن.

نادت حين استطاعت نطق كلمات أخيراً: «غوين، غوين، هل يمكن أن تأتي دقيقة؟». استدعت شقيقتها من غرفة نومها، خائفة من أن تتبخّر الرسالة إن حرّكت عضلة، وأن تكون مجرد خدعة من الظلمة.

كانت غوين لا تزال تحمل ما تطرّزه. «هل تنادينني يا حنونة؟».

لم تتكلّم حنّا، وإنما أومأت فقط بحذر نحو الرسالة، فرفعتها شقيقتها. فكّرت حنّا: «أخيراً، لا أتخيل الأمر!».

بعد نصف ساعة، كانتا قد غادرتا الكوخ الخشبي البسيط إلى برموندسي؛ قصر سبتيموس بوتس الحجري على التلة عند حافة القرية.

سأل: «وهل كانت هناك، في صندوق البريد، اليوم؟».

قالت حنّا وهي لا تزال مذهولة: «نعم».

سألت غوين: «من سيفعل شيئاً مثل هذا يا أبي؟».

قالت حنّا: «شخص يعرف أن غريس حيّة طبعاً!». لم ترَ النظرة التي تبادلها أبوها وشقيقتها.

قال سبتيموس: «عزيزتي حنّا، لقد مرَّ وقت طويل جداً».

«أعرف هذا!».

قالت غوين: «هو يقول فقط، حسناً، إنه من الغريب ألا نسمع شيئاً قبل ذلك، ثمَّ وصلت هذه الرسالة فجأة».

قالت حنّا: «لكن، هذا شيء!».

قالت غوين وهي تهزُّ رأسها: «أوه يا حنّا».

لاحقاً ذلك اليوم، جلس الرقيب نوكي؛ قائد الشـرطة في بوينت بارتاجو، مرتاحاً على كرسي بالٍ، وهو يوازن كأس شاي شهي المذاق على ركبته العريضة في أثناء محاولته تسجيل ملحوظات.

سأل غوين: «ألم تري شخصاً غريباً حول المنزل يا سيدة بوتس؟».

«لا أحـد». أعـادت إبريـق الحليـب إلـى الطاولة الصغيرة وقالت: «لا أحد يأتي لزيارتنا، عادة».

دوّن شيئاً ما بسرعة.

«حسناً؟».

أدرك نوكـي أن سـبتيموس يوجّـه سـؤالاً إليـه، فتفحّـص الرسـالة مجدداً: كتابة أنيقة، ورقة بسيطة، غير ممهورة، أهي من مرسل محلّي؟ اللـه يعلـم أنـه لا يـزال هنـاك أشـخاص يرتاحـون لـدى رؤيتهم مُحبَّ ألمانـي يعانـي. «لا شـيء نعمـل عليـه، كما أخشـى». أصغى بصبر إلى احتجاجات حنّا التي تتضمّن بالتأكيد أدلّة، ولاحظ أن الأب والشقيقة يبـدوان مرتبكيـن قليـلاً؛ كمـا يحـدث حيـن تتحـدّث عمّـة مجنونة إلى طاولة العشاء.

عندمـا رافقـه سـبتيموس إلـى البـاب، اعتمـر الرقيـب قبعته وقال بهـدوء: «يبـدو أنهـا محاولـة لإلحـاق الأذى، وأظـن أن الوقت قد حان لدفـن الأحقـاد مـع فريتـز. كل هـذا سـيئ، لكـن لا حاجـة إلى دعابات سمجة مثل هذه، وأود عدم الإفصاح عن هذه الرسالة، فلا أريد تشجيع مقلّدين». صافح سبتيموس، وسلك طريقه على الدرب الطويل المحاط بأشجار الصمغ على جانبيه.

عندما عاد إلى مكتبه، وضع سبتيموس يده على كتف حنّا وقال: «هيا يا فتاتي، ابتهجي، لا ينبغي أن يجعلك هذا تكتئبين».

«لكـن، لا أفهـم يـا أبـي، لا بـدّ أنهـا حيّة! لماذا سـيزعج شـخص نفسه بكتابة رسالة يكذب فيها بشأن شيء مماثل فجأة؟».

«سـأقول لـك شـيئاً يـا حبيبتـي، مـا رأيـك بأن أضاعـف الجائزة؟ سأجعلها ألفي جنيه، وإذا كان أحدٌ يعرف شيئاً حقاً، فسنكتشف ذلك قريباً». عندما سكب سبتيموس لابنته كأساً أخرى من الشاي، لم يكن سعيداً - لأوّل مرّة - بعدم احتمال خسارته ماله.

رغم أن سبتيموس بوتس بدا كبيراً في مجال الأعمال في بارتاجو، إلا أنه لم يكن بمقدور أشخاص كثيرين القول إنهم يعرفونه جيداً. فهو رجلٌ يحمي أسرته بقوة، لكن خصمه الرئيس كان، وبقي دائماً، المصير. كان سـبتيموس فـي الخامسـة مـن عمـره عـام 1869، حيـن ترجّـل إلى فريمانتل من ملكة القاهرة، تزيّن عنقه لافتة خشـبية صغيرة - وضعتها أمـه هنـاك حيـن قبّلتـه قبلـة وداع حزينـة على الرصيف في لندن - كُتب عليها: «أنا فتى نصراني صالح، أرجو أن تعتنوا بي».

كان سبتيموس الابن السابع والأخير لتاجر خردوات في برموندسي لـم ينتظـر إلا ثلاثـة أيـام فقـط بعـد ولادة الطفـل قبل أن يرحل عن هذا العالم تحت حوافر حصان عربة هارب، وقد بذلت أمه قصارى جهدها لإبقاء الأسرة معاً، لكن بعد بضع سنوات، ونتيجة إصابتها بالسل، عرفت أن عليها تأمين مستقبل أبنائها. أرسلت الأم أكبر عددٍ منهم إلى أقرباء حول لندن، حيث يمكن أن يقدّموا عوناً مجانياً للناس الذين يقبلونهم، لكن ابنها الأخير كان يافعاً جداً ليقوم بأي شيء. وفي استنزاف لموارد نادرة، كان آخر أفعال أمه تأمين انتقاله إلى غربي أستراليا وحده.

كما أوضح بعد عقود، يمنحك ذلك النوع من التجارب إما طعم الموت، أو توقاً إلى الحياة، وظنَّ أن الموت سيزوره قريباً كفاية بأي

حال. عندما تولّته بالرعاية امرأة بدينة، حرقت الشمس بشرتها، وأرسلته إلى «منزل جيد» في الجنوب الغربي، ذهب من دون شكوى أو سؤال: من كان سيستمع إليه أصلاً؟ بدأ حياة جديدة في كوجونب؛ بلدة شرق بارتاجو، مع والت وسارة فليندل؛ وهما زوجان يكسبان رزقهما من تجارة خشب الصندل. كانا شخصين طيبين، وذكيين كفاية ليعرفا أن أيّ طفل يستطيع تحميل خشب الصندل وتفريغه بسبب خفّته، لذا وافقا على قبول الفتى. في ما يخص سبتيموس، بعد رحلته على السفينة، كان وجود أرضية تبقى ثابتة وأشخاص لا يبخلون عليك بخبزك اليومي نعيماً.

بدأ سبتيموس يتعرّف هذا البلد الجديد الذي شُحن إليه مثل رزمة من دون عنوان، وترعرع ليحب والت وسارة وطرقهما العملية. لم يكن في الكوخ الصغير على رقعة أرضهما البور زجاج للنوافذ أو مياه جارية، لكن في الأيام الباكرة، بدا دائماً أن هناك ما يكفي مما يحتاجون إليه.

عندما نفد أخيراً خشب الصندل الثمين؛ الأغلى أحياناً من الذهب، نتيجة القطع الجائر، امتهن والت وسبتيموس بدلاً من ذلك العمل في مصانع الخشب الجديدة التي كانت تُفتح في أرجاء بارتاجو. كان بناء منارات جديدة على طول الساحل يعني أن شحن بضائع على ذلك المسلك تغيّر من مغامرة كبيرة إلى مجازفة تجارية مقبولة. وسمحت سكك حديدية، وأرصفة موانئ جديدة بقطع أشجار الغابات ونقلها إلى أي مكان في العالم، من أمام منزلهما.

عمل سبتيموس جاهداً، وتضرّع إلى الله، وتطفّل في دروس القراءة والكتابة على زوجة باستور أيام الأحد، ولم ينفق قطّ نصف

سنت ما لم يضطر إلى ذلك، أو يفوّت فرصة ليجني مثله. كان المهم بشأن سبتيموس أنه يرى فرصاً لا يراها آخرون، ورغم أن طوله لم يتجاوز خمس أقدام وسبع بوصات، إلا أنه اعتبر نفسه دائماً شخصاً أكبر، وارتدى دائماً ثياباً جديرة بالاحترام كما تسمح الأموال. أحياناً، كان هذا يعني أنه يبدو أنيقاً تقريباً، وعلى الأقل يعني ثياباً نظيفة لدار العبادة يوم الأحد، حتى إذا اضطر إلى غسلها في منتصف الليل لإخراج نشارة الخشب منها بعد العمل طوال اليوم.

وضعه كل ذلك في مكانة جيدة حين مرَّ عام 1892 نبيل من برمنغهام عبر المستعمرة بحثاً عن مكان جديد لاستثمار رأسمال صغير. انتهز سبتيموس الفرصة ليحقق انطلاقة في العمل، وأقنع النبيل بوضع المال في صفقة أرض صغيرة، ثمَّ ضاعف بذكاء الاستثمار ثلاث مرات، وبمجازفة حذرة ودهاء أعاد استثمار حصّته، وسرعان ما أثبت نفسه في مجال الأعمال بمفرده. وبحلول وقت انضمام المستعمرة إلى دولة أستراليا المكوّنة حديثاً عام 1901، أضحى واحداً من أثرى رجال الخشب ضمن نطاق أميال كثيرة.

شهدت الأعمال ازدهاراً، وتزوّج سبتيموس ألين؛ وهي شابة مجتمع مخملي من بيرث. أنجبت غوين وحنّا، وأصبح منزلهم؛ برموندسي شعاراً للأناقة والنجاح في الجنوب الغربي، ثمَّ في إحدى النزهات الشهيرة في الغابة، التي تثير الإعجاب بالثياب والفضّة، لدغت حيّة زوجته العزيزة فوق كاحلها الصغير الرقيق، وتوفيت بعد ساعة.

* * *

إنها الحياة، كما فكّر سبتيموس، حين عادت ابنتاه إلى الكوخ في يوم وصول الرسالة الغامضة: لا يمكن أن تثق بها أبداً. ما تعطيه بيد، تأخذه بالأخرى. بعد أن تصالح أخيراً مع حنّا عند ولادة طفلتها، اختفى

الـزوج والصغيـرة فـي مـكان مجهول، تاركين ابنته محطّمة. آنذاك، كان مثيـر متاعـب يحـرّك الميـاه الراكـدة مجدداً. حسـناً، ينبغي أن تعدَّ النعَم المسبغة عليك وتكون شاكراً لأنّ الأمور ليست أسوأ.

جلـس الرقيـب نوكـي إلـى طاولتـه، ينقر بقلم الرصاص على دفتر ملحوظاتـه، مراقبـاً آثـار الرصـاص الصغيـرة. امـرأة لعينة مسـكينة، من يستطيع لومها على رغبتها بأن تكون ابنتها حية؟ لا تزال زوجته أرين تصرخ أحياناً بشأن بيلي، وقد انقضت عشرون سنة منذ أن غرق الطفل. كانا قد أنجبا خمسـة أبناء آخرين منذ ذلك الوقت، لكنه لم يكن قطّ بعيداً؛ الحزن.

حقاً، كان احتمال أن الطفلة لا تزال حيّة مثل وجود كسفة ثلج في الجحيم. رغم ذلك، أمسـك ورقة جديدة وبدأ يكتب تقريراً بالحادثة، فالمرأة رونفيلدت تستحق الشكليّات على الأقل.

الفصل السابع عشر

«زوجك يرقد بسلام». تقرأ حنّا رونفيلدت العبارة مراراً وتكراراً في يوم وصول الرسالة الغامضة، وتعرف أن غريس حيّة، وفرانك ميت. تريد أن تصدّق تلك المعلومة، لكن ليس الأخرى: فرانك؛ فرانتز. تتذكّر الرجل اللطيف الذي انقلبت حياته رأساً على عقب عدّة مرات على الدرب الشائك الذي قاده بطريقة ما إليها.

كانت أول انتكاسة هي انتزاعه من حياته المترفة في فيينا حين كان صبياً في السادسة عشرة، حين دفعتهم ديون مراهنة والده إلى أقرباء في كالغورلي؛ مكان ناءٍ جداً من النمسا يجعل حتى أشدَّ الدائنين حماسة يتخلّى عن فكرة ملاحقتهم. من الرفاهية إلى شظف العيش، بدأ الابن يعمل خبّازاً في فرن يديره عمّه وعمّته، اللذان قد تغيّرا منذ وصولهما قبل سنوات من فريتز وميتزي إلى كليف وميلي، فقد بدا مهماً الاندماج في المجتمع، كما قالا. فهمت أمه هذا، لكن أباه - بالكبرياء والعناد اللذين سبّبا إفلاسه مالياً - رفض التكيّف. وبعد سنة رمى بنفسه تحت قطار متجه إلى بيرث، تاركاً فرانك مسؤولاً عن الأسرة.

بعد شهور، جعلت الحرب الاعتقال عدو الغريب - أولاً على جزيرة روتنست، ثمَّ في الشرق - لهذا الفتى الذي لم يُقتلع ببساطة من جذوره فقط، وإنما تعرَّض للازدراء أيضاً بسبب أشياء جرت بعيداً عنه وخارج نطاق سيطرته.

ولم يتذمّر مرة واحدة، كما فكّرت حنّا. لم تختفِ ابتسامة فرانك

التلقائية والواسعة بحلول وقت لقائها به في بارتاجو عام 1922؛ حين جاء للعمل في المخبز.

تذكّرت أول مرة رأته فيها، في الشارع الرئيس. كان الصباح الربيعي مشمساً، لكن هواء تشرين الأول لا يزال يحمل برداً معه، وقد ابتسم لها وقدّم لها شالاً تعرّفته.

قال: «تركته في المكتبة، منذ قليل».

«شكراً لك، هذا لطف كبير منك».

«إنه شال جميل، مع هذا التطريز. اعتادت أمي اقتناء واحدٍ مثله. الحرير الصيني مُكلف جداً، وسيكون فقدانه مؤسفاً». أومأ لها باحترام، واستدار ليغادر.

قالت حنّا: «لم أرك هنا من قبل». لم تكن قد سمعت لهجته الفاتنة أيضاً.

«لقد بدأت العمل في المخبز للتو. أنا فرانك رونفيلدت، وسُررت بلقائك يا سيدتي».

«حسناً، أهلاً بك في بارتاجو يا سيد رونفيلدت. آمل أن تحب هذا المكان، أنا حنّا بوتس». أعادت ترتيب رزمها، وهي تحاول شدَّ الشال فوق كتفيها.

قال وهو يضع الشال حولها بحركة رشيقة واحدة: «أرجوك، اسمحي لي. أتمنى لك يوماً رائعاً». مجدداً، برزت ابتسامة واسعة، وانعكس شعاع الشمس عن زرقة عينيه وجعل شعره الأشقر يلمع.

عندما اجتازت الشارع إلى العربة التي تنتظرها، لاحظت امرأة قريبة منها رمقتها بنظرة ثاقبة، وبصقت على الرصيف. شعرت حنّا بالصدمة، لكنها لم تقل شيئاً.

بعد عدّة أسابيع، زارت مكتبة ميزي مكفي الصغيرة مجدداً،

وعندما دخلت رأت فرانك واقفاً في الزاوية، تهاجمه سيدة وهي تلوّح بعصاها لإيضاح قصدها. كانت المرأة تقول: «الفكرة نفسها يا ميزي مكفي، الفكرة القائلة إن بمقدورك بيع كتب تدعم الألمان. فقدت ابناً وحفيداً بسبب أولئك الحيوانات، ولا أتوقع رؤيتك ترسلين إليهم المال».

وقفت ميزي واجمة، فقال فرانك: «آسف إن سبّبت لك أي إهانة. هذا ليس خطأ الآنسة مكفي». ابتسم وقرّب الكتاب المفتوح نحوها. «هل ترين؟ هذا شعر فقط».

قالت المرأة بحدّة وهي تضرب الأرضية بالعصا: «شعر فقط! يا للهول! لم تخرج أي كلمة لائقة من أفواههم قط! لقد سمعت أن لدينا ألمانياً في البلدة، لكن لم أظن مطلقاً أنك ستكون صفيقاً كفاية لتظهر أمامنا! وفي ما يخصّك يا ميزي!»، واجهت النضد، «لا بدّ أن والدك يتقلّب في قبره».

قال فرانك: «أرجوكِ، أنا آسف جداً. آنسة مكفي، أرجو أن تحتفظي بالكتاب، فلم أكن أريد الإساءة إلى أحد». وضع ورقة عشرة شلنات على النضد وخرج من المكتبة، متجاوزاً حنّا من دون أن يلحظها. خرجت المرأة مسرعة بعده، وهي تطقطق بعصاها على الرصيف في الاتجاه المعاكس.

نظرت ميزي وحنّا إلى بعضهما للحظة، قبل أن تتدبّر قيّمة المكتبة ابتسامة وتقول: «هل حصلت على قائمتك يا آنسة بوتس؟».

عندما أنزلت ميزي بصرها إلى الصفحة، ركّزت حنّا اهتمامها على الكتاب المهجور، وشعرت بالفضول لمعرفة كيف تسبّب المجلّد الأنيق بغلافه الجلدي الأخضر الداكن بمثل تلك الإهانة. فتحته، وأثار الخط القوطي على الورقة الأولى اهتمامها: «داس شتوندن بوخ – راينر ماريا

ريلكه». كانت قد تعلّمت الألمانية في المدرسة إلى جانب الفرنسية، وقرأت شيئاً للشاعر ريلكه.

قالت وهي تخرج ورقة جنيهين: «وهل تمانعين أن آخذ هذا الكتاب أيضاً؟». عندما نظرت ميزي إليها مندهشة، قالت حنّا: «حان الوقت لكي نضع جميعنا الماضي خلفنا، ألا تظنين هذا؟».

لفّت قيّمة المكتبة الكتاب بورق بني وربطته بخيط. «حسناً، لأكون صادقة، هذا يوفّر علي عناء إعادته إلى ألمانيا. لا أحد آخر سيشتريه».

عند الخبّاز بعد بضع لحظات، وضعت حنّا الرزمة الصغيرة على النضد. «أتساءل إن كنت تستطيع إعطاء هذا للسيد رونفيلدت، من فضلك. فقد تركه خلفه في المكتبة».

«هو في الخلف، سأناديه».

قالت: «أوه، لا داعي، شكراً جزيلاً». وغادرت المتجر قبل أن يحظى بفرصة ليقول أي شيء آخر.

بعد عدّة أيام، زارها فرانك ليشكرها شخصياً على لطفها، وبدأت حياتها تسلك درباً جديدة. بدت في البداية الحياة الأوفر حظاً التي يمكن أن تتخيّلها.

تحوّلت بهجة سبتيموس بوتس من معرفته أن ابنته قد وجدت رجلاً محلياً تخرج معه إلى فزع حين عرف أنه الخبّاز، لكنه تذكّر بداياته المتواضعة، فعقد العزم على ألا يبخس الشخص قدره بسبب مهنته، وعندما اكتشف، على كل حال، أنه ألماني، أو ألماني عملياً، أصبح فزعه اشمئزازاً. جعلت الشجارات مع حنّا التي قد بدأت بعد بداية التودّد مباشرة كلاً منهما عنيد القلب والرأس، وأكثر التزاماً بموقفه.

في شهرين، بلغ السيل الزبى. ذرع سبتيموس بوتس غرفة الجلوس

جيئة وذهاباً، محاولاً استيعاب ما يجري. «هل فقدت عقلك يا فتاة؟».

«هذا ما أريده يا أبي».

«تتزوجين ألمانياً!». نظر إلى صورة ألين في إطارها الفضي المزخرف على رف الموقد. «لن تسامحني أمك أبداً! وعدتها أن أتعهّدكما بتربية حسنة...».

«وقد فعلت يا أبي، لقد فعلت هذا».

«حسناً، هناك شيء خطأ إذا كنت تتكلمين عن الارتباط بخبّاز ألماني لعين».

«إنه نمساوي».

«ما الفرق الذي يُحدثه ذلك؟ هل ينبغي أن أصطحبك إلى مستشفى، وأُريك كيف لا يزال الفتية يثرثرون مثل حمقى بسبب الغاز؟ أنا من بين كل الناس، أنا دفعت للمستشفى اللعين!».

«تعرف جيداً أن فرانك لم يشارك في الحرب؛ كان معتقلاً. وهو لم يؤذِ أحداً قطّ».

«حنّا، تحلّي ببعض المنطق. أنتِ فتاة حسناء، وهناك رجال كثيرون في الأرجاء - تباً، في بيرث أو سيدني أو حتى ملبورن - سيتشرّفون بالزواج منك».

«تعني أنهم سيتشرّفون بالحصول على مالك».

«إذاً، لقد عدنا إلى ذلك الآن، أليس كذلك؟ أنتِ لا ترغبين بمالي، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

«الأمر ليس هكذا يا أبي...».

«عملت جاهداً لأصل إلى هذه الحال، ولست خجلاً مما أنا عليه أو من المكان الذي جئت منه. لكن، أنت حظيت بفرصة الحصول على شيء أفضل».

«أريد فقط فرصة لأعيش حياتي».

«اسمعي، إذا أردت القيام بعمل خيري، فبإمكانك أن تذهبي وتعيشي مع السكان المحليين في الأبرشية، أو أن تعملي في الميتم. لست مضطرة إلى الزواج منه، يا صاحبة الإحسان».

كان وجه ابنته أحمر، وقلبها يخفق بقوة من ذلك الاستخفاف الأخير؛ ليس من الإهانة المضمرة فيه، ولكن بطريقة ما خوفاً من أن يكون صحيحاً. ماذا لو أنها قبلت بفرانك فقط لإبعاد طالبي الزواج الذين يطاردون مالها؟ أو أنها تريد فقط تعويضه عن كل ما عاناه؟ ثمَّ فكّرت في الشعور الذي يراودها حين ترى ابتسامته، وتلك الطريقة التي يرفع بها ذقنه ليفكّر في أشياء سألته عنها، وأحسّت بالثقة.

«هو رجل محترم يا أبي، امنحه فرصة».

«حنّا». وضع سبتيموس يده على كتفها. «تعرفين أنكِ تعنين العالم بالنسبة لي». داعب رأسها. «لم تسمحي لأمك بتمشيط شعرك حين كنت صغيرة، هل تعرفين هذا؟ كنت تقولين: با! أريد با أن يفعل هذا!، وكنت أفعل. كنتِ تجلسين على ركبتي بجانب النار في المساء، فأمشّط شعرك في حين يُشوى الكعك على ألسنة اللهب، ونتوثّق ألا ترى ماما الأماكن التي لطّختها الزبدة على فستانك، ويلمع شعرك مثل أميرة فارسية».

توسّل أبوها: «انتظري فحسب، قليلاً فقط».

إذا كان كل ما يحتاج إليه هو الوقت ليعتاد الفكرة، الوقت ليختلف شعوره بشأن ذلك... كادت حنّا تذعن، ولكنه تابع: «سترين الأمور من وجهة نظري، وستدركين أنك تقترفين غلطة -»، وسحب نفساً عميقاً مبالغاً فيه تعرف أنه مرتبط بقرارات عمله، «وستحمدين الله لأنني أقنعتك بخلاف ذلك».

ابتعدت عنه. «لن أتنازل، ولا يمكنك منعي من الزواج بفرانك».

«تقصدين أنني لا أستطيع إنقاذك منه».

«أنا كبيرة كفاية لأتزوج من دون موافقتك، وسأفعل إن أردت».

«قد لا تدركين أبداً ما سيعنيه هذا لي، لكن ترفّقي بشقيقتك. تعرفين كيف سيفهم الناس حولها هذا الأمر».

«الناس حولها منافقون ويبغضون الأجانب!».

«أوه، كان ذلك التعليم الجامعي يستحق كل بنس. تستطيعين الآن التغلّب على والدك بكلماتك المنمّقة». نظر إلى عينيها مباشرة. «لم أظن قطّ أنني سأسمع نفسي وأنا أقول هذا يا ابنتي. لكن، إذا تزوجت هذا الرجل، فسيكون ذلك من دون مباركتي، ومن دون مالي».

برباطة الجأش التي جذبت سبتيموس في بادئ الأمر إلى أمها، وقفت حنّا باستقامة وهدوء شديد. «إذا كان هذا ما تريده يا أبي، فسيكون لك ذلك».

بعد حفل زفاف صغير رفض سبتيموس حضوره، عاش الزوجان في منزل فرانك الخشبي المتداعي عند حافة البلدة، وبكفاف بالتأكيد. درّست حنّا عزف البيانو، وعلّمت بعض عمّال الأخشاب القراءة والكتابة، واستمتع بعضهم بفكرة أنهم قد وظّفوا، وإن يكن لمدّة ساعة فقط في الأسبوع، ابنة الرجل الذي يعملون لديه. لكن عموماً، احترم الناس لطف حنّا ومجاملتها.

كانت سعيدة، فقد وجدت زوجاً بدا أنه يفهمها تماماً، ويمكن أن يناقش الفلسفة وعلم الأساطير، وتبدّد ابتسامته الهم، وتجعل تحمّل المشقّة سهلاً.

بانقضاء السنين، حظي الخبّاز الذي لم تتغيّر لهجته تماماً بنوعٍ من

التسامح، رغم أن بعضهم - مثل زوجة بيلي ويشارت، أو جو رافتري وأمه - بقي يجتاز الشارع حين يراه، لكنه عموماً لقي قبولاً. بحلول عام 1925، قرّر فرانك وحنّا أن الحياة مستقرة كفاية، والمال موجود كفاية لإحضار طفل إلى العالم، وفي شباط 1926 وُلدت ابنتهما.

تذكّرت حنّا صوت فرانك المرح وهو يهزُّ المهد. «شالف، كيندلين، شالف. داين فاتر هوت داي شاف. داي موتر شوتلز باوملين، دا فالت هيراب إين تراوملين. شالف، كيندلين، شالف».

في تلك الغرفة الصغيرة المضاءة بفانوس كاز، وظهره يؤلمه وهو جالس على كرسي يحتاج إلى إصلاح، قال لها: «لا أتخيّل حياة أكثر حظاً». لم يكن التورّد في وجهه من الفانوس، وإنما من المخلوقة الصغيرة في المهد، التي جعل تنفّسها إيقاع ذلك السرير يتغيّر حين استسلمت أخيراً للنوم.

في آذار ذاك، زُيّنَت دار العبادة بأواني أزهار الربيع والياسمين من حديقة فرانك وحنّا، وملأت الرائحة العطرة كل المساحة بين المقاعد الخالية والقسم الخلفي من دار العبادة. ارتدت حنّا فستاناً أزرقَ فاتحاً، واعتمرت قبعة لبّادية منخفضة الحافة من اللون نفسه، في حين ارتدى فرانك بزّة زفافه التي كانت لا تزال تلائمه بعد أربع سنوات. كانت قريبته بتينا وزوجها ويلف قد جاءا من كالغورلي لمشاركتهما الاحتفال الديني الخاص بالصغيرة، وابتسما بتسامح للرضيعة الصغيرة بين ذراعي حنّا.

وقف الموقّر نوركلس مرتبكاً قليلاً حين سحب ورقة صفراء فاقعة ليبدأ المراسم، وربما كان الارتباك مرتبطاً برائحة الشراب المنبعثة من أنفاسه.

كان أصيلَ أحد كئيباً وحاراً، وأزّت ذبابة كبيرة في الأرجاء،

واقتربت بين الفينة والأخرى لتشرب فيما أبعدها القريبان. اقتربت مرات كثيرة، فتصدّى لها ويلف بمروحة زوجته، لتسقط في الماء، فأخرجها رجل الدين من دون أن يتوقف عمّا يقوم به: «هل تتبرّأان، باسم هذه الطفلة، من الشرير وكل أفعاله...؟».

ردّ القريبان معاً: «أنا أتبرّأ منها كلها».

في أثناء كلامهما، صرَّ باب دار العبادة حين دفعه أحدهم بتردّد، وانتشى قلب حنّا لدى رؤيتها أباها خلف غوين، يتقدّم ببطء ليجثو عند المقعد الأخير. لم تكن حنّا ووالدها قد تكلما منذ يوم مغادرتها المنزل لتتزوج، وقد توقّعت منه الاستجابة لدعوتها إياه إلى الاحتفال الديني بالطريقة المعتادة؛ الصمت. كانت غوين قد وعدت: «سأحاول يا حنونة، لكنك تعرفين أنه عجوز عنيد. أعدك بالآتي؛ سأكون هناك، مهما قال. لقد طال الأمد على هذا».

آنذاك، استدار فرانك إلى حنّا، وهمس: «هل ترين؟ الله يحلُّ كل مشكلة بالوقت الملائم».

«أوه أيها الرحيم، ليكن الإنسان الخاطئ في هذه الطفلة مدفوناً تماماً، وليكبر الإنسان الجديد فيها...». تردّدت أصداء الكلمات بين الجدران، وتنشّقت الطفلة وتلوّت بين يدي أمها، وعندما بدأت تبكي، وضعت حنّا برجمة خنصرها على الشفتين الصغيرتين، فمصّته راضية. استمر الاحتفال، وأمسك نوركلس الطفلة وقال للقريبين: «سمّيا هذه الطفلة».

«غريس ألين».

«غريس ألين...».

في أثناء أداء الطقوس الباقية، حدّقت الصغيرة إلى الزجاج الملوّن اللامع في النوافذ، مفتونة كما ستفعل، بعد سنتين، حين حدّقت إليه

مجدداً بين ذراعي امرأة أخرى.

* * *

عندما انتهى الأمر، بقي سبتيموس جالساً على مقعده. وعندما مشت حنّا ببطء في الممر، تحرّكت الطفلة في بطانيتها، وهي تلوي رأسها إلى هذا الجانب وذاك. توقفت حنّا بجانب أبيها الذي وقف حين قدّمت إليه حفيدته، وتردّد قبل أن يمد ذراعيه ليحتضن الطفلة.

كل ما استطاع قوله قبل أن تفر دمعة من عينه: «غريس ألين، ستُعجب أمك بهذا الاسم». وحدّق برهبة إلى الطفلة.

أمسكت حنّا ذراعه، ثم قالت وهي تقوده على الممر: «تعال وقابل فرانك».

قالت حنّا لاحقاً، حين وقف أبوها عند بوابتها مع غوين: «أرجوك، أودُّ أن تدخلا». تردّد سبتيموس، وذكّره البيت الخشبي الصغير - بالكاد أكبر من كوخ - بمنزل آل فليندل حيث ترعرع. أعاده المرور عبر الباب خمسين عاماً في خطوتين فقط.

في الغرفة الأمامية، تكلم بحزم لكن بأدب مع قريبي فرانك، وامتدح فرانك على الكعكة الرائعة التي أعدّها، والمجموعة المتنوّعة الصغيرة وإنما الممتازة من الطعام. نظر بطرف عينه إلى الشقوق في الجص، والثقوب في البساط.

وعندما همَّ بالمغادرة، سحب حنّا جانباً وأخرج محفظته. «دعيني أعطيك شيئاً صغيراً من أجل...».

دفعت حنّا يده بلطف إلى الخلف، وقالت: «نحن بخير يا أبي، ونتدبّر أمورنا».

«طبعاً تفعلان. لكن الآن بعد أن أنجبتما طفلة...».

وضعت يدها على ذراعه. «حقاً، هذا لطف منك، لكن يمكننا تدبّر أمورنا بأنفسنا. تعال وزرنا قريباً».

ابتسم وقبّل جبين الطفلة، ثم ابنته. «شكراً لك يا حنونة». ثم قال متمتماً تقريباً: «سترغب ألين أن يُعتنى بحفيدتها، وأنا... أنا أفتقدك».

خلال أسبوع، أُرسلت هدايا للطفلة من بيرث، ومن سيدني وما وراءها: مهد، وصندوق أدراج خشبي، وفساتين وقلنسوات وأشياء للحمام. حصلت حفيدة سبتيموس بوتس على أفضل ما يمكن للمال شراؤه.

«يرقد زوجك بسلام». بسبب الرسالة، شعرت حنّا بحزن وأمل متجدّدين معاً. كان الله قد أخذ زوجها، لكنه أنقذ ابنتها، فبكت ليس أسفاً فقط، وإنما خجلاً من ذكرياتها عن ذلك اليوم.

ترخي البلدة ستاراً فوق أحداث معينة، فهذا مجتمع صغير، حيث يعرف الجميع أن النسيان مهم أحياناً مثل أي وعد بالتذكّر. يستطيع الأطفال أن يكبروا من دون أن يعرفوا عن طيش آبائهم في شبابهم، أو الأخ غير الشرعي الذي يعيش على بعد خمسين ميلاً ويحمل اسم رجل آخر. التاريخ هو ما اتُّفق عليه بقبول متبادل.

هكذا تمضي الحياة قدماً؛ محمية بصمتٍ يخدّره الخجل. قال رجال قد عادوا من الحرب مع قصص يمكن أن يسردوها عن نقاط ضعف رفاق على حافة الموت إنهم تُوفوا بشجاعة. للعالم الخارجي، لم يزر جندي مكاناً سيئاً قطّ أو يتصرّف مثل همجي، أو يهرب ويختبئ من العدو، فالوجود هناك عقوبة كافية. عندما تضطر زوجات إلى إخفاء المال أو سكاكين المطبخ عن زوج فقد صوابه، يفعلن ذلك من دون كلمة، ولا يعترفن أحياناً بهذا حتى لأنفسهن.

بالنسبة إلى حنّا رونفيلدت، كانت تعرف أنها لا تستطيع مشاطرة ذكراها عن فقدان فرانك مع أحد. سيقول الناس، متشوقين إلى عودة صورتهم المتمدّنة عن الحياة في بارتاجو: «التكلّم عن الماضي! ما فائدة هذا؟». لكن حنّا تتذكّر.

يوم الجندي الأسترالي كانت المقاهي مملوءة؛ مملوءة رجالاً كانوا هناك، أو فقدوا أبناءهم هناك؛ رفاقاً عادوا من غاليبولي وسوم ولم يتعافوا بعد من صدمة القذائف وغاز الخردل، حتى بعد عشرة أعوام. الخامس والعشرون من نيسان 1926، تستمر مباريات الشراب خلسة في المشرب الخلفي، حيث تغض الشرطة الطرف في هذا اليوم من العام. تباً، أفراد الشرطة ينضمون إليهم، فقد كانت حربهم أيضاً. يتدفق الشراب، ويصبح الكلام أعلى، والأغاني أكثر صفاقة؛ فالنسيان يطوي الكثير. عادوا إلى أعمالهم في المزارع، أو خلف الطاولات وأمام الصفوف، وتابعوا ذلك... مضوا قدماً لأنه لم يكن هناك خيار. كلما أكثروا من الشراب، يصبح النسيان أصعب، وتتقد رغبتهم بالعراك من أجل شيء، أو مع شخص - بنحو منصف - رجل لرجل؛ مع أتراك، أو ألمان، أو أوغاد.

وفرانك رونفيلدت سيفي بالغرض مثل أي شخص آخر، فهو الألماني الوحيد في البلدة، باستثناء أنه نمساوي، وأقرب ما يكون إلى العدو الذي يمكنهم إيجاده. لهذا عندما رأوه يمشي في الشارع مع حنّا عند الغسق، بدأوا يصفرون صارخين «نازي». تنظر حنّا إليهم بقلق وتتعثّر، فيأخذ فرانك فوراً الطفلة غريس بين ذراعيه، وينتزع السترة الصوفية الملقاة على ذراع زوجته ليغطيها بها، ثم يمشون بسرعة أكبر، مبتعدين عنهم.

يقرّر الرجال في المقهى أن تلك تسلية رائعة، فيندفعون إلى الشارع، ويخرج أشخاص من المقاهي الأخرى على طول الطريق الرئيسة أيضاً، ثمَّ يقرّر أحدهم أنها ستكون دعابة رائعة أن ينتزع قبعة فرانك، ويفعل.

توبّخه حنّا: «أوه، اتركنا وشأننا يا جو رافرتي! عُد إلى المشرب واتركنا وشأننا». وتابعا المشي بخطى سريعة.

سخر جو بهمسة حادّة النبرة: «اتركنا وشأننا! فريتز اللعين! كلهم سواء، كلهم جبناء!». استدار إلى الحشد. «وانظروا إلى هذين الاثنين، مع طفلتهما الصغيرة الجميلة». جمجم كلماته. «تعرفون أن فريتز اعتاد أكل الأطفال. يشويهم أحياء، هذا الوغد الشرير».

تصرخ حنّا: «ابتعد وإلا سأستدعي الشرطة». قبل أن تتجمّد حين رأت هاري غارستون وبوب لينش، الشرطيين، واقفين على شرفة الفندق، وكل منهما يحمل كأس شراب كبيرة، ويبتسمان بتكلّف خلف شاربيهما المشمّعين.

فجأة، وكأن عود ثقاب قد أُشعل، أُضيء المكان، وسُمع صراخ: «تعالوا أيها الرجال، لنستمتع قليلاً مع محبّي الألمان! لننقذ الطفلة من أن تؤكل». يُطارد اثنا عشر ثملاً الزوجين، لكن حنّا تتخلّف؛ لأن مشدّها منعها من التنفس بحرية فتنادي: «غريس يا فرانك! أنقذ غريس!». فيركض مع الحزمة الصغيرة بعيداً عن الحشد الذي يطارده على الطريق إلى الرصيف، وقلبه يخفق بقوة مضطرباً، والألم يخدّر ذراعه وهو يجري على الألواح الخشبية المتداعية فوق الماء، ثم يقفز إلى أول قارب تجذيف يجده، ويبتعد في البحر؛ إلى الأمان، فقط حتى يستعيد المحتشدون رشدهم وتهدأ الأمور.

لقد عرف أشياء أسوأ في حياته.

الفصل الثامن عشر

تقـوم إيزابيـل بأعمالهـا اليومية – تتحرّك دائماً، ومشـغولة دائماً – وتمتلك حسّاً طبيعياً بمكان وجود لوسي؛ وكأنهما متصلتان بخيط حب خفي. فهي لا تغضب أبداً، ولا حدود لصبرها مع الطفلة. عندما يسقط الطعام على الأرضية، وعندما تزيّن آثار يد متسـخة الجدران، لا تلقى أبداً كلمات لوم أو نظرة عتب. وإذا اسـتيقظت لوسـي وهي تبكي في الليل، تهدّئها إيزابيل بلطف ومحبة. إنها تقبل الهبة التي أرسـلتها لها الحياة، وتقبل الأعباء أيضاً.

عندما تنام الطفلة بعد الظهر، تذهب إيزابيل إلى القبور عند الرأس البحري فذلك المكان مميّز بالنسـبة إليها؛ حيث تدعو طالبة الإرشـاد، وأن تسـتحق كونها أماً، وتتضرّع أيضاً، بطريقة أكثر تفصيلاً، من أجل حنّـا رونفيلـدت. هنـا، لا أحـد يناقـش مـا آلت إليه الأمور، وحنّا مجرد فكـرة بعيـدة، فـلا يوجـد جسـد، أو وجـود، فـي حين أن لوسـي تعرف إيزابيـل كل تعبيراتهـا، وكل صرخـة منهـا. كانـت تراقب الأعجوبة التي تتكوّن منها هذه الفتاة الصغيرة يوماً بعد آخر، مثل هبة لا تنكشـف إلا بمرور الوقت. تنبثق شخصية الفتاة كاملة مع فهمها للكلمات وإتقانها، وتبدأ التعبير عن مشاعرها، ومن تكون.

لذا، تجلس إيزابيل عند الرأس البحري، وتحمد الله. وإذا تطفّلت أفكار عن حنّا رونفيلدت إلى ذهنها، كانت ترد دائماً بالطريقة نفسها؛ لا يمكنهـا ببسـاطة إبعـاد هـذه الطفلـة عنهـا. ليس مـن حقها أن تخاطر

بسعادة لوسي. وتوم؟ توم رجل صالح، وسيفعل الصواب دائماً. يمكن أن تعتمد على ذلك. سيتكيّف مع الأمور، في النهاية.

لكن فجوة صغيرة لا يمكن جسرها قد نشأت بينهما، أرضاً محايدة صغيرة وخفية.

تدريجياً، أعاد إيقاع الحياة على جانوس تنظيم نفسه، وجعل توم ينغمس في تفاصيل طقوسه. عندما يستيقظ أحياناً من كوابيس مزعجة عن شموع مكسورة، وبوصلات من دون اتجاه، يدفع القلق جانباً، ويترك ضوء النهار يبدّده، وتجعله العزلة يتناغم مع موسيقى الكذبة.

سألت إيزابيل حين شدّت الكنزة من فوق رأس الفتاة الصغيرة وأخرجت يداً من نهاية كل ردن: «وأنت تعرفين ما اليوم، أليس كذلك يا لوسي؟». لقد انقضت ستة شهور منذ عودتهم إلى جانوس في كانون الثاني 1928.

رفعت لوسي رأسها قليلاً إلى الأعلى، وقالت لتكسب الوقت: «مم».

«أتريدين تلميحاً؟».

أومأت.

ألبستها إيزابيل الجورب الصغير الأول. «هيا، القدم الأخرى، هذه هي الطريقة. لا بأس، التلميح هو إذا كنت فتاة طيبة، فقد يكون هناك برتقال الليلة...».

«مركب!». صرخت الفتاة، وانزلقت عن ركبة أمها لتثب أمامها، وهي تنتعل فردة حذاء في إحدى قدميها وتمسك الأخرى في يدها. «مركبٌ قادم! مركبٌ قادم!».

«هذا صحيح. لذا، هل نرتّب البيت جيداً استعداداً لقدوم رالف وبلوي؟».

نادت لوسي من خلفها: «نعم!». واندفعت إلى المطبخ لتقول: «ألف وبلوي قادمان يا بابا!».

حملها توم وقبّلها. «لا يمكن خداعك! هل تذكّرت هذا من تلقاء نفسك، أم إن شخصاً ما قد ساعدك؟».

اعترفت بتكشيرة: «ماما قالت». وتملّصت منه لتنزل إلى الأرضية، وانطلقت لتجد إيزابيل مجدداً.

بعد وقت قصير، بعد أن انتعلت كل منهما حذاءً مطاطياً وارتدت معطفاً، انطلقتا نحو المنزل، ولوسي تمسك نسخة مصغّرة عن سلّة إيزابيل.

علّق توم حين تجاوزهما في طريقه إلى السقيفة: «عرض أزياء حقيقي».

قالت إيزابيل: «أفضّل الدفء على المظهر الفاتن». وقبّلته بسرعة. «نحن في رحلة بحث عن البيض».

داخل خُم الدجاج، استخدمت لوسي كلتا يديها لتحمل كل بيضة – المهمة التي تستغرق إيزابيل ثواني في إنجازها عادة – ووضعت كلاً منها على وجنتها لتعرف أنها «لا تزال دافئة!» أو «باردة قليلاً» كما ينبغي، ثم أعطتها إلى إيزابيل لتبقى بأمان، في حين احتفظت بالأخيرة لتحملها في سلّتها. ثم شرعت: «شكراً لك دافني، شكراً لك سبيكل...». وتابعت شكر كل دجاجة على مساهمتها.

في رقعة الخضار، أمسكت مقبض الرفش مع إيزابيل في أثناء قلع البطاطا.

قالت إيزابيل: «أظن أنني أرى واحدة...». وانتظرت إلى أن

لاحظت لوسي اللون الفاتح في التربة الرملية.

قالت لوسي: «هناك». ووضعت يدها في الحفرة، لتُخرج حجراً.

ابتسمت إيزابيل: «تقريباً، ماذا عن تلك بجانب الحجر؟ انظري إلى المكان قرب الحافة».

«طاطا». ابتسمت لوسي حين رفعت الجائزة فوق رأسها، ناثرة التراب على شعرها، ثم عينيها؛ ما جعلها تبكي.

هدّأتها إيزابيل، ومسحت يديها بسروالها قبل أن تعتني بالعين: «لنُلقِ نظرة، ها نحن ذا. الآن، اغمزي ماما. خرج كل شيء يا لوسي». واستمرت الفتاة الصغيرة بفتح عينيها وإغماضهما بإحكام.

قالت أخيراً: «خرج كل شيء». ثم: «طاطا أكثر!». وبدأ البحث مجدداً.

في الداخل، مسحت إيزابيل الأرضية في كل غرفة، وجمعت الغبار الرملي في أكوام عند الزوايا، جاهزة لتجمعها. وبعد أن توثقت بسرعة من الخبز في الموقد وعادت، وجدت أثراً يقود إلى الكوخ، بفضل محاولات لوسي مع اللقّاطة.

«انظري يا ماما! أنا أساعد!».

نظرت إيزابيل إلى أثر الإعصار المصغّر وتنهّدت. «يمكن أن تقولي هذا...». ثمّ حملت لوسي، وقالت: «شكراً لك أيتها الفتاة الطيبة. الآن، لنتوثّق فقط من أن الأرضية نظيفة، هل نمسحها مجدداً؟». هزّت رأسها، وتمتمت: «آه يا لوسي شربورن، من ستصبح سيدة منزل، هه؟».

لاحقاً، ظهر توم عند البوابة. «هل هي جاهزة؟».

قالت إيزابيل: «نعم، الوجه غُسل، واليدان غُسلتا، لا أصابع متسخة».

«إذاً، ستصعدين يا صغيرتي».

«على السلالم يا بابا؟».

«نعم، على السلالم». ومشت بجانبه إلى البرج، وعند أسفل الدرجات، رفعت ذراعيها حتى يستطيع إمساك يديها من الخلف. «الآن يا حلوتي، لنعد: واحد، اثنان، ثلاثة». وصعدا ببطء على السلالم، وتوم يعدُّ كل درجة بصوتٍ عالٍ، حتى بعد أن توقفت لوسي.

في الأعلى، في غرفة المراقبة، مدّت لوسي ذراعيها، وقال توم: «سآتيك بالمنظار خلال دقيقة، لكن لنضعك على الطاولة أولاً». أجلسها فوق الخرائط، ثم أعطاها المنظار، حاملاً ثقله بيديه.

«هل ترين شيئاً؟».

«أرى غيوماً».

«نعم، يوجد الكثير منها. هل من أثر لمركب؟».

«لا».

«هل أنت واثقة؟». ضحك توم. «لا أريد أن تتولي مسؤولية مبنى الحراسة. ماذا يوجد هناك؟ أترين؟ حيث تشير إصبعي».

ركلت بقدميها إلى الخلف والأمام. «ألف وبلوي! برتقال».

«تقول ماما إنهما سيجلبان برتقالاً، أليس كذلك؟ حسناً، لنأمل أن يحالفنا الحظ».

انقضت أكثر من ساعة قبل أن يرسو المركب. وقف توم وإيزابيل على الرصيف، ولوسي على كتفي توم.

نادى رالف: «لجنة ترحيب كاملة!».

نادت لوسي: «مرحباً يا قوم! مرحباً ألف، مرحباً بو».

قفز بلوي إلى الرصيف، وشدّ الحبل الذي رماه رالف إليه. نادى الطفلة التي أضحت على الأرض: «انتبهي يا لوس، لا ينبغي أن تقفي في طريق الحبل». نظر إلى توم. «عجباً! هي فتاة صغيرة حقاً الآن، أليس كذلك؟ لم تعد الطفلة لوسي!».

ضحك رالف. «الأطفال يكبرون بسرعة، كما تعرف».

أنهى بلوي تثبيت الحبل. «لا نراها إلا كل بضعة شهور؛ ممّا يجعل الأمر أكثر وضوحاً. الأطفال في البلدة تراهم كل يوم، لذا لا تلاحظ نوعاً ما أنهم يكبرون».

داعبها رالف: «وفجأة يصبحون أطفالاً كباراً مثلك!». عندما نزل إلى الرصيف، كان يحمل شيئاً في يده خلف ظهره. «الآن، من سيساعدني في تفريغ الأشياء من المركب؟».

قالت لوسي: «أنا!».

غمز رالف إيزابيل حين قدّم علبة درّاق من خلف ظهره. «حسناً إذاً، إليك شيئاً ثقيلاً جداً تحملينه».

أمسكت لوسي العلبة بيديها.

«يا للهول يا لوس! من الأفضل أن تتوخي الحذر بذلك؟ لنأخذها إلى المنزل». استدارت إيزابيل إلى الرجلين. «أعطني شيئاً آخذه معي إن أردت يا رالف». صعد مجدداً إلى السفينة ليُخرج البريد وبضعة طرود خفيفة. «أراكم في المنزل بعد قليل، سأضع المغلاة على النار».

* * *

بعد الغداء، عندما جلس الراشدون إلى طاولة المطبخ لتناول أكواب الشاي، قال توم: «لوسي هادئة قليلاً...».

قالت إيزابيل: «همم، يُفترض أنها تُنهي رسمها لبابا وماما.

سأذهب وأتوثّق من الأمر». لكن قبل أن تغادر الغرفة، دخلت لوسي المطبخ، مرتدية تنّورة إيزابيل التي تلامس الأرضية، ومنتعلة حذاءً عالي الكعبين، وهي تضع حبات الزجاج الأزرق الذي أرسلته أم إيزابيل مع المركب ذلك الصباح.

قالت إيزابيل: «لوسي! هل كنت تعبثين بأغراضي؟».

قالت الفتاة، وعيناها متسعتان: «لا».

تورّدت إيزابيل، وقالت للزائرين: «لا أعرض عادة ثيابي الداخلية هكذا. هيا يا لوسي، ستموتين من البرد بهذه الملابس. ينبغي أن ترتدي ثيابك، ولنتكلم عن العبث بأغراض ماما، وعن قول الحقيقة». مبتسمة حين غادرت الغرفة، لم تلحظ التعبير الذي ظهر على وجه توم من تلك الملحوظة الأخيرة.

تهرول لوسي بسعادة خلف إيزابيل حين تذهبان لجمع البيض، وتشعر بالسعادة من الصيصان التي تفقس حديثاً وتظهر من وقت إلى آخر، وتضعها تحت ذقنها لتتحسّس زغبها الذهبي. عندما تساعد في إحضار الجزر الأصفر والأبيض، تشدّها أحياناً بقوة تجعلها تتعثّر وتسقط إلى الخلف فتتسخ بالتراب. تضحك إيزابيل: «لوسي الجميلة! انهضي الآن!».

إلى البيانو، تجلس على ركبة إيزابيل وتستمتع بالنغمات. تمسك إيزابيل سبابتها وتساعدها في الضغط على المفاتيح. «ثلاثة فئران عمياء». ثم تقول الطفلة: «بنفسي ماما». وتبدأ العزف نشازاً مجدداً.

تجلس ساعات على أرضية المطبخ، وتستعمل أقلام التلوين على قفا نماذج طلبات قديمة، فترسم خطوطاً متعرجة عشوائية تشير إليها بفخر وتقول: «هذه ماما، وبابا، ومنارة لولو». يعدُّ أمراً مسلماً به

بـرج القلعـة بارتفـاع 130 قدمـاً في سـاحتها الخلفيـة، مع النجمة عليه. إلـى جانـب كلمـات مثـل «كلـب» و»قـط» - أفـكار خياليـة من كتب - أتقنت كلمات أكثر واقعية مثل «عدسـات»، و»موشـور» و»انعكاس»، وتخبـر إيزابيـل فـي إحدى الأمسـيات حين تشـير إليهـا: «هذه نجمتي، أبي أعطاني إياها».

تخبر توم شيئاً من قصص عن أسماك، ونوارس، وسفن. وعندما يمشـون معاً إلى الشـاطئ، تبتهج بإمسـاك يدَي توم وإيزابيل وجعلهما يهزّانها في الهواء بينهما. «منارة لولو!» عبارتها المفضّلة، وتستخدمها حين ترسم نفسها في لوحات ملطّخة، أو تصف نفسها في قصص.

لا تتوقف المحيطات أبداً، ولا تُعرف لها بداية أو نهاية. لا تنتهي الريـاح إطلاقـاً، وأحيانـاً تختفـي، لكـن فقط لتسـتجمع قواها من مكان آخـر، وتعـود لتدفـع نفسـها علـى الجزيـرة، وتوضّح شـيئاً قد غاب عن ذهـن تـوم. الوجـود هنـا على نطاق العمالقة، فالوقت بملايين السـنين، والصخور التي تبدو من بعيد مثل حجارة نرد مرمية على الساحل هي جلاميد عرضها مئات الأقدام، تتلاطم عليها الأمواج منذ آلاف السنين، وتنحتُ حوافها حتى تصبح طبقاتها شرائط عمودية.

يراقب توم لوسي وإيزابيل حين تخوضان في البركة، والفتاة سعيدة برذاذ الماء والملوحة ونجم البحر الذي وجدته. كان أزرقَ لامعاً. يراقب أصابعها وهي تمسك المخلوق، ووجهها يتورّد إثارة وفخراً؛ كأنها قد فعلت ذلك من تلقاء نفسـها. «بابا، انظر، نجم بحر!». لقد واجه توم مشكلة في إبقاء كفّتي الوقت متوازنتين: وجود جزيرة ووجود طفلة.

أدهشـه أن الحيـاة الصغيـرة للفتـاة تعنـي لـه أكثر من كل الألفيات من قبل، وكافح لفهم أحاسيسه؛ كيف يشعر بالحنان والقلق حين تقبّله

قبل النوم مساء، أو تعرض ركبة مكشوطة ليقبّلها بالقوة السحرية التي لا يملكها إلا والد.

بالنسبة إلى إيزابيل أيضاً، هو مشتّت بين الرغبة التي يشعر بها نحوها - الحب - والإحساس بعدم قدرته على التنفّس. يتضافر الشعوران معاً، ولا انفصام بينهما.

أحياناً، حين يكون وحيداً في الليل، يجد ذهنه يشرد إلى حنّا رونفيلدت. هل هي طويلة؟ هل هي ريّانة؟ هل هناك أثر لها في وجه لوسي؟ وعندما يحاول أن يتخيّلها، لا يرى إلا يدين، تغطّيان وجهاً باكياً، فيرتعش ويعود إلى إنجاز مهمته.

هذه الطفلة موفورة الصحة وسعيدة ومحبوبة؛ في هذا العالم الصغير خارج نطاق الصحف والأقاويل، وخارج متناول الحقيقة. تنقضي أسابيع أحياناً يستطيع توم فيها أن يطمئن تقريباً لأن أسرتهما عادية وسعيدة؛ كأنّ ذلك نوع من المسكّن.

«ينبغي ألا ندع بابا يعرف، ليس قبل أن أخبرك».

نظرت لوسي إلى إيزابيل بوقار وقالت وهي تومئ: «ينبغي ألا أتكلم. هل يمكنني تناول بسكويتة؟».

«بعد دقيقة، دعينا فقط نُنهي تغليف هذه». كان مركب أيلول في عام 1928 قد جلب عدّة طرود إضافية، استطاع بلوي تهريبها إلى إيزابيل في لحظات شتّت فيها رالف انتباه توم بالتفريغ. لم يكن تنظيم مفاجأة ذكرى ميلاد توم عملاً سهلاً؛ فقد تطلب الأمر الكتابة إلى أمها قبل شهور لتحضير قائمة الطلبات. وباعتبار توم الوحيد الذي لديه حساب مصرفي، تطلّب الأمر أيضاً وعداً بالدفع في المرة التالية التي يذهبون فيها إلى البر الرئيس.

كان توم طيّعاً وصعب المراس في الوقت نفسه. سيكون سعيداً بكل ما يحصل عليه، لكنه لم يرغب حقاً بأي شيء. كان رأيها قد استقر على قلم حبر كونواي ستيوارت وأحدث نسخة من ويسدن: شيء عملي وآخر مسلٍّ. وعندما سألت لوسي في إحدى الليالي حين جلستا في الخارج عمّا تريد أن تقدّمه لبابا، كانت الفتاة الصغيرة قد لفّت شعرها حول إصبعها حين فكّرت لحظة، ثم قالت: «النجوم».

ضحكت إيزابيل. «لست واثقة بأننا نستطيع تدبّر هذا يا لوس».

كانت الفتاة قد قالت بنزق: «لكنني أريدها!».

خطرت فكرة لإيزابيل. «ماذا إن قدّمنا له خريطة النجوم؟ أطلس؟».

«مرحى!».

آنذاك، عندما جلستا أمام الكتاب الثقيل، سألت إيزابيل: «ماذا تريدين أن تكتبي في المقدّمة؟». أمسكت القلم، وأصابعها حول أصابع لوسي، لتكتب بحروف متشنّجة، كما أُملي عليها: «إلى بابا، أحبك دائماً وإلى الأبد...».

أصرّت لوسي: «المزيد».

«ممَ؟».

«المزيد من الأبد، الأبد والأبد والأبد...».

ضحكت إيزابيل، وخطّت «إلى الأبد والأبد والأبد» فبدت الكلمات مثل يسروع على الصفحة. «ماذا نكتب تالياً؟ هل نقول: من ابنتك المحبة لوسي؟».

«من منارة لولو».

بدأت الفتاة الصغيرة تشكّل الحروف مع أمها، لكنها شعرت بالملل فنزلت عن ركبتها قبل انتهاء الكتابة.

أمرتها عن غير قصد: «ماما أنهي هذا».

أنجزت إيزابيل التوقيع، وأضافت بين قوسين: (بوساطة إيزابيل شربورن؛ الكاتبة والمستخدمة العامة للموقّعة المذكورة آنفاً).

عندما فضَّ توم غلاف الرزمة؛ وكانت تلك مناورة صعبة بوجود يدي لوسي فوق عينيه، قال: «هذا كتاب...».

صرخت لوسي: «هذا أنطلس!».

أمسك توم الهدية. «براون: أطلس نجوم، يُظهر كل النجوم الساطعة، مع تعليمات كاملة لإيجادها والاستفادة منها لأغراض الإبحار وفحوص مجلس التجارة». ابتسم ببطء، واستدار إلى إيزابيل: «لوسي فتاة ذكية، ألم تنظم هي هذا؟».

«اقرأ بابا، في الداخل، كتبت شيئاً».

فتح توم الغلاف ورأى الإهداء الطويل. بقي مبتسماً، لكن كان هناك شيء بشأن الكلمات «إلى الأبد والأبد والأبد...» أزعجه. بدا إلى الأبد مفهوماً مستحيلاً؛ خاصة لهذه الطفلة، وفي هذا المكان، فوضع شفتيه في أعلى رأس لوسي. «هذا جميل، منارة لولو. أروع هدية قد تلقّيتها على الإطلاق».

الفصل التاسع عشر

قال بلوي: «على الأقل إذا فزنا بهذه المباراة، فلن تكون هزيمة ساحقة». كان فريق الكريكت الأسترالي قد خسر المباريات الأربع الأولى في منافسة آشز 1928/ 29 على أرضه، ووصل مركب آذار في أثناء إجراء المباراة النهائية في ملبورن. بدأ بلوي ينقل الأنباء إلى توم في أثناء تفريغهما الحمولة. «برادمان يُبلي حسناً، فهو لم يخرج من أي مباراة بعد، لكن غيف لارود يثير كل أنواع المتاعب، كما قالت الصحيفة. سأخبرك أمراً، لا تزال المباراة قائمة منذ أربعة أيام، ويبدو أنها ستستمر وقتاً طويلاً هذه المرة».

عندما ذهب رالف إلى المطبخ لنقل مجموعة أخرى من هدايا هيلدا المنتظمة إلى لوسي، أنهى توم والبحّار تكديس آخر أكياس الطحين في السقيفة.

قال بلوي، وهو يومئ إلى كتابة علامة دينغو على القماش: «لدي قريب يعمل هناك».

سأل توم: «في المطحنة؟».

«نعم، أظن أنهم يدفعون جيداً، وتحصل على كل الطحين المجاني الذي تريده».

«لكل وظيفة ميزاتها».

«طبعاً، فأنا أحصل على هواء منعش للتنفّس كما أرغب، وكمية الماء التي أريدها للسباحة». ضحك بلوي، ونظر حوله، ليتوثق من عدم

وجود القبطان. «أظن أن بمقدوره توفير وظيفة لي هناك متى شئت». توقف، ثم قال متحدّثاً في الموضوع بنبرة حذرة: «أو أحياناً، أفكّر في العمل - في محل بقالة ربما».

لم يكن ذلك من شيم بلوي، فعادة هو يناقش نتائج شيفيلد شيلد، أو ينقل نبأ فوزه ببعض المال، أو يتكلم عن شقيقه ميرف الذي توفي في اليوم الأول من معركة غاليبولي، أو آدا المخيفة؛ أمه الأرملة. أحسَّ توم بشيء مختلف ذلك اليوم، فقال: «ما سبب هذا؟».

ركل بلوي أحد الأكياس لتعديل ترتيبها. «كيف هو الأمر؟ أعني أن تكون متزوجاً؟».

«ماذا؟!». فزع توم من ذلك التغيير.

«أعني - هل الأمر جيد؟».

أبقى توم بصره ثابتاً على قائمة الجرد. «هل هناك شيء ما تريد إبلاغي به يا بلوي؟».

«لا».

أومأ توم: «حسناً». لو أنه انتظر وقتاً أطول كفاية، لبدت القصة منطقية، فهذا ما يحدث، عادة.

عدّل بلوي كيساً آخر. «اسمها كيتي كيلي، وأبوها يملك محل البقالة. نحن نخرج معاً».

رفع توم حاجبيه وابتسم. «مرحى لك».

«وأنا - حسناً، لا أعرف - فكّرت أننا ربما ينبغي أن نتزوج». حثّته النظرة على وجه توم أن يضيف: «ليس علينا أن نتزوج؛ فالأمر ليس كما قد تظن. حقاً، نحن لم نفعل حتى... أعني، يراقب أبوها كل شيء عن كثب، وأمها، وكذلك شقيقاها. والسيدة مويت قريبة أمها، لذا تعرف كيف هي الأسرة».

ضحك توم. «إذاً، ما سؤالك؟».

«إنها خطوة كبيرة، وأعرف أن الجميع يُقدم عليها أخيراً، لكنني تساءلت فقط، حسناً، كيف تعرف...».

«أنا لست خبيراً بهذه الأمور، فقد تزوجت مرة واحدة فقط، ولا أزال أكتشف الأمر. لماذا لا تسأل رالف؟ فهو مرتبط بهيلدا منذ كان ميثوسيلا فتى، وربّى ابنين، ويبدو أنه قد أبلى حسناً بذلك».

«لا يمكنني إبلاغ رالف».

«لِمَ لا؟».

«تظن كيتي أننا إذا تزوجنا ينبغي أن أتوقف عن العمل على المركب، وأن أعمل في البقالة. أعتقد أنها خائفة جداً من أن أغرق يوماً ما ولا أعود إلى المنزل من العمل».

«هي إنسانة مرحة، أليس كذلك؟».

بدا بلوي قلقاً. «لكن جدّياً، كيف يبدو الزواج وإنجاب طفل وكل تلك الأشياء؟».

مرّر توم يده في شعره حين أمعن التفكير في السؤال لبعض الوقت، مرتبكاً تماماً. «نحن لا نمثّل قدوة لك، فلا توجد أسر كثيرة مثلنا؛ تعيش في منارة وسط مكانٍ ناء. الجواب الصادق هو أن ذلك يعتمد على اليوم الذي تسألني فيه. الأمر ينطوي على محاسن ومساوئ، وأكثر تعقيداً من بقائك بمفردك، وهذا كل ما يمكنني إخبارك به».

«تقول أمي إنني يافع جداً ولا أعرف ما أريده».

ابتسم توم رغماً عنه. «أظن أن أمك ستبقى على الأرجح تقول هذا؛ حتى حين تبلغ الخمسين. بأي حال، هذا لا يتعلق بعقلك، وإنما بمشاعرك، ثق بإحساسك يا بلوي». تردّد. «لكن الأمر ليس إبحاراً سهلاً دائماً، حتى بعد أن تجد الفتاة الملائمة. ستكون رحلة طويلة،

ولا تعرف إطلاقاً ما سيجري: تقبل أي شيء يحدث، ولا تراجع أبداً».

«بابا، انظر!». ظهرت لوسي عند باب السقيفة، وهي تلوّح بدمية النمر التي أرسلتها هيلدا. قالت: «إنه يزأر! اسمع». وقلبتها رأساً على عقب لتُصدر الصوت.

حملها توم، ورأى عبر النافذة الصغيرة رالف وهو يشق طريقه نزولاً على الدرب نحوهما. «ألست أنتِ المحظوظة؟». دغدغ عنقها.

ضحكت: «لوسي المحظوظة!».

سأل بلوي: «وكونك أباً، كيف هو الأمر؟».

«يشبه هذا».

«لا، هيا، أنا أسأل حقاً يا صديقي».

أصبح وجه توم رزيناً. «لا شيء قد يُعدّك لهذا. لن تصدّق كيف يخترق طفل دفاعاتك يا بلوي، ويدخل إليك. هجوم مباغت وحقيقي».

حثّته لوسي: «اجعلها تزأر يا بابا». قبّلها توم وأدار الدمية رأساً على عقب.

قال بلوي: «أبقِ الأمر سراً بيننا؛ كل هذا، هلاّ تفعل يا صديقي». بعد التفكير، قال: «حسناً، يعرف الجميع أنك صموت مثل قبر بأي حال». وأصدر نسخته الخاصة من زئير النمر للفتاة الصغيرة.

أحياناً، تكون أنت من يحالفك الحظ؛ وأحياناً أخرى، يكون الوغد المسكين الآخر من يسحب القشّة القصيرة، فتضطر إلى إغلاق فمك والمضي قدماً في ذلك.

كان توم يثبّت لوحاً خشبياً على جدار مخزن المؤن ليغطّي ثقباً قد أحدثته الريح في الليلة السابقة. قضى نصف حياته محاولاً حماية أشياء من الريح؛ إذ ينبغي أن يتكيّف المرء مع الأمور، ويفعل ما ينبغي فعله.

لقد أثارت أسئلة بلوي مشاعر دفينة لديه، لكن كلّما فكّر توم بالغريبة في بارتاجو التي قد فقدت طفلتها، احتلت صورة إيزابيل مكانها: لقد أجهضت أطفالاً، ولن تنجب غيرهم أبداً. لم تكن تعرف شيئاً عن حنّا حين وصلت لوسي، وأرادت فقط الأفضل للطفلة. رغم هذا، عرف أن ذلك لم يكن من أجل لوسي فقط، فقد كانت إيزابيل تحتاج إلى شيء لا يمكنه أبداً منحها إياه. لقد تخلّت عن كل شيء: أسباب الراحة والأسرة والأصدقاء - كل شيء لتكون معه هناك. أخبر نفسه مراراً: لا يمكنه حرمانها من هذا الشيء.

كانت إيزابيل متعبة، فقد وصلت المؤن للتو وبدأت تجهيز الطعام؛ تحضير أرغفة الخبز، وخَبز كعكة فاكهة، وتحويل كيس خوخ إلى مربّى سيدوم طوال العام. لقد تركت المطبخ لحظة فقط، وهي اللحظة التي اختارتها لوسي لتقترب خطوة من الموقد وتشمَّ رائحة المزيج الشهي، فحرقت يدها بوعاء المربّى. لم يكن حرقاً خطيراً، لكنه كافٍ لمنع الطفلة من النوم بسكينة، وقد ضمّد توم موضع الحرق وأعطاها جرعة صغيرة من الأسبرين، لكن بحلول الظلام لم تكن قد هدأت بعد.

«سأصعد بها إلى الفانوس، ويمكن أن أراقبها هناك. ينبغي أن أُنهي الأعمال الورقية للجرد بأي حال».

مرهقة، أذعنت إيزابيل.

حاملاً الطفلة بذراع واحدة، ووسادة وبطانية بالأخرى، نقلها توم بهدوء على السلالم، ووضعها على طاولة الخرائط في غرفة المراقبة. قال: «ها نحن ذا أيتها الصغيرة». لكنها كانت نائمة آنذاك.

بدأ يضيف أرقاماً، ويجمع كميات الزيت وصناديق الرتينة. فوقه، في غرفة الفانوس، دار الضوء بثبات، بطنينه البطيء الخافت. وفي

الأسفل، رأى الضوء الوحيد المنبعث من الكوخ.

كان يعمل منذ ساعة عندما جعله إحساس فطري يستدير، فوجد لوسي تراقبه، وعيناها تلمعان في الضوء الباهت. عندما التقى بصره عينيها ابتسم، وتفاجأ توم مجدداً بتلك الأعجوبة؛ جميلة جداً، وضعيفة جداً. رفعت يدها المضمّدة، وتفحّصتها. قالت: «شاركت في الحروب بابا». وظهر عبوس على محياها، ثمَّ مدّت ذراعيها.

قال توم: «عودي إلى النوم يا صغيرتي». وحاول أن يستدير لمتابعة عمله، لكن الطفلة قالت: «تهويدة يا بابا». وأبقت ذراعيها ممدودتين.

حملها توم على وركه وهزّها بلطف. «ستصابين بكوابيس إذا غنيت لك، لولو. ماما تجيد الغناء، وليس أنا».

قالت وهي ترفع يدها المصابة: «آذيت يدي، بابا».

«نعم فعلت، أليس كذلك أيتها الأرنب الصغيرة؟». وقبّل الضمادة برقّة. «ستصبح أفضل قريباً، سترين». قبّل جبينها وداعب شعرها الأشقر. «آه، لولو، لولو. كيف وجدت طريقك إلى هنا؟». أشاح بصره بعيداً، ونظر إلى الظلام الحالك. «كيف ظهرت في حياتي؟».

شعر بعضلاتها تستسلم حين كادت تنام، وتدريجياً ارتاح رأسها على ثنية ذراعه. بهمسة تمكّن بالكاد من سماعها، طرح السؤال الذي يؤرقه باستمرار: «كيف جعلتني أشعر على هذا النحو؟».

الفصل العشرون

«لم أعرف قطّ أنه قد حاول الاتصال بي». كان توم جالساً بجانب إيزابيل على الشرفة، يقلّب المغلّف القديم البالي، الموجّه له «ع/ ط الكتيبة الثالثة عشرة، مستشفيات القوات المسلّحة». كانت على كل بوصة متوافرة خربشة عناوين وتعليمات، تنتهي بطلب السلطات بقلم أزرق «إعادته إلى المرسل»؛ إلى إدوارد شربورن المحترم، والد توم. كانت الرسالة قد وصلت مع رزمة صغيرة قبل ثلاثة أيام، حين نقل مركب حزيران نبأ وفاته.

ركّزت الرسالة من المحامين تشرش، وهاترسلي، وبارفيت على الإجراءات الشكلية، ولم تقدّم إلا الحقائق: سرطان حنجرة، 18 كانون الثاني 1929. لقد استغرق الأمر منهم بضعة شهور لإيجاد توم، وكان شقيقه سيسل المستفيد الوحيد، باستثناء وصية مفادها أن يحصل توم على مُدلاة أمه، المرفقة بالرسالة التي تبعته حول العالم.

كان قد فتح الرزمة بعد أن أشعل الضوء في ذلك المساء، جالساً في غرفة الفانوس، غير مبالٍ في البداية حين قرأ الكتابة الجافة القاسية.

«مريفيل»، سيدني

السادس عشر من تشرين الأول 1915

عزيزي توماس،

أكتب لك لأنني أعرف أنك قد تطوّعت في الجيش. أنا

لست بارعاً في استخدام الكلمات، لكن لأنك بعيد جداً الآن، ومع احتمال تعرّضك للأذى قبل أن نحظى بفرصة اللقاء مجدداً، تبدو الكتابة الطريقة الوحيدة.

هناك أشياء كثيرة لا يمكنني شرحها لك من دون تشويه سمعة أمك، ولا رغبة لي بإحداث المزيد من الضرر؛ أكبر مما وقع أصلاً. سأحجم – لهذا السبب – عن قول بعض الأشياء. أنا مخطئ في شيء واحد، وأريد تسويته الآن، وأرفق لك برسالتي مُدلاة طلبت أمك مني منحك إياها حين رحلت، وفيها صورة تشبهها. في ذلك الوقت، شعرت أنه من الأفضل لك ألا تتذكّرها، لذا لم أقدّمها إليك. لم يكن اتخاذ هذا القرار سهلاً؛ تحديد أن حياتك ستكون أفضل من دون تأثيرها.

بعد أن توفيت، أشعر أنني يجب أن أحقق طلبها، وإن يكن متأخراً.

لقد حاولت تربيتك لتكون ولداً صالحاً، وقد حاولت التوثّق من حصولك على أفضل تعليم ممكن. آمل أن أكون قد غرست فيك إحساساً بالصواب والخطأ: لا يمكن لنجاح كبير أو سعادة دنيوية أن تداوي خسارة الروح.

أنا فخور بالتضحية التي أقدمت عليها بالتطوّع، وقد كبرت لتصبح شاباً مسؤولاً. وبعد الحرب، سأُسرُّ بإيجاد موقع لك في العمل. يتمتع سيسل بميزات مدير رائع، وأتوقع أن يدير المصنع بنجاح بعد تقاعدي، لكنني واثق بإمكانية إيجاد عمل ملائم لك.

آلمني أن أضطر إلى سماع نبأ ركوبك البحر من آخرين، وسأرحّب بفرصة رؤيتك بالبزّة؛ أن أراك تُبحر. لكن، أظن أنك بعد عثورك على مكان إقامة أمك ومعرفتك أنها قد ماتت، لن

ترغب بأي علاقة معي. لهذا، الأمر منوط بك، وإذا اخترت الرد على هذه الرسالة، فسأكون في غاية السرور. فأنت، بالمحصلة، ابني، وحتى تصبح أنت أيضاً أباً، لن تفهم تماماً كل ما يعنيه هذا.

على كل حال، إذا لم ترغب بالرد فسأحترم خيارك، ولن أزعجك مجدداً. سأتضرّع رغم ذلك من أجل سلامتك في المعركة، وعودتك إلى تلك الشواطئ منتصراً.

والدك المحب

إدوارد شربورن

بدا أن دهراً قد انقضى منذ تكلم توم إلى ذلك الرجل. كم كلّفه هذا؛ أن يكتب رسالة. لم تكن محاولة أبيه الاتصال به بعد انفصالهما المرير مفاجأة فقط وإنما صدمة، ولم يعد شيء أكيداً بعد ذلك. تساءل توم إن كانت قسوة أبيه قد حملت جرحاً طوال ذلك الوقت، ولمح لأول مرة شيئاً خلف المظهر الخارجي الجامد، وتخيّل - لحظة فقط - رجل مبادئ آذته امرأة أحبّها، لكنه لم يستطع إظهار ذلك.

كان توم قدِ فتّش عن أمه لسبب معيّن، وعندما وقف عند باب النُّزل، حذاؤه لامع، وأظافره مدرّمة، كرّر الكلمات مرة أخيرة: «آسف لأنني أوقعتك في مشكلة». في ذلك الوقت، شعر بالارتعاش، وكأنه طفل قد انتظر ثلاث عشرة سنة لقول الكلمات، وظنَّ أنه قد يكون مريضاً. «كان كل ما قلته هو إنني رأيت مركبة؛ إن هناك مركبة عند المنزل. لم أعرف -».

لم يفهم الأهمية الكاملة لحكايته إلا بعد سنوات، وقد وُصمت بأنها أم غير ملائمة، وأُبعدت عن حياته. لكن رحلته لطلب الصفح بدأت متأخرة جداً، ولن يسمع أمه أبداً وهي تُعفيه من ذنب الخيانة،

وتثبت براءته. كانت للكلمات طريقتها الخاصة بالوصول إلى كل الأماكن التي لا ينبغي أن تصل إليها، وقد تعلّم أنه من الأفضل أن تحتفظ بأسرارك لنفسك في الحياة.

نظر إلى صورة أمه في المُدلاة، وأدرك أن كلاً من والديه قد أحبّه ربما، رغم انفصالهما. انتابه شعور مفاجئ بالغضب من ادّعاء أبيه الثابت تقريباً الحق في فصله عن أمه: صادق جداً، لكن هدّام كثيراً.

عندما جعلت دمعة الحبرَ يجري في أنهار مصغّرة، لاحظ توم أنه يبكي. «حتى تصبح أنت أيضاً أباً، لن تفهم تماماً كل ما يعنيه هذا».

بجانبه على الشرفة آنذاك، كانت إيزابيل تقول: «رغم أنك لم تره طوال سنوات، فهو لا يزال أباك. لا يحظى المرء إلا بأبٍ واحدٍ فقط، وهذا يؤثر عليك بالتأكيد يا حبيبي».

تساءل توم إن لاحظت إيزابيل السخرية في كلماتها.

نادت من دون توقف: «هيا يا لوس، تعالي وتناولي بعض الكاكاو».

ركضت الفتاة الصغيرة إليها، وأمسكت الكوب بكلتا يديها، ومسحت فمها بذراعها بدلاً من يدها المتسخة، ثم أعادت الكوب. صرخت بمرح: «تا-تا! سأذهب إلى باتاترز الآن لأرى جدّي وجدّتي». وأسرعت عائدة إلى حصانها الخشبي.

نظر توم إلى المُدلاة في راحة كفّه. «طوال سنوات، ظننت أنها تكرهني؛ لأنني أفشيت سرّها، ولم أعرف قطّ بشأن المُدلاة...». دفع شفته السفلية إلى الأعلى وزمَّ فمه. «كان ذلك سيُحدث فرقاً».

«أعرف أن لا شيء يمكنني قوله سيخفف عنك، وأتمنى فقط لو كان بمقدوري - لا أعرف - جعل الأمر أفضل لك».

نادت لوسي حين عادت: «ماما، أنا جائعة».

قالت إيزابيل: «لا عجب بعد كل هذا الجري!». وحملتها بين ذراعيها. «هيا، تعالي وعانقي بابا؛ فهو حزين اليوم». ووضعت الطفلة في حجره، حتى تستطيع كلتاهما معانقته بقوة.

قالت الفتاة الصغيرة: «ابتسم بابا». ثم أضافت: «هكذا». وكشّرت.

بزغ الضوء ملتوياً عبر الغيوم، يسعى إلى ملتجأ من الأمطار التي تهطل بعيداً. جلست لوسي على كتفي توم، تبتسم من المنظر على ذلك الارتفاع.

صرخت وهي تشير بإصبع إلى يسارها: «إلى هناك!». عدّل توم مساره وحملها إلى الحقل. كانت معزاة قد خرجت من الحظيرة المؤقتة، وأصرّت لوسي على المساعدة في العثور عليها.

لم يكن هناك أثر لها في الخليج الصغير. حسناً، لم تكن قد ذهبت بعيداً. قال توم: «سنبحث في مكان آخر». مشى بخطوات واسعة نحو الأرض المنبسطة مرة أخرى، وسار في دائرة. «إلى أين الآن يا لولو؟ اختاري المكان».

أشارت ثانيةً، إلى الجانب الآخر من الجزيرة: «هناك!». فانطلقا مجدداً.

«كم كلمة تعرفينها تبدأ مثل كلمة معزاة بحرف الميم؟».

«مركب!».

«هذا صحيح. هل تعرفين أي كلمات أخرى؟».

حاولت الطفلة مجدداً. «مركب».

ضحك توم. «ماذا ترتدين حين تشعرين بالبرد؟».

«كنزتي».

«نعم، لكن ما الذي ترتدينه حين يكون الجو بارداً ويبدأ بحرف الميم؟».

«معطف!».

دغدغ بطنها. «معطف، مركب، معزاة. بالحديث عنها... انظري يا لوس، هناك في الأسفل قرب الشاطئ».

«إنها هناك! لنركض بابا!».

«دعينا لا نفعل هذا أيتها الأرنب الصغيرة، فلا نريد إخافتها وجعلها تهرب. سنمسكها بهدوء».

كان توم مشغولاً جداً، ولم يلحظ في البداية المكان الذي اختارته المعزاة ليكون مرعى جديداً لها.

«انزلي إلى الأسفل أيتها الصغيرة». رفع لوسي عالياً فوق كتفيه وأنزلها إلى العشب. «كوني جيدة وابقي هنا في حين أذهب وأحضر فلوسي. سأربط هذا الحبل بطوقها، ثم ستعود بسهولة وهدوء».

«حسناً يا فلوسي، تعالي الآن، لا تُضيعي الوقت سدى». رفعت المعزاة بصرها، وهرولت بضع خطوات إلى الخلف. «يكفي هذا، ابقي مكانك». أمسك توم طوقها وربط الحبل. «لا بأس، هذا جيد. حسناً يا لولو -». عندما استدار، شعر بوخز في ذراعيه، وانقضى جزء من الثانية قبل أن يدرك ذهنه الواعي السبب. كانت لوسي جالسة على تلة صغيرة، حيث ينمو العشب بكثافة أكبر من الأرض المنبسطة حولها. عادة، يتفادى هذا الجزء من الجزيرة الذي يبدو له معتماً وكئيباً دائماً؛ بغض النظر عن سطوع ضوء النهار.

قالت مبتسمة: «انظر، وجدت مقعداً يا بابا».

صرخ قبل أن يستطيع ضبط نفسه: «لوسي! ابتعدي عنها الآن!».

تجهّم وجه لوسي، وذرفت الدموع من هول الصدمة؛ إذ لم يصرخ

عليها أحد من قبل قطّ، وبدأت تبكي.

ركض وحملها، وقال وهو يشعر بالخجل من ردّة فعله: «آسف يا لولو، لم أقصد إخافتك». محاولاً إخفاء رعبه، أسرع بضع خطوات. «ذلك ليس مكاناً جيداً للجلوس فيه يا حبي».

انتحبت: «لمَ لا؟ هذا مقعدي الخاص، وهو سحري».

«إنه...». وقرّب رأسها من ثنية عنقه. «إنه ليس مكاناً جيداً للجلوس يا حلوتي». قبّل أعلى رأسها.

سألت لوسي حائرة: «هل أنا مشاغبة؟».

«لا، لست مشاغبة. ليس أنتِ يا لوسي». قبّل وجنتها، وأبعد شعرها الأشقر عن عينيها.

لكن، عندما حملها، أدرك لأوّل مرة منذ سنوات أن اليدين اللتين تحملانها آنذاك هما اليدان اللتان قد دفعتا أباها إلى القبر. أغمض عينيه، وتذكّر إحساسه بوزن الرجل، وقارنه بوزن الابنة، فبدت لوسي أثقل الاثنين.

شعر بتربيت على وجنتيه، وقالت الطفلة: «بابا! انظر إلي!».

فتح عينيه، ونظر إليها صامتاً. أخيراً، سحب نفساً عميقاً وقال: «حان الوقت لنعيد فلوسي إلى الحظيرة. لمَ لا تمسكين الحبل؟».

أومأت، فلفه حول يدها، حاملاً ثقلها على وركه في طريق عودتهما صعوداً على التلة.

ذلك الأصيل في المطبخ، كادت لوسي تصعد إلى الكرسي لكنها استدارت أولاً إلى توم وسألته: «هل هذا مكان جيد للجلوس يا بابا؟».

لم يرفع بصره عن مقبض الباب الذي يُصلحه، ورد من دون تفكير: «نعم، هذا مكان جيد يا لولو».

وعندما ذهبت إيزابيل لتجلس بجانبها، صرخت لوسي: «لا يا ماما! ابتعدي عن ذلك الكرسي! هذا ليس مكاناً جيداً للجلوس».

ضحكت إيزابيل. «إنه حيث أجلس دائماً يا حلوتي. أظن أنه كرسي رائع».

«إنه ليس مكاناً جيداً، يقول بابا!».

«ما الذي تتكلم عنه يا بابا؟».

قال: «سأخبرك لاحقاً». وأمسك مفكّه متمنياً أن تنسى إيزابيل.

لكنها لم تفعل.

بعد أن وضعت لوسي في السرير، سألت إيزابيل مجدداً: «عمَّ كان كل ذلك اللغو عن مكان الجلوس؟ كانت لا تزال قلقة بشأن ذلك حين جلست على فراشها لأسرد لها القصة. أخبرتني أنك كنت غاضباً جداً».

«أوه، إنها مجرد لعبة ابتكرتها. ستكون قد نسيتها على الأرجح غداً».

لكن لوسي كانت قد أعادت طيف فرانك رونفيلدت إلى ذاكرته ذلك الأصيل، وصورة وجهه تلازم توم كلما نظر في اتجاه القبور.

«حتى تصبح أنت أيضاً أباً...». كان قد فكّر كثيراً بشأن أم لوسي، لكن آنذاك فقط أدرك فداحة انتهاكه الكامل لحرمة أبيها. بسببه، لم يحظَ الرجل مطلقاً بشعائر دفن لائقة، ولن يسمح له أبداً بالعيش - حتى في الذاكرة - في قلب لوسي، كما يحق للأب. للحظة، كانت بضع أقدامَ فقط من الرمل قد فصلت لوسي عن والدها الحقيقي؛ عن رونفيلدت وأجيال أسرته. تجهّم وجه توم حين أدرك أنه ربّما يكون قد قتل أقرباء - بدا الأمر ممكناً تقريباً - لهذا الرجل الذي قد أنجبها. فجأة،

موجهاً التهمة إليه، استيقظت وجوه الأعداء من القبر الذي قد حجزها فيه داخل الذاكرة.

صباح اليوم التالي، عندما ذهبت إيزابيل ولوسي لجمع البيض، بدأ توم بترتيب الأشياء في حجرة الجلوس، فوضع أقلام لوسي في علبة بسكويت، وكدّس كتبها فوق بعضها، ووجد بينها الكتاب الذي قدّمه لها رالف في الاحتفال الديني الخاص بها، والذي تقرأ لها إيزابيل منه غالباً. قلّب الصفحات الرقيقة، مذهبة الحواف التي تتضمّن أدعية صباحية...

دخلت إيزابيل ولوسي؛ الفتاة الصغيرة على ظهرها، وهما تضحكان من شيء ما. سألت إيزابيل: «يا الله، المكان نظيف! هل زارتنا جنّيات صغيرات؟».

أغلق توم الكتاب، ووضعه في أعلى الكومة وقال: «أحاول فقط ترتيب الأشياء».

بعد بضعة أسابيع، كان رالف وتوم جالسين، ويسندان ظهريهما إلى الجدار الحجري لسقيفة التخزين، بعد أن فرّغا آخر مؤونة أيلول، في حين أن بلوي في الأسفل على المركب يحل مشكلة في سلسلة المرساة، وإيزابيل في المطبخ مع لوسي تحضّران كعكة الزنجبيل للرجال. كان صباحاً قاسياً، وجلس الرجلان يتشاطران قارورة شراب في أول أشعة شمس الربيع الباهتة.

طوال أسابيع، كان توم ينتظر هذه اللحظة، ويفكّر في طريقة لفتح الموضوع حين يصل المركب. تنحنح قبل أن يسأل: «هل فعلت يوماً... شيئاً خاطئاً يا رالف؟».

رمق الرجل العجوز توم بنظرة ساخرة: «ماذا يُفترض بهذا الكلام أن يعني بالله عليك؟».

خرجت الكلمات بارتباك، رغم كل تخطيط توم. «أتكلم عن – حسناً – كيف تصحح شيئاً بعد أن تُفسده، كيف تصوّبه». كانت عيناه تركّزان على البجعة السوداء على شعار القارورة، وكافح ليحتفظ برباطة جأشه. «أعني شيئاً جدّياً».

تناول رالف جرعة من الشراب ونظر إلى العشب حين أومأ ببطء. «هل تريد قول شيء؟ لا شأن لي طبعاً، لا أحاول دسَّ أنفي في ما لا يعنيني».

كان توم هادئاً جداً، ومدركاً بدنياً للارتياح الذي سيتبع البوح بالحقيقة بشأن لوسي. «جعلتني وفاة أبي أفكّر في كل ما قد اقترفته خطأ في الحياة، وبالطريقة التي أصححه بها قبل أن أموت». فتح فمه ليتابع، لكن صورة إيزابيل وهي تغسل ابنهما المولود ميتاً جعلته يصمت، فأحجم.

«لن أعرف أبداً أسماءهم...». تفاجأ من سهولة ملء الفراغ بأفكار أخرى؛ ذنب آخر.

«أسماء من؟».

تردّد توم، متوازناً على حافة الهاوية، وهو يقرّر بشأن القفز إليها أو عدم فعل ذلك، ثم شرب بعض الشراب. «الرجال الذين قتلتهم». خرجت الكلمات من فمه فظّة وقاسية.

فكّر رالف في ردّه. «حسناً، هذا ما تفعله في حرب دموية: تَقتل أو تُقتل».

«بمرور الوقت، يبدو كل ما فعلته أكثر جنوناً». انتاب توم إحساس بأنه عالق بدنياً في كل لحظة ماضٍ منفصلة، يحمل ذنباً يؤثر على كل

إحساس بدني، وكل شعور بالذنب قد تعاظم بمرور السنين. كافح ليتنفس، في حين بقي رالف هادئاً تماماً، ينتظر.

استدار توم إلى رالف وهو يرتعش فجأة. «يا الله، أريد فقط فعل الصواب يا رالف! أخبرني ما الشيء اللعين الصحيح لأفعله! أنا... أنا لا أتحمّل هذا! لم يعد بمقدوري تحمّله». رمى القارورة إلى الأرض فتحطّمت على صخرة، في حين تحوّلت كلماته إلى تنهيدة.

وضع رالف ذراعاً حوله. «اهدأ الآن أيها الفتى، هوّن على نفسك. أنا أكبر منك، ورأيت كل شيء، وقد يكون الصواب والخطأ مثل حيتين لعينتين متشابكتين جداً لا تعرف إحداهما من الأخرى حتى تطلق النار على الاثنتين، ومن ثمَّ يكون الأوان قد فات».

نظر إلى توم نظرة طويلة صامتة. «السؤال الذي أودُّ طرحه هو: كيف يجعل الكلام عن هذه الأمور الوضع أفضل؟ لا يمكنك تصويب أيٍّ من ذلك». دارت الكلمات المجرّدة من الحكم أو الحقد مثل سكين في أحشاء توم. «يا الله! أسرع طريقة لجعل رجل ما مجنوناً هي تركه يمضي قدماً في شنّ حربه حتى يجعلها محقّة».

كشط رالف جلداً متصلّباً على إصبعه. «لو كان لدي ابن، فسأكون فخوراً إذا أصبح بنصف ما أنت عليه. أنت رجل صالح يا توم، ومحظوظ أيضاً بتلك الزوجة والابنة. ركّز على ما هو أفضل لأسرتك الآن، فالفتاتان في الأعلى قد منحتاك فرصة ثانية، لذا أظن أنهما لا تهتمان كثيراً بشأن ما فعلته أو لم تفعله آنذاك. التزم بالوقت الحاضر، وصوّب الأشياء التي يمكنك تصويبها اليوم، واترك ما جرى في الماضي هناك، ودع الباقي للخالق».

«الملح، لا يمكنك إطلاقاً التخلص من الملح. فهو يستنفد كل

شيء مثل سرطان إذا لم تحذر منه». كان ذلك بعد يوم من حديثه مع رالف، وتوم جالس يتمتم لنفسه. جلست لوسي بجانبه داخل الشرنقة الزجاجية العملاقة من العدسات، تغذّي دميتها القماشية حلويات خيالية، في حين يلمّع هو المعدّات البرونزية. اتسعت عيناها الزرقاوان فرحاً وهي تنظر إليه.

سألت: «هل أنت بابا دولي أيضاً؟».

توقف توم. «لا أعرف. لماذا لا تسألين دولي؟».

مالت لتهمس شيئاً للدمية، ثم أعلنت: «تقول لا، أنت بابا لي فقط».

كان وجهها قد فقد شكله الدائري، ويشي بتلميحات عن ذاتها المستقبلية. شعر أشقر بدلاً من اللون الداكن سابقاً، وعينان فضوليتان، وبشرة ناعمة. تساءل إن كانت ستشبه أمها أو أباها، وعاد تفكيره إلى وجه الرجل الأصلع الذي قد دفنه. سرى فزع عبر عموده الفقري حين تخيّلها تطرح عليه أسئلة أكثر صعوبة بمرور السنين، وفكّر أيضاً كيف أن انعكاس صورته على صفحة المرآة يقدّم آنذاك لمحات عن وجه أبيه في عمره، وأدرك أن الشبه يكمن في الانتظار. كانت بارتاجو صغيرة: قد تفشل أمٌّ في تعرّف رضيعها في وجه طفل. لكن في النهاية، ألن ترى نفسها في امرأة راشدة؟ قضّت الفكرة مضجعه، وغمس القطعة القماشية في علبة الملمّع وفركها على المعدّات مجدداً، حتى سال العرق إلى طرفي عينيه.

ذلك المساء، كان توم يستند إلى دعامة الشرفة، ويراقب الريح وهي تدفع الشمس إلى الليل. لقد أشعل الضوء، والبرج آنذاك مستقر حتى الفجر، وقد فكّر في نصيحة رالف مراراً؛ «صوّب الأشياء التي

يمكنك تصويبها اليوم».

قالت إيزابيل: «أنت هنا يا عزيزي. لقد آوت لوسي إلى النوم، لكن بعد أن قرأت سندريلا ثلاث مرات!». وضعت ذراعاً حول توم ومالت عليه. «أحب الطريقة التي تتظاهر بها بالقراءة حين تقلّب الصفحات. إنها تحفظ القصص عن ظهر قلب».

لم يرد توم، لذا قبّلته إيزابيل تحت أذنه وقالت: «يمكننا دائماً أن نبدأ الليلة باكراً. أنا متعبة، لكنني لست مرهقة جداً...».

كان لا يزال ينظر إلى الماء. «كيف تبدو السيدة رونفيلدت؟».

انقضت لحظة قبل أن تدرك إيزابيل أنه يشير إلى حنّا بوتس. «لماذا بالله عليك تريد أن تعرف هذا؟».

«لماذا برأيك؟».

«هي لا تبدو أبداً مثلها! لوسي شقراء وعيناها زرقاوان. لا بدّ أنها قد ورثت هذا عن أبيها».

«حسناً، بالتأكيد لم ترث هذا منا». استدار ليواجهها. «إيزي، ينبغي أن نقول شيئاً، ينبغي أن نخبرها».

«لوسي؟ هي يافعة جداً لـ -».

«لا، حنّا رونفيلدت».

بدت إيزابيل خائفة. «لمَ؟».

«تستحق أن تعرف».

ارتعشت. في لحظات كئيبة، كانت قد تساءلت عن الأسوأ. هل تصدّق أن ابنتها ميتة، أم أنها لا تزال حية ولن تراها أبداً؟ وقد تخيّلت عذاب حنّا، لكن الاتفاق مع توم ولو للحظة سيكون مدمراً، كما تعرف. «توم، لقد فعلنا هذا وسنبقيه سراً حتى الموت. ليس صواباً أن تضع ضميرك التافه فوق رفاه لوسي».

«ضميري التافه! حباً بالله يا إيزابيل، نحن لا نتكلم عن سرقة ستة بنسات من طبق الفكّة! نحن نتكلم عن حياة طفلة وحياة امرأة أيضاً! فكل لحظة من سعادتنا على حسابها. هذا ليس صواباً بالتأكيد، بغض النظر عن طريقة تفكيرنا في الأمر».

«توم، أنت متعب، كما أنك حزين وحائر. في الصباح ستفكّر بنحو مختلف، ولن أتكلم أكثر عن الأمر هذه الليلة». لامست يده، وكافحت لإخفاء الارتعاش في صوتها. «نحن... نحن لسنا في عالم مثالي، وينبغي أن نعيش مع هذا».

حدّق إليها، وانتابه إحساس أنها ربما لا تكون موجودة، وربما لا شيء من هذا موجود، وقد بدا أن الفجوة بينهما تفصل حقيقتين مختلفتين تماماً، ولم تعودا مندمجتين.

لوسي مولعة كثيراً بالنظر إلى صور التُقطت لها حين كانت طفلة في أثناء زيارتها إلى بارتاجو. وهي تخبر توم، حين تجلس على ركبته وتشير إلى الصورة على الطاولة: «هذه أنا! لكن كنت صغيرة آنذاك، والآن أنا فتاة كبيرة!».

«أنت كذلك حقاً يا حلوتي، وستبلغين الرابعة في ذكرى ميلادك القادمة».

تقول وهي تشير بحزم: «تلك ماما ماما!».

«صحيح، ماما ماما هي الجدّة».

«وهذا بابا بابا».

«لا، هذا بابا ماما؛ أي الجد».

بدت لوسي متشككة.

«نعم، هذا محيّر، أعرف، لكن الجدّة والجد ليسا أمي وأبي».

«من أمك وأبوك؟».

نقل توم لوسي من ركبة إلى الأخرى. «كانت أمي وأبي يدعيان إيلانورا وإدوارد».

«هل هما جدّتي وجدي أيضاً؟».

تفادى توم السؤال. «كلاهما ماتا يا حلوتي».

قالت لوسي: «آه». وأومأت بجدّية، بطريقة جعلته يظن ألا فكرة لديها عمّا يتكلم عنه. «مثل فلوسي».

كان توم قد نسي أمر العنزة التي أُصيبت بمرض ونفقت قبل عدّة أسابيع. «حسناً، نعم، كما ماتت فلوسي».

«لماذا مات أبوك وأمك؟».

«لأنهما كانا عجوزين ومريضين». أضاف: «حدث هذا منذ وقت طويل».

«هل سأموت أنا؟».

«ليس إن كان الأمر بيدي يا لولو».

لكن أخيراً، بدا كل يوم مع هذه الطفلة شيئاً ثميناً. كلما ازدادت مفرداتها اللغوية، تحسّنت قدرتها على استكشاف العالم حولها، وسرد قصة عمّن تكون. قلق توم لأنّ فهمها للحياة ونفسها سيؤسّس على كذبة واحدة كبيرة: كذبة قد ساعد بنفسه في صنعها وتشذيبها.

لمع كل سطح في غرفة الفانوس: كان توم قد أبقاها نظيفة دائماً، لكنه شنّ آنذاك حرباً على كل برغي، وكل أداة، حتى تستسلم وتصبح برّاقة لامعة. شمَّ تلك الأيام رائحة دوراغليت دائماً، وتلألأت المواشير ولمعت العارضة، لا تلوّثها ذرة غبار. تحرّك كل مسنّن في الآلات بسلاسة، ولم تعمل الأدوات قط بدقة أكبر.

كان الكوخ، من جهة أخرى، قد عانى. سألت إيزابيل حين جلسا في المطبخ بعد الغداء: «ألا يمكن أن تضع بعض المعجون في ذلك الشق؟».

«سأفعل ذلك حين أستعد للتفتيش».

«لكنك تستعد للتفتيش منذ أسابيع؛ منذ شهور. لا أظن أن الملك قادم، أليس كذلك؟».

«أريد فقط ترتيب كل شيء، وقد أخبرتك أن أمامنا فرصة الحصول على وظيفة بوينت مور. سنكون على البر قريبين من جيرالدتون ومن الناس، ولن نكون بعيدين إلا مئات الأميال عن بارتاجو».

«انقضى وقت لم تكن تتحمّل فيه فكرة مغادرة جانوس».

«نعم، حسناً، الوقت يتغيّر».

قالت: «الوقت لا يتغير يا توم. أنت الذي تقول دائماً إنه إذا بدت منارة في مكان آخر، فلن تكون المنارة هي التي تحرّكت».

قال حين أمسك مفتاح الربط واتجه نحو سقيفة التخزين، من دون أن ينظر إلى الخلف: «حسناً، افعلي ما ينبغي فعله».

تلك الليلة، حمل توم قارورة شراب، وذهب ليراقب النجوم من مكان قرب الجرف. لعب النسيم على وجهه حين نظر إلى مجموعات النجوم، وتذوّق طعم السائل. ركّز اهتمامه على دوران الوميض، وأطلق ضحكة مريرة من فكرة أن اختفاء الضوء يعني أن الجزيرة نفسها ستُترك دائماً في ظلام. المنارة من أجل الآخرين، لكن لا تقوى على إنارة المساحة الأقرب إليها.

الفصل الحادي والعشرون

كان الاحتفال في بوينت بارتاجو بعد ثلاثة شهور كبيراً بمعايير الجنوب الغربي، وقد قطع مشرف المكتب البحري التجاري كل الطريق من بيرث، مع حاكم الولاية، وحضر مسؤولو البلدة أيضاً؛ العمدة، ومدير الميناء، ورجل الدين، إضافة إلى ثلاثة من آخر خمسة عمّال منارة. لقد اجتمعوا إحياءً لذكرى أول مرة تُضاء بها جانوس، قبل أربعين عاماً في كانون الثاني 1890، وحملت المناسبة معها لأسرة شربورن إجازة قصيرة خاصة إلى الشاطئ.

مرّر توم إصبعه بين عنقه والياقة المنشّاة التي تطوّقه، واشتكى لرالف حين وقف الاثنان في الكواليس، ينظران من خلف الستائر: «أشعر بأنني مثل إوزة!». كان جالساً آنذاك في أخد الصفوف المرتبة والمخصصة لمهندسي البلدية، وموظّفي الميناء والمنارات الذين عملوا في جانوس بمرور السنين، وخارج النوافذ المفتوحة كان ليل الصيف صاخباً بصرير الصراصير. جلست إيزابيل ووالداها في أحد جانبي القاعة، وبيل غرايسمارك يضع لوسي التي تهذر بأغاني الأطفال على ركبته.

همس رالف لتوم: «ركّز فحسب على الشراب المجاني يا بني، فحتى جوك جونسون لا يستطيع أن يثرثر لمدة طويلة الليلة. لا بدّ أن تلك الثياب تخنقه». أومأ باتجاه الرجل الأصلع المتعرّق الذي يرتدي قميصاً ذا ياقة من الفرو ويذرع المكان جيئة وذهاباً، وهو يستعد

لمخاطبة الحشد في دار البلدية المتداعية.

قال توم: «سأعود إليك بعد دقيقة، إنه نداء الطبيعة». وخرج إلى المرحاض خلف القاعة.

في طريق عودته، لاحظ امرأة بدا أنها تحدّق إليه.

توثّق من أن أزراره مغلقة، والتفت إلى الخلف تحسباً لقيامها بالنظر إلى شخص آخر. تابعت التحديق إليه، وعندما اقتربت منه قالت: «أنت لا تتذكّرني، أليس كذلك؟».

نظر توم إليها مجدداً. «آسف، أظن أنك تتكلمين إلى الشخص الخطأ».

قالت متوردة الوجنتين: «جرى هذا منذ وقت طويل». في تلك اللحظة تغيّر شيء ما في تعبيرها، وتعرّف وجه الفتاة على المركب في أولى رحلاته إلى بوينت بارتاجو. لقد تقدّمت بالعمر، وأضحت نحيلة آنذاك، ولاحظ ظلّين تحت عينيها ما جعله يتساءل إن كانت مصابة بمرضٍ ما. تذكّرها، في ثوب نومها، وعيناها متسعتان خوفاً، ويثبّتها إلى الجدار أحمق فاقد رشده، وبدت الذكرى كما لو أنها تنتمي إلى رجل مختلف، وحياة مختلفة. مرة أو اثنتين بمرور السنين، كان قد تساءل عمّا حلَّ بها، وبالرجل الذي خلّصها منه، ولم يكن قد أزعج نفسه بذكر الحادثة إلى أي شخص، بمن فيهم إيزابيل، وأخبرته فطرته أن الوقت قد فات لإخبارها بهذا الآن.

شرعت المرأة بالقول: «أردت فقط أن أشكرك...». لكن قاطعها صوت ينادي من الباب الخلفي للقاعة. «نحن على وشك أن نبدأ، ومن الأفضل أن تدخلوا».

قال توم: «اعذريني، ينبغي أن أذهب كما أخشى. أراك في ما بعد، ربما».

عندما جلس على مقعده في المسرح، بدأت الإجراءات، فأُلقيت خطابات، وسُردت بعض الحكايات من بعض عمّال المنارة الأكبر سناً، وكُشف النقاب عن نموذج البناء الأصلي.

أعلن العمدة بفخر: «دفع تكاليف هذا النموذج المحسن المحلي السيد سبتيموس بوتس. أنا سعيد لأن السيد بوتس وابنتيه الفاتنتين حنّا وغوين يحضرون تجمّعنا الصغير الليلة، وأودُّ أن أطلب منكم إظهار شكركم بالطريقة المعتادة». أشار إلى رجل عجوز جالس بجانب امرأتين، وأدرك توم محرجاً أن أولاهما هي الفتاة من المركب، ونظر إلى إيزابيل التي ابتسمت بتكلّف حين صفّقت مع باقي الحضور.

تابع العمدة: «وطبعاً سيداتي وسادتي، يوجد معنا أيضاً الليلة عامل المنارة الحالي على جانوس، السيد توم شربورن. أنا واثق بأن توم سيُسر لقول بضع كلمات عن الحياة على صخرة جانوس اليوم». استدار إلى توم، وأشار إليه كي يعتلي المنصّة.

تجمّد توم، فلم يكن أحد قد ذكر خطاباً. كان لا يزال يشعر بالدوار من جرّاء إدراكه أنه قد التقى حنّا رونفيلدت. صفّق الحضور، وأومأ العمدة له مجدداً، بحزم أكبر هذه المرة. «اصعد إلى هنا أيها الرجل».

لثانية واحدة فقط، تساءل إن كان كل شيء، بدءاً من يوم رسو المركب، مجرد كابوس فظيع ورهيب. لكن، هناك بين الحضور استطاع رؤية إيزابيل، وآل بوتس، وبلوي، بشحمهم ولحمهم؛ لا سبيل للفرار منهم. نهض على قدميه، وقلبه يخفق بقوة، ومشى إلى المقرأ؛ وكأنه مشنقة.

شرع بالكلام مثيراً موجة ضحك بين الحضور: «الحقيقة أنني لم أكن أتوقع هذا». مسح راحتيه بجانبي سرواله، وأمسك المقرأ ليستند إليه: «الحياة على جانوس اليوم...»، توقف، مستغرقاً في التفكير، وكرّر:

«الحياة على جانوس اليوم...». كيف يمكن أن يشرح العزلة؟ كيف يستطيع جعل أحد يعرف العالم هناك، المنفصل تماماً عن تجربتهم مثل مجرّة أخرى؟ لقد تحطّمت فقاعة جانوس مثل زجاج. فهو هنا، بين المحتشدين، وفي غرفة حقيقية عادية، مملوءة أشخاصاً لهم حياة مختلفة، وبحضور حنّا رونفيلدت. أطبق الصمت وقتاً طويلاً، وتنحنح بعضهم، في حين تحرّك آخرون على مقاعدهم.

قال: «صمّمت بعض الشخصيات الذكية حقاً منارة جانوس، وبناها بعض الأشخاص الشجعان حقاً، وأحاول فقط أن أفيهم حقهم بإبقاء الضوء مشتعلاً». سعى إلى ملتجأ في التفاصيل التقنية والعملية التي يستطيع التكلم عنها من دون أن يضطر إلى التفكير. «يتخيّل الناس أن الضوء ينبغي أن يكون ضخماً، لكنه ليس كذلك، فالنور الحقيقي يأتي من شعلة زيت متبخّر يحترق في رتينة متوهّجة، ثم يُكبّر ويوجّه عبر مجموعة ضخمة من المواشير الزجاجية بارتفاع اثنتي عشرة قدماً؛ تدعى عدسات فريسنل التي تركّز الضوء في شعاع كثيف جداً يمكن رؤيته على بعد أكثر من ثلاثين ميلاً. من المدهش التفكير أن شيئاً ضئيلاً قد يصبح قوياً جداً ويمكن رؤيته على بعد أميال... عملي، عملي هو إبقاؤه نظيفاً، وإبقاؤه يدور.

يشبه الأمر هناك الوجود في عالم مختلف، ووقت مختلف؛ لا شيء يتغير باستثناء المواسم. توجد عشرات المنارات على طول سواحل أستراليا، وهناك كثيرون مثلي، يحاولون الحفاظ على سلامة السفن، وإبقاء الضوء مشتعلاً لكل من يحتاج إليه، رغم أننا لن نراهم على الأرجح أو نعرف من هم.

لا يمكنني التفكير في شيء آخر أقوله حقاً، باستثناء أنك لا تعرف ما سيجلبه المد من يوم إلى آخر؛ كل ما يقذفه محيطان علينا». رأى

العمدة ينظر إلى ساعة جيبه. «حسناً، أظن أن هذا أبقاكم بعيدين عن المائدة وقتاً طويلاً كفاية. الطقس حار». أنهى كلامه بالقول: «شكراً». واستدار فجأة ليجلس، ثم سمع تصفيقاً خافتاً من الحضور المشدوه.

سأل رالف همساً: «هل أنت بخير يا صديقي؟ تبدو مرتبكاً قليلاً».

كان كل ما قاله توم: «لا أحب المفاجآت كثيراً».

كانت سيدة القبطان هاسلك تحب الحفلات، لكن ذلك لا يتحقّق إلا نادراً في بارتاجو، لذا بدت تلك الليلة في قمة السعادة. استمتعت بأداء واجبها؛ كونها زوجة مدير الميناء، بتشجيع الضيوف على الاختلاط، خاصة بوجود زائرين من بيرث. ذهبت إلى هنا وهناك، تعرّف أشخاصاً إلى بعضهم، وتذكّرهم بأسماء، وتقترح أشياء يتشاطرون الاهتمام بها. راقبت بنحو خاص تناول الموقّر نوركلس للشراب، وشاركت زوجة المشرف العام حديثاً قصيراً عن صعوبة غسل الشريط الذهبي على البزّات الرسمية، وتدبّرت حتى أمر إقناع نيفيل وايتنيش العجوز بسرد قصة إنقاذه أفراد مركب شراعي اشتعلت النار بحمولته من الشراب قرب جانوس عام 1899. قال: «طبعاً، جرى ذلك قبل تأسيس الاتحاد، وقبل وقت طويل من وضع الكومنولث يديه على المنارات عام 1915. ازدادت الوثائق الحكومية منذ ذلك الوقت». أومأت زوجة حاكم الولاية بتكلّف، وتساءلت إن كان يعرف أنه مصاب بقشرة الرأس.

تطلّعت سيدة القبطان إلى مهمتها التالية، فانتهزت فرصتها، وقالت وهي تضع يداً على مرفق إيزابيل: «عزيزتي إيزابيل، يا له من خطاب مثير للاهتمام ذاك الذي ألقاه توم!». قالت بهمس للوسي التي تجثم على ورك إيزابيل: «لا تزالين مستيقظة حتى وقت متأخر هذه الأمسية أيتها الشابة. آمل أن تكوني فتاة جيدة مع ماما».

ابتسمت إيزابيل: «جيدة مثل الذهب».

في مناورة بارعة، مدّت السيدة هاسلك يدها لتمسك ذراع امرأة كانت تمر بجانبهم، وقالت: «غوين، تعرفين إيزابيل شربورن، أليس كذلك؟».

ترددت غوين بوتس لحظة، فقد كانت وشقيقتها أكبر بضع سنوات من إيزابيل، وذهبتا إلى مدرسة داخلية في بيرث، وأياً منهما لا تعرفها جيداً. لاحظت سيدة القبطان التردّد، فقالت: «غرايسمارك، كنت تعرفينها على أنها إيزابيل غرايسمارك».

قالت بابتسامة مؤدبة: «أنا، حسناً، أعرف من أنتِ طبعاً. والدك مدير المدرسة».

ردّت إيزابيل وهي تشعر بالغثيان يتسلل إلى بطنها: «نعم». نظرت حولها؛ وكأنها تحاول الهرب من عينيها.

بدأت سيدة القبطان تندم على التعريف، فلم تكن فتاتا بوتس قد اختلطتا حقاً مع المحليين، ثم بعد كل تلك المسألة مع الألماني، حسناً، الشقيقة... أوه يا للهول... كانت تفكّر في إنقاذ الموقف حين أشارت غوين إلى حنّا الواقفة على بعد بضع أقدام.

«حنّا، هل كنتِ تعرفين أن السيد شربورن الذي ألقى ذلك الخطاب متزوج من إيزابيل غرايسمارك؟ تعرفين أنها ابنة مدير المدرسة».

قالت حنّا التي بدت أفكارها في مكان آخر حين اقتربت: «لا، لم أكن أعرف».

تجمّدت إيزابيل واجمة، حين استدار وجه كئيب ببطء نحوها. أمسكت لوسي بقوة أكبر، وحاولت أن تنطق بتحيّة، لكن لم تخرج كلمات من فمها.

سألت غوين بابتسامة: «ما اسم صغيرتك؟».

«لوسي». تطلّب الأمر جهداً فائقاً حتى لا تهرب إيزابيل من الغرفة.

قالت غوين: «اسم جميل».

قالت حنّا وكأنها تنطق كلمة من لغة أجنبية: «لوسي». كانت تحدّق إلى الطفلة، ومدّت يدها لتلامس ذراعها.

فزعت إيزابيل رعباً من النظرة التي بدت في عيني حنّا حين نظرت إلى الفتاة الصغيرة.

بدت لوسي منوّمة بلمسة المرأة، وأمعنت النظر إلى العينين الداكنتين، ولم تبتسم أو تعبس؛ وكأنها تركّز على أحجية. قالت: «ماما». وطرفت كلتا المرأتين. استدارت إلى إيزابيل، وقالت مجدداً: «ماما، أنا أشعر بالنعاس». وفركت عينيها.

في أقصر لحظة، تخيّلت إيزابيل نفسها تسلّم الطفلة إلى حنّا؛ فهي أمها، ولها الحق بذلك، لكنها تهلوس. لا، كانت قد فكّرت في ذلك مرات عديدة، ولا رجعة في خيارها، وأياً تكن إرادة الله من هذا، ينبغي أن تتقيّد إيزابيل بالخطة، وتمتثل لمشيئته. بحثت في ذهنها عن شيء تقوله.

قالت السيدة هاسلك حين رأت توم يقترب: «أوه انظرن، هذا هو رجل اللحظة». وشدّته نحوهن في حين تحرّكت نحو مجموعة صغيرة أخرى. كان توم متشوقاً إلى لقاء إيزابيل، فانسلَّ بعيداً حين اجتمع الناس إلى الطاولات لتناول السجق والشطائر، وعندما أدرك هوية المرأة التي تتكلم إيزابيل إليها، أحس بوخز في عنقه، وتسارع نبضه.

قالت إيزابيل وهي تحاول أن تبتسم: «توم، هاتان حنّا وغوين بوتس».

حدّق توم إلى زوجته، ولوسي على وركها، والتي وضعت يدها على ذراعه.

قالت غوين: «مرحباً».

قالت حنّا وقد أشاحت بصرها أخيراً عن الطفلة: «سُررت بلقائك مجدداً، بنحو ملائم».

لم يجد توم كلمات.

استفسرت غوين: «بنحو ملائم؟!».

«التقينا في الواقع قبل سنوات، لكنني لم أعرف اسمه قطّ».

كانت إيزابيل تنظر بقلق آنذاك من شخص إلى آخر.

«كان زوجك شهماً جداً، وأنقذني من شخص حاول، حسناً، إزعاجي، على متن مركب قادم من سيدني». أجابت عن سؤال غوين الصامت. «أوه، سأخبرك عن هذا لاحقاً، فقد مضى وقت طويل الآن». قالت لتوم: «لم تكن لدي أدنى فكرة أنك في جانوس».

أطبق صمت تام حين وقفوا، بعيدين بوصات عن بعضهم.

قالت لوسي أخيراً: «بابا». ومدّت ذراعيها إليه. قاومت إيزابيل، لكن الطفلة وضعت ذراعيها حول عنقه، فتركها توم تتعلق به وتسند رأسها على صدره، مصغية إلى دقّات قلبه.

كاد توم ينتهز الفرصة ليتحرك بعيداً حين مسّت حنّا مرفقه. «بالمناسبة، أعجبني ما قلته عن وجود الضوء هناك لكل من يحتاج إليه». انقضت لحظة لتجد الكلمات التالية. «هل يمكن أن أسألك شيئاً يا سيد شربورن؟».

ملأه السؤال رعباً، لكنه قال: «ما الأمر؟».

«قد يبدو سؤالاً غريباً، لكن هل تنقذ السفن أشخاصاً في عرض البحر؟ هل سمعت يوماً عن زوارق يجري إنقاذها؟ وعن ناجين يُنقلون إلى الجانب الآخر من العالم ربما؟ كنت أتساءل فقط إن كنت قد سمعت قصصاً...».

تنحنح توم. «عندما يتعلق الأمر بالمحيط، فأي شيء ممكن كما أفترض؛ أي شيء على الإطلاق».

«فهمت... شكراً لك». سحبت حنّا نفساً عميقاً، ونظرت مجدداً إلى لوسي وأضافت: «عملت بنصيحتك بشأن ذلك الشخص على المركب آنذاك. كما قلت، كان يعاني مشكلات كافية». استدارت إلى شقيقتها. «غوين، أنا مستعدة للعودة إلى المنزل، فلست أحب هذا النوع من التجمّعات. هل بإمكانك أن تودعي بابا من أجلي؟ لا أريد أن أقاطعه». ثم إلى توم وإيزابيل: «أرجو المعذرة». كادت تغادر حين أصدرت لوسي «تا - تا» نعسة ولوّحت بيدها. حاولت حنّا أن تبتسم، وردّت: «تا - تا». وقالت عبر دموعها: «ابنتكما رائعة جداً، اعذراني». وأسرعت إلى الباب.

قالت غوين: «آسفة جداً بشأن هذا، فقد تعرّضت حنّا لمأساة رهيبة قبل بضعة أعوام. فقدت أسرتها في البحر؛ زوجها، وابنة ينبغي أن تكون بمثل عمر ابنتكما الآن. وهي تطرح دائماً هذا النوع من الأسئلة حين ترى صغاراً».

استطاعت إيزابيل أن تنطق: «هذا مروّع».

«من الأفضل أن أذهب وأتوثّق أنها بخير».

عندما غادرت غوين، انضمت أم إيزابيل إليهما. «ألست فخورة بأبيك يا لوسي؟ أليس رجلاً ذكياً يلقي الخطابات؟ وماذا عنك؟». استدارت إلى إيزابيل. «هل آخذها إلى المنزل؟ يمكن أن تستمتعي وتوم بالحفلة. لا بدّ أن سنوات قد انقضت منذ حضرتما حفلاً راقصاً».

نظرت إيزابيل إلى توم من أجل إجابة.

«وعدت رالف وبلوي بتناول الشراب معهما، وهذا كله لا

يلائمني». ومن دون أن يلقي نظرة أخرى إلى زوجته، مشى بخطوات واسعة إلى الظلام.

لاحقاً تلك الليلة، عندما نظرت إيزابيل إلى المرآة حين غسلت وجهها، لمحت للحظة سيماء حنّا على الزجاج؛ كئيباً من الحزن. رشّت المزيد من الماء على جلدها، لتزيل الصورة التي لا تُحتمل إضافة إلى عَرَق اللقاء، لكنها لم تتمكّن من جعلها تختفي، أو تتكيّف مع الشعور الآخر؛ الخوف الذي لا تدركه الحواس تقريباً، والذي جاء من معرفتها أن توم قد التقى حنّا سابقاً. لم تفهم لماذا جعل ذلك الأشياء أسوأ، لكن بطريقة ما شعرت أن أرضاً صلبة قد تحرّكت بنحو لا تدركه الحواس تحت قدميها.

كان اللقاء صادماً؛ رؤية الظلام في عيني حنّا رونفيلدت عن كثب، وشم الرائحة العطرة الخافتة عليها، والشعور - بدنياً تقريباً - باليأس المعلّق حولها. لكن في الوقت نفسه، كانت قد اختبرت إمكانية فقدان لوسي، وتيبّست العضلات في ذراعيها آنذاك؛ وكأنهما تتشبّثان بالطفلة. تضرّعت: «أوه يا الله، يا الله، أسبغ السكينة على حنّا رونفيلدت، واجعلني أحافظ على لوسي بأمان».

لم يكن توم قد عاد إلى المنزل بعد، وذهبت إيزابيل إلى غرفة لوسي لتطمئن عليها، وسحبت كتاب صور بلطف من يدها بعد أن نامت، ووضعته على المزينة. همست: «تصبحين على خير يا حبيبتي». وقبّلتها. وعندما داعبت شعرها، وجدت نفسها تقارن وجه لوسي بنسخة حنّا، وتبحث عن تشابه بينهما في انحناءة الذقن أو تقوّس الحاجب.

الفصل الثاني والعشرون

سألت لوسي في الصباح التالي حين تبعت إيزابيل إلى مطبخ آل غرايسمارك: «ماما، هل يمكنني الحصول على قط؟». كانت الطفلة مفتونة بالمخلوق البني الغريب الذي يدعى تاباثا تابي ويتجوّل في المنزل. وكانت قد رأت صور قطط في كتب القصص، لكنه الوحيد الذي لمسته يوماً.

«أوه، لا أظن أن القطّ سيكون سعيداً جداً على جانوس يا حلوتي. فهو لن يحظى بأي أصدقاء ليلعب معهم». بدا صوت إيزابيل مرتبكاً.

سألت الطفلة من دون تأخير، غافلة عن التوتر في الجو: «بابا، هل يمكننا من فضلك أن نقتني قطاً؟».

كان توم قد عاد إلى المنزل بعد نوم إيزابيل، واستيقظ قبل الجميع، ويجلس إلى الطاولة وهو يقلّب نسخة أسبوع ماضٍ من ويست أستراليان.

قال: «لولو، لماذا لا تُخرجين تاباثا إلى الحديقة لتقوما بمغامرة؟ اذهبا وطاردا الفئران».

جذبت الحيوان المتذمّر من وسطه، ومشت بتعثّر نحو الباب.

استدار توم إلى إيزابيل. «إلى متى يا إيز؟ إلى متى بالله عليك؟».

«ماذا؟».

«كيف يمكننا فعل هذا؟ كيف يمكننا المضي قدماً بهذا كل يوم؟

كنت تعرفين أن المرأة المسكينة قد فقدت عقلها بسببنا، وقد رأيتها الآن بأم عينيك!».

«توم، لا شيء يمكننا فعله. أعرف هذا جيداً وكذلك أنت». لكن وجه حنّا تراءى لها، وكذلك خيّل إليها أنها تسمع صوتها. عندما أمسك توم فكّه، فكّرت في طريقة لاسترضائه. تجرّأت: «ربما... ربما عندما تصبح لوسي أكبر سناً، ربما يمكننا إبلاغ حنّا آنذاك؛ حين لا يكون الأمر مدمّراً... لكن، سيكون هذا بعد أعوام يا توم، أعوام عديدة».

مذهولاً بكلٍّ من ذلك التنازل وعدم كفايته، ضغط: «إيزابيل، ما الذي سيتطلّبه الأمر؟ لا يمكن الانتظار أعواماً، تخيّلي حياتها! أنتِ تعرفينها!».

تنبّه الخوف الذي تشعر به إيزابيل بعنف. «وتبين أنك كنت تعرفها أيضاً يا توم شربورن، لكنك التزمت الصمت تماماً بشأن هذا، أليس كذلك؟».

دُهش توم من الهجوم المضاد. «لم أكن أعرفها، وإنما التقيت بها مرة».

«متى؟».

«على المركب من سيدني».

«هذا ما أثار كل شيء إذاً، أليس كذلك؟ لماذا لم تخبرني عنها قطّ؟ ماذا قَصَدت بالقول: كنت شهماً جداً؟ ما الذي تخفيه؟».

«ما الذي أخفيه أنا؟! هذا كثير».

«لا أعرف شيئاً عن حياتك! ما الذي أبقيته سراً غير هذا يا توم؟ كم علاقة رومانسية أخرى قمت بها على متن السفن؟».

نهض توم. «توقفي! توقفي فوراً يا إيزابيل! أنتِ تمضين قدماً مثل ساعة برقّاصين بشأن حنّا رونفيلدت لتغيّري الموضوع لأنك تعرفين

أنني محق. إنْ كنت قد رأيتها قبل أو بعد الحادثة فهذا لا يُحدث أي فرق».

حاول أن يبدو منطقياً. «إيز، رأيت ما قد أصبحت عليه، وهذا بسببنا نحن». استدار بعيداً عنها. «رأيت أشياء... رأيت أشياء في الحرب يا إيز، أشياء لم أخبرك بها قط ولن أفعل أبداً. يا إلهي، فعلت أشياء...». كانت قبضتاه مغلقتين بإحكام وفكّه متشنّجاً. «أقسمت ألا أجعل أحداً يعاني بعد ذلك، ليس إن كان بمقدوري المساعدة. لماذا تظنين أنني ذهبت إلى المنارة بأي حال؟ ظننت أنني ربما أفعل خيراً، وربما أنقذ وغداً مسكيناً من حطام سفينة، وانظري الآن إلى ما ورّطت نفسي به. لن أرغب بأن يتعرض كلب لما قد تعرّضت له حنّا رونفيلدت!». بحث عن كلمات مناسبة. «يا الله، تعلّمت في فرنسا أنك تكون محظوظاً جداً إذا حظيت بمستوعب للشاي وأسنان تمضغ بها». حجب الصور التي فاضت في ذهنه. «لذا عندما التقيتك، ونظرتِ مرتين إلي، ظننت أنني في الفردوس!».

توقف لحظة وقال: «ماذا نحن يا إيزي؟ ما الذي نظن أننا نلعب به، بالله عليك؟ أقسمت أن أبقى معك في السرّاء والضرّاء يا إيزابيل، السرّاء والضرّاء! حسناً، كل ما يمكنني قوله إنّ الأمور ساءت كثيراً». ثم مشى بخطوات واسعة إلى مؤخر القاعة.

وقفت الطفلة عند الباب الخلفي، تراقب نهاية النقاش واجمة. لم تكن قد سمعت قط هذا العدد من الكلمات يخرج من فم توم، أو بصوتٍ عالٍ، ولم تره يصرخ يوماً.

استقبلت كلمات إيزابيل توم حين عاد إلى منزل غرايسمارك ذلك الأصيل، برفقة بلوي: «لقد اختفت! لوسي! تركتها في الخارج

تلعب مع القط في حين ذهبت لأحزم أغراضنا. ظننت أن أمي تراقبها، وظنّت أنني أراقبها».

قال: «اهدئي، اهدئي يا إيز». ووضع يداً على كل ذراع. «هدّئي من روعك، متى رأيتها آخر مرة؟».

«قبل ساعة، ساعتين على الأكثر».

«متى أدركت أنها قد اختفت؟».

«الآن فقط. ذهب أبي ليبحث عنها في الأجمة في الخلف». كانت بارتاجو مملوءة بأراضي أدغال أصلية عند أطرافها، وتقع خارج حديقة آل غرايسمارك الأنيقة الخضراء فدادين من شجيرات تقود إلى الغابة.

«توم، حمداً لله أنك عدت». جاءت فيوليت مسرعة إلى الشرفة. «أنا آسفة جداً، هذه كلها غلطتي. كان ينبغي أن أتوثّق منها! ذهب بيل ليفتّش درب الأخشاب القديم...».

ظهرت ردّة فعل توم العملية المنهجية: «هل هناك أي أماكن أخرى ربما تكون قد ذهبت إليها؟ أي مكان أخبرتها وبيل قصصاً عنها؟».

قالت فيوليت وهي تهزُّ رأسها: «قد تكون في أي مكان».

توسّلت إيزابيل: «توم، توجد أفاعٍ، وعناكب سامّة، ليكن الله في عوننا!».

تكلم بلوي: «كنت أقضي النهار كله في تلك الأجمة حين كنت صغيراً يا سيدة ش. ستكون بخير، وسنجدها من دون مشكلة. هيا يا توم».

«إيز، أنا وبلوي سنذهب إلى الأدغال، وسنبحث عن أي آثار. ألقوا نظرة أخرى حول الحديقة وعند واجهة المنزل. فيوليت، توثّقي ثانيةً من البيت، كل الخزائن وتحت الأسرّة؛ في أي مكان قد تتبع قطاً

إليه. إذا لم نجدها في الساعة التالية، ينبغي أن نذهب إلى الشرطة، ونجلب مقتفي الآثار».

رمقته إيزابيل بنظرة حين ذكر الشرطة.

قال بلوي: «لن يصل الأمر إلى هذا الحد. ستكون بخير مثل المطر يا سيدة ش، انتظري وسترين».

وعندما أصبحا خارج نطاق سمع المرأتين قال بلوي لتوم: «لنأمل أنها تُحدث جلبة حيث تذهب. الأفاعي تنام في أثناء النهار، وستبتعد عن طريقك إذا سمعتك قادماً. لكن، إذا فاجأتها... هل ذهبت بعيداً من قبل؟».

قال توم بحدّة: «ليس هناك إطلاقاً أي مكان لعين تذهب إليه. آسف يا بلوي، لم أقصد، هي لا تملك حقاً أي شعور بالمسافة. على جانوس، كل شيء قريب من المنزل».

تابعا المشي وهما يناديان اسم الطفلة في أثناء سيرهما، وينتظران عبثاً رداً. كانا يمشيان على درب قديم قد نمت عليه أعشاب بطول راشد، وحيث تصل أغصان إلى المساحة الخالية في الأسفل. لكن بمثل طولها، لم تكن لوسي لتلقى أي مقاومة.

بعد نحو خمس عشرة دقيقة، انتهى الدرب إلى فسحة، ثم تشعّب في اتجاهين متعاكسين. قال بلوي: «يوجد الكثير من هذه الدروب. كانوا يفتحون طريقاً في الأيام الخوالي حين يستكشفون منطقة أخشاب جيدة، ولا تزال توجد آبار هنا وهناك، لذا ينبغي أن تتوخى الحذر». قال مشيراً إلى الآبار المحفورة للوصول إلى المياه السطحية: «إنها مغطّاة عادة».

لم تكن الطفلة من المنارة تخاف شيئاً، فهي تعرف أن عليها ألا

تقترب كثيراً من حافة الجرف، وتفهم أن العناكب قد تؤذي، وينبغي تفاديها، وتدرك أنها ينبغي ألا تسبح إلا بوجود ماما أو بابا بجانبها. وفي الماء، تعرف الفرق بين زعنفة دولفين لطيف تتحرّك صعوداً وهبوطاً، وزعنفة قرش تبقى ثابتة حين تشق السطح. في بارتاجو، إذا شدّت ذيل القط فقد يخدشها، وهذه هي حدود الخطر.

عندما تبعت تاباثا تابي إلى خارج حدود الحديقة، لم تدرك أنها قد تضيع، وبعد مرور بعض الوقت لم تعد ترى القط، لكن بعد فوات الأوان؛ فقد أضحت بعيدة جداً ببساطة لتعود أدراجها، وكلما حاولت القيام بذلك، ابتعدت أكثر.

في النهاية، وصلت إلى فسحة حيث جلست أرضاً بجانب جذع خشبي، ونظرت إلى محيطها فرأت نملاً عرفت أنها ينبغي أن تتفاداه، وتوثّقت أنها بعيدة كفاية عن الأثر الذي تتركه. لم تقلق، فأمها وأبوها سيجدانها.

عندما جلست هناك، ترسم أشكالاً في التربة الرملية باستعمال غُصَين، لاحظت مخلوقاً غريباً، أطول من إصبعها، يقترب من تحت الجذع. لم يكن يشبه شيئاً رأته من قبل: جسد طويل، وقوائم مثل حشرة أو عنكبوت، لكن بطرفين أماميين بدينين مثل سرطان البحر الذي يصطاده أبوها أحياناً على جانوس. مفتونة، مسّت ذلك المخلوق بالغصين، فالتف ذيله بسرعة على شكل قوس جميلة؛ مشيرة إلى رأسها. وفي تلك اللحظة، ظهر مخلوقٌ ثانٍ، على بعد بضع بوصات.

سُرّت بالطريقة التي تبعت بها الحشرتان غصينها، تحاولان الإمساك به بمخالبهما الحادّة. انبثقت حشرة ثالثة من تحت الجذع، وانقضت الثواني ببطء.

عندما وصلا إلى الفسحة، فزع توم، فقد رأى قدماً صغيرة تنتعل حذاءً تبرز من خلف جذع.

«لوسي!». أسرع إلى الجذع، حيث تجلس الفتاة الصغيرة وهي تلعب بعصا، وتجمّد حين تعرّف شكل المخلوق المتشبّث بنهاية الغصين على أنه عقرب. «يا إلهي يا لوسي!». أمسك بالفتاة الصغيرة من تحت ذراعيها ورفعها عالياً في الهواء في حين رمى العقرب إلى الأرض وسحقه تحت قدمه. صرخ: «لوسي، ماذا تفعلين بالله عليك؟».

«بابا! لكنك قتلته!».

«لوسي، هذا خطر! هل لسعك؟».

قالت وهي تفتح الجيب الواسع في مقدمة ثوبها، وتعرض بفخر عقرباً آخر: «لا، أعجبني، وانظر، أحضرت واحداً لك».

قال متظاهراً بالهدوء وهو يعيدها إلى الأرض: «لا تتحرّكي!». أنزل الغصين إلى الجيب حتى تعلّق العقرب به، ثم رفعه ببطء وقذفه إلى التراب، ثم داسه.

تفحّص ذراعيها وساقيها بحثاً عن علامات تشير إلى عضات أو لسعات. «هل أنت واثقة بأنه لم يلسعك؟ هل آذاك في أي مكان؟».

هزّت رأسها. «قمت بمغامرة!».

«قمت بمغامرة بالتأكيد».

قال بلوي: «ألقِ نظرة عن كثب، لا يمكنك دائماً رؤية علامات واضحة، لكنها لا تبدو نعسى، وهذه علامة جيدة. لأخبرك الحقيقة، كنت أكثر قلقاً من أن تكون في قاع إحدى تلك الآبار».

تمتم توم: «يا لك من متفائل! لوسي حبيبتي، هناك عقارب على جانوس، وهي خطرة، ولا ينبغي أن تمسّيها أبداً». عانقها. «أين كنت بالله عليك؟».

«لعبت مع تاباثا، كما قلت أنت». شعر توم بوخزة حين تذكّر أنه طلب منها سابقاً في ذلك الصباح أن تخرج مع القط. «هيا يا حلوتي، ينبغي أن نعيدك إلى ماما». بدا أن فمه يدرك حديثاً أهمية الكلمة، بعد أن تذكّر أحداث الليلة الماضية.

أسرعت إيزابيل من الشرفة لتلتقيهم عند حافة الحديقة، وأمسكت لوسي بقوة ونشجت ارتياحاً.

قال بيل، واقفاً بجانب فيوليت: «الحمد لله». وضع ذراعيه حولها، وقال: «الشكر لله عزَّ وجل. وشكراً لك أيضاً يا بلوي، فقد أنقذت حياتنا».

تبدّدت كل الأفكار عن حنّا رونفيلدت من ذهن إيزابيل ذلك الأصيل، وعرف توم أنه لم يعد بمقدوره إثارة الموضوع مجدداً، لكن وجهها استمر يطارده. كان الشكل الموجود في حال مجرّدة آنذاك شكل امرأة حيّة تعاني كل دقيقة بسبب ما قد فعله، وكل سمة منها - الوجنتان الهزيلتان، والعينان المعذّبتان، والأظافر التي قضمتها - واضحة في ضميره. كان أقسى ما يمكن تحمّله هو الاحترام الذي أظهرته له: الثقة.

غالباً، تساءل توم عن الأفكار المتوارية في ذهن إيزابيل، المساحات التي تدبّرت فيها دفن الاضطراب الذي لم يستطع ذهنه الفرار منه.

عندما غادر رالف وبلوي جانوس في اليوم التالي، بعد إعادة الأسرة إلى المنارة، قال الشاب: «يا إلهي، تبدو الأمور باردة قليلاً بينهما، ألا تظن هذا؟».

«إليك نصيحة مجانية يا بلوي؛ لا تحاول أبداً معرفة ما يجري بين زوجين».

«نعم أعرف. لكن، حسناً، يظن المرء أنهما سيشعران بالراحة لأن لا شيء حدث للوسي أمس. كانت إيزابيل تتصرّف وكأنّ ضياع لوسي خطأ توم».

«ابتعد عن الأمر أيها الفتى. حان الوقت لتحضّر لنا بعض الشاي».

الفصل الثالث والعشرون

كانت إحدى أسرار المقاطعة الجنوبية الكبيرة؛ أحجية ما جرى للطفلة غريس رونفيلدت وأبيها. قال بعض الناس إنها أثبتت أنه لا يمكن الوثوق بألماني؛ فقد كان جاسوساً قد استُدعي أخيراً إلى ألمانيا بعد الحرب، ولا يُحدث فرقاً أنه أسترالي. لم يرمش لآخرين - يعرفون المحيطات - جفن عند اختفائه: «حسناً، فيمَ كان يفكّر حين أبحر في تلك المياه؟ لا بدّ أنه قد جُنَّ، ولم يكن ليصمد خمس دقائق».

اكتسبت مكافأة الرجل العجوز بوتس مكانة أسطورية. وبمرور السنين، أغرت أشخاصاً من غولدفيلدز، ومن الشمال، وحتى من أديلايد، الذين رأَوا فرصة لجني ثروتهم بإحضار قطعة من خشب طافٍ ونظرية. في الشهور الباكرة، أرهفت حنّا السمع إلى كل حكاية تتضمن رؤية شيء، وكل ذكرى عن بكاء طفلة سُمع من الساحل في ليلة حالكة.

بمرور الوقت، لم يفشل قلبها المتشوّق برؤية نواقص في القصص. وعندما قالت إن فستان طفلة قد «اكتُشف» على الشاطئ لا يماثل ما كانت ترتديه غريس، كان الطامع بالمكافأة يحثها قائلاً: «فكّري! الأسى يغلب عليك، كيف تتوقّعين أن تتذكّري ما كانت الطفلة المسكينة ترتديه؟!». أو «تعرفين أنك ستنامين بسهولة أكبر إذا قبلت الدليل يا سيدة رونفيلدت». ثم سيُدلون ملاحظة جارحة من نوعٍ ما حين

ترافقهم غوين من قاعة الاستقبال، وتشكرهم على عنائهم، وتمنحهم بضعة شلنات أجرة الرحلة إلى منازلهم.

في كانون الثاني ذاك، أزهر الياسمين مجدداً، وعبقت الرائحة العطرة نفسها في الجو، لكن حنّا رونفيلدت الأكثر كآبة تابعت رحلتها الشعائرية - رغم أنها أضحت أقل تواتراً - إلى المخفر، والشاطئ، ودار العبادة. تمتم الشرطي غارستون حين خرجت: «فقدت عقلها تماماً». حتى إن الموقّر نوركلس حثّها على قضاء وقت أقل في الظلام الحجري لدار العبادة وأن «تسعى إلى التقرّب من الله في الحياة حولها».

بعد يومين من احتفالات المنارة، في أثناء استلقاء حنّا مستيقظة، سمعت صرير مفصلات صندوق البريد. نظرت إلى الساعة التي أشار عقرباها الغريبان إلى الثالثة بعد منتصف الليل، وفكّرت في تجاهله. زحفت من السرير ونظرت من زاوية الستارة، لكنها لم ترَ شيئاً. كان القمر قد بزغ قليلاً، لا ضوء في أي مكان باستثناء الوهج الخافت للنجوم المتناثرة في السماء. مجدداً، سمعت صوت طقطقة حديد الصندوق الذي نقله النسيم هذه المرة.

أشعلت مصباحاً وانطلقت عبر الباب الأمامي، حريصة على ألا توقظ شقيقتها، وحذرة قليلاً فقط من إزعاج أي أفاعٍ قد تستفيد من الظلمة الحالكة للبحث عن فئران أو ضفادع، ولم تُصدر قدماها الحافيتان أي صوت على الدرب.

اهتزَّ باب صندوق البريد ببطء إلى الأمام والخلف، كاشفاً لمحات عن شيء ما في الداخل. عندما قرّبت المصباح منه، انبثق شكل مستطيل صغير؛ حزمة. سحبتها، واكتشفت أنها ليست أكبر من يدها، ومغلّفة بورقة بنية. نظرت حولها بحثاً عن أي دليل عن طريقة وصولها إلى

هنـاك، لكـن الظـلام التـفَّ حول مصباحها مثل قبضة مغلقة، فأسـرعت عائدة إلى غرفة نومها، وبحثت عن مقص الخياطة لتقطع الخيط. كانت الحزمة معنونة لها، بخط اليد الأنيق نفسه، ففتحتها.

عندمـا فضّـت صفحـة بعـد أخـرى مـن صحيفـة، أصدر شـيء ما صوتـاً مـع كل حركـة، ومـع إزالـة آخـر طبقة من الحزمة، وجدت هناك الخشخيشـة الفضيـة التـي قـد أهداهـا أبوهـا في بيـرث لحفيدته تعكس الوميـض الخافـت للمصبـاح. لـم يكـن هناك شـك في الرسـوم النافرة على المقبض، ووجدت تحت الخشخيشة رسالة.

هي بأمان ومحبوبة ومحط اهتمام. أرجوك، ادعي من أجلي.

لا شيء أكثر، لا تاريخ، أو تمهيد، أو توقيع.

قرعت على باب غرفة شقيقتها: «غوين! غوين، أسرعي! انظري إلى هذا! هي حيّة! غريس حيّة، كنت أعرف هذا!».

خرجت غوين متعثّرة من سـريرها، مسـتعدة لسـماع فكرة غريبة أخرى، لكن بمواجهة الخشخيشـة، تنبّهت فوراً؛ لأنها قد جلسـت مع أبيها إلى نضد كاريس إخوان في بيرث حين ناقش التصميم مع صائغ الفضّة. لمستها بحذر؛ وكأنها بيضة قد تفقس ويخرج منها وحش.

كانت حنّا تبكي وتبتسم، وتضحك للسقف والأرضية. «أخبرتك، أليس كذلك؟ أوه يا حبيبتي غريس! هي حيّة!».

وضعت غوين يدها على كتفها. «لا تدعي العاطفة تجرفنا يا حنّا. سنذهب ونرى أبي في الصباح ونجعله يذهب معنا إلى الشرطة، فهم سـيعرفون ما يجدر بهم فعله. الآن، عودي إلى النوم، سـتحتاجين إلى ذهنٍ صافٍ غداً».

كان النـوم مسـتحيلاً، وحنّـا تشـعر بالرعـب مـن أنها إذا أغمضت عينيها فقد تسـتيقظ من حلم. خرجت إلى السـاحة الخلفية وجلسـت

على الكرسي الهزّاز حيث جثمت مرة مع فرانك وغريس، ونظرت إلى آلاف النجوم التي ترصّع القبّة السماوية؛ وشعرت بالسكينة من ثباتها، مثل ثقوب أمل صغيرة في الليل. بالكاد يمكن سماع حياة صغيرة أو الشعور بها على نطاق بهذا الاتساع، لكن لديها الخشخيشة، والخشخيشة جلبت لها أملاً. لم تكن هذه خدعة، وإنما تعويذة حب؛ رمز صفح أبيها، شيء مسّته ابنتها وأولئك الذين يقدّرونها. عادت أفكارها إلى دراستها للأدب الكلاسيكي، وحكاية ديميتر وبيرسفون، وفجأة بدت تلك الحكاية القديمة حيّة لها، حين أمعنت التفكير في عودة ابنتها من حيث تُحجز أسيرة.

شعرت - لا، عرفت - أنها ستصل إلى نهاية رحلة مروّعة. عندما تعود غريس إليها، ستبدأ الحياة مجدداً. معاً ستجنيان سعادة حُرمت منها كلتاهما وقتاً طويلاً. وجدت نفسها تضحك على ذكريات مضحكة: فرانك يكافح لتغيير مريلة، ومحاولة أبيها الاحتفاظ برصانته حين تقيأت حفيدته طعامها على كتف أفضل بزّاته. للمرة الأولى منذ أعوام، اشتد بطنها إثارة، وتمنّت أن يكون بمقدورها الانتظار حتى الصباح.

عندما تسلل بعض الشك إلى أفكارها، ركّزت ذهنها على شيء محدّد؛ الطريقة التي كان شعر غريس بها أخف قليلاً في مؤخر رأسها من جراء فركه على ملاءتها، والطريقة التي تبدو بها أظافرها مثل هلالات صغيرة عند قاعدتها. ستثبّت ابنتها في الذاكرة وتجذبها إلى المنزل بإرادة كبيرة؛ بالتوثق من أنه في مكان واحد على هذه الأرض هناك من يعرف كل سمة منها. ستحب بيتها، وسيكون واحة أمان لها.

امتلأت البلدة بالأقاويل؛ منها أن دمية قد وُجدت، لا؛ عضّاضة أسنان. كان ذلك شيئاً يثبت أن الطفلة ميتة، أو شيئاً يثبت أنها حيّة

وقد قتلها الأب، ثم قُتل. من متجر الجزّار إلى بائع الخضار، ومن عيادة الطبيب البيطري إلى قاعة دار العبادة، تردّدت القصّة، وأسقطت حقائق وتغيّرت حين انتقلت من فم إلى آخر، ودائماً مع «استهجان» أو زم شفتين لإخفاء إثارة كل قاص.

* * *

«سيد بوتس، لا نشك دقيقة واحدة أن بمقدورك تعرّف مشترياتك، لكنني واثق أنك ستقدّر أنها لا تثبت أن الطفلة حيّة». كان الرقيب نوكي يحاول تهدئة سبتيموس متورّد الوجه آنذاك، والذي يقف أمامه رافعاً ذقنه، ونافخاً صدره مثل ملاكم حاز جائزة.

«ينبغي أن تحقّق في الأمر! لماذا سينتظر شخص ما حتى الآن لتسليمها؟ في وسط الليل! لم يحاول طلب الجائزة». بدا شارباه أشدَّ بياضاً حين أصبح وجهه أحمر داكناً.

«مع كل الاحترام، اللعنة، لكن كيف سأعرف؟».

«كفّ عن استعمال هذه اللغة، شكراً جزيلاً لك! توجد سيّدتان هنا!».

«أعتذر». زمَّ نوكي شفتيه. «سنحقّق في الموضوع، يمكن أن أؤكد لك ذلك».

طلب سبتيموس: «كيف، بالضبط؟».

«نحن... أنا... أعدك بأنني سأفعل».

شعرت حنّا بغصّة في قلبها، وظنّت أن الأمر سيكون كالسابق. رغم ذلك، اعتادت السهر حتى وقت متأخر في الليل وهي تراقب صندوق البريد، وتنتظر علامة.

أعلن الشرطي لينش: «حسناً، أريد صورة لهذه يا برني». واقفاً

إلى نضد استوديو غوتشر، أخرج الخشخيشة الفضية من كيس لبّاد.

نظر برني غوتشر بارتياب. «منذ متى تهتم بالأطفال؟».

ردَّ الشرطي: «منذ أصبح الأمر يتعلق بدليل!».

انقضى بعض الوقت ليجهّز المصوّر معدّاته، وعندما فعل، نظر لينش نحو الجدران إلى اللوحات التي توضّح خيارات الأسلوب والإطار. تحرّك بصره بهدوء فوق مجموعة أمثلة تضمنت فريق كرة القدم المحلي، وهاري غارستون وأمه، وبيل وفيوليت غرايسمارك مع ابنتهما وحفيدتهما.

بعد بضعة أيام، ثُبّتت صورة بدبوس إلى لوح الإعلانات خارج المخفر، تُظهر الخشخيشة إلى جانب مسطرة للقياس، وتطلب من أي شخص يتعرّفها أن يتقدّم بإفادته. كانت إلى جانبها ملحوظة من سبتيموس بوتس المحترم، يعلن فيها أن المكافأة مقابل أي معلومات تقود إلى العودة الآمنة لحفيدته غريس ألين رونفيلدت أضحت آنذاك ثلاثة آلاف جنيه، وأن كل المعلومات ستُعامل بسريّة تامة.

في بارتاجو، ألف جنيه يمكن أن تشتري لك مزرعة. وثلاثة آلاف، حسناً، بثلاثة آلاف جنيه لم يكن أحد يعرف ما يمكن أن يفعله.

سألت أم بلوي مجدداً وهي تسير في المطبخ، وشعرها لا يزال باللفّافات القماشية التي نامت بها: «هل أنت واثق؟ فكّر يا بني، بالله عليك!».

«لا، لا يمكن أن أكون واثقاً. لست واثقاً تماماً؛ فقد حدث هذا منذ وقت طويل. لكنني لم أرَ شيئاً يلمع من قبل، وفي مهد طفلة!». اهتزّت يداه حين لفَّ لفافة تبغ، وتحسّس عود الثقاب حين أشعله. «ماما، ماذا سأفعل؟». كانت حبّات عرق تتكوّن على جبينه تحت

خصلات شعره الحمراء. «أعني، ربما هناك سبب لهذا، أو ربما كنت أحلم فحسب». مجَّ لفافة تبغه بقوة، وزفر. «ربما ينبغي أن أنتظر حتى الرحلة القادمة إلى جانوس، وأسأله آنذاك، رجلاً لرجل».

«تعني رجلاً لقرد! عقلك أضعف مما كنت أظن إن كانت هذه فكرتك عمّا يجدر بك فعله. ثلاثة آلاف جنيه!». لوّحت بثلاث أصابع في وجهه. «ثلاثة آلاف جنيه أكثر مما ستجنيه على ذلك المركب البائس في مئة عام!».

«لكن توم هو من نتكلم عنه، وإيزابيل؛ وكأنهما سيفعلان شيئاً خطأ! حتى إذا كانت الخشخيشة نفسها، فربّما جرفتها الأمواج ووجداها. ينبغي أن تري بعض الأشياء التي تظهر على جانوس. وجد بندقية مرة، وحصاناً خشبياً!».

«لا عجب أن كيتي كيلي لم تقبل بك. فأنت لا تتمتع بأوقية طموح، أو أوقية رشد».

«ماما!». دُهش بلوي من سخرية أمه.

«ارتدِ قميصاً نظيفاً، سنذهب إلى المخفر».

«لكنه توم! إنّه زميلي يا ماما!».

«إنها ثلاثة آلاف جنيه مباركة! وإذا لم تكن أول من يحصل عليها، فقد يذهب رالف أديكوت العجوز إلى هناك ليسرد عليهم القصة ذاتها». أضافت: «لن تنظر كيتي كيلي باستهزاء إلى رجل معه كل ذلك المال، أليس كذلك؟ مشّط شعرك الآن، وأطفئ لفافة التبغ البائسة تلك».

الفصل الرابع والعشرون

في البداية، ظنَّ توم أنه يتخيّل شكل مركب مهبّ الريح مع اقترابه منهم، تطارده نهاية ذيل الإعصار الذي كان يعصف قبالة الساحل الأسترالي الغربي. كانوا قد عادوا إلى جانوس منذ أسبوع فقط، ولا يتوقعون رؤية مركب مجدداً قبل منتصف آذار، والمقرّر أن يأخذهم إلى البر الرئيس قبل انتقاله إلى بوينت مور. وفكّر توم أنه ربما يعاني مشكلة في المحرّك في طريقه لإنجاز مهمة أخرى، أو ربما أُصيب رالف أو بلوي في ذلك الطقس العاصف.

كانت الأمواج عاتية، وقد تطلّب الأمر كل مهارات البحّارَين لإرساء المركب من دون أن يصطدم بالرصيف. صرخ توم بصوتٍ يعلو على الريح حين توقف المركب جانبياً أخيراً: «أي ميناء في العاصفة، هه يا رالف؟». لكن الرجل العجوز لم يرد.

عندما تعرّف توم، بدلاً من بلوي الذي يظهر عادة من مؤخر المركب، السيماء القاسية والثابتة لنيفيل وايتنيش، ازدادت حيرته. تبعه أربعة رجال شرطة.

«يا للمفاجأة رالف! ما كل هذا؟».

مجدداً فشل رالف في الرد، فسرت قشعريرة في جسد توم، ونظر إلى أعلى المنحدر، ورأى إيزابيل تتراجع إلى الخلف؛ خارج مجال الرؤية من الرصيف. مشى أحد رجال الشرطة مترنحاً على الممر الخشبي، واستغرق الأمر منه لحظة ليتكيّف مع الرصيف الثابت، ثم

تبعه الآخرون.

«توماس إدوارد شربورن؟».

«هذا صحيح».

«الرقيب سبراغ من شرطة ألباني، وهذا مساعدي الشرطي ستروغنيل. تعرف الرقيب نوكي والشرطي غارستون من مخفر بوينت بارتاجو».

«لا يمكنني قول غير هذا».

«سيد شربورن، نحن هنا بشأن فرانك رونفيلدت وابنته غريس».

كانت ضربة قاضية حبست أنفاسه لحظة. شعر أن عنقه متيبّس، وأصبح وجهه شاحباً مثل الشمع فجأة. انتهى الانتظار، وقد تلقى أخيراً برقية الانتقال بعد أيام من الانتظار في الخنادق.

أخرج الرقيب شيئاً من جيبه، ورقة خفقت في الريح العاتية، وحملها بثبات بكلتا يديه.

«هل تتعرّف هذه يا سيدي؟».

نظر توم إلى صورة الخشخيشة، وألقى نظرة على الجرف حين فكّر في ردّه: كانت إيزابيل قد اختفت. توازن توم على نقطة ارتكاز؛ لا رجعة بعد هذا.

أطلق تنهيدة كبيرة؛ وكأنه ارتاح من ثقل مادّي، وطأطأ رأسه وأغمض عينيه. شعر بيد على كتفه، ورأى رالف: «توم، توم يا بني... بالله عليك، ما الذي يجري هنا؟».

عندما استجوب رجال الشرطة توم وحده، تراجعت إيزابيل إلى الصلبان الصغيرة قرب الجرف، وبدت أجمة إكليل الجبل واضحة حيناً ومشوشة حيناً آخر، مثل أفكارها. ارتعشت حين فكّرت في الموقف:

كان أقصر رجال الشرطة، الأصغر سناً، رزيناً جداً حين عرض الصورة عليها، وقد لاحظ بالتأكيد عينيها تتسعان وأنفاسها تتوقف من ذلك المنظر.

«أرسل أحدهم الخشخيشة إلى السيدة رونفيلدت الأسبوع الماضي».

«الأسبوع الماضي؟».

«يبدو أنه الشخص نفسه الذي بعث لها رسالة قبل عامين».

كان النبأ الأخير مفاجئاً جداً لتفهمه.

«نريد جميعنا أن نطرح عليك بعض الأسئلة بعد أن نتكلم إلى زوجك. لكن، حالياً ربما ينبغي...». هزَّ كتفيه بارتباك. «ألا تبتعدي كثيراً».

نظرت إيزابيل من فوق الجرف. كانت الريح تعصف بقوّة؛ لكنها كافحت لتسحب نفساً حين تخيّلت لوسي التي تنعم بقيلولة بعد الظهر في حين تستجوب الشرطة أباها في الغرفة المجاورة. سيأخذونها بعيداً، وتسارعت الأفكار في ذهنها: يمكن أن تخفيها في مكان ما على الجزيرة. يمكن... يمكن أن تنطلق بالمركب معها. أجرت حسابات بسرعة؛ مركب الإنقاذ جاهز دائماً للإبحار في أي لحظة. إذا استطاعت التظاهر أنها تأخذ لوسي... إلى أين؟ أي مكان، لا يهم. يمكن أن تنقل الفتاة إلى المركب وتغادرا الجزيرة قبل أن يدرك أحد ما قد جرى، وإذا وصلتا إلى التيار المناسب، فستتجهان شمالاً... تخيّلت كلتيهما تتجهان نحو بيرث معاً بأمان، لكن المنطق تدخّل لتذكيرها بمخاطر التيار الجنوبي والموت المحقق في المحيط الجنوبي. استكشفت بسرعة مساراً آخر، وفكّرت في أن تقسم أنها طفلتها، وأن الزورق الصغير جرفته الأمواج وعلى متنه جثتان، وقد احتفظا بالخشخيشة؛ أن تتشبّث

بأي احتمال، بغض النظر عن سخافته.

استمر الدافع نفسه بالعودة: «ينبغي أن أسأل توم عمّا أفعله». ثم شعرت بالغثيان، حين تذكرت أن هذا كله من فعل توم، وخطر لها استيقاظها في الليلة التي أعقبت علمها بوفاة شقيقها هيو وتفكيرها: «ينبغي أن أُعلم هيو بالنبأ المروّع».

تدريجياً، أقرَّ جزء منها أن لا مفر، وأفسح الخوف مجالاً للغضب. لماذا؟ لماذا لم يترك الأمور على حالها؟ يُفترض به أن يحمي أسرته، لا أن يمزّقها إلى أشلاء. عميقاً تحت الوعي، سرى شعور بكثافة القطران، يبحث آنذاك عن ملاذ آمن. شردت أفكارها في الظلام؛ استمر يخطط لهذا لمدّة سنتين. من هو هذا الرجل الذي يستطيع أن يكذب عليها ويبعد طفلتها عنها؟ تذكّرت منظر حنّا رونفيلدت وهي تلامس ذراعها، وتساءلت عمّا جرى حقاً بينهما، ثم تقيأت على العشب.

هدر المحيط على الجرف، مغدقاً رذاذاً على حيث تقف إيزابيل؛ فوق سطح الماء بمئات الأقدام، عند الحافة. غطى الماء الصلبان، وأضحى فستانها رطباً.

«إيزي! إيزابيل!». ذهب صوت توم هباء في الريح الهوجاء.

كان طير يحلّق في الهواء، يحوم ويحوم، قبل أن ينقضَّ بقوة مثل البرق على موجة عاتية ليلتقط رنكة، لكن الحظ والعاصفة عملا لمصلحة السمكة التي تلوّت هاربة من منقار الطائر، وسقطت عائدة إلى الأمواج.

قطع توم عدّة مئات الياردات للوصول إلى زوجته. استمر الطير يحوم في تيارات العاصفة، وهو يعرف أن اضطراب المياه سيجعل اصطياد أي سمكة لا تتخذ من الحيد العميق ملتجأ لها سهلاً.

قـال تـوم مقرّبـاً إيزابيـل إليـه: «ليس لدينا وقت طويل، ستسـتيقظ لوسي في أي لحظة». كان أفراد الشرطة يستجوبونه في الساعة الماضية، واثنان منهما يتجهان آنذاك نحو المقابر القديمة على الطرف الآخر من الجزيرة وهما يحملان رفشين.

أمعنت إيزابيل النظر إلى وجهه؛ وكأنه غريب. «قال الشرطي إن شخصاً ما قد أرسل خشخيشة إلى حنّا رونفيلدت...».

نظر إلى عينيها، لكن لم يقل شيئاً.

«... إن شخصاً ما قد كتب لها قبل سنتين، ليقول لها إن طفلتها حيّة». كافحت وقتاً أطول قليلاً، وكل ما استطاعت قوله، وعيناها تتسعان رعباً: «توم!». قالت مجدداً، وهي تتراجع إلى الخلف: «أوه يا توم!».

«كان ينبغـي أن أفعـل شـيئاً يـا إيـزي. اللـه يعلـم أنني قد حاولت التوضيح، وأردت فقط إعلامها أن ابنتها بخير».

نظـرت إليـه، وكأنهـا تحـاول فهـم الكلمـات التي يصـرخ بها من بعيد، رغم أنه واقف قريباً جداً، ما جعل خصلات من شعرها تلامس وجهه. «وثقت بك يا توم». أمسكت شعرها بقبضتيها حين حدّقت إليه فاغـرة فمهـا وهـي تكافـح لتنطـق. «مـاذا بالله عليك قد فعلت لنا؟ ماذا فعلت للوسي؟».

رأت استرخاءً في كتفيه، وارتياحاً في عينيه. وعندما أنزلت يديها، انسـدل شـعرها علـى وجههـا مجـدداً مثـل خمـار حزن وبدأت تنشـج. «سنتان مرّتا! هل كان كل شيء كذبة طوال سنتين؟».

«رأيتِ المرأة المسكينة! رأيت ما قد فعلناه!».

«وهي تعني لك أكثر من أسرتك؟».

«إنها ليست من أسرتنا يا إيز».

«إنها الأسرة الوحيدة التي قد عرفتها يوماً! ماذا سيحل بلوسي؟».

أمسك ذراعيها. «اسمعي، افعلي ما أقوله لك وستكونين بخير. لقد أخبرتهم أنني الفاعل، لا بأس؟ لقد أخبرتهم أن الاحتفاظ بلوسي كان فكرتي. قلت إنك لم ترغبي بهذا، لكنني أرغمتك. إذا التزمت بهذه الرواية فلن يمسّك أحد... سيعيدوننا إلى بارتاجو. إيزي، وعدت بأن أحميك». قرّبها إليه مجدداً، ووضع شفتيه في أعلى رأسها. «لا يهم ما يحدث لي، وأعرف أنهم سيرسلونني إلى السجن، لكن عندما أخرج، سنبقى نحن –».

فجأة هاجمته، وقبضتاها تضربان صدره. «لا تتكلم عن نحن يا توم! ليس بعد ما فعلته!». لم يتجشّم عناء إيقافها. «اتخذت خيارك! أنت لا تهتم إطلاقاً بلوسي، لذا لا...». بحثت عن كلمات، «لا تتوقع مني الاهتمام بما يحدث لك من الآن فصاعداً».

«إيز، هوّني عليك الآن. أنتِ لا تعرفين ما تقولينه!».

كان صوتها حادّاً: «أنا لا أعرف؟! أعرف أنهم سيأخذون ابنتنا بعيداً. لا يمكنك أن تفهم، أليس كذلك؟ ما قد فعلته... لا يُغتفر!».

«يا إلهي يا إيز...».

«تستطيع أيضاً أن تقتلني يا توم! قتلي أفضل من قتل ابنتنا. أنت وحش، وحش قاسٍ وأناني!».

وقف توم يفكّر في الكلمات التي تفوّهت بها، والتي تؤذي أكثر من الضربات. نظر إلى وجهها بحثاً عن دلالة على الحب الذي أقسمت عليه مراراً وتكراراً، لكنه بدا مملوءاً غضباً جليدياً؛ مثل المحيط حولهم.

انقضَّ الطير مجدداً، وارتفع منتصراً مع سمكة قد علقت في منقاره، ولا يدل على وجودها إلا فمها وهو يفتح ويُغلق واهناً.

أخبر رالف الرقيب نوكي: «الجو عاصف جداً لرحلة العودة الآن». كان الرقيب سبراغ، الشرطي المشرف من ألباني، يُلحُّ كثيراً بشأن الحاجة إلى الإبحار فوراً. كل ما قاله البحّار: «يمكنه السباحة إذا كان متشوقاً جداً إلى العودة».

كان سبراغ قد أصرَّ: «حسناً، يمكن أن يبقى شربورن على المركب تحت الحراسة. لن أجعله يلفّق قصصاً مع زوجته، شكراً جزيلاً لك».

نظر الرقيب نوكي إلى رالف ورفع حاجبيه، وزاوية فمه تشي برأيه لزميله.

مع اقتراب غروب الشمس، مشى نيفيل وايتنيش بخطى واسعة نحو المركب.

سأل الشرطي ستروغنيل الذي كان يأخذ مهمة حراسته على محمل الجد: «ماذا تريد؟».

«أريد أن يقوم شربورن بتسليم المنارة. ينبغي أن يأتي معي ليشعل الضوء». رغم أن وايتنيش لا يتكلم إلا نادراً وبإيجاز، إلا أن نبرته لا تتيح أبداً أي مجال للاعتراض.

ارتبك ستروغنيل، لكنه استعاد رباطة جأشه ليقول: «حسناً، ينبغي أن نرافقك جميعاً».

«لا يُسمح لغير الموظفين بدخول المنارة، وهذه قوانين الكومنولث. سأعيده بعد أن أنتهي منه».

مشى توم وعامل المنارة بصمت إلى البرج. وعندما وصلا إلى الباب، قال توم بهدوء: «ما سبب كل هذا؟ لا تحتاج إلي لتشعل الضوء؟».

قال الرجل العجوز ببساطة: «لم أرَ قط منارة بهذه الجودة، ولا شأن لي بما قد فعلته غير ذلك، لكنك سترغب بأن تودّعها، وسأنتظر

في الأسفل هنا». ثم أدار ظهره، ناظراً عبر النافذة الدائرية ليقدّر حجم العاصفة.

إذاً، للمرة الأخيرة، صعد توم مئات درجات السلالم، وللمرة الأخيرة أنجز كيمياء الشعلة من الكبريت والزيت. وللمرة الأخيرة أيضاً، أرسل برقيته إلى بحّارة بعيدين أميالاً: احترس.

بحلول صباح اليوم التالي، كانت العاصفة قد هدأت، والسماء زرقاء صافية مرة أخرى، والشواطئ مزينة بأشرطة من رغوة صفراء وأعشاب بحرية قذفتها الأمواج. عندما أبحر المركب مبتعداً عن صخرة جانوس، لعب قطيع من الدلافين بجانب المقدمة لبعض الوقت، وزعانفها الرمادية تتحرّك صعوداً وهبوطاً مثل اندفاعات مائية، تارة تقترب وتارة تبتعد. جلست إيزابيل - وعيناها متورّمتان وحمراوان - عند أحد جانبي القمرة، وتوم عند الجانب الآخر، وتكلم أفراد الشرطة معاً عن جداول الخدمة، وأفضل طريقة لتلميع أحذيتهم. في مؤخر المركب، فاحت من المشمّع النتن رائحة محتوياته المخيفة.

في حجر إيزابيل، سألت لوسي مجدداً: «أين نحن ذاهبون يا ماما؟».

«نحن عائدون إلى بارتاجو يا حبيبتي».

«لماذا؟».

رمقت إيزابيل توم بنظرة. «لا أعرف حقاً يا عزيزتي لوس، لكن ينبغي أن نذهب». وضمّتها بقوة أكبر.

لاحقاً، نزلت الطفلة عن ركبة أمها وصعدت على ركبة توم، فأمسكها واجماً، محاولاً أن يتذكّر كل شيء بشأنها: رائحة شعرها، ونعومة بشرتها، وشكل أظافرها الصغيرة، وصوت أنفاسها حين تقرّب وجهها كثيراً منه.

تسبح الجزيرة بعيداً عنهم، وتتلاشى إلى نسخة مصغّرة من نفسها، حتى تصبح مجرد ذكرى يحملها كل راكب بنحو مختلف. راقب توم إيزابيل، وانتظر أن ترد على نظرته بالمثل، وتاق إلى أن تبتسم له إحدى تلك الابتسامات التي تذكّره بمنارة جانوس؛ نقطة ثابتة وموثوقة في العالم، تعني أنه لن يضلَّ أبداً. لكن الشعلة انطفأت، وبدا وجهها مكفهراً آنذاك.

قاس الرحلة إلى البر بدورات الضوء.

الفصل الخامس والعشرون

عندما ترجّلوا، أخرج الرقيب سبراغ زوجاً من الأصفاد من جيبه ومشى بخطوات واسعة نحو توم، لكن فيرنون نوكي أوقفه بمجرّد هزّة من رأسه.

قال رقيب ألباني الذي يحمل رتبة أعلى من فيرنون في الشرطة: «هذا إجراء صحيح».

قال نوكي وهو يومئ نحو لوسي التي ركضت إلى توم، وأمسكت ساقه: «لا بأس بهذا. توجد فتاة صغيرة هنا».

«بابا! بابا! احملني!».

ومض أسى واضح على وجهه حين التقى بصر الفتاة عينيه؛ مع هذا الطلب الروتيني. في أعلى شجرة نعناع، زقزق زوجٌ من الذُّعرة الزغباء. ابتلع توم لعابه بصعوبة، ودفع أظافره في راحتيه. «انظري يا لولو! انظري إلى الطائرين الجميلين في الأعلى. أنت لا ترين مثلهما في المنزل، أليس كذلك؟». أبقى بصره على الطائرين، وحثّها: «اذهبي وانظري إليهما جيداً».

كانت هناك مركبتان متوقفتان قرب الرصيف، وخاطب الرقيب سبراغ توم: «من هنا، إلى الأولى».

استدار توم نحو لوسي التي كانت تركّز آنذاك على لعب الطائرين اللذين يهزّان ذيليهما الأسودين الطويلين. كاد يمدُّ يده إليها، لكنه تخيّل كربتها: الأفضل أن ينسلّ مبتعداً عنها.

لمحت حركته ومدّت ذراعيها نحوه. حثّته مجدداً، ونبرتها تشي بإحساسها أن شيئاً ما خطأ: «بابا، انتظر! احملني!».

حثَّ سبراغ توم ممسكاً مرفقه: «الآن، إذا سمحت».

عندما مشى توم مبتعداً، بدت كل خطوة أكثر بغضاً، ولوسي تلاحقه وذراعاها ممدودتان إليه. توسّلت منزعجة ومرتبكة: «بابا، انتظر لولو». وعندما تعثّرت وسقطت ووجهها للأسفل على الحصى، أطلقت صرخة، فلم يستطع توم متابعة السير، واستدار إلى الخلف متحرّراً من قبضة الشرطي.

«لولو!». حملها وقبّل ذقنها المخدوش، وتمتم وشفتاه تلامسان وجنتها: «لوسي، لوسي، لوسي، لوسي. أنتِ بخير أيتها الصغيرة، ستكونين بخير».

نظر فيرنون نوكي إلى الأرض وتنحنح.

قال توم: «حبيبتي، ينبغي أن أذهب الآن. آمل –». توقف، ونظر إلى عينيها وداعب شعرها، وقبّلها أخيراً. «الوداع يا صغيرتي».

لم تُظهر الطفلة أي علامة على تركه، لذا استدار نوكي نحو إيزابيل. «سيدة شربورن».

أخذتها إيزابيل من توم، وقالت: «تعالي الآن يا حلوة، أنت بخير، ستحملك ماما». رغم أن الفتاة استمرت تنادي: «بابا، أريد أن أذهب معك يا بابا!».

«هل أنت سعيد الآن يا توم؟ هذا ما أردته، أليس كذلك؟». سالت الدموع على وجه إيزابيل إلى وجنة لوسي.

للحظة، وقف توم متجمّداً من رؤية كلتيهما، والألم يعتصر وجهيهما؛ إنهما من وعد بيل غرايسمارك أنه سيحميهما ويعتني بهما. أخيراً، استطاع القول: «يا إلهي. إيز، أنا آسف».

كان كينيث سبراغ قد فقد صبره، فأمسك ذراعه مجدداً، ودفعه إلى السيارة. عندما صعد توم إلى مؤخر المركبة، بدأت لوسي تنتحب. «بابا، لا تذهب! أرجوك يا بابا! أرجوك!». كان وجهها متغضناً وأحمر، والدموع تسيل على فمها المفتوح، في حين حاولت إيزابيل عبثاً مواساتها. «ماما، أوقفي الرجال! هم أشرار يا ماما! هم يؤذون بابا!».

«أعرف يا حبيبتي، أعرف». وضعت إيزابيل شفتيها على شعر لوسي وتمتمت: «أحياناً يفعل الرجال أشياء سيئة جداً يا حلوتي؛ أشياء سيئة جداً». عندما قالت الكلمات، عرفت أن القادم أسوأ.

راقب رالف المنظر من على متن المركب. وعندما عاد إلى هيلدا في المنزل، نظر إليها، نظر حقاً إليها ربما لأول مرة منذ عشرين عاماً.

سألته زوجته مرتبكة من الاهتمام: «ما الأمر؟».

قال: «فقط، أوه، لا شيء». وعانقها وقتاً طويلاً.

في مكتبه، خاطب فيرنون نوكي كينيث سبراغ: «أقول لك مجدداً أيها الرقيب، لن تأخذه إلى ألباني هذا الأصيل. سيُنقل في وقت ملائم، بعد أن أحظى بفرصة طرح بضعة أسئلة أخرى».

«سينتهي به المطاف سجيناً لدينا، فالمنارات ملكية الكومنولث كما تذكر، لذا سنفعل هذا بالطريقة الصحيحة».

«أعرف القوانين مثلك». كان كل شرطي على ذلك الجانب من بيرث يعرف كيف يحب كينيث سبراغ إظهار سلطته. ورغم انزعاجه من عدم تجنيده للحرب، حاول التعويض عن ذلك بالتصرّف على أنه رقيب أول لعين. «سيُرسل إلى ألباني في الوقت المناسب».

«أريد استجواب شربورن. سأكشف قريباً السبب الحقيقي. أنا هنا الآن، وسآخذه معي».

«إذا كنت تريده بهذا القدر، فيمكنك أن تعود لاحقاً. أنا رئيس هذا المخفر».

«سنتصل هاتفياً ببيرث».

«ماذا؟».

«دعني أتصل ببيرث. إذا سمعت هذا من قيادة المقاطعة فسأتركه هنا، وإلا فسأضعه في السيارة وننطلق إلى ألباني».

انقضى وقت طويل لتقنع إيزابيل الطفلة المذهولة بركوب السيارة الثانية. وكان توم في زنزانة وقت وصولهما إلى المخفر.

في قاعة الانتظار، جلست لوسي على ركبة إيزابيل مشاكسة ومرهقة من الرحلة الطويلة والأحداث الغريبة. لامست وجه إيزابيل باستمرار، وهي تربت عليه وتداعبه لتحصل على رد. «أين بابا؟ أريد أن أراه». كانت إيزابيل شاحبة، ويرتسم على جبينها عبوس ذاهل. بين الحين والآخر، شردت أفكارها، وركّزت اهتمامها على ثلم في خشب النضد، أو نعيق غراب بعيد، لتعيدها أصابع لوسي إلى الواقع وهي تلامسها مع سؤال آخر؛ إلى المعرفة المقزّزة لمكان وجودها.

وقف رجل عجوز كان قد جاء ليدفع غرامة بعد ترك ماشيته تشرد على الطريق العام أمام النضد، منتظراً إيصاله. قضى الوقت بمحاولة إغراء لوسي لممارسة لعبة «نظرة وصوت».

سأل: «ما اسمك؟».

قالت بحياء: «لوسي».

تمتم هاري غرايستون بابتسامة ساخرة، وهو يخط بقلمه على

نموذج الإيصال: «هذا ما تظنينه».

في تلك اللحظة، وصل د. سومبتون من عيادته، وهو يلهث ويحمل كيساً في يده، وأومأ إلى إيزابيل غير مبالٍ، لكنه تفادى التواصل البصري. توردت حين تذكّرت آخر مرة فحصها فيها، واستنتاجه المدمّر.

قال غارستون وهو يرشده إلى غرفة في الخلف: «إلى هناك يا سيدي». استدار الشرطي إلى إيزابيل. «ينبغي أن يفحص الطبيب الطفلة، لذا ينبغي أن تعطيني إياها».

«تُفحص! لماذا؟ إنها لا تعاني شيئاً!».

«لا رأي لك في هذا يا سيدة شربورن».

«أنا أمـ -». أوقفت إيزابيل نفسها قبل أن تنطق الكلمة. «لا تحتاج إلى طبيب. أرجوك، أظهر بعض اللياقة!».

أمسك الشرطي الطفلة وأخذها بعيداً، فيما كانت تصرخ وتتملّص منه. رنّت الصيحات الثاقبة في أرجاء المخفر، ووصلت إلى زنزانة توم، وبدت أعلى حين تخيّل ما قد يجري لها.

* * *

في مكتب نوكي، وضع سبراغ السمّاعة وعبس في وجه نظيره في بارتاجو. «حسناً، حصلت على مرادك الآن...». رفع حزامه إلى الأعلى، وغيّر نهجه. «ينبغي وضع المرأة في الزنزانة أيضاً، إذا أردت رأيي. هي على الأرجح متورّطة في الأمر حتى أذنيها».

قال نوكي: «لقد عرفت تلك المرأة كل حياتها أيها الرقيب، وهي لم تتخلّف عن دار العبادة مرة واحدة. سمعت قصة توم شربورن: يبدو أنها ضحيته أيضاً».

«قصته! أخبرك بأنها ليست أفضل منه. اتركني أتعامل معه بطريقتي وسنكتشف قريباً كيف مات ذلك الرجل رونفيلدت حقاً...».

كان نوكي يعلم جيداً سمعة سبراغ في ذلك المجال أيضاً، لكنه تغافل عن الملحوظة. «اسمع، لا أفرّق شربورن عن لوح صابون، وقد يكون جاك السفّاح. إذا كان مذنباً، فسينال عقابه، لكن حبس زوجته من أجل هذا لن يفيد أحداً، لذا اكبح جماح نفسك. تعرف مثلي تماماً أن المرأة المتزوجة ليست مسؤولة جنائياً عن أي شيء يرغمها زوجها عليه». رتّب كومة أوراق بطرف دفتر ملحوظاته. «هذه بلدة صغيرة، واللطخة تبقى. لا ترمِ فتاة في زنزانة إلا إن كنت واثقاً جداً بالحقائق. لذا، سنتحرك خطوة بخطوة».

عندما خرج الرقيب الصفيق سبراغ من المخفر، دخل نوكي غرفة الفحص وعاد مجدداً مع لوسي.

قال: «أكّد الطبيب أنها بخير». ثم أخفض صوته: «سنأخذ الطفلة إلى أمها الآن يا إيزابيل. سأكون شاكراً إذا لم تجعلي الأمر أكثر صعوبة لأحد مما ينبغي أن يكون. لذا إن كنت... إذا أردت توديعها...».

«أرجوك! لا تفعل هذا!».

«لا تجعلي الأمور أسوأ». نظر فيرنون نوكي - الذي راقب طوال سنوات محنة حنّا رونفيلدت، واثقاً بأنها تعيش في وهم حزين - إلى هذه المرأة وتساءل عن الشيء نفسه.

ظناً منها أنها بأمان مجدداً بين ذراعي أمها، أمسكتها الطفلة بقوة حين قبّلت إيزابيل وجنتها، لا تستطيع إبعاد شفتيها عن بشرتها الرقيقة. وضع هاري غارستون يديه حول خصر الفتاة وجذبها بقوة.

رغم أن كل شيء في الساعات الأربع والعشرين الماضية كان سيؤدي إلى هذا، ورغم الخوف الذي أضمرته إيزابيل منذ اليوم الذي

وقع بصرها فيه لأوّل مرّة على لوسي وهي طفلة صغيرة، إلا أن اللحظة مزّقتها.

توسّلت عبر دموعها: «أرجوك! أظهر بعض الشفقة!». ارتعش صوتها، وترددت أصداؤه بين الجدران العارية. «لا تُبعد طفلتي عني!».

عندما انتُزعت الفتاة منها وهي تصرخ، أُغمي على إيزابيل وسقطت على الأرضية الحجرية محدثة صوتاً مدوّياً.

لم تستطع حنّا رونفيلدت الجلوس ساكنة، ونظرت إلى ساعة معصمها، وساعة رف الموقد، وشقيقتها؛ أي شخص أو شيء قد يخبرها عن الوقت الذي مضى. كان المركب قد أبحر إلى جانوس صباح الأمس، وكل دقيقة منذ ذلك الوقت قد انقضت ببطء وصعوبة شديديْن.

بدا غير ممكن تصديق أنها قد تحتضن مجدداً ابنتها قريباً. ومنذ نبأ الخشخيشة، راودتها أحلام يقظة بشأن عودتها؛ العناق، والدموع، والابتسامات. لقد قطفت أزهار ياسمين من الحديقة ووضعتها في غرفة الأطفال، حتى ملأت الرائحة الكوخ الصغير. كانت تبتسم وتدندن، ومسحت الغبار ونظّفت المكان، وأجلست الدمى في صندوق الأدراج، ثم ساورتها الشكوك: ماذا ستأكل؟ لقد حثّها هذا على إرسال غوين لتتسوّق تفاحاً وحليباً وحلويات. قبل عودة شقيقتها، تساءلت حنّا فجأة إن كان ينبغي أن تطعم الطفلة شيئاً آخر، فذهبت هي - التي لا تأكل إلا قليلاً - إلى جارتها السيدة دارنلي، التي لديها خمسة أطفال صغار، للتوثّق مما يجب أن تطعمه لطفلة في مثل عمر غريس. أخبرت فاني دارنلي - المتشوقة دائماً إلى سرد حكاية ما - السيد كيلي في متجر البقالة أن حنّا قد جُنّت تماماً وتريد إطعام أشباح. «لا ترغب أن تذكر

جيرانك بالسوء. لكن، حسناً، هناك سبب لوجود مستشفيات للأمراض العقلية، أليس كذلك؟ لا أريد شخصاً معتوهاً يسكن قريباً جداً من أبنائي، وسينتابك الشعور نفسه لو كنت مكاني».

كانت المكالمة الهاتفية روتينية. «من الأفضل أن تأتي شخصياً يا سيد غرايسمارك. لدينا ابنتك هنا».

وصل بيل غرايسمارك إلى المخفر ذلك الأصيل مرتبكاً. بعد المكالمة الهاتفية، كان ذهنه قد قفز فوراً إلى رؤية جثة إيزابيل مسجّاة على لوح، تنتظر التأبين. لم يكن قد سمع باقي الكلمات التي جاءت عبر الهاتف الموصول حديثاً: الموت هو النتيجة الأكثر وضوحاً التي يمكن القفز إليها. ليس ابنته، لم يكن بمقدوره فقدان كل أبنائه! لم يفهم ذهنه الكلمات بشأن طفلة رونفيلدت، وتسلل إليه شيء عن توم وطفلة.

أرشدوه في المخفر إلى غرفة خلفية، حيث تجلس ابنته على كرسي خشبي، ويداها على حضنها. كان مقتنعاً جداً بوفاتها، وجعلت رؤيتها عينيه تذرفان دموعاً.

همس وهو يشدّها إليه ويعانقها: «إيزابيل، إيزابيلا! ظننت أنني لن أراك مجدداً».

انقضت بضع ثوانٍ قبل أن يلاحظ حالتها الغريبة: لم تعانقه بالمقابل، ولم تنظر إليه، بل انهارت مجدداً على الكرسي، خائرة القوى وشاحبة.

سأل ابنته أولاً، ثم الشرطي غارستون: «أين لوسي؟ أين لوسي الصغيرة؟ وتوم؟». عمل عقله بسرعة مجدداً: لا بدّ أنهما قد غرقا، لا بدّ أنهما...

«السيد شربورن في السجن يا سيدي». ختَم الشرطي ورقة على

الطاولة. «سيُنقل إلى ألباني بعد جلسة الاستماع».

«جلسة استماع! ما الذي يجري؟ أين لوسي؟».

«الطفلة مع أمها يا سيدي».

«الطفلة بالتأكيد ليست مع أمها! ماذا فعلتم بها؟ ماذا يجري هنا؟».

«يبدو أن أم الطفلة الحقيقية هي السيدة رونفيلدت».

افترض بيل أنه قد أخطأ في سماع ما قاله غارستون، وتابع تخبّطه: «أطلب منك إطلاق سراح صهري حالاً».

«أخشى أنني لا أستطيع فعل هذا يا سيدي. السيد شربورن معتقل».

«معتقل؟ ما السبب بالله عليك؟».

«حتى الآن، تزييف سجلات كومنولث، وانتهاك الواجب بوصفه موظفاً حكومياً. وهذه هي البداية فقط. ثم هناك سرقة طفلة، وحقيقة أننا نبشنا رفات فرانك رونفيلدت من صخرة جانوس».

«هل جُننت؟». استدار إلى ابنته، وقد فهم فجأة سبب شحوبها وحالتها الغامضة. «لا تقلقي بشأن هذا يا عزيزتي، سأصلح الأمر. مهما تكن الحال، من الواضح أنها غلطة شنيعة، وسأكشف الحقيقة».

شرع الشرطي: «لا أظن أنك تفهم يا سيد غرايسمارك».

«أنت محق بأنني لا أفهم، وينبغي توضيح الأمر كله! جَرُّ ابنتي إلى مخفر بسبب قصة سخيفة، والافتراء على صهري». استدار إلى ابنته. «إيزابيل، أخبريه أن كل هذا هراء!».

جلست ساكنة وخالية من أي تعبير. تنحنح الشرطي وقال: «ترفض السيدة شربورن قول أي شيء يا سيدي».

شعر توم بسكون الزنزانة يطبق عليه؛ كثيفاً وسائلاً مثل الزئبق.

لوقت طويل، تشكّلت حياته بصوت الأمواج والرياح، وإيقاع الضوء. فجأة، توقف كل شيء، وأصغى إلى سَوْطي يحدد منطقته بأغنية يزقزقها من علٍ في أشجار الكينا؛ غافلاً عمّا يجري.

العزلة مألوفة، وتعيده إلى الوقت الذي قضاه بمفرده على جانوس. وتساءل إن كانت السنوات مع إيزابيل ولوسي من صنع خياله فقط، ثم وضع يده في جيبه، وأخرج شريط الطفلة الحريري الأرجواني، متذكّراً ابتسامتها حين أعطته إيّاه بعد انزلاقه. «أمسك هذا من فضلك بابا». عندما حاول هاري غارستون مصادرته في المخفر، قال نوكي بحدّة: «أوه، بالله عليك أيها الفتى. لن يخنقنا بذلك الشيء اللعين، صحيح!». فطواه توم ووضعه في جيبه.

لا يستطيع تهدئة الأسى الذي يشعر به بسبب ما قد فعله، والارتياح الكبير الذي يسري بداخله. قوتان متعاكستان، ينجم عنهما رد فعل لا يُفسّر ويتحوّل إلى قوة أكبر؛ معرفة أنه قد حرم زوجته من الطفلة. كأنه مثبّت بخطّاف لحم شعر بأنه تائه؛ هذا ما قد أحسّت به بالتأكيد حنّا رونفيلدت، وما قد أحسّت به إيزابيل عدّة مرات، وينتابها الآن مجدداً. بدأ يتساءل عن الطريقة التي قد سبّب بها مثل هذه المعاناة، عمّا قد فعله.

كافح ليفهم الأمر؛ كل هذا الحب الذي لا يمكن تمييزه مشتّت مثل ضوء يمر عبر العدسات.

لقد عرف فيرنون نوكي إيزابيل منذ أن كانت طفلة صغيرة، وقد درّس والدها خمسة من أبنائه. قال لبيل بوقار: «أفضل شيء هو أن تأخذها إلى المنزل، وسأتكلم إليها غداً».

«لكن، ماذا عن...».

«خذهـا إلـى المنـزل فحسـب يـا بيـل. خـذ الفتـاة المسـكينة إلى المنزل».

«حبيبتي إيزابيل!». احتضنتها أمها حين خَطَت عبر الباب الأمامي. كانت فيوليت غرايسمارك مرتبكة مثل أي شخص آخر، لكن عندما رأت حال ابنتها، لم تجرؤ على طرح الأسئلة. «سريرك جاهز في الأعلى. بيل، اجلب حقيبتها».

دخلت إيزابيل، ووجهها خالٍ من أي تعبير، فقادتها فيوليت إلى كرسي بذراعيـن، ثـم أسـرعت إلـى المطبخ وعادت مـع كأس. قالت: «ماء دافئ، من أجل أعصابك». رشفت إيزابيل الماء تلقائياً، ووضعت الكأس الفارغة على الطاولة الصغيرة.

أحضـرت فيوليـت بطانيـة وطوتهـا فـوق ركبتيها، رغـم أن الغرفة كانـت دافئـة تمامـاً. بـدأت إيزابيل تلامس الصوف، وتمرّر سبابتها في خطوط مستقيمة فوق النقش المقلّم، مستغرقة تماماً بأفكارها؛ ما جعلها لا تسـمع سـؤال أمها: «هل هناك شـيء لأجلبه لك يا حلوة؟ هل أنتِ جائعة؟».

أقحـم بيـل رأسـه عبـر فتحة البـاب، وأومأ إلى فيوليت لكي تتبعه إلى المطبخ. «هل قالت شيئاً؟».

«لم تنطق بكلمة، وأظن أنها مصدومة».

«حسـناً، هذا يجعلنا اثنين. فلا يمكنني فهم شـيء من كل هذا. سـأذهب إلـى المخفـر فـي الصبـاح الباكر لأعرف مـا حدث. تبدو حنّا رونفيلـدت تلـك مخبولـة منـذ سـنوات الآن، وفـي مـا يتعلـق بالرجـل العجوز بوتس، أظن أنه يسـتطيع الاسـتفادة من نفوذه بسـبب أمواله».

أنـزل طرفـي صدرتـه فـوق بطنـه. «لن تخيفني مجنونـة ووالدها، بغض

النظر عن الأموال التي يملكها».

تلك الليلة، استلقت إيزابيل على سرير طفولتها الصغير، الغريب والضيق آنذاك. تلاعبت ريح خفيفة بالستائر المزركشة. وفي الخارج، عكس صرير الصراصير النجوم الساطعة. في ليلة مثل هذه، قبل لحظات فقط كما بدا لها، كانت قد تمدّدت وهي تشعر بالأرق والإثارة بسبب حفل زفافها في صباح اليوم التالي، وحمدت الله على إرسال توم شربورن لها: على ولادته، والحفاظ على سلامته في أثناء الحرب، ونقله على نسيم المصير إلى شاطئها؛ حيث كانت أول شخص يراه حين نزل إلى اليابسة.

حاولت أن تتذكّر تلك الحال من التوقّع المُبهج، والإحساس بأن الحياة، بعد كل ذلك الأسى والخسارة التي جلبتها الحرب، تكاد تزهر. لكن الشعور ضاع. بدا كل ذلك آنذاك غلطة؛ وهماً. كانت سعادتها على جانوس قصيّة، ولا يمكن تخيّلها. طوال عامين، كان توم يكذب بكل كلمة وكل صمت، ولأنها لم تلحظ ذلك الخداع، فما الذي سيكون قد فاتها أيضاً؟ لماذا لم يقل قطّ كلمة عن لقائه حنّا رونفيلدت؟ ما الذي كان يخفيه؟ في لحظة شك رأت صورة توم وحنّا ولوسي؛ أسرة سعيدة. عادت أفكار الخيانة التي قد أغارت عليها في جانوس أقسى، وأكثر حدّة. ربما لديه نساء أخريات وحياة أخرى، وربما قد هجر زوجة - زوجات - في الشرق... وأطفالاً... بدا الوهم معقولاً ومقنعاً، وملأ الفجوة بين ذكرياتها عن أمسية زفافها وهذا الحاضر المروّع الجائر. منارة تحذّر من الخطر، تخبر الناس أن يبقوا بعيداً، وقد ظنّت خطأ أنها بر الأمان.

لقد فقدت طفلتها، ورأت لوسي خائفة ومذهولة بعد إبعادها عن

الشخصين الوحيدين في العالم اللذين تعرفهما حقاً: لم يكن بمقدورها احتمال هذا أصلاً. لكن معرفة أن هذا قد حدث بسبب زوجها - الرجل الذي عشقته، الرجل الذي وهبته حياتها - كانت ببساطة عصيّة على الفهم. لقد زعم أنه سيهتم بها، لكنه فعل شيئاً سيضمن تدميرها.

أنقذها هذا التركيز الظاهري على توم، المؤلم جداً، من محنة لا تُطاق. ببطء، متخذاً معنى بين ظلال ذهنها، ظهر شعور ملموس تقريباً: حافز لعقوبة، غضب من شيء سيئ جُرّد من شبابها. غداً ستستجوبها الشرطة، وبحلول وقت تلاشي النجوم في سماء الفجر، كانت قد أقنعت نفسها: يستحق توم أن يعاني عقاباً على ما قد فعله، وقد سلّمها الأسلحة بنفسه.

الفصل السادس والعشرون

كان المخفر في بوينت بارتاجو، مثل عددٍ من أبنية البلدة؛ مشيّداً من حجارة محلية، وأخشاب قُطعت من الغابة المحيطة، ويصبح فرناً في الصيف وثلاجة في الشتاء، ما يؤدّي إلى عدم تقيّد الشرطة بالزي الرسمي في أيام درجات الحرارة الحادّة. عندما أمطرت بغزارة، فاضت الزنزانات وتداعت أجزاء من السقف؛ حتى إنه انهار مرة، وقتل سجيناً. كانت بيرث بخيلة لتدفع مالاً لإصلاح العقار بنحو ملائم، لذا فاحت منه دائماً رائحة عفنة، وبدا مرقّعاً لا مرمّماً.

كان سبتيموس بوتس جالساً إلى طاولة قرب النضد الأمامي، يملأ نموذجاً ببعض التفاصيل التي يتذكّرها بشأن صهره، واستطاع تقديم اسم فرانك الكامل وتاريخ ولادته؛ إذ كانا قد ظهرا على نقش النصب التذكاري. لكن، في ما يخص مكان الولادة، واسمي الوالدين... قال بصخب: «اسمع، أظن أن بمقدورنا افتراض أن لديه أبوين أيها الشاب. لنلتزم بالمهم هنا». ما جعل الشرطي غارستون يتراجع نتيجة مهارة شحذها سبتيموس بعد سنوات من التعاملات التجارية، وأقرَّ الشرطي أن ذلك سيفي بالغرض في ما يتعلق بلائحة الاتهام ضد توم. كان يوم الاختفاء واضحاً كفاية؛ يوم الجندي الأسترالي 1926. لكن، ماذا بالنسبة إلى تاريخ وفاة فرانك؟

كان بوتس يقول بمرارة حين دخل بيل غرايسمارك المخفر: «ينبغي أن تسأل السيد شربورن عن هذا».

استدار سبتيموس، وحدّق الرجلان إلى بعضهما بعضاً مثل ثورين عجوزين. جمجم الشرطي، جاعلاً كرسيه يقعقع على الأرضية حين وقف مسرعاً: «سأذهب فحسب وآتي بالرقيب نوكي». قرع بعنف مثل رشاش على باب الرقيب، وعاد بعد لحظة ليستدعي بيل الذي اندفع متجاوزاً بوتس إلى مكتب نوكي.

عنّف الرقيب فور إغلاق الباب: «فيرنون! لا أعرف ما يجري هنا، لكن أطالب بإعادة حفيدتي إلى أمها، الآن. لا يمكن جرّها بعيداً هكذا! فهي لم تبلغ الرابعة بعد، بالله عليكم!». أشار نحو مقدمة المخفر. «ما حدث لآل رونفيلدت كان محزناً جداً، لكن ليس بمقدور سبتيموس بوتس انتزاع حفيدتي للتعويض عمّا قد أصابه».

قال الرقيب: «بيل، أدرك مدى صعوبة هذا الأمر عليك...».

«لا تدرك شيئاً! أياً يكن ما يحدث، فقد خرج تماماً عن نطاق السيطرة، بسبب كلمة من امرأة مجنونة منذ أعوام».

«تناول القليل من الشراب...».

«لا أريد قليلاً من الشراب، بل أريد قليلاً من التعقّل؛ إذا لم يكن طلب هذا كثيراً هنا. منذ متى تضع رجالاً في الزنزانة بسبب مزاعم غير موثّقة من... من امرأة مجنونة؟».

جلس نوكي إلى مكتبه وهو يحرّك قلمه بين أطراف أنامله. «إذا كنت تعني حنّا رونفيلدت، فهي لم تقل شيئاً ضد توم. بلوي سمارت هو الذي بدأ هذا كله. هو الذي تعرّف الخشخيشة». توقف. «لم تتكلم إيزابيل معنا مطلقاً حتى الآن، وترفض قول كلمة». نظر إلى قلمه حين أداره، وقال: «هذا غريب جداً، ألا تظن هذا، أن تكون هذه مجرد غلطة؟».

«حسناً، يبدو واضحاً أنها مصدومة بعد انتزاع طفلتها منها هكذا».

رفع نوكي بصره. «هل يمكن أن تجيبني عن سؤالي التالي إذاً: لماذا لم ينكر شربورن الأمر؟».

«لأنه...»، خرجت الكلمة من فمه قبل أن يفهم سؤال الشرطي، لذا تراجع: «ماذا تعني بقولك إنه لم ينكره؟»».

«أخبرنا على جانوس أن الأمواج قد جرفت الطفلة في زورق صغير مع رجل ميت، وقد أصرَّ على أن يحتفظا بها، وافترض أن الأم قد غرقت بسبب سترة صوفية وجداها. قال إن إيزابيل أرادت الإبلاغ عن الحادثة لكنه منعها، ولامها على عدم إنجاب أطفال له، ويبدو أن كل شيء كان حزمة أكاذيب منذ ذلك الوقت؛ تمثيلية كاملة. ينبغي أن نحقق يا بيل». تردّد، ثم أخفض صوته. «ثم هناك سؤال: كيف مات فرانك رونفيلدت؟ من يعرف ما يخفيه شربورن؟ من يعرف ما قد أرغم إيزابيل على الصمت بشأنه؟ هذه قضية شائكة جداً».

لم تكن البلدة قد شهدت مثل هذه الإثارة منذ أعوام، وكما وصف محرّر في ساوث ويسترن تايمز لزميله في المشرب: «هذا أفضل شيء منذ زمن طويل؛ هناك أم وابنة التقتا مجدداً، ووفاة غامضة، وبوتس العجوز الثري يبذّر ماله بسهولة. حسناً، لا يكتفي أحد من هذا».

بعد يوم من عودة الطفلة، لا يزال منزل حنّا مزيّناً بقصاصات ورق رقيق مجعّد، وتجلس دمية جديدة - وجهها الخزفي الجميل يلمع في ضوء بعد الظهر - وحيدة على كرسي في الزاوية، تفتح عينيها الواسعتين بالتماس صامت. تتكُّ الساعة على رف الموقد برتابة، وتصدح من علبة الموسيقى أغنية «طفلة سعيدة» في جو خانق ومرعب، وتخفيها صرخات تأتي من الساحة الخلفية.

على العشب، الطفلة تصيح، ووجهها أحمر داكن من شدة الخوف والغضب، والجلد على وجنتيها مشدود، وأسنانها الصغيرة مكشوفة مثل مفاتيح على بيانو مصغّر. تحاول الهروب من حنّا التي تحملها في كل مرة تتحرّر فيها منها، وتصرخ مجدداً.

«حبيبتي غريس، صه، صه يا غريس. هيا، أرجوك».

تزعق الطفلة يائسة مجدداً: «أريد ماما، أريد بابا. ابتعدي! لا أحبّك!».

كان هناك لغط كبير بعد أن أعادت الشرطة لمَّ شمل الأم مع ابنتها، فقد التُقطت صور، وانهال الشكر والمديح... مجدداً، شُغلت ألسنة البلدة بنقل النبأ، وانتشرت حكايات عن النظرة الحالمة على وجه الطفلة، والابتسامة الفرحة على وجه الأم. قالت فاني دارنلي التي جعلت من استخلاص التفاصيل من أم الشرطي غارستون مهمة لها: «الطفلة المسكينة، كانت نعسى جداً وقت تسليمها إلى أمها، وبدت رائعة الجمال. لا يمكن إلا أن نحمد الله على تخليصها من براثن ذلك الرجل المريع!». لم تكن غريس نعسى، على كل حال، لكنها على حافة الوعي، خدرة بعد أن حقنها د. سومبتون بجرعة قوية من سائل منوّم حين بدت هستيريتها نتيجة إبعادها عن إيزابيل واضحة.

آنذاك، كانت حنّا تواجه موقفاً صعباً مع ابنتها الخائفة، فقد أبقتها قريبة جداً من قلبها كل تلك الأعوام، ولم يخطر ببالها قطّ ألا تكون الطفلة قد فعلت الشيء نفسه. عندما دخل سبتيموس بوتس الحديقة، وجد صعوبة في تحديد أي منهما تبدو أكثر بؤساً.

كانت حنّا تناشد: «غريس، لن أؤذيك يا حبيبتي. تعالي إلى ماما».

صرخت الطفلة: «أنا لست غريس! أنا لوسي! أريد الذهاب إلى

المنزل! أين ماما؟ أنتِ لست أمي!».

تعمّق جرح حنّا مع كل جملة، ولم تستطع إلا أن تتمتم: «لقد أحببتك وقتاً طويلاً، وقتاً طويلاً...».

تذكّر سبتيموس يأسه حين استمرت غوين - بالعمر نفسه تقريباً - تطلب أمها؛ وكأنه يخفي زوجته الراحلة في مكان ما من المنزل. كان ذلك لا يزال يؤلمه كثيراً.

لمحت حنّا أباها، وأفشى تعبير وجهه تقويمه للموقف، فشعرت بإذلال يسري عبرها.

قال: «تحتاج فقط إلى المزيد من الوقت لتعتاد عليك. تحلّي بالصبر يا حنونة». كانت الفتاة قد وجدت مكاناً منعزلاً آمناً خلف شجرة ليمون قديمة وأجمة عنب الثعلب، حيث وقفت مستعدة للهرب.

بكت حنّا: «لا فكرة لديها عمّن أكون يا أبي؛ لا فكرة أبداً. طبعاً، لن تقترب مني».

قال سبتيموس: «ستأتي إليك. فهي إما ستتعب وتنام هناك، أو تجوع وتخرج. على أي حال، إنها مسألة انتظار فقط».

«أعرف. أعرف أنها ينبغي أن تعتاد عليّ مجدداً».

وضع سبتيموس ذراعه حول كتفها. «لا يوجد مجدداً بشأن هذا. أنتِ شخص جديد تماماً بالنسبة لها».

«حاول أنت، أرجوك حاول أن تجعلها تخرج... هربت من غوين أيضاً».

«سأقول إنها قد رأت وجوهاً جديدة كفاية في يوم واحد، ولا تحتاج إلى وجهي القبيح إضافة إلى كل شيء آخر. امنحيها بعض السكينة والهدوء فحسب!».

«ما ذنبي لأستحق كل هذا يا أبي؟».

«هذا ليس ذنبك أبداً، فهي ابنتك، وحيث ينبغي أن تكون. امنحي الأمر بعض الوقت يا فتاتي؛ بعض الوقت». داعب شعرها. «سأبذل قصارى جهدي لكي ينال شربورن ذاك ما يستحقّه، وهذا وعد».

عندما سلك طريقه عائداً عبر المنزل، وجد غوين واقفة في ظلال الممر تراقب شقيقتها. هزّت رأسها وهمست: «أوه يا أبي، مراقبة المخلوقة الصغيرة المسكينة وهي تعاني أمر مريع. هذا كافٍ ليفطر فؤادك؛ كل بكائها». تنهّدت بعمق، ثم قالت وهي تهزُّ كتفيها: «ربما ستعتاد الأمر». رغم أن عينيها كانتا تقولان شيئاً آخر.

في الريف حول بارتاجو، يتمتع كل شكل من أشكال الحياة بدفاعاته. والكائنات التي ينبغي ألا تقلق كثيراً بشأنها هي التي تجيد التمويه لأنها تنجو بالاختفاء: غوانة حصان السباق، والببغاوات التي تدعى «ثمانية وعشرين»، وأبوسّوم ذو ذيل الثعلب. تهرب هذه الكائنات عند أدنى إشارة إلى وجود مشكلة. تتراجع، تراوغ، تموّه... هذه هي خدعها للنجاة. تكون أخرى مميتة فقط إذا كنت في مرمى بصرها؛ مثل أفعى النمر، والقرش، والعنكبوت السام؛ فهي تستخدم وسائلها الهجومية للدفاع عن نفسها ضد البشر إذا هدّدوها.

تبقى المخلوقات الأكثر ترهيباً ساكنة ومختبئة، ودفاعاتها غير ملحوظة حتى تُطلقها بالمصادفة، ولا تميز بين الأعداء. كُلُّ نبتةً سامّةً جميلةً وسيتوقف قلبك، فهي تحاول فقط حماية نفسها، لكن ليساعدك الله إذا اقتربت منها كثيراً. فقط عندما تعرّضت إيزابيل شربورن للتهديد استيقظت دفاعاتها.

جلس فيرنون نوكي يدقُّ بأصابعه على طاولته في حين انتظرت

إيزابيل في الغرفة المجاورة ليجري استجوابها. كانت بارتاجو مكاناً هادئاً نسبياً لشرطي. واعتداء بالضرب أو وجود رجل ثمل أو الإخلال بالنظام هو كل ما قد يحدث في أسبوع عادي. يستطيع الرقيب الانتقال إلى بيرث بعد ترقيته، فيحظى بفرصة رؤية جرائم أفظع؛ ندوب قبيحة على أحياء لا تعني له الكثير. لكنه قد رأى نزاعاً كافياً في الحرب سيبقى معه طوال عمره، وسرقات صغيرة وغرامات للإفراط في احتساء الشراب ستكون كافية. كان كينيث سبراغ - من ناحية أخرى - متشوقاً للانتقال إلى المدينة الكبيرة، وسيذهب إلى هناك إذا حظي بنصف فرصة فقط. حرفياً؛ سيتعامل مع الموقف على أنه تذكرته لارتقاء السلم إلى بيرث. ولم يكن يعرف أحداً في بارتاجو أو يهتم بشأن أحد، كما فكّر نوكي: بيل وفيوليت مثلاً، والولدان اللذان فقداهما. فكّر في كل السنوات التي قد رأى فيها إيزابيل الصغيرة، وبصوتها الجميل ووجهها الفاتن وهي تغنّي في جوقة دار العبادة في الاحتفالات. ثم تحوّلت أفكاره إلى بوتس العجوز الذي كرّس نفسه لفتاتيه منذ وفاة زوجته، وحطّمه اختيار حنّا لزوجها. في ما يخص حنّا المسكينة نفسها... لا شيء يُكتب بشأن المظهر، لكنها ذكية حقاً ومهذبة جداً. ظنّ دائماً أنها مخبولة لتصديقها أن الطفلة ستظهر بعد كل تلك السنين. لكن، انظر فقط إلى ما آلت إليه الأمور!

سحب نفساً عميقاً حين أدار مقبض الباب ودخل، وخاطب إيزابيل بكفاءة واحترام: «إيزابيل - سيدة شربورن - ينبغي أن أطرح عليك المزيد من الأسئلة. أعرف أنه زوجك، لكن هذه قضية شائكة جداً». نزع غطاء قلمه، ووضعه على الورقة، فتسرّبت قطرات من الحبر الأسود من الريشة، فوزّعها بهذا الاتجاه وذاك، ورسم الحبر في خطوط

من نقطته المركزية.

«يقول إنك أردت الإبلاغ عن وصول الزورق لكنه منعك، هل هذا صحيح؟».

نظرت إيزابيل إلى يديها.

«يقول إنه استاء منك لعدم إنجابك أولاداً، وتولّى زمام الأمور بيديه».

غاصت الكلمات عميقاً داخلها، وفكّرت: هل كشف توم الحقيقة حين كذب؟

سأل نوكي: «ألم تحاولي ردّه إلى صوابه؟».

قالت بصدق: «عندما يظن توم شربورن أنه يفعل الصواب، فلا يمكن إقناعه بخلاف هذا».

سأل بلطف: «هل هدّدك؟ هل اعتدى عليك جسدياً؟».

صمتت إيزابيل، وغمرها الغضب الذي شعرت به في ليلتها التي قضتها من دون نوم، وتشبّثت بالصمت مثل صخرة.

غالباً، كان نوكي قد رأى زوجات عمّال الأخشاب وبناتهم يُذعنّ بمجرد نظرة من الرجال. «هل خفت منه؟».

توتّرت شفتاها، ولم تنبس بكلمة.

وضع نوكي مرفقيه على الطاولة، ومال إلى الأمام. «إيزابيل، يميّز القانون أن الزوجة لا حول لها بين يدي زوجها. وبموجب قانون العقوبات، لستِ مسؤولة عن أي شيء جعلك تفعلينه أو منعك عن فعله. لذا، لا داعي إلى القلق بهذا الشأن، فلن تعاقبي على جرائمه. الآن، ينبغي أن أطرح عليك سؤالاً، وأريد منك أن تفكّري بحرص شديد. تذكّري، لا يمكن أن تواجهي مشكلة بشأن أي شيء أرغمك عليه». تنحنح. «وفقاً لتوم، كان فرانك رونفيلدت ميتاً حين جرفت

الأمواج الزورق». نظر إلى عينيها. «هل هذا صحيح؟».

دُهشت إيزابيل، وتمكّنت من سماع نفسها تقول: «طبعاً هذا صحيح!». لكن، قبل أن يُفتح فمها، أسرع ذهنها مجدداً إلى خيانة توم، وشعرت بالارتباك فجأة؛ بسبب فقدانها لوسي، وغضبها، وإرهاقها الكبير، فأغمضت عينيها.

حثّها الشرطي بلطف: «هل هذا صحيح يا إيزابيل؟».

ثبّتت ناظريها على خاتم زفافها حين قالت: «ليس لدي ما أقوله». وأجهشت بالبكاء.

شرب توم الشاي ببطء، مراقباً البخار الملتوي وهو يتلاشى في الهواء الدافئ. دخل ضوء بعد الظهر بزاوية حادّة عبر النوافذ العالية إلى الغرفة قليلة الأثاث. عندما فرك الشعر على ذقنه، راوده إحساس من أيام كانت فيها الحلاقة مستحيلة، والاغتسال أيضاً.

سأل نوكي بهدوء: «أتريد واحداً آخر؟».

«لا، شكراً».

«هل تدخّن؟».

«لا».

«إذاً، جرفت الأمواج مركباً إلى المنارة، من مكان مجهول».

«أخبرتك بكل هذا على جانوس».

«وستخبرني بذلك مجدداً، عدد المرات التي أريدها! إذاً، وجدت المركب».

«نعم».

«وعلى متنه طفلة».

«نعم».

«بأي حال كانت الطفلة؟».

«موفورة الصحة. تبكي، ولكنها بصحة جيدة».

كان نوكي يدوّن ملحوظات. «وهناك رجل على المركب».

«جثة».

قال نوكي: «رجل».

نظر توم إليه مقدّراً أسلوب التعبير.

«كنت معتاداً بالتأكيد على كونك ملك القلعة على جانوس، أليس كذلك؟».

فكّر توم ملياً في السخرية التي سيلحظها أي شخص يعرف بشأن الحياة في المنارات، لكنه لم يرد. تابع نوكي: «ظننتَ أن بمقدورك الإفلات بفعلتك؛ لأن لا أحد إلى جوارك».

«لا أكترث إطلاقاً بالإفلات بفعلتي».

«وقرّرت أن بمقدورك الاحتفاظ بالطفلة هناك. لقد أجهضت إيزابيل أولادك، ولن يعرف أحد أبداً، صحيح؟».

«أخبرتك، أنا اتخذت القرار، وجعلت إيزابيل تصمت بشأنه».

«أرغمت زوجتك على هذا، أليس كذلك؟».

نظر توم إليه. «هل هذا ما تظنّه؟».

«ألهذا السبب أجهضت الطفل؟».

ظهرت صدمة على وجه توم. «هل قالت هي ذلك؟».

بقي نوكي صامتاً، وسحب توم نفساً عميقاً. «اسمع، لقد أخبرتك بما جرى. حاولت إقناعي بغير ذلك، وأنا مذنب بكل ما تقول إنني مذنب به. لذا، دعنا ننتهي من هذا، واترك زوجتي خارج القضية».

قال نوكي بحدّة: «لا تحاول أن تخبرني بما يجدر بي فعله، فأنا لست مراسلك. سأفعل ما أقرّر أنا فعله؛ حين أكون مستعداً لهذا». دفع

كرسيه بعيداً عن المكتب، وشبك ذراعيه. «الرجل في المركب...».

«ماذا عنه؟».

«كيف كانت حالته حين وجدته؟».

«كان ميتاً».

«هل أنت واثق؟».

«لقد رأيت جثثاً كفاية في حياتي».

«لماذا أصدّقك بشأن هذا الشخص؟».

«لماذا سأكذب؟».

صمت نوكي، وترك السؤال معلّقاً في الهواء، ليشعر سجينه بأن الجواب يثقل كاهله. تحرّك توم على كرسيه، وقال نوكي: «تماماً، لماذا ستكذب؟».

«ستخبرك زوجتي أنه كان ميتاً حين وصل المركب إلى اليابسة».

«الزوجة نفسها التي اعترفت بأنك أرغمتها على الكذب؟».

«اسمع، هذا مختلف تماماً، إيواء طفلة و -».

قاطعه نوكي: «قتل شخص؟».

«اسألها».

قال نوكي بهدوء: «فعلت».

«إذاً، تعرف أنه كان ميتاً حين وصل المركب».

«لا أعرف شيئاً، فهي ترفض الحديث عن الأمر».

شعر توم بمطرقة تضرب صدره، وتفادى عيني نوكي. «ماذا قالت؟».

«أن لا شيء لديها لتقوله».

أمسك توم رأسه بيديه، وتمتم بصوت خافت: «يا إلهي القدير». قبل أن يرد: «حسناً، كل ما يمكنني فعله هو تكرار أقوالي. لم أرَ قطّ

ذلك الرجل حياً». شبك أصابعه معاً. «لو كان بمقدوري فقط رؤيتها، والتكلم معها...».

«لا مجال لذلك. وإلى جانب حقيقة أنه ممنوع، لدي انطباع أنها لن تتكلم معك؛ حتى إن كنت آخر شخص على الأرض».

الزئبق مادة فاتنة لكن يستحيل توقّعها، ويمكن أن تتحمّل طناً من الزجاج في منارة، لكن حاول أن تضع إصبعك على قطرة منها، وستنزلق بسرعة في أي اتجاه. بقيت الصورة تخطر في بال توم في أثناء جلوسه مفكراً بشأن إيزابيل بعد استجواب نوكي له، وعادت أفكاره إلى الأيام التي أعقبت ولادة الجنين الميت الأخير؛ حين حاول مواساتها.

«سنكون بخير. وإذا قضينا أنا وأنتِ باقي حياتنا معاً، فهذا كافٍ لي».

رفعت بصرها ببطء لتنظر إلى عينيه؛ لكن تعبير وجهها أفزعه؛ فقد كان يائساً ومحبطاً.

تحرّك ليمسّها، لكنها ابتعدت. «ستتحسّن حالك، وستصبح الأمور أفضل. هذا يتطلّب وقتاً فقط».

من دون سابق إنذار، وقفت وأسرعت إلى الباب، وتكوّرت للحظة من الألم، قبل أن تمشي مترنّحة إلى الليل.

«إيزي! بالله عليك، توقفي، ستؤذين نفسك!».

«سأفعل أكثر من هذا!».

توازن القمر في السماء الدافئة الساكنة، ولمع ثوب النوم الأبيض الطويل الذي ارتدته إيزابيل في ليلة زفافهما قبل أربعة أعوام مثل فانوس ورقي حين وقفت؛ نقطة بيضاء صغيرة، في محيط من الظلام. صرخت بصوت مرتفعٍ وحادٍ جداً جعل الماعز تفزع من نومها وتتحرّك، فرنّت

أجراسها في حقلها الصغير: «لا يمكن أن أتحمّل! لا يمكن أن أتحمّل بعد الآن! يا إلهي، لماذا تتركني أعيش في حين يموت أطفالي؟ أتمنى أن أموت!». ومشت متعثّرة نحو الجرف.

أسرع ليمسك ذراعيها، وقال: «اهدئي يا إيز». لكنها تحرّرت منه وركضت مجدداً، وهي تعرج تقريباً حين يشتد الألم.

«لا تطلب مني أن أهدأ أيها الغبي؛ أيها الرجل الغبي! هذه غلطتك أنت. أكره هذا المكان! أكرهك! أريد طفلي!». شق الضوء درباً في الأعلى، تاركاً إياها من دون أن يمسّها شعاعه.

«أنت لم تكن ترغب به! لهذا توفي؛ لأنه عرف أنك لم تهتم!».

«هيا يا إيز، عودي إلى الداخل».

«أنت لا تشعر بشيء يا توم شربورن! لا أعرف ما فعلته بقلبك لكنه ليس داخلك، وهذا أكيد!».

لا يمكن لشخص أن يتحمّل أكثر من قدرته، وقد رأى ذلك كثيراً؛ رأى رجالاً جاءوا متحمّسين كثيراً ومستعدين لإرسال الألمان إلى الجحيم، وقد نجوا من القذائف والثلج والقمل والطين، ثم تجمّع شيء في أنفسهم واتخذ منها موطناً له؛ استقر في مكان عميق داخلهم حيث لا يمكن مسّه. وأحياناً، كانوا يستديرون نحوك، ويهاجمونك بحربة، ويضحكون مثل المجانين، ويصرخون في الوقت نفسه. يا للهول! عندما فكّر في حاله حين انتهى كل ذلك...

من كان هو ليحكم على إيزابيل؟ لقد وصلت إلى حافّة الصبر؛ وهذا كل شيء. فلكل شخص حد؛ الجميع، وبإبعاد لوسي عنها، كان قد دفعها إليها.

متأخراً ذلك المساء، خلع سبتيموس بوتس نعليه، وحرّك أنامل قدميه في جوربيه الصوفيين الناعمين، وتأوه مع الطقطقة المألوفة لظهره. كان جالساً على جانب السرير الخشبي الصلب المصنوع من شجرة من غابته الخاصة، والصوت الوحيد الذي يتردد في الغرفة الضخمة هو تكتكة الساعة على الجدار. تنهّد حين نظر إلى أثاث غرفته الفاخر - الكتّان المنشّى، والأثاث اللامع، ولوحة زوجته الراحلة ألين - في ضوء المصابيح الكهربائية التي يغلّفها زجاج وردي. كانت صورة حفيدته المذهولة والتي تجثم خائفة في ذلك الأصيل، لا تزال ماثلة في ذهنه: الطفلة غريس التي ظنّها الجميع ميتة باستثناء حنّا. إنها الحياة، من يستطيع توقّع ما ستؤول إليه؟

ذلك الأسى واليأس نتيجة فقدان أم، لم يتخيّل قطّ أنه سيراه مجدداً بعد وفاة ألين، حتى واجه حفيدته في الحديقة. عندما ظنَّ أنه قد رأى كل الخدع التي تحفل الحياة بها، فاجأته بواحدة جديدة؛ مثل بطاقة شر، وعرف أن الفتاة الصغيرة تعاني كثيراً، وتسلل الشك إلى طرف ذهنه. ربما، ربما من القسوة إبعادها عن زوجة شربورن...

نظر مجدداً إلى لوحة ألين، وأدرك أن غريس تتمتع بفك مماثل، وربما ستكبر لتصبح جميلة مثل جدّتها. شردت أفكاره وهو يتخيّل صوراً من احتفالات مختلفة. أسرة سعيدة؛ هذا كل ما أراده. فكّر في وجه حنّا المعذّب، وتذكّر، وشعور بالذنب يراوده، تلك النظرة نفسها حين حاول منعها من الزواج بفرانك.

لا، كان هذا مكان الطفلة؛ مع أسرتها الحقيقية. أخيراً ستعتاد على منزلها الحقيقي وأمها الحقيقية، وتمنّى أن تستطيع حنّا التحمّل وقتاً أطول قليلاً.

شعر بدموع في عينيه، وشق الغضب طريقه إلى السطح. ينبغي أن

يدفع أحد الثمن، وينبغي أن يعاني أحد كما عانت ابنته. من بمقدوره إيجاد طفلة صغيرة والاحتفاظ بها وكأنها تذكار من خشبٍ طافٍ؟

أبعد عنه الشك المتطفّل. لم يكن بمقدوره تغيير الماضي، والأعوام التي قد رفض فيها الاعتراف بوجود فرانك، لكنه يستطيع التعويض لحنّا الآن. سيُعاقب شربورن، وسيتوثق من هذا.

أطفأ المصباح، وراقب ضوء القمر وهو يلمع على الإطار الفضي لصورة ألين، وأبعد عنه أفكار ما قد يكون آل غرايسمارك يشعرون به تلك الليلة.

الفصل السابع والعشرون

منذ عودتها، وجدت إيزابيل نفسها تُشغل دائماً بلوسي؛ أين هي؟ هل حان وقت النوم؟ ماذا ستأكل على الغداء؟ ثم يُصحّح دماغها الوضع، ويذكّرها بما أضحت عليه الأمور آنذاك، فتشعر بألم الخسارة كله مجدداً. ماذا يجري لابنتها؟ من يطعمها؟ من ينزع عنها ثيابها؟ ستشعر لوسي بغضب شديد.

جعلت صورة وجه الفتاة الصغيرة عند إرغامها على ابتلاع الدواء المنوّم المر حلق إيزابيل يضيق، وحاولت محوها بذكريات أخرى؛ ذكريات عن لوسي وهي تلعب بالرمال، وهي تمسك أنفها حين تقفز إلى الماء، ووجهها حين تنام في الليل مطمئنة وآمنة ومثالية. لم يكن هناك منظر أكثر روعة في العالم من رؤية ابنتك نائمة، وقد حمل جسد إيزابيل كله أثر الفتاة الصغيرة. عرفت أصابعها نعومة شعرها حين مشّطته، وتذكّرت وركها ثقلها وساقاها تلتفان بإحكام حول خصرها، والرّقة الدافئة لوجنتها.

عندما قلّب ذهنها تلك المشاهد، استمدّت منها الراحة كما يُمتصُّ الرحيق من زهرة ذابلة، وشعرت بشيء داكن خلفها؛ شيء لم تجرؤ على النظر إليه. كان يراودها في الأحلام؛ مشوشاً ومروّعاً، ويناديها: «إيزي! إيزي! حبيبتي...». لكن لم يكن بمقدورها أن تستدير، لذا كانت ترفع كتفيها إلى أذنيها؛ وكأنها تحاول الهرب من الإمساك بها، ثم تستيقظ حابسة أنفاسها وهي تشعر بغثيان في معدتها.

كل ذلك الوقت، اعتبر والدا إيزابيل صمتها وفاءً في غير محله، وكانت كلماتها الوحيدة في أول أيام عودتها إلى المنزل: «لا شيء لديّ لأقوله». وكرّرتها كلما حاول بيل وفيوليت فتح موضوع توم وما قد جرى.

لم تكن الزنزانات في مؤخر المخفر تُستعمل عادة إلا لاحتجاز ثمل وقتاً كافياً ليصحو، أو لمنح زوج غاضب وقتاً ليتحلّى بالمنطق ويعد ألا يعبّر عن عصبيته بقبضتيه. معظم الوقت، لم يكن الشرطي المناوب يتجشّم عناء إغلاق باب الزنزانة. وإذا كان فيها شخص يعرفونه، بسبب جنحة بسيطة، فهم يسمحون له غالباً بالخروج إلى المكتب ولعب الورق معهم؛ ملتزماً بتفاهم صارم، وهو ألا يحاول الفرار.

ذلك اليوم، كان هاري غارستون مبتهجاً بنحو خاص، على الأقل لتولّيه التحقيق في جريمة حقيقية، ولا يزال يتذمّر لأنه لم يكن مناوباً قبل عام في الليلة التي جُلب فيها بوب هيتشينغ من كاريديل. لم يبدُ الرجل راجح العقل مطلقاً منذ عودته من غاليبولي، وانتابته مرة ثورة غضب فحمل ساطور لحم وقتل شقيقه من المزرعة المجاورة؛ لأنهما لم يشرفا معاً على وصية أمهما. آنذاك، كان غارستون يستمتع بدقّة الإجراءات، وأخرج كتاب القواعد ليتوثّق من أنه يلتزم به حرفياً.

عندما طلب رالف رؤية توم، قدّم الشرطي استعراضاً كبيراً في استشارة الكتاب، ومرّر لسانه على أسنانه، وزمَّ شفتيه من أحد جانبي فمه الذي يشبه صندوق بريد إلى الجانب الآخر. «آسف أيها القبطان أديكوت، أتمنى لو كان بمقدوري السماح لك، لكن يُقال هنا –».

«لا تغرقني بأي من هرائك يا هاري غارستون، وإلا سأذهب إلى أمك».

«هذا واضح تماماً، و –».

كانت الجدران في المخفر رقيقة، وقاطع الشرطي صوت فيرنون نوكي الذي نادراً ما يزعج نفسه بالنهوض عن كرسيه في مثل هذه المواقف. «لا تكن سخيفاً جداً يا غارستون. عامل المنارة في الزنزانة، لا نيد كيلي اللعين. دع الرجل يره».

حرّك الشرطي المرتبك المفاتيح، فقعقعت بعنف احتجاجاً حين قاد رالف عبر باب موصد، نزولاً على بعض الدرجات وعلى طول ممر معتم حتى وصل إلى بضع زنزانات من قضبان حديدية.

في إحداها، جلس توم على سرير يُفتح من الجدار. نظر إلى وجه رالف متعباً وكئيباً.

قال القبطان: «توم».

«رالف». وأومأ توم برأسه.

قال: «جئت بأسرع ما يمكنني. هيلدا وبلوي ينقلان إليك تحياتهما». مفرغاً جعبته من التحيّات مثل فكّة صغيرة.

أومأ توم مجدداً.

جلس الاثنان بصمت، وبعد مرور بعض الوقت، قال رالف: «إذا كنت تفضّل فسأتركك...».

«لا، سُررت برؤيتك. لا يوجد ما أقوله فحسب، آسف. هل يمكننا ألا نتكلم لبعض الوقت؟».

كان رالف مملوءاً أسئلة؛ خاصة من زوجته، لكنه جلس بصمت على الكرسي المتداعي. كانت الحرارة ترتفع والجدران الخشبية تصر؛ مثل مخلوق يتمطّى بعد أن استيقظ. زقزقت طيور آكلة العسل والذُعّرة في الخارج، ومرة أو اثنتين فرقعت مركبة على الطريق، مخفية صرير الصراصير والزيز.

جالت الأفكار بصخب في ذهن رالف ووصلت إلى لسانه، لكنه استطاع إيقافها في الوقت الملائم، ووضع يديه حول فخذيه ليتغلّب على حافز يحثّه على هزّ كتفي توم. وعندما لم يعد بمقدوره المقاومة، قال أخيراً: «بالله عليك يا توم، ما الذي يجري؟ ما كل هذا الصخب بأن لوسي ابنة رونفيلدت؟».

«هذا صحيح».

«لكن، كيف... ما الذي...؟».

«لقد شرحت الأمر للشرطة يا رالف، ولست فخوراً بما قد فعلته».

«هل هذا... هل هذا ما كنت تتكلم عن ضرورة تصحيحه، في ذلك الوقت على جانوس؟».

«الأمر ليس بهذه البساطة». أطبق الصمت وقتاً طويلاً.

«أخبرني بما جرى».

«لا فائدة يا رالف. لقد اتخذت قراراً سيئاً في ذلك الوقت، وحان الوقت لأدفع الثمن».

«بلله عليك أيها الفتى، على الأقل دعني أساعدك!».

«لا شيء يمكنك فعله، وأنا في هذه الورطة بمفردي».

«مهما فعلت، فأنت رجل صالح، ولن أراك تنهار هكذا». ثم وقف. «دعني أحضر لك محامياً جيداً، ولنرَ ما سيفعله بشأن هذا كله».

«لا يستطيع محامٍ فعل الكثير الآن يا رالف، وقد يكون إحضار رجل دين أكثر فائدة».

«لكن هذا كله هراء؛ أعني ما يُقال عنك!».

«ليس كله يا رالف».

«أخبرني مباشرة وأنت تنظر إلى وجهي أن ما حصل كله كان فعلتك، وأنك هدّدت إيزابيل! انظر إلى عيني وأخبرني، وسأتركك

بسلام أيها الفتى».

تفحّص توم حال الخشب في الجدار.

صرّح رالف منتصراً: «أرأيت؟ لا يمكن أن تفعل شيئاً مماثلاً!».

«أنا كنت المسؤول، وليس هي». نظر توم إلى رالف، وفكّر إن كان هناك شيء على الإطلاق يمكن أن يخبره به، ويشرحه له، من دون تعريض إيزابيل للخطر. قال أخيراً: «عانت إيزي كفاية، ولم يعد بمقدورها التحمّل».

«وضع نفسك في مرمى النيران ليس طريقة جيدة للتعامل مع الأمر. ينبغي تسوية كل هذا على نحو ملائم».

«لا يمكن تسوية شيء يا رالف، ولا عودة إلى الخلف. أدين لها بهذا».

كانت الأمور الخارقة ممكنة؛ هذا أكيد. في الأيام التي أعقبت عودة غريس، لاحظ الموقّر نورلكيس زيادة واضحة في عدد المؤمنين، خاصة من النساء؛ الكثيرات منهن أمهات فقدن الأمل برؤية أبنائهن الأعزّاء مجدداً، أو أرامل حرب تضرّعن بعزيمة متجدّدة، ولم يعدن يشعرن بالسخف بشأن الدعاء من أجل أمر ميؤوس منه. لم تكن دار العبادة قد حظيت من قبل بمثل هذا الاهتمام، وأُثيرت مجدداً آلام خسارة قد خمدت؛ وكأن الحنين قد هدأ بذلك البلسم الذي نفد منذ أمدٍ بعيد؛ الأمل.

كان جيرالد فيتزجيرالد جالساً قبالة توم، وعلى الطاولة بينهما أوراق وشريط تسجيل وردي من التحقيق. كان محامي توم قصيراً وأصلع؛ مثل فارس يرتدي بزّة من ثلاث قطع. كان نحيلاً ورشيقاً،

وقد جاء على متن القطار من بيرث في الليلة السابقة، وقرأ التحقيق حين تناول العشاء في ذا إمبرس.

«لقد اتُّهمت رسمياً، ويأتي قاضٍ إلى بارتاجو كل شهرين، وقد غادر للتو. لذا، ستُحجز في السجن حتى يعود. ستكون أفضل حالاً في الزنزانة هنا بدلاً من السجن في ألباني بالتأكيد، وسنتهز الوقت استعداداً لجلسة الاستماع».

نظر توم إليه مستفسراً.

«إنها جلسة استماع لتحديد إن كانت هناك قضية ضدك. وإذا ثبت ذلك، فستُحاكم في ألباني، أو بيرث. هذا يعتمد».

سأل توم: «على ماذا؟».

قال فيتزجيرالد: «لنستعرض الاتهامات وستكتشف هذا». مرة أخرى، مرّر بصره على القائمة أمامه. «حسناً، لقد نشروا بالتأكيد الشبكة على نطاق واسع كفاية. القانون الجنائي، وقانون الخدمة العامة في الكومنولث، وقانون التحقيق، وقانون جرائم الكومنولث. فوضى عارمة حقاً من اتهامات الولاية والكومنولث». ابتسم وفرك يديه معاً. «هذا ما أحب رؤيته».

رفع توم حاجباً.

«هذا يعني أنهم يُلقون التهم جزافاً، غير واثقين بما يمكن إثباته ضدك». تابع المحامي. «إهمال الواجب الشرعي يعني سنتين وغرامة. التعامل بنحو غير لائق مع جثة... سنتين أعمالاً شاقّة. عدم إرسال تقرير عن الجثة... حسناً»، ضحك ساخراً، «غرامة عشرة جنيهات فقط. تقديم وثيقة مزوّرة لتسجيل ولادة... سنتين أعمالاً شاقّة وغرامة مئتي جنيه». حكَّ ذقنه.

تجرّأ توم: «ماذا عن تهمة سرقة الطفلة؟». كانت تلك هي المرة

الأولى التي يستخدم فيها العبارة، وفزع لدى سماعه الكلمات.

«المادة 343 من القانون الجنائي، سبع سنين أشغالاً شاقّة». زمَّ المحامي فمه وأومأ لنفسه. «ما يفيدك يا سيد شربورن هو أن القانون يغطّي المعتاد. تُسنُّ تشريعات لتنظيم ما يجري معظم الوقت، لذا تنطبق المادة 343 على...»، ورفع التشريع البالي وقرأ منه: «أي شخص، يتعمد حرمان أي والد من طفله... يأخذه قسراً أو بالاحتيال أو يغويه للابتعاد عنه، أو يحتجز الطفل...».

سأل توم: «إذاً؟».

«إذاً، لن يُثبتوا هذا أبداً. لحسن حظك، معظم الوقت لا يترك الأطفال أمهاتهم إلا إن أخذهم أحد منهن، وهم لا يشقّون طريقهم إلى جزر مقفرة تقريباً، هل فهمت؟ لا يمكنهم تجميع العناصر الضرورية للتهمة. أنت لم تحتجز الطفلة: من الناحية القانونية، كان بمقدورها المغادرة في أي وقت، وأنت بالتأكيد لم تغوها للابتعاد عن والديها. لا يمكن أن يثبتوا أبداً نية الحرمان لأننا سنقول إنك ظننت صادقاً أن الوالدين توفيا، لذا أظن أن بمقدوري إسقاط هذه التهمة عنك. وأنت بطل حرب، وحامل وسام الخدمة العسكرية، ومعظم المحاكم لا تزال تتساهل مع رجل خاطر بحياته من أجل بلاده ولم يواجه مشكلة من قبل».

استرخى وجه توم، لكن سيماء المحامي تغيّرت حين تابع: «لكن، ما لا يحبونه يا سيد شربورن هو الكاذب. في الواقع، إنهم يكرهونه كثيراً، وعقوبة الكذب سبع سنين أشغالاً شاقّة. وإذا أدّى فعل ذلك الكاذب إلى إفلات الجاني الحقيقي من العقاب، فسيكون هذا إعاقة مسار العدالة، وسيُحكم عليه بسبع سنين إضافية. هل تفهمني؟».

رمقه توم بنظرة.

«يحب القانون التوثّق من إنزال العقوبة بالأشخاص المذنبين، والقضاة يدقّقون كثيراً بشأن هذه الأشياء». وقف، وذهب إلى النافذة، وحدّق عبر القضبان إلى الشوارع في الخارج. «الآن، إذا دخلت محكمة، وسردت قصة امرأة مسكينة أضنت نفسها بالأسى على خسارة طفل ولد ميتاً - امرأة لم تكن بكامل قواها العقلية، ولا يمكنها تمييز الصواب من الخطأ - وإذا سردت قصة زوجها الذي كان رجلاً محترماً، وأدّى دائماً واجبه، لكنه تلك المرة فقط - محاولاً جعل الحياة أفضل لزوجته - ترك قلبه يتغلّب على منطقه السليم، ووافق على فكرتها... حسناً، يمكنني إخبار هذا لقاضٍ، وإقناع هيئة محلفين به. تتمتع المحكمة بما يدعى امتياز الرحمة؛ أي حق فرض عقوبة أقل، من أجل الزوجة أيضاً.

لكن حالياً، لدي رجل يعترف من تلقاء نفسه أنه ليس كاذباً فقط، وإنما هو مذنب؛ رجل كان مهتماً كما يبدو بألا يظن الناس أنه مجنون يقرّر الاحتفاظ بطفلة صغيرة، ويرغم زوجته على الكذب بهذا الشأن».

شدَّ توم قامته. «لقد قلت ما قلته».

تابع فيتزجيرالد: «الآن، إذا كنت من نوع الرجال الذين يفعلون حقاً شيئاً مماثلاً، إذاً، وفقاً لما تعرفه الشرطة أنت من نوع الأشخاص الذين قد يمضون خطوة أخرى للحصول على ما يريدونه. إذا كنت من نوع الرجال الذين يأخذون ما يريدونه لأن بمقدورهم فعل هذا - مستعدين لجعل زوجاتهم يتصرّفن تحت التهديد - إذاً، ربما تكون من نوع الرجال المستعدين للقتل للحصول على ما يريدونه. ونعرف جميعاً أنك فعلت هذا كفاية في أثناء الحرب». صمت. «هذا ما قد يقولونه».

«لم يتّهموني بهذا».

«حتى الآن. لكن، مما سمعته، الشرطي من ألباني يتوق ليضع يديه

عليك. لقد تعاملت معه من قبل، ويمكن أن أخبرك أنه وغد حقيقي».

سحب توم نفساً عميقاً، وهزَّ رأسه.

«وهو مهتم كثيراً بأن زوجتك لم تدعم قصتك بشأن كون رونفيلدت ميتاً حين وجدته». لفَّ الشريط القرمزي من التحقيق حول إصبعه. «لا بدّ أنها تكرهك بشدّة». عندما كان يديره، قال ببطء: «الآن، يمكن أن تكرهك لأنك جعلتها تكذب بشأن الاحتفاظ بالطفلة، أو حتى لأنك قتلت رجلاً، لكن أظن على الأرجح أنها تمقتك لأنك أفشيت السر».

لم يرد توم.

«لا يمكن إثبات سبب موته بسهولة؛ فالرجل بقي تحت الأرض أربع سنوات تقريباً، وهذه ستكون مهمة شاقّة. لم يبق الكثير منه، لا عظام مكسورة، أو تمزّقات، أو تاريخ موثّق من آفات قلبية. عادة، يقود هذا على الأرجح إلى إقرار الوفاة من قبل هيئة المحلّفين من دون ذكر السبب، إذا اعترفت وأخبرتهم الحقيقة كاملة».

«إذا أقررت بذنبي في ما يتعلق بكل هذه الاتهامات – لنقل إنني أرغمت إيزابيل على هذا، ولم يكن هناك دليل آخر – فلن يمسّها أحد، أليس كذلك؟».

«نعم، لكن –».

«إذاً، سأقبل ما يحلُّ بي».

قال فيتزجيرالد وهو يعيد الأوراق إلى حقيبته: «المشكلة هي أنك قد تواجه عواقب أكبر مما توقّعت. لا فكرة لدينا عمّا ستقول زوجتك إنك فعلته أو لم تفعله؛ إذا قرَّرَت أن تتكلم. لو كنت مكانك، لفكّرت في الأمر مليّاً».

إذا اعتاد الناس التحديق إلى حنّا قبل أن تستعيد غريس، فقد حدّقوا بقوة أكبر بعد ذلك، وقد توقّعوا نوعاً من التحوّل العجيب – مثل تفاعل كيميائي – عند لقاء الأم والابنة، لكن أملهم خاب بشأن هذا؛ إذ بدت الطفلة حزينة والأم مذهولة. وبدلاً من عودة التورّد إلى وجنتيها، أضحت حنّا أكثر ذبولاً، وجعلتها كل من صرخات غريس تتساءل إن كانت قد فعلت الصواب باستعادتها.

كانت الشرطة قد جلبت سجلات قديمة من جانوس لتقارن الخطوط بالكتابة على الرسائل إلى حنّا، ولم يكن هناك شك في الخط الأنيق الثابت. لم يكن هناك أيضاً شك في الخشخيشة التي تعرّفها بلوي، لكن الطفلة نفسها قد تغيّرت بنحو لا يمكن تمييزه، فقد سلّمت حنّا فرانك رضيعة صغيرة داكنة الشعر تزن اثني عشر رطلاً، وأعادها المصير إليها طفلة شقراء خائفة وعنيدة يمكن أن تقف على قدميها، وتمشي، وتصرخ حتى يصبح وجهها قرمزياً ويبتلّ ذقنها بالدموع واللعاب. تآكلت الثقة التي كسبتها حنّا في التعامل مع طفلتها في الأسابيع الأولى من حياتها بسرعة، وبدا إيقاع الألفة والتفاهمات التي افترضت أن بمقدورها جنيها ثانيةً غائباً؛ لم تعد الطفلة تستجيب بطريقة يمكن أن تتوقّعها. كانتا مثل راقصتين لا تناسق بين خطواتهما.

خافت حنّا من اللحظات التي تفقد فيها الصبر مع ابنتها التي ستأكل في البداية، ثم تنام وتستحم بعد جدال حاد، ولاحقاً تنسحب ببساطة إلى قوقعتها. لم تستطع مخيّلتها، في أي من سنوات أحلام يقظتها، أو حتى كوابيسها، أن تقدّم شيئاً شنيعاً مثل هذا.

يائسة، أخذت الطفلة إلى د. سومبتون.

قال الطبيب الريّان حين أعاد سمّاعته إلى طاولته: «حسناً، جسدياً

هي موفورة الصحة». دفع مرطبان الحلوى في اتجاه غريس. «تفضّلي أيتها الشابة».

بقيت الطفلة، التي كانت لا تزال خائفة من لقائها الأول معه في المخفر صامتة، وعرضت حنّا عليها المرطبان. «هيا، أي لون تحبين يا عزيزتي». لكن ابنتها أدارت رأسها بعيداً، وأمسكت خصلة من شعرها لتلفّها حول إصبعها.

«هل قلت إنها تبلّل السرير؟».

«غالباً. في عمرها، ستتوقّع عادة -».

«لا داعي إلى أن أذكّرك أن هذه ليست ظروفاً عادية». رنَّ جرساً على طاولته، وبعد قرع مكتوم، دخلت امرأة بيضاء الشعر.

«سيدة فريب، خذي الصغيرة غريس إلى الخارج لتجلس معك في حين أتكلم مع أمها، هلاّ تفعلين».

ابتسمت المرأة وقالت: «هيا يا عزيزتي لنرى إن كنا سنجد بسكويتاً لك في مكان ما». ثم قادت الطفلة المتكاسلة بعيداً.

شرعت حنّا: «لا أعرف ما أفعله أو أقوله. لا تزال تسأل عن...»، وتلعثمت، «عن إيزابيل شربورن».

«ماذا قلتِ عنها؟».

«لا شيء. لقد أخبرتها أنني أمها وأحبّها و -».

«حسناً، ينبغي أن تقولي شيئاً عن السيدة شربورن».

«لكن، ماذا؟».

«اقتراحي أن تخبريها أنها وزوجها مضطران إلى الذهاب بعيداً».

«يذهبان إلى أين؟ ولماذا؟».

«لا يهم حقاً في هذا العمر، ما دامت قد حظيت بجواب عن سؤالها. ستنسى في النهاية؛ إذا لم يكن هناك شيء يذكّرها بآل شربورن.

ستعتاد على منزلها الجديد، وقد رأيت هذا كفاية مع أيتام يجري تبنّيهم».

«لكنها أضحت على هذه الحال، وأريد فقط فعل الصواب لها».

«أنتِ لا تحضّرين العجّة من دون كسر البيض كما أخشى يا سيدة رونفيلدت. عامل القدر هذه الفتاة الصغيرة بقسـوة، ولا شـيء يمكنك فعله بهذا الشـأن. أخيراً سيتلاشـى هذان الاثنان من عقلها؛ طالما أنها لا تتواصـل معهمـا. وفـي هـذه الأثناء، أعطيها قطرة من السـائل المنوّم إذا أصيبت بقلق أو اضطراب، فهذا لن يؤذيها أبداً».

الفصل الثامن والعشرون

«ابتعد عن ذلك الرجل، هل تسمعني؟».

قال بلوي: «ينبغي أن أذهب وأراه يا أمي، فهو في السجن منذ وقت طويل! هذه كلها غلطتي!».

«لا تتفوّه بالهراء، فقد أعدت لمّ شمل الطفلة مع أمها، وتكاد تحصل على ثلاثة آلاف جنيه مكافأة». أبعدت السيدة سمارت المكواة عن الموقد، وضغطت على غطاء المائدة بقوة أكبر مع كل جملة. «استخدم عقلك أيها الفتى. لقد أنجزت عملك، والآن ابقَ بعيداً عن هذا!».

«إنه يواجه مشكلة أكبر من المستوطنين الأوائل يا ماما، ولا أظن أن الأمر سينتهي بخير له».

«هذه ليست مشكلتك يا بني. اخرج الآن إلى الخلف واقتلع الأعشاب الضارّة من مشتل الزهور».

في ردّة فعل، مشى بلوي خطوة نحو الباب الخلفي، وتمتمت أمه: «أوه، أنا أعيش مع ابن أحمق!».

توقف، ولدهشها، شدَّ قامته. «نعم، قد أكون أحمقَ، لكنني لست جاحداً، ولست من نوع الرجال الذين يتخلّون عن زملائهم». استدار واتجه نحو الباب الأمامي.

«إلى أين تظن أنك ذاهب يا جيريمايا سمارت؟».

«إلى الخارج يا أمي!».

قالت بحدّة وهي تسدُّ طريقه: «على جثّتي الهامدة!».

كان طولها نحو خمس أقدام، في حين أن طول بلوي يتجاوز الست. قال حين حمل أمه من خصرها بسهولة مثل قطعة من خشب الصندل، ووضعها برفق جانباً: «آسف». تركها، فاغرة فمها وعيناها متقدتان، ثم خرج من الباب ومشى على الدرب أمام المنزل.

نظر بلوي إلى المشهد؛ المساحة الصغيرة، والدلو الملوّث في الزاوية، والكأس المعدنية على طاولة مثبّتة إلى الأرضية. في كل السنوات التي عرف توم فيها، لم يره قط غير حليق، أو يرَ شعره غير ممشّط، وقميصه مجعّداً. كانت هناك آنذاك آثار داكنة تحت عينيه، وعظام وجنتيه تبرز مثل تلال فوق فكّه المربّع.

أعلن الزائر: «توم! سُررت برؤيتك يا زميل». في عبارة أعادت كليهما إلى أيام الرسو عند الرصيف والرحلات الطويلة، حين كانا حقاً سعيدين برؤية بعضهما بعضاً.

حاول بلوي النظر إلى وجه توم، لكن لم يميّز المساحة بين القضبان، فعرف أن الوجه أو القضبان مشوّشة. بحث بضع لحظات قبل أن يقول: «كيف هي الحال؟».

«كنت أفضل حالاً».

عبث بلوي بالقبعة التي يحملها في يديه حتى استجمع شجاعته. «لن آخذ الجائزة يا زميل». خرجت الكلمات متلعثمة من فمه. «لن يكون هذا صواباً».

نظر توم نحوه للحظة. «ظننت أن هناك سبباً ما لعدم مجيئك مع الجنود». بدا غير مهتم وليس غاضباً.

«آسف، أرغمتني أمي على هذا، ولم يكن ينبغي أن أصغي إليها

مطلقاً. لن أمسَّ المال بعمود تجذيف».

«يمكن أن تكون من يحصل عليه مثل أي رجل آخر، وهذا لا يشكّل فرقاً لي الآن».

أياً كان ما يتوقّعه بلوي من توم، فهو لم يكن عدم الاكتراث ذاك. «ماذا سيحدث لاحقاً؟».

«لا أعرف حقاً يا بلو».

«هل تحتاج إلى شيء ما؟ هل هناك أي شيء يمكنني جلبه لك؟».

«لا بأس بقليل من السماء وبعض المحيط».

«أتكلم بجدّية».

«وكذلك أنا». سحب توم نفساً عميقاً حين فكّر لحظة. «هناك شيء يمكنك فعله. يمكن أن تزور إيزي من أجلي، في منزل والديها. فقط... توثّق أنها بخير. لن تتقبّل الأمر بسهولة؛ لأن لوسي تعني الحياة بالنسبة لها». وتوقف لأن شرخاً قد وجد طريقه إلى صوته. «أخبرها – أنا أتفهّم. هذا كل شيء. أخبرها أنني أتفهّم يا بلوي».

رغم أن الشاب شعر بأنه لا يفهم شيئاً، إلا أنه قبل مهمته وكأنها شيء مبجّل. سينقل الرسالة؛ وكأن حياته تعتمد عليها.

بعد أن غادر بلوي، استلقى توم على السرير، وتساءل مجدداً عن حال لوسي، وكيف تتدبّر إيزابيل الوضع. حاول التفكير بأي طريقة أخرى كان بمقدوره فعل الأشياء بها، بدءاً من ذلك اليوم الأول، ثم تذكّر كلمات رالف: «لا فائدة من خوض حربك مراراً وتكراراً حتى تصبح محقّة». بدلاً من ذلك، استمد الراحة من التخيّل: في عين ذهنه، رسم على السقف المواقع الدقيقة للنجوم تلك الليلة، بدءاً من الشّعرى اليمانيّة الأشد سطوعاً دائماً، ونُعيم، ثم الكواكب – مثل

الزُهرة وأورانوس - التي تظهر كلها بوضوح في السماء فوق الجزيرة. تابع مجموعات النجوم في أثناء تحرّكها عبر سقف العالم من الغسق حتى الفجر، ومنحته دقّة النجوم وترتيبها الثابت إحساساً بالحرية. لم يكن هناك شيء يتعرّض له لم تره النجوم من قبل؛ في مكان ما ووقت ما على الأرض. وإذا مُنحت وقتاً كافياً، فستُغلق ذاكرتها على حياته مثل جرح يندمل، وسيُنسى كل شيء، وتُمحى كل المعاناة. ثم تذكّر أطلس النجوم وإهداء لوسي: «إلى الأبد والأبد والأبد». وفاض ألم الحاضر مجدداً.

تضرّع بدعاء من أجل لوسي: «احفظها سالمة، ولتحظ بحياة سعيدة، واجعلها تنسني». ومن أجل إيزابيل الضائعة في الظلام: «أعدها إلى حياتها، إلى نفسها، قبل فوات الأوان».

جرَّ بلوي قدميه، وتمرّن بصمت على حديثه مجدداً حين وقف عند الباب الأمامي لآل غرايسمارك. عندما فُتح الباب، وقفت فيوليت أمامه، ووجهها كئيب.

سألت بلهجة رسمية؛ وكأنها درع ضد أي أنباء بغيضة جديدة: «هل يمكنني مساعدتك؟».

«مرحباً يا سيدة غرايسمارك». وعندما لم تبدُ منها أي إشارة، قال: «أنا بلـ- جيريمايا سمارت».

«أعرف من تكون».

«أتساءل إذا... هل تظنين أنني أستطيع التكلم مع السيدة شربورن؟».

«هي لا تستقبل زائرين».

«أنا...». كاد يستسلم، لكنه تذكّر وجه توم، وأصرَّ: «لن أؤخّرها

كثيراً، وأريد فقط أن -».

جاء صوت إيزابيل من حجرة الجلوس المعتمة. «دعيه يدخل يا أمي».

عبست أمها. «من الأفضل أن تدخل، وأرجو ألا تمانع مسح قدميك». وحدّقت إلى نعليه حين مسحهما، ثم ثانيةً، إلى الممسحة قبل أن تسمح له بالدخول.

قالت إيزابيل من حيث تجلس على كرسيها: «لا بأس يا أمي، لا داعي إلى بقائك».

بدت إيزابيل بحال يرثى لها مثل توم، كما فكّر بلوي. فهي نحيلة وكئيبة. تلعثم: «شكراً على... على استقبالي...». كانت حافة قبعته رطبة حيث يمسك بها. «لقد ذهبت لرؤية توم».

تجهّم وجهها وأشاحت بنظرها بعيداً.

«حالته سيئة حقاً يا سيدة ش، إنه في حال يرثى لها».

«وأرسلك لتخبرني هذا، أليس كذلك؟».

تابع بلوي العبث بقبعته. «لا، طلب مني أن أنقل لك رسالة».

«أوه؟».

«طلب أن أخبرك أنه يتفهّم».

لم تستطع إخفاء المفاجأة من وجهها. «يتفهّم ماذا؟!».

«لم يقل، وإنما طلب فقط إبلاغك بهذا».

بقي بصرها ثابتاً على بلوي، لكنها لم تكن تنظر إليه. بعد وقت طويل، ازداد فيه تورّده من التحديق إليه، قالت: «حسناً إذاً، لقد أبلغتني». ثم نهضت ببطء على قدميها. «سأرافقك إلى الخارج».

سأل بلوي، مصدوماً: «لكن، إذاً؟».

«إذاً ماذا؟».

«ماذا ينبغي أن أخبره بالمقابل؟ أعني، هل هناك رسالة أو شيء ما؟». لم ترد. «كان دائماً طيباً معي يا سيدة ش... أنتما الاثنان».

قالت وهي ترشده إلى الباب الأمامي: «من هنا».

عندما أغلقت الباب خلفه، أسندت وجهها على الجدار وهي ترتعش.

هتفت أمها: «أوه، إيزابيل يا حبيبتي!». ثم قالت وهي تقودها إلى غرفتها: «تعالي وتمدّدي».

قالت إيزابيل: «سأمرض مجدداً». وأبعدت أمها الصحن الخزفي القديم عن حضن ابنتها في الوقت الملائم.

تباهى بيل غرايسمارك بأنه حكم جيد على الناس. وبوصفه مدير مدرسة، يمكن أن يراقب شخصية الإنسان في أثناء تكوّنها، ولم يخطئ إلا نادراً بشأن أولئك الذين سيُبلون جيداً لأنفسهم في الحياة، والذين سيلاقون الفشل. لم يخبره شيء أن توم شربورن كان كاذباً أو رجلاً عنيفاً، وبدا مجرد رؤيته مع لوسي كافياً لإثبات أن الطفلة لا تخاف منه إطلاقاً، ولم يكن ليطلب شخصاً يعتني أكثر بابنته.

لكن، بعد فقدانه الحفيدة الوحيدة التي يمكن أن يحظى بها، تحوّل إخلاص بيل إلى ابنته الوحيدة الحية، ونحّى حكمه جانباً؛ الدم أشدُّ كثافة من الماء. الله يعلم أنه قد تعلّم هذا بالطريقة الصعبة.

قال حين جلسا في زاوية المشرب: «هذه مسألة شاقّة يا فيرنون؛ مسألة شاقّة. المسكينة إيزابيل محطّمة».

قال نوكي: «ما دامت تقدّم دليلاً ضد توم، فلا شيء لتقلق بشأنه».

رمقه بيل بنظرة مستفسرة.

شرح الشرطي: «ليست مسؤولة جنائياً عن أي شيء أرغمها

على فعله. لذا، ينبغي أن تروي فقط جانبها من القصة. إنها مؤهلة لكن مرغمة بوصفها شاهدة في هذا النوع من القضايا. دليلها مقبول، وستقول المحكمة إنه جيد مثل دليل أي شخص آخر. لكن، لا يمكن إرغام زوجة على الشهادة ضد زوجها. وطبعاً، يحق له البقاء صامتاً. لا يمكننا جعله يقول أي شيء ضدّها إذا لم يرد ذلك، وقد أوضح تماماً أنه لن ينبس بكلمة». توقف. «إيزابيل... هل بدت، حسناً، قلقة بشأن الطفلة؟».

حدّق بيل إليه. «دعنا لا نبتعد عن الموضوع هنا يا فيرنون».

لم يعلّق نوكي على هذا، وفكّر بصوتٍ عالٍ: «كونك عامل منارة يعني أنك محل ثقة، كما تعرف. بلادنا كلها - العالم كله، إذا أردت النظر إلى الأمر بهذه الطريقة - تعتمد على كونهم رجالاً ذوي شخصيات جيدة وصادقين ومحترمين. لا يمكن أن نسمح لهم بتزييف وثائق حكومية، أو إرغام زوجاتهم على الكذب، فضلاً عمّا قد يكون فعله لفرانك رونفيلدت قبل أن يدفنه». لاحظ القلق على وجه بيل، لكنه تابع: «لا، من الأفضل وضع حدٍّ لهذا النوع من الأشياء فوراً. سيأتي القاضي إلى هنا بعد بضعة أسابيع من أجل جلسة الاستماع. ووفقاً لما قاله شربورن حتى الآن، حسناً... سيُرسل على الأرجح إلى ألباني، حيث تتمتع المحكمة بسلطة إصدار عقوبات أقسى، أو قد يتشدّدون معه وينقلونه إلى بيرث. يبحث سبراغ عن أي دليل يثبت أن الرجل لم يكن ميتاً حين وصل إلى جانوس». وعندما احتسى الجرعة الأخيرة من شرابه قال: «لا يبدو الوضع جيداً له يا بيل. وهذا كل ما يمكنني قوله».

سألت حنّا: «هل تحبين الكتب يا حبيبتي؟». كانت تحاول كل

ما يخطر ببالها لبناء جسر مع ابنتها، وقد أحبّت بنفسها القصص حين كانت طفلة، وإحدى الذكريات القليلة التي لا تزال عالقة في ذهنها عن أمها هي قيامها بقراءة حكاية \الأرنب بيتر لها، بعد ظهر يوم مشمس على مرج برموندسي. تذكّرت بوضوح الحرير الأزرق الفاتح لسترة أمها، والعطر الذي ترشّه؛ شيئاً زهريًّا ونادراً، وابتسامة أمها؛ أروع الكنوز على الإطلاق. كانت تسأل حنّا: «ما هذه الكلمة؟ تعرفين هذه الكلمة، أليس كذلك؟».

كانت حنّا قد أعلنت بفخر: «جزر».

ابتسمت أمها: «حنّا ذكية! أنت ذكية جداً». تلاشت الذكرى هناك، مثل نهاية قصة، لذا ستعيدها مجدداً، مراراً وتكراراً.

آنذاك، حاولت إغراء غريس بالكتاب عينه. «هل ترين؟ إنه عن أرنب، تعالي واقرئيه معي».

لكن الطفلة نظرت إليها بنكد. «أريد ماما. أكره الكتاب!».

«أوه، هيا، أنتِ لم تنظري إليه». سحبت نفساً وحاولت مجدداً. «صفحة واحدة فقط، لنقرأ صفحة واحدة، وإذا لم يعجبك فسنتوقف».

انتزعت الفتاة الكتاب من يديها ورمته عليها، فضربت زاويته وجنة حنّا، مبتعدة قليلاً عن عينها، ثم اندفعت إلى خارج الغرفة، تجري إلى غوين التي كانت تدخل في اللحظة نفسها.

قالت غوين: «مرحباً، مهلاً يا صغيرة! ماذا فعلت لحنّا؟ اذهبي واعتذري!».

قالت حنّا: «اتركيها يا غوين، فهي لم تتعمد إيذائي، كانت مجرد حادثة». حملت الكتاب ووضعته بعناية على الرف، وسألت من دون اقتناع: «كنت أفكّر في أن أحضّر لها بعض حساء الدجاج للعشاء، الجميع يحبون حساء الدجاج، أليس كذلك؟».

بعد ساعات، جثت على ركبتيها ويديها لتنظّف الحساء الذي تقيّأته ابنتها على الأرضية.

«عندما أفكّر في هذا، أتساءل عمّا عرفناه حقاً عنه؟ كل القصص التي تقول إنه من سيدني قد تكون كذباً. كل ما نعرفه بالتأكيد هو أنه ليس من بارتاجو». كانت فيوليت غرايسمارك تتكلم إلى بيل في حين أن ابنتهما نائمة بطمأنينة. «أي نوعٍ من الرجال هو؟ ينتظر حتى تصبح إيزابيل غير قادرة على العيش من دون الطفلة، ثم يبعدها عنها». كان بصرها على الصورة المؤطرة لحفيدتهما، وقد أزالتها عن رف الموقد، وتخفيها تحت البيّاضات في درج ثيابها الداخلية.

«لكن، حسناً، ماذا تفهمين من هذا يا في؟ حقاً؟».

«بالله عليك، حتى إذا لم يكن قد وضع سلاحاً على رأسها، فهو لا يزال مسؤولاً. شعرت بالتأكيد بغضب شديد من فقدان ذلك الطفل الثالث، ومن لومها على ذلك... كان التقيّد بالقوانين منوطاً به في ذلك المكان والوقت، إذا أراد فعل هذا، وليس أن يبدأ بتغيير موقفه بعد سنوات، حين سيتأثر أشخاص كثيرون. نحن نتعايش مع القرارات التي نتخذها يا بيل، وهذه هي الشجاعة؛ أن تتحمّل عواقب أخطائك».

لم يقل بيل شيئاً، وفي أثناء ترتيبه أكياس الخزامى، تابعت: «كان هذا مثل فرك ملح على الجرح، أن يضع ضميره وشعوره بالذنب فوق ما قد يسبّبه ذلك لإيزابيل أو لوسي، أو...»، وضعت رأسها على رأسه، «لنا، في ما يتعلق بهذا يا عزيزي. لم يفكّر فينا إطلاقاً في أي من هذا؛ وكأننا لم نعانِ كفاية لنتحمّل ذلك». لمعت دمعة في عينها. «حفيدتنا الصغيرة يا بيل، وكل ذلك الحب...». أغلقت الدرج ببطء.

قال زوجها: «هيا يا عزيزتي في، أعرف أن هذا صعب عليك،

أعـرف». ثـم احتضـن زوجتـه، ولاحـظ أن الشيب يخـطّ شـعرها تلك الأيام. وقف كلاهما متعانقين. فيوليت تبكي، وبيل يقول: «كنت أحمقَ فعلاً حين صدّقت أن الأيام الصعبة قد ولّت». ومن دون إنذار، أفلتت تنهيـدة كبيـرة منـه، فاحتضنهـا بقـوة أكبر؛ وكأن بمقدوره أن يوقف بدنياً هذا الانفراط الجديد في عقد أسرته.

بعـد تنظيـف الأرضيـة، وفـي أثنـاء نـوم ابنتها أخيـراً، تجلس حنّا بجانب السرير الصغير وتحدّق إليها. في النهار، الأمر مستحيل، فغريس تخفي وجهها إذا ظنّت أن أحداً ما ينظر إليها، وتدير ظهرها، أو تجري إلى غرفة أخرى.

الآن، في ضوء شمعة واحدة، تستطيع حنّا مراقبة كل سمة منها، وتـرى فرانـك فـي تقـوّس وجنتهـا، وشـكل حاجبيها، ما يجعلها تشـعر بغصّـة فـي قلبهـا، وتصـدّق تقريبـاً أنهـا إذا تكلمت إلى الجسـد النائم، فسـيكون فرانك من يجيبها. تُظهر الشـعلة التي تلقي ظلالاً تتمايل مع إيقاع أنفاس ابنتها، اللمعان الذهبي لشـعرها، أو تلألؤ خيط رفيع من اللعاب يسيل من طرف الفم الوردي الشفاف.

تدرك حنّا ببطء فقط الرغبة التي قد كوّنت نفسها في مؤخر ذهنها؛ أن تبقى غريس نائمة، أياماً أو أعواماً إذا اقتضى الأمر؛ حتى تتلاشـى كل ذكرى لديها عن أولئك الناس، وتلك الحياة. تشعر بذلك الخواء الغريب داخلها، ذاك الذي راودها أول مرة حين رأت الأسى على وجه الطفلة العائدة، وتمنّت لو أن فرانك كان موجوداً معها، فهو سـيعرف مـا ينبغـي فعلـه، وكيـف يعالـج هذا. بغض النظر عن عدد المرات التي أوقعته الحياة فيها على الأرض، كان ينهض دائماً على قدميه، مبتسماً ومن دون ضغينة.

أادت حنّا بذكرياتها إلى الوراء لترى شكلاً صغيراً - طفلتها المثالية، وعمرها أسبوع - وتسمع مجدداً تهويدة فرانك: «شالف، كيندلين، شالف»؛ «نامي، يا صغيرة، نامي». وتذكّرت الطريقة التي حدّق بها إلى المهد وهمس لها بالألمانية: «أهمس لها أشياء لطيفة من أجل أحلامها. طالما أبقى المرء أشياء جيدة في ذهنه، فسيكون سعيداً، وهذا ما أعرفه».

الآن، تشدُّ حنّا ظهرها، والذكرى فقط كافية لمنحها الشجاعة لمواجهة اليوم التالي. غريس ابنتها، وشيء ما في روح الطفلة سيتذكّرها بالتأكيد، ويتعرّفها في النهاية. وستحتاج فقط إلى مواجهة ما يحدث يوماً بعد آخر، كما يقول أبوها. قريباً كفاية، ستكون الفتاة الصغيرة لها مجدداً، وستصبح فرحة كما كانت يوم مولدها.

بهدوء، أطفأت الشمعة، وخرجت من الغرفة في الضوء الذي يتسلّل إلى الأرضية من الباب المفتوح. عندما أوت إلى سريرها، دُهشَت للخواء الذي تشعر به.

مشت إيزابيل في الساعة الثالثة صباحاً. وقد انسلّت من الباب الخلفي لمنزل والديها، لترى شجرة صمغ قد أمسكت القمر بين اثنين من أغصانها الطويلة مثل إصبعين نحيلتين. طقطقت الأعشاب الجافة تحت قدميها الحافيتين حين سارت عليها؛ من جكرندة إلى شجرة لهب، ومن شجرة لهب إلى جكرندة: مكان عصي الكريكت القديمة، قبل كل تلك السنين.

تتناوب حالها بين الفهم والجهل، والوجود والعدم، في تلك الموجات من الأفكار التي جاءت أصلاً مع فقدانها طفلها الأول، ونمت مع فقدانها اثنين آخرين، ولوسي الآن؛ وتوم الذي أحبّته، توم

الذي تزوّجته، قد اختفى أيضاً في ضباب من الخداع، انسحب بعيداً حين لم تكن تنظر، ليكتب رسائل إلى امرأة أخرى، ويذكر فيها تآمره على إبعاد ابنتها عنها.

«أنا أتفهّم». رسالة توم محيّرة، وشعرت بغصّة في نوبة غضب وحنين، وطارت أفكارها في كل الاتجاهات. وللحظة فقط، استعادت ذكرى كونها في التاسعة، على حصان هارب، والنمر يتسلّل على الدرب، فيرفع الحصان قائمتيه الأماميتين ويجري مسرعاً بين جذوع أشجار، غافلاً عن الأغصان، والطفلة تتمسّك بشعر رقبته يائسة. كانت إيزابيل قد استلقت على عنقه حتى أُرهق خوفها وعضلاتها، وتوقف الحيوان أخيراً في فسحة على بعد ميل تقريباً. قال والدها آنذاك: «لا شيء يمكنك فعله. وعندما يندفع حصان هارباً، فلا يمكن إلا أن تتضرّعي وتتمسّكي بكل قوتك. لا يمكنك إيقاف حيوان يفر مذعوراً».

لا أحد يمكن أن تتكلم إليه، ولا أحد سيفهم، وأي منطق قد تتحلّى به حياتها نفسها من دون الأسرة التي عاشت من أجلها؟ مرّرت أصابعها فوق لحاء الجكرندة ووجدت أثراً؛ إنه الأثر الذي حفره ألفي فيها ليحدّد طولها، قبل يوم من ذهابه وهيو إلى فرنسا. «الآن، سأتوثّق من مقدار نموك حين نعود يا أختاه، لذا لا تعبثي به».

كانت قد سألت: «متى ستعودان، حقاً؟».

رمق الصبيان بعضهما بنظرة، وكلاهما قلقان ومرتبكان. قال هيو وهو يحفر اللحاء في مكان أعلى بست بوصات: «بحلول وقت وصولك إلى هنا. عندما تصبحين بهذا الطول، سنعود إلى المنزل لنضايقك مجدداً يا بيلا».

لم تنمُ قطّ إلى ذلك الطول.

أعادها جري وزغة إلى الحاضر؛ إلى ورطتها. وتتالت أسئلتها

حين أصبح القمر هزيلاً فوق الأغصان: من هو توم، حقاً؟ ذاك الرجل الـذي ظنّـت أنهـا كانـت تعرفـه جيـداً. كيف اسـتطاع الإقـدام على مثل تلـك الخيانـة؟ مـاذا كانـت حياتهـا معه؟ قفزت فكـرة خبيثة إلى كتفها: ما فائدة الغد؟

كانت الأسابيع التالية لعودة غريس أكثر تعذيباً لحنّا من الأسابيع التـي تلـت فقدانهـا، فقـد واجهتهـا حقائـق بقيـت متوارية وقتـاً طويلاً، وأضحـت آنـذاك لا مفـر منهـا. لقـد انقضت سـنون حقاً، وفرانك ميت فعلاً، وجزء من حياة ابنتها قد تلاشى ولا يمكن استعادته. وفي أثناء غيـاب غريـس مـن أيـام حنّـا، كانت حاضرة في أيام شـخص آخر، وقد عاشت ابنتها حياة من دونها. بخجل، أدركت أنها تشعر بالخيانة، من قبل طفلة.

تذكّرت زوجة بيلي ويشارت، وكيف تحوّلت فرحتها بعودة زوج قد ظنّته توفي على سوم إلى يأس. بدا ضحية الغاز الذي عاد إلى البيت غريباً لنفسـه وأسـرته أيضاً. وبعد كفاح دام خمسـة أعوام، وفي صباح أحـد الأيـام، حيـن كان الجليـد سـميكاً علـى الماء فـي بركتهم، وقفت على دلو حلب مقلوب في زريبة الأبقار وشنقت نفسها، تاركة أبناءها يقطعون الحبل ليحرّروها؛ لأن بيلي لن يتمكّن من إمساك سكّين.

تضرّعـت حنّـا طلبـاً للصبـر والقوة والفهم. كل صباح، طلبت من الله مساعدتها لتتحمّل حتى نهاية اليوم.

مـرّت بعـد ظهـر يـوم بجانـب حجـرة الأطفال، وسـمعت صوتاً، فخفّفـت سـرعتها، واقتربـت علـى أطـراف أصابـع قدميهـا مـن البـاب المفتـوح قليـلاً. شـعرت بالإثـارة حيـن رأت ابنتها تلعـب بدماها أخيراً

بعد أن قوبلت كل محاولاتها لجعلها تلعب بالرفض. آنذاك، كانت قطع مجموعة شاي صغيرة متناثرة على غطاء المائدة، وإحدى الدمى لا تزال ترتدي فستانها المزركش الجميل، لكن الأخرى قد جُرّدت من فستانها وظلّت مرتدية قميصها وسروالها الداخلي، ويوجد في حجر التي ترتدي تنّورة حيوان قماشي. قالت الدمية ذات التنّورة حين رفعت الطفلة كوب الشاي الصغير إلى الحيوان القماشي وأصدرت أصوات نيوم، نيوم: «وقت العشاء، فتاة صغيرة طيبة، حان الآن وقت النوم يا حلوتي». ورفعت دمية الحيوان إلى شفتيها لتقبّلها. تابعت: «انظر يا بابا، لوسي نائمة». حين مسّت الحيوان القماشي بيد أنيقة. قالت الدمية بالسروال: «عمتِ مساءً يا لولو، عمتِ مساءً يا ماما، ينبغي أن أشعل الضوء الآن، فالشمس تكاد تغيب». وأسرعت لتتدثّر بالبطانية. قالت الدمية بالتنّورة: «لا تقلقي يا لوسي، لا تستطيع المشعوذة إمساكك، فقد قضيت عليها».

قبل أن تعرف ما تفعله، دخلت حنّا وانتزعت الدمى منها وقالت بحدّة: «طفح الكيل من هذه الألعاب السخيفة، هل تسمعينني؟». وصفعت يد ابنتها. تسمّرت أطراف الطفلة، لكنها لم تبك، بل راقبت فقط حنّا بصمت.

فوراً، فاضت مشاعر الندم في حنّا. «حبيبتي، أنا آسفة! أنا آسفة جداً، لم أعنِ إيذاءك». تذكّرت تعليمات الطبيب. «لقد رحلا، هذان الشخصان قد رحلا. فعلا شيئاً سيئاً، وأبعداك عن المنزل، وقد ذهبا الآن». بدت غريس مرتبكة عند ذكر المنزل، وتنهّدت حنّا. «يوماً ما، يوماً ما ستفهمين».

بحلول وقت الغداء، حين كانت حنّا تنشج في المطبخ، خجلة من ثورتها، شُغلت ابنتها بممارسة اللعبة مجدداً، مع ثلاث دمى هذه

المرة. بقيت حنّا مستيقظة حتى وقت متأخر من الليل، وهي تخيط وتقص. وفي الصباح، استيقظت الطفلة لتجد دمية قماشية جديدة على وسادتها؛ فتاة صغيرة، وكلمة «غريس» مطرّزة على مئزرها.

قالت إيزابيل حين جلست المرأتان معاً على كرسيين من الخيزران تحت حافة السطح في مؤخر المنزل: «لا يمكنني تحمّل فكرة ما يمكن أن يفعلوه بها يا أمي. ستفتقدنا، وتفتقد المنزل. لن تعرف المخلوقة الصغيرة المسكينة ما يجري».

ردّت أمها: «أعرف يا عزيزتي، أعرف».

كانت فيوليت قد حضّرت لها كوباً من الشاي ووضعته على حجرها. لقد تغيّرت ابنتها بنحو مروّع. عينان منتفختان، تحتهما ظلاّن رماديان، وشعر باهت ومتشابك.

تكلّمت إيزابيل بصوتٍ عالٍ عن الفكرة التي خطرت لها، ربما لتفهمها أمها بنحو أفضل. «لم تُقم جنازة قطّ...».

سألت فيوليت: «ماذا تعنين؟». لم تكن إيزابيل تبدو منطقية تلك الأيام.

«ذهب كل من فقدته - تمزّق إرباً - إلى العدم. ربما كانت الجنازة ستجعل - لا أعرف - ستُحدث فرقاً. مع هيو هناك صورة القبر في إنكلترا، وألفي مجرد اسم على نَصَب تذكاري. أطفالي الثلاثة الأوائل - ثلاثة يا أمي - لم يحظوا قطّ بترنيمة تُغنّى لهم، والآن...». وغصَّ صوتها وذرفت الدموع. «لوسي...».

كانت فيوليت سعيدة؛ لأنها لم تنظّم قطّ جنازة لابنيها. فقد كانت الجنازة دليلاً لا يمكن دحضه؛ والجنازة تعني الإقرار أن ابنيك ميتان بالتأكيد. بدت تلك خيانة، وعدم إقامة جنازة يعني أنهما يوماً ما قد

يدخلان إلى المطبخ ويسألان عمّا تحضّره للعشاء ويضحكان معها بشأن تلك الغلطة السخيفة التي قد جعلتها تصدّق للحظة - تخيّل هذا! - أنهما قد رحلا إلى الأبد.

فكّرت في كلماتها بعناية. «حبيبتي، ليست لوسي ميتة». بدا أن إيزابيل لا تهتم بالملحوظة، فعبست أمها. «هذه ليست غلطتك يا عزيزتي، ولن أسامح أبداً ذلك الرجل».

«ظننت أنه أحبّني يا أمي. أخبرني أنني أثمن شيء في العالم له، ثم اقترف مثل تلك الفعلة الشنيعة...».

لاحقاً، في أثناء قيام فيوليت بتلميع الأُطر الفضية لصور ابنيها، راجعت الموقف في ذهنها المرة الألف. عندما تدخل طفلة قلبك، لا يكون هناك صواب أو خطأ بشأن هذا. وقد عرفت نساء أنجبن أطفالاً من أزواج هجروهنّ، أو أسوأ؛ رجال فرضوا أنفسهم عليهن، وقد أحبّت أولئك النساء أطفالهن كثيراً، في حين كرهن الوحوش الذين تسببوا بحملهنّ. كانت فيوليت تعرف جيداً أنه لا يمكن أن تمنع نفسك من محبة طفل.

الفصل التاسع والعشرون

«لماذا تحميها؟».

فاجأ السؤال توم الذي نظر إلى رالف بحذر عبر القضبان. «الأمر واضح مثل الأنف في وجهك البشع يا زميلي. عندما تُذكر إيزابيل، تصبح غريباً ولا تبدو منطقياً».

«كان ينبغي أن أحميها بنحو أفضل، أن أحميها مني».

«لا تتكلم هراء».

«كنت صديقاً جيداً لي يا رالف. لكن، هناك أشياء كثيرة لا تعرفها عني».

«وهناك أشياء كثيرة أعرفها عنك أيها الفتى».

وقف توم. «هل أصلحت المحرّك؟ قال بلوي إنك قد واجهت مشكلات معه».

نظر رالف إليه بحرص. «لا يبدو جيداً».

«خدمك جيداً بمرور السنين، ذلك المركب».

«نعم، لقد وثقت به دائماً، ولا أظن أنه سيخذلني يوماً. تريد فريمانتل إيقافه عن العمل». نظر إلى عيني توم. «سنموت جميعنا قريباً كفاية، من أنت لتهدر أفضل سنوات حياتك؟».

«لقد انتهت أفضل سنوات حياتي منذ وقت طويل يا رالف».

«هذا هراء، وأنت تعرف ذلك! حان الوقت لتقف على قدميك وتفعل شيئاً ما! بالله عليك، انتبه لما سيحدث لك!».

«ماذا تقترح أن أفعل يا رالف؟».

«أقترح أن تقول الحقيقة اللعينة، أياً تكن، فالمكان الوحيد الذي يقود إليه الكذب هو المشاكل».

«أحياناً، ذلك هو المكان الوحيد الذي تقودك إليه الحقيقة أيضاً... لا يتحمّل الناس إلا على قدر استطاعتهم يا رالف. يا الله، أعرف هذا أفضل من أي شخص آخر. كانت إيزي فتاة عادية وسعيدة حتى تداخلت حياتها مع حياتي، ولم يكن ليحدث أيٌّ من هذا لو أنها لم تذهب إلى جانوس. ظنّت أنها ستكون فردوساً، ولم تكن لديها فكرة عمّا ينتظرها، وكان ينبغي ألا أدعها تنتقل إلى هناك».

«هي امرأة ناضجة يا توم».

نظر إلى القبطان وهو يزن كلماته التالية. «رالف، لقد توقّعت هذا منذ وقت طويل، فذنوب المرء تصيبه في النهاية». تنهّد، ورفع بصره إلى شبكة العنكبوت في زاوية زنزانته، حيث تعلق بضع ذبابات مثل زينة مهجورة. «كان ينبغي أن أموت قبل سنوات طويلة، والله يعلم أنني قد تفاديت رصاصة أو حربة مئات المرات، وأعيش في الوقت الضائع منذ أمدٍ بعيد». ابتلع لعابه بصعوبة. «أن تبقى إيز من دون لوسي قاسٍ كفايةً عليها، ولن تنعم بوقت هانئ أبداً. رالف، هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله لها، وأقرب ما يكون للتعويض عليها».

«ليس هذا منصفاً». تكرّر الطفلة هذه العبارة مراراً، ليس بنبرة متذمّرة، وإنما بتشوّق يائس إلى المنطق. يبدو تعبيرها مثل شخص يحاول شرح عبارة إنكليزية إلى أجنبي. «ليس هذا منصفاً، أريد الذهاب إلى المنزل».

أحياناً، تتدبّر حنّا صرف انتباهها بضع ساعات، فتحضّر كعكاً معها،

وتقص دمى ورقية، وتُخرج فتات خبز لإطعام طيور، فتأتي المخلوقات الصغيرة إلى الباب وتقفز على رجليها النحيلتين مثل سلك كهربائي، ما يثير حماسة غريس حين تلتقط بمناقيرها فتات الخبز البائت.

عندما رأت تعبير فرح غريس من القط العتّابي الذي تتجاوزانه يومياً، سألت في أرجاء البلدة إن كان أحدٌ يمتلك أي هررة، وأصبح مخلوق أسود صغير بوجه ومخالب بيضاء فرداً من أهل الدار.

غريس مهتمة، ولكن متشكّكة. تقول حنّا، حين تضع الهر بلطف بين يديها: «هيا، إنه لك، كله لك، لذا ينبغي أن تساعدي في العناية به. الآن، برأيك ماذا يجدر بنا أن نسمّيه؟».

قالت الطفلة من دون تردّد: «لوسي».

اعترض حنّا، وقالت: «أظن أن لوسي اسم فتاة صغيرة، وليس اسم هر. ماذا عن اسم هر ملائم؟».

قالت غريس اسم القط الوحيد الذي تعرفه: «تاباثا تابي».

قالت حنّا، مقاومة رغبتها في إبلاغها أنه ليس قطاً عتّابياً، ولا أنثى: «ليكن تاباثا تابي». على الأقل جعلت الطفلة تتكلم.

في اليوم التالي، قالت حنّا: «تعالي، هل نقدّم بعض اللحم إلى تاباثا؟». فردّت غريس وهي تعبث بخصلة شعر: «هي لا تحبّك. إنها لا تحب أحداً غيري». لم يكن هناك لحم، وإنما شرح للحقيقة فقط.

اقترحت غوين بعد مشادّة عنيفة بنحو خاص بين الأم وابنتها بشأن انتعال حذاء: «ربما ينبغي أن تدعيها ترى إيزابيل شربورن».

بدت حنّا خائفة. «غوين!».

«أعرف أن هذا آخر شيء تودّين سماعه، لكنني أقول فقط... ربما إذا ظنّت غريس أنك صديقة أمها، فقد يكون هذا مفيداً بطريقة ما».

«صديقة أمها! كيف تستطيعين قول مثل هذا الشيء! إضافة إلى هذا، تعرفين ما قاله د. سومبتون، والأفضل لها أن تنسى تلك المرأة بسرعة!».

لكنها لم تستطع الهروب من حقيقة أن ابنتها قد دُمغت بنحو لا يمكن محوه بعلامة ذينك الأبوين الآخرين، وتلك الحياة الأخرى. عندما مشتا على الشاطئ، حاولت غريس جاهدة الوصول إلى الماء. وفي الليل، حين يكون معظم الأطفال سعداء بتحديد القمر، كانت غريس تشير إلى أكثر نجوم المساء سطوعاً وتعلن: «الشّعرى اليمانيّة! ودرب التبّانة». بصوت واثق أخاف حنّا، وجعلها تسرع إلى المنزل قائلة: «حان وقت النوم الآن، لذا سندخل».

تضرّعت حنّا لتتخلّص من الاستياء، ومن المرارة. «يا الله، أنا محظوظة جداً لاستعادة ابنتي، فأرشدني إلى فعل الصواب». لكنها تخيّلت فوراً فرانك، مرمياً في قبر مجهول داخل قطعة مشمّع، وتذكّرت النظرة على وجهه أول مرة حمل فيها ابنته؛ وكأنها قدّمت له السماء والأرض كلتيهما في تلك البطانية الوردية.

لم يكن الأمر منوطاً بها، وبدا ملائماً حقاً أن يجري التعامل مع توم شربورن وفقاً للقانون. إذا قرّرت المحكمة أنه ينبغي أن يُسجن، فحسناً، العين بالعين. ستترك العدالة تسلك مجراها.

لكنّها تذكرت بعد ذلك الرجل الذي تدخّل لإنقاذها مما لا يعلمه إلا الله، قبل سنوات على ذلك المركب، وتذكّرت الطمأنينة التي شعرت بها فجأة بوجوده، فجعلتها المفارقة تكتم أنفاسها حتى في ذلك الوقت. من يعرف طبيعة شخص من الداخل؟ لقد رأت تلك السلطة التي تعامل بها مع ذاك الرجل، فهل كان يظن أنه فوق القوانين أو خارج نطاقها؟ لكن الرسالتين، وخط اليد الجميل ذاك: «ادعي من

أجلي». لـذا سـتعود إلـى التضـرّع مـن أجـل توم شـربورن أيضاً، لكي يُعامل بإنصاف؛ حتى إن أراد جزء منها رؤيته وهو يعاني لما قد فعله.

فـي أصيـل اليـوم التالـي، شـبكت غوين ذراعها بـذراع أبيها حين مشيا على العشب. وقالت وهي تنظر إلى الخلف نحو المنزل الحجري الكبير: «أفتقد هذا المكان، كما تعرف».

ردَّ أبوها: «وأنا أفتقدك يا غويني». بعد بضع خطوات أخرى قال: «بعـد أن عـادت غريـس إلـى المنـزل لتبقـى مع حنّـا، ربما حان الوقت لتعودي إلى أبيك العجوز...».

عضّت شفتها. «سأحب هذا، سأودُّ ذلك حقاً، لكن...».

«لكن، ماذا؟».

«لا أظن أن حنّا يمكنها أن تتدبّر هذا». سحبت ذراعها وواجهت أباها. «أكره أن أكون من يقول هذا يا أبي، لكنني لا أعرف إن كانت ستتكيّف حقاً، وتلك الفتاة الصغيرة المسكينة! لم أكن أعرف أن طفلة قد تكون بهذا البؤس».

مـسَّ سـبتيموس وجنتهـا. «أعـرف فتـاة صغيرة كانـت بمثل ذلك البؤس. فطرتما قلبي بغيابكما شـهوراً بعد موت أمكما». توقف ليشـمَّ وردة حمـراء بعـد تفتّحهـا المخملـي الكامل. وتنشّـق الشـذا عميقاً إلى رئتيه، ثم وضع يده على ظهره ليشد قامته.

أصـرّت غويـن: «لكـن هـذا هـو المحزن. ليسـت أمها ميتة، وهي هنا في بارتاجو».

«نعم، حنّا هنا في بارتاجو!».

كانت تعرف أباها جيداً كفاية فأحجمت عن متابعة الحديث. تابعا السير بصمت، وسبتيموس يتفحّص أحواض الأزهار، في حين تحاول

غوين ألا تسمع صوت حزن ابنة شقيقتها، الحاد جداً والمحفور في ذهنها.

تلك الليلة، فكّر سبتيموس مليّاً بشأن ما يجدر به فعله، وكان يعرف الكثير عن فتاتين صغيرتين قد فقدتا أمهما، ويجيد تماماً الإقناع. وعندما استقر على خطته، استسلم لنوم من دون أحلام.

في الصباح، قاد مركبته إلى منزل حنّا وأعلن: «حسناً، هل الجميع مستعدون؟ سنذهب في نزهة غامضة. حان الوقت لتعرف غريس بارتاجو بنحو أفضل، وتتعلّم من أين هي».

«لكنني في خضم إصلاح الستائر؛ من أجل قاعة دار العبادة. وعدت الموقر نوركليس...».

«سآخذها بنفسي، وستكون بخير».

بدأت «النزهة الغامضة» برحلة إلى مصانع أخشاب بوتس. لقد تذكر سبتيموس أن حنّا وغوين، في أثناء طفولتهما، كانتا تفرحان بتقديم التفاح ومكعّبات السكر إلى خيول الجر هناك. كان الخشب يُنقل على السكك الحديدية هذه الأيام، لكن المصانع لا تزال تحتفظ ببعض خيول الجر العجوز من أجل الطوارئ، حين تغمر مياه الأمطار أقساماً من السكّة في الغابة.

قال وهو يربت على أحد الخيول: «هذه أيتها الشابة غريس، أرابيلا. هل يمكنك قول أرابيلا؟». ثم قال لسائس الإسطبل: «اربطها بالعربة فهي فرس جيدة». وفعل الرجل ذلك. بعد مرور بعض الوقت، قاد أرابيلا إلى الساحة وهي تجرُّ عربة.

وضع سبتيموس غريس على المقعد، قبل أن يصعد إلى جانبها،

وقال: «لنذهب في رحلة استكشافية، ما رأيك؟». وحرّك لجام الفرس العجوز.

لم تكن غريس قد رأت مثل هذه الفرس الكبيرة، أو ذهبت إلى غابة حقيقية من قبل. فقد كان أقرب شيء إلى ذلك هو مغامرتها السيئة في الأجمة خلف منزل آل غرايسمارك. معظم حياتها، لم ترَ إلا شجرتين فقط؛ صنوبر نورفولك على جانوس. تبع سبتيموس دروب المصانع القديمة عبر الكينا المتطاولة، مشيراً إلى الكنغر والغوانة هنا وهناك، فشعرت الطفلة أنها في عالم حكايات الجن. من وقت إلى آخر، رأت طائراً أو كنغراً صغيراً، فسألت: «ما هذا؟». فسمّى جدّها المخلوق.

قالت وهي تشير إلى حيوان جُرابي يثب ببطء قرب الدرب: «انظر، إنّه كنغر صغير».

«هذا ليس كنغراً صغيراً، وإنما يُدعى مبتسماً. إنه يشبه الكنغر لكنه أصغر، وهذا أكبر حجم يصل إليه». ربت على رأسها. «سُررت برؤيك تبتسمين يا صغيرتي، فأنا أعرف أنك كنتِ حزينة... وتفتقدين حياتك القديمة». فكّر سبتيموس لحظة. «أعرف ما يعنيه هذا لأنه... حسناً، هذا ما جرى لي».

نظرت الفتاة إليه مرتبكة، فتابع: «اضطررت إلى توديع أمي، والسفر عبر البحر كل الطريق إلى فريمانتل على متن سفينة شراعية حين كنت أكبر منك قليلاً. أعرف أنه يصعب تخيّل هذا، لكنني جئت إلى هنا، وحظيت بأم وأب جديدين يدعيان والت وسارة اعتنيا بي منذ ذلك الوقت، وأحبّاني كما تحبّك ابنتي حنّا. لذا أحياناً، لا يحظى المرء بأسرة واحدة فقط في حياته».

لم يبدُ على وجه غريس أي دليل عمّا كانت قد فهمته من حديثه، لذا غيّر الموضوع. عندما تابعت الفرس السير ببطء، بزغت

أشعة الشمس عبر الأغصان العالية هنا وهناك. «هل تحبين الأشجار؟».

أومأت غريس.

أشار سبتيموس إلى بعض الشجيرات. «انظري، هناك أشجار صغيرة تنمو مجدداً. نقطع الكبيرة القديمة، فتظهر أخرى جديدة مكانها. كل شيء ينمو مجدداً إذا مُنح وقتاً كافياً، وعندما تصبحين في مثل عمري، ستكون تلك الشجيرة عملاقة، ومفيدة». خطرت له فكرة. «ستغدو هذه الغابة لك يوماً ما، ستكون غابتك».

«غابتي!؟».

«حسناً، إنها لي، ويوماً ما ستصبح لأمك وخالتك غوين، ثم ستكون لك. ما رأيكِ بهذا؟».

سألت: «هل يمكنني قيادة الفرس؟».

ضحك سبتيموس. «أعطيني يديك وسنمسك اللجام معاً».

قال سبتيموس حين أوصل غريس إلى حنّا: «ها هي سليمة تماماً».

«شكراً يا أبي». وانحنت إلى مستوى ابنتها. «هل كان يومك جيداً؟».

أومأت غريس.

«وهل ربتِّ على الخيول؟».

قالت بهدوء، وهي تفرك عينيها: «نعم».

«كان نهاراً طويلاً يا حلوتي. حان وقت الاغتسال، ثم سنضعك في السرير».

قالت غريس وأثر ابتسامة يظهر على وجهها: «أعطاني الغابة». ما جعل قلب حنّا يخفق بقوة.

بعد حمّام غريس ذلك المساء، جلست حنّا على سرير الفتاة الصغيرة. «أنا مسرورة جداً لأنكِ قضيت يوماً لطيفاً. أخبريني عن الأشياء التي رأيتها يا حبيبتي».

«متبسم».

«عفواً؟».

«متبسم، ذلك المخلوق الصغير الذي يثب».

«آه! مبتسم! مخلوقات صغيرة جميلة، أليس كذلك؟ وماذا غيرها؟».

«فرس كبيرة، أنا قدّتها».

«هل تتذكّرين اسمها؟».

فكّرت الفتاة. «أرابيلا».

«أرابيلا، هذا صحيح. إنها فرس رائعة، ولديها أصدقاء هناك أيضاً: سامسون، وهرقل، وديانا. أرابيلا عجوز الآن كما تعرفين، لكنها لا تزال قوية جداً. هل أراكِ جدك الألواح الخشبية التي تستطيع جرّها؟». بدت الفتاة محتارة، فقالت حنّا: «العربة الضخمة ذات العجلتين الكبيرتين فقط. كانوا ينقلون الأشجار الكبيرة عليها من الغابة بعد أن يقطعوها». هزّت الفتاة رأسها، وقالت حنّا: «أوه يا حبيبتي، هناك الكثير مما أودُّ أن أريك إياه. ستحبين الغابة، أعدك بهذا».

عندما كانت غريس تغفو، بقيت حنّا بجانبها تخطّط. ستريها الأزهار البرية حين يحلُّ الربيع، وستأتي بفرس صغيرة لها؛ شتلاند قزم ربما، كي تستطيعا ركوبه معاً على المسالك الضيقة عبر الغابة. فُتح أفقٌ من عقود فجأة في مخيّلتها، وتجرّأت على استكشافها. همست لابنتها النائمة: «أهلاً بك في المنزل، أهلاً بعودتك أخيراً يا حبيبتي». وذهبت لتؤدي واجباتها ذلك المساء وهي تدندن بصوت خافت.

الفصل الثلاثون

لا يعيش في بارتاجو إلا عدد قليل من الناس، ولا يوجد فيها إلا عدد قليل من الأماكن لهؤلاء الأشخاص، وعاجلاً أم آجلاً ستلتقي شخصاً كنت تفضّل تفاديه.

استغرق الأمر أياماً لتقنع فيوليت ابنتها بمغادرة المنزل. «هيا بنا، تعالي في نزهة معي لأنني سأذهب إلى متجر موشمور. أريد بعض الصوف الإضافي لغطاء السرير الذي أصنعه». لا مزيد من السترات الصوفية، أو الفساتين المزركشة الصغيرة، وقد عادت حالياً إلى حياكة بطانيات لآخر البائسين في منزل الأيتام. حسناً، أبقى ذلك يديها مشغولتين، حتى إن لم يشغل ذهنها دائماً.

«ماما حقاً، لا أشعر برغبة للقيام بذلك. سأبقى هنا».

«أوه، هيا يا حبيبتي».

عندما مشت الاثنتان في الشارع، حاول الناس ألا ينظروا إليهما مباشرة، وابتسم بعضهم بتهذيب، لكن لم يكن هناك أيّ من «كيف الحال يا في؟»، أو «هل سأراك في دار العبادة الأحد؟». لم يكن أحد واثقاً بطريقة معاملة ذلك الحزن الذي لم يكن بسبب وفاة، وقطع بعضهم الشارع لتفاديهما. قرأ أهل البلدة الصحف لاستخلاص أي معلومات، لكن الأمور هدأت أخيراً.

عندما دخلت فيوليت وابنتها عبر أبواب متجر السلع الصغيرة، أطلقت فاني دارنلي - في طريق خروجها - لهاثاً وترنّحت في الخارج،

وعيناها متسعتان دهشة وذهولاً.

فاحت من المتجر رائحة ملمّع بعطر الخزامى، وأزهار قديمة من خليط مجفّف في سلّة قرب أمينة الصندوق. ثُبّتت عالياً على جدران كل الجوانب مسامير عُلقت عليها أقمشة: دمشقي وموصلين، وكتان، وقطن. كانت هناك أقواس قزح من خيوط وغيوم من صوف مكوّر، وتوجد بطاقات شرائط زينة - سميكة، رفيعة، بروكسل، فرنسي - على الطاولة حيث يقدم السيد موشمور خدمة إلى امرأة عجوز. يوجد في الطرف الآخر من النضد صف طاولات يمتد على كلا جانبي المتجر، وكراسٍ من أجل راحة الزبائن.

كانت امرأتان جالستان إلى إحدى الطاولات تديران ظهريهما إلى إيزابيل؛ إحداهما شقراء، والأخرى شعرها داكن تنظر إلى قطعة من كتّان أصفر فاتح مفتوحة أمامها. إلى جانبها، كانت هناك فتاة شقراء صغيرة، كئيبة وتعبث بدمية قماشية، وترتدي فستاناً وردياً فضفاضاً ونظيفاً، وجورباها الأبيضان مزينان بشريط مزركش.

عندما فحصت المرأة القماش، وطرحت على مرافقتها أسئلة بشأن السعر والجودة، ارتفع بصر الفتاة الصغيرة لترى من القادم. ألقت الدمية ونزلت عن الكرسي، ونادت وهي تندفع نحو إيزابيل: «ماما! ماما! ماما!».

قبل أن يستوعب أحد ما يجري، كانت لوسي قد لفّت ذراعيها حول ساقي إيزابيل وتمسك بها بقوة مثل سلطعون.

«أوه لوسي!». حملتها إيزابيل وعانقتها، وتركت الطفلة تدنو من عنقها. «لوسي، حبيبتي!».

تذمّرت الطفلة وهي تشير: «أخذتني تلك السيدة السيئة يا ماما! لقد صفعتني!».

«أوه يا حلوتي المسكينة!». كانت إيزابيل تضم الفتاة إليها بقوة، وتنشج من ملمسها، في حين تلتف ساقا الفتاة حول خصرها، ورأسها يرتاح تلقائياً في المساحة تحت ذقنها؛ مثل القطعة الأخيرة من صورة مقطّعة. كانت غافلة عن أي شيء وأي شخص آخر.

راقبت حنّا مذعورة وهي تشعر بالإذلال واليأس من السحب المغناطيسي الذي مارسته إيزابيل على غريس. لأول مرة، بدت شناعة السرقة بوضوح أمامها، وظهر أمامها الدليل عن كل ما قد سُرق. رأت مئات الأيام، وآلاف المرات التي تعانقتا فيها، وتشاركتا الحب المغتصب. شعرت بارتعاش في ساقيها، وخشيت أن تسقط على الأرضية. وضعت غوين يدها على ذراعها، غير واثقة بما ينبغي أن تفعله.

حاولت حنّا التخلّص من الإذلال والدموع التي جلبها. كانت المرأة والطفلة مرتبطتين معاً مثل كائن واحد، في عالم لا يستطيع أحد دخوله. شعرت بالغثيان حين حاولت البقاء مشدودة القامة، والحفاظ على بعض الكرامة، وكافحت لتتنفّس بهدوء، ثم حملت حقيبتها عن النضد ومشت بثبات قدر استطاعتها نحو إيزابيل.

حاولت: «حبيبتي غريس». كانت الطفلة لا تزال ملتصقة بإيزابيل، ولم تتحرّك أي منهما. «عزيزتي غريس، حان وقت الذهاب إلى المنزل». ومدّت يدها لتمس الفتاة الصغيرة التي صرخت؛ لم يكن زعيقاً وإنما صرخة خطرة حادّة ارتدَّ صداها عن النوافذ.

«ماما، اجعليها تبتعد! ماما، أبعديها!».

نظر الحشد الصغير إليهن؛ الرجال مرتبكون والنساء خائفات، وبدت سيماء الفتاة الصغيرة مشوّشة وأرجوانية. كانت تتوسّل: «أرجوك يا ماما!». ووضعت يديها الصغيرتين على كتفي إيزابيل، وصرخت

بالكلمات وكأنها تريد التغلّب على مسافة أو صمم، لكن إيزابيل بقيت صامتة.

«ربما يمكننا -»، قوطعت جملة غوين من قبل شقيقتها.

صرخت حنّا، عاجزة عن مخاطبة إيزابيل بالاسم: «دعيها!». وتابعت بهدوء أكبر، بصوت يمتلئ مرارة: «ما فعلته كان كافياً».

صرخت إيزابيل: «كيف بمقدورك أن تكوني بهذه القسوة؟! ألا ترين حالها! أنت لا تعرفين أدنى شيء عنها وعمّا تحتاج إليه، وكيف تعتنين بها! تحلّي ببعض المنطق إذا لم تكوني لطيفة معها!».

طالبت حنّا وهي ترتعش: «اتركي ابنتي! الآن!». كانت بأمس الحاجة للخروج من المتجر، وكسر الارتباط المغناطيسي. لذا، سحبت الطفلة بعيداً، وأمسكتها من خصرها، فقاومت الطفلة وصرخت: «ماما! أريد ماما! اتركيني!».

قالت: «لا بأس يا حبيبتي، أعرف أنك منزعجة، لكن لا يمكننا البقاء». وتابعت طريقها وهي تحاول تهدئة الطفلة ببعض الكلمات في حين تمسكها بقبضة قوية كفاية لتمنعها من التملّص من ذراعيها والهروب بعيداً.

نظرت غوين إلى إيزابيل، وهزّت رأسها يأساً، ثم استدارت إلى ابنة شقيقتها. «صه، صه يا حبي، لا تبكي». وربتت على وجهها بمنديل مزركش رقيق. «تعالي إلى المنزل وسنجد حلوى لك. سيفتقدك تاباثا تابي، هيا يا حبيبتي». تتابعت كلمات الطمأنينة من حنّا ومن غوين في جدول رقيق، حين شقت الفتيات الثلاث طريقهن إلى الخارج. عند الباب، استدارت غوين مجدداً لتنظر إلى إيزابيل، واليأس في عينيها.

للحظة، لم يتحرّك أحد، وحدّقت إيزابيل إلى الهواء الرقيق وهي لا تجرؤ على تحريك أطرافها حتى لا تفقد الشعور بابنتها. نظرت أمها

إلى موظفي المتجر وهي تتحدّاهم بنظراتها أن يعلّقوا. أخيراً، أمسك الفتى الذي كان يبسط الكتّان لفافة القماش وبدأ يلفها مجدداً.

عدَّ لاري موشمور ذلك مناسباً ليقول للمرأة العجوز التي كان يخدمها: «وتقولين إنك تريدين ياردتين فقط من الشريط المزركش؟».

ردّت بصوت طبيعي قدر المستطاع: «نعـ - نعم، أريد ياردتين فقط». رغم أنها حاولت أن تدفع له بمشط شعر بدلاً من النقود التي حاولت إخراجها من حقيبتها.

قالت فيوليت بلطف: «هيا يا عزيزتي». ثم بصوتٍ أعلى: «لا أظن أنني أريد الصوف نفسه هذه المرة. سأنظر إلى النقش مجدداً ثم أقرّر».

تجمّدت فاني دارنلي وهي تشير إلى امرأة بجانبها على الرصيف حين خرجت المرأتان، وتجرّأت عيناها فقط على متابعتهما في الشارع.

مشى نوكي على طول الخليج الصغير في بوينت بارتاجو، وهو يرهف السمع إلى الأمواج المتلاطمة على الشاطئ على كلا الجانبين. يأتي إلى هنا في المساء ليصفّي ذهنه، بعد تناول الشاي وتجفيف الأطباق التي غسلتها زوجته. ولا يزال يحنُّ إلى الأيام التي كان أطفاله فيها حوله ويفعلون ذلك معه؛ لكنهم كبروا الآن. وابتسم حين تذكّر بيلي الصغير، وعمره ثلاثة أعوام إلى الأبد.

أدار بين سبابته وإبهامه صدفة؛ باردة ومدوّرة مثل قطعة نقود. الأُسر؛ الله وحده يعلم ما ستكون عليه حاله من دون أسرته. كان الشيء الطبيعي في العالم أن ترغب المرأة بإنجاب طفل، وقد تفعل زوجته أيرين أي شيء لتستعيد بيلي؛ أي شيء. عندما يتعلق الأمر بأبنائهم، تفيض غرائز الأبوين وآمالهما، ومخاوفهما، في حين تخرج القوانين والقواعد مباشرة من النافذة.

القانون قانون، لكن الناس ناس. وعادت أفكاره إلى اليوم الذي بدأت فيه كل القصة الحزينة: يوم الجندي الأسترالي حين ذهب إلى بيرث لحضور جنازة عمّته. كان بمقدوره الذهاب للتحقيق مع الكثيرين من ذلك الحشد، ومن بينهم غارستون، وكل الرجال الذين أساءوا إلى فرانك رونفيلدت لإخماد آلامهم، للحظة فقط. لكن ذلك كان سيجعل الأمور أسوأ، فلا يمكن مواجهة بلدة كاملة بعارها، وأحياناً يكون النسيان الطريقة الوحيدة للعودة إلى حال السواء.

عادت أفكاره إلى سجينه، وبدا توم شربورن ذاك لغزاً، ومنغلقاً على نفسه مثل جوزة كوينزلاند، ولا توجد طريقة لمعرفة ما بداخل الغلاف القاسي الأملس، ولا نقطة ضعف للضغط عليها. كان سبراغ اللعين عاقد العزم للانقضاض عليه، سيعوقه قدر المستطاع، لكنه سيضطر إلى السماح له بالمجيء واستجواب شربورن قريباً. هناك في ألباني، أو في بيرث، من يعرف ماذا سيفعلون به؟ كان شربورن أسوأ أعداء نفسه، بالطريقة التي يتصرف بها.

على الأقل، سيتدبّر أمر إبعاد سبراغ عن إيزابيل. كان قد قال للرقيب: «تعرف أنه ليس بمقدورنا إرغام زوجة على الكلام، لذا ابقَ بعيداً عنها. إذا ضغطت عليها، فقد تصمت إلى الأبد، هل هذا ما تريده؟ اتركها لي».

يا للهول! كل ذلك لا يُحتمل. حياة ساكنة في بلدة هادئة؛ هذا ما قد توقّعه، ويُفترض به الآن أن يجعل كل شيء منطقياً. كانت قضية سيئة؛ رديئة حقاً، وواجبه أن يكون منصفاً، طوال الوقت، ويسلّمها إلى ألباني حين يحين الوقت. رمى الصدفة إلى الماء، ولم يتناثر الماء حولها، وأغرقها هدير الأمواج.

نقر الرقيب سبراغ، وهو لا يزال يتعرّق من الرحلة الطويلة من ألباني، قطعة زغب عن ردنه. ببطء، عاد إلى الأوراق أمامه: «توماس إدوارد شربورن، تاريخ الميلاد 28 أيلول 1893».

لم يرد توم على ذلك، فيما طقطق الزيز بحدّة من الغابة؛ وكأنه صوت الحرارة نفسها.

«بطل الحرب أيضاً، وحامل وسام الخدمة العسكرية. لقد قرأت مآثرك: استوليت على مربض رشاش ألماني بمفردك، وحملت أربعة من رجالك إلى بر الأمان تحت نيران قنّاص، والباقي...» ترك سبراغ لحظة تمضي، «لا بدّ أنك قد قتلت أشخاصاً كثيرين في ذلك الوقت».

بقي توم صامتاً.

«قلت»، ومال سبراغ نحوه فوق الطاولة، «لا بدّ أنك قد قتلت أشخاصاً كثيرين ذلك الوقت».

بقي تنفّس توم ثابتاً، ونظر أمامه مباشرة، ووجهه خالٍ من أي تعبير.

ضرب سبراغ الطاولة بقبضته. «عندما أطرح عليك سؤالاً فستجيب عنه، هل تفهمني؟».

قال توم بهدوء: «عندما تطرح علي سؤالاً، سأفعل».

«لماذا قتلت فرانك رونفيلدت؟ هذا سؤال».

«لم أقتله».

«هل لأنه كان ألمانياً؟ كانت لهجته لا تزال واضحة، وفق كل الآراء».

«لم يكن يتكلم بلهجته حين وصل إلي، فقد كان ميتاً».

«لقد قتلت الكثير من قومه من قبل، وواحد آخر لم يكن ليُحدث فرقاً، أليس كذلك؟».

أطلق توم زفيراً طويلاً، وشبك ذراعيه.

«هذا سؤال أيضاً يا شربورن».

«ما كل هذا؟ لقد أخبرتك أنني مسؤول عن الاحتفاظ بلوسي. لقد أخبرتك أن الرجل كان ميتاً حين جرفت الأمواج المركب، فدفنته، وهذه مسؤوليتي أيضاً، ماذا تريد غير هذا؟».

سخر سبراغ برتابة: «أوه، هو شجاع جداً، وصادق جداً، سلّم نفسه، ومستعدٌ للذهاب إلى السجن. هذا لا ينفع معي يا زميل، هل تفهم؟ يبدو الأمر أنك تحاول الإفلات من جريمة».

زاد هدوء توم من غضبه، فتابع: «لقد رأيت أمثالك من قبل، وقد اكتفيت من أبطال الحرب اللعينين الذين يعودون إلى هنا ويتوقّعون أن يُبجّلوا باقي حياتهم، وينظرون بتعالٍ إلى أي شخص لم يرتد بزّة. حسناً، الحرب انتهت منذ وقت طويل، والله يعلم أننا رأينا الكثيرين منكم يعودون ويخرجون عن السكّة. الطريقة التي عشتم بها هناك ليست ملائمة للعيش في بلد متحضّر، ولن تُفلت بهذا».

«لا شأن لهذا إطلاقاً بالحرب».

«ينبغي أن يتخذ شخص ما موقفاً من أجل الأخلاق العامة، وأنا من سيفعل هذا هنا».

«وماذا عن المنطق العام أيها الرقيب؟ بالله عليك، فكّر في هذا! كان بمقدوري إنكار كل شيء، والقول إن فرانك رونفيلدت لم يكن حتى على المركب، ولم يكن بمقدورك فعل شيء. قلت الحقيقة لأنني أردت أن تعرف زوجته بما قد جرى، ولأنه يستحق دفناً لائقاً».

«أو ربما قلت نصف الحقيقة لأنك أردت إرضاء ضميرك والإفلات من فعلتك بسهولة».

«أسألك عما يبدو منطقياً».

نظر الرقيب إليه ببرودة، ثم قال وهو يجمع ملحوظاته: «سبعة

رجـال، يُقـال إنـك قتلتهـم في مغامرة رشاشـك الصغير، وهذا يبدو لي من فعل رجل عنيف؛ قاتل لا يرحم. أعمالك البطولية قد تُرديك، ومن الصعـب أن تكـون بطـلاً حيـن تتدلّـى مـن حبل». أغلـق الملف ونادى هاري غارستون ليعيد السجين إلى الزنزانة.

الفصل الحادي والثلاثون

منذ الحادثة في متجر موشمور، لم تطأ قدم حنّا خارج المنزل إلا قليلاً، وقد انتكست غريس، وأصبحت أكثر عزلة، رغم بذل أمها أفضل جهودها.

تذمّرت الفتاة: «أريد الذهاب إلى المنزل، أريد أمي».

«أنا أمكِ يا حبيبتي غريس، أعرف أن هذا مربك لك». وضعت إصبعاً تحت ذقن الفتاة الصغيرة. «لقد أحببتك منذ يوم ولادتك، وانتظرت وقتاً طويلاً أن تعودي إلى البيت. ستفهمين يوماً ما، أعدك».

ردّت الطفلة، وهي تبعد الإصبع بضربة منها: «أريد أبي!».

«لا يستطيع أبوك الانضمام إلينا، لكنه أحبّك كثيراً؛ حباً جماً». وتخيّلت فرانك، وابنته بين ذراعيه. نظرت الطفلة إلى حنّا بذهول، وغضب أحياناً، واستسلام في النهاية.

في أثناء عودتها من زيارة خيّاطتها في الأسبوع التالي، فكّرت غوين مليّاً في الموقف، وانتابها القلق ممّا سيحلُّ بابنة شقيقتها. كانت معاناة طفلة إلى ذلك الحد ذنباً بالتأكيد، ولم يعد بمقدورها الوقوف مكتوفة اليدين.

عندما مرّت بجانب حافة المتنزه حيث يتحوّل إلى دُغل، لفتت انتباهها امرأة جالسة على مقعد خشبي، تحدّق إلى الأفق. لاحظت أولاً الظل الجميل لفستانها الأخضر، ثم أدركت أنها إيزابيل شربورن.

تجاوزتها مسرعة، لكن لم يكن هناك خطر أن تراها إيزابيل؛ فقد كانت مذهولة. في اليوم التالي، والذي أعقبه، رأتها غوين في المكان نفسه، والذهول عينه بادٍ عليها.

مـن بمقـدوره القـول إن كانـت الفكـرة قد راودتها أصلاً قبل إثارة اللغـط بشـأن غريـس بعـد تمزيقهـا كل صفحات كتاب قصصها؟ كانت حنّا قد وبّختها، ثم وقفت تبكي حين حاولت جمع صفحات أول كتاب قد اشتراه فرانك لابنته؛ حكايات خيالية ألمانية باللغة الألمانية، مزيّنة بإتقان بلوحات ملوّنة. «ماذا فعلتِ بكتاب أبيك؟ أوه يا حبيبتي، كيف استطعت فعـل ذلـك؟». ردّت الفتـاة بالزحـف تحت سـريرها والتكوّر على نفسها، خارج متناول اليد.

«لـم يبـقَ الكثيـر ممـا تركه فرانك...». نشـجت حنّـا مجدداً حين نظرت إلى الصفحات الممزقة بين يديها.

«أعرف يا حنونة، أعرف، لكن غريس لا تعرف، ولم تفعل ذلك عمداً». وضعت يدها على كتفها. «سأخبرك شيئاً، اذهبي واستلقي في حين أخرج معها».

«ينبغي أن تعتاد الوجود في بيتها».

«سنذهب إلى منزل أبي فحسب. سيحب ذلك، وسيفيدها الهواء المنعش».

«حقاً لا، لا أريد -».

«هيا يا حنونة، ستستفيدين حقاً من استراحة».

تنهّدت حنّا. «حسناً، لكن إلى هناك فقط ثم تعودان».

عندما بدأتا السير في الشارع، أعطت غوين ابنة شقيقتها الحلوى. «أنتِ تحبين الكراميل، أليس كذلك يا لوسي؟».

ردّت الطفلة: «نعم». ثم أمالت رأسها إلى الجانب حين لاحظت الاسم الذي نادتها به خالتها.

«الآن، كوني فتاة طيبة، وسنذهب لزيارة الجد».

لمعت عينا الفتاة عند ذكر الرجل صاحب الخيول الكبيرة والأشجار الضخمة. مشت بهدوء، وهي تمصُّ الحلوى، ورغم أنها لم تبتسم، لكنها لم تصرخ أو تزعق، كما لاحظت غوين.

بالتحديد، لم يكن هناك داعٍ إلى اجتياز المتنزه، ويمكن أن تصلا إلى منزل سبتيموس بسرعة أكبر بسلوك الطريق بجانب المقبرة ودار العبادة.

«هل أنتِ متعبة يا لوسي؟ لِمَ لا نأخذ استراحة قصيرة؟ الطريق طويلة إلى منزل الجد، وأنتِ مجرد طفلة صغيرة...». تابعت الفتاة فتح إبهامها وأصابعها وإغلاقها مثل كمّاشات، وهي تختبر لزوجة بقايا الحلوى الدبقة. بطرف عينها، رأت غوين إيزابيل على المقعد الخشبي. «اركضي أمامي الآن، تلك امرأة طيبة. اركضي إلى المقعد الخشبي وسأتبعك». لم تركض الطفلة وإنما تمهّلت، وراحت تجر دميتها القماشية على الأرض. ابتعدت غوين عنها مسافة وراقبت.

طرفت إيزابيل، وهتفت: «لوسي؟ حبيبتي!». ثم ضمّتها بين ذراعيها قبل أن يخطر ببالها التوثّق من طريقة وصولها إلى هناك.

صرخت الطفلة وهي تمسكها بقوة: «ماما!».

استدارت إيزابيل، ورأت بعيداً غوين التي أومأت لها وكأنها تقول: «امضي قدماً».

لم تهتم إيزابيل بما قد أقدمت المرأة عليه أو سبب ذلك، وبكت حين احتضنت الفتاة ثم أبعدتها بطول ذراعيها لتراها بنحو أفضل. بطريقة ما، ورغم كل شيء، ربما يمكن أن تصبح لوسي لها، وانتشر

دفء عبرها حين خطرت لها الفكرة.

«أوه، لقد أصبحت نحيلة أيتها الصغيرة! أنت جلد وعظام، وينبغي أن تكوني فتاة جيدة وتأكلي من أجل ماما». تدريجياً، لاحظت التغييرات الأخرى في ابنتها: شعر فُرق على الجانب الآخر، وفستان مصنوع من موصلين ناعم مع تطريز، وحذاء جديد مع فراشات على الرباطين.

سرى ارتياح في غوين حين رأت رد فعل ابنة شقيقتها. كانت تشاهد طفلة مختلفة تماماً؛ طفلة شعرت فجأة بالطمأنينة مع الأم التي تحبها، وتركتهما معاً أطول مدة تجرأت عليها، قبل أن تقترب. «من الأفضل أن آخذها الآن. لم أكن واثقة بأنك ستكونين هنا».

«لكن، لا أفهم...».

«الأمر كله مروّع جداً، وقاسٍ جداً على الجميع». هزّت رأسها وتنهّدت. «شقيقتي امرأة طيبة حقاً، وقد عانت الأمرّين». وأومأت باتجاه الطفلة. «سأحاول إحضارها مجدداً، لكن لا يمكن أن أعدك. تحلّي بالصبر، هذا كل ما يمكنني قوله، كوني صبورة وربما...». تركت الجملة معلّقة. قالت: «لكن أرجوك، لا تخبري أحداً، فحنّا لن تفهم، ولن تسامحني أبداً... تعالي الآن يا لوسي». ومدّت ذراعيها إلى الفتاة.

تشبّثت الفتاة بإيزابيل. «لا يا ماما! لا تذهبي!».

«هيا يا حلوتي، ستكونين مطيعة من أجل ماما، أليس كذلك؟ ينبغي أن تذهبي مع هذه السيدة الآن، لكن سأراك مجدداً قريباً، أعدك».

بقيت الطفلة متشبّثة بها. «إذا كنت جيدة الآن، فمن الممكن أن نأتي مجدداً». ابتسمت غوين، وسحبتها بحرص بعيداً.

منعت بقايا المنطق لدى إيزابيل إيّاها عن التصرّف فجأة وانتزاع الطفلة من غوين. إذا استطاعت التحلّي بالصبر، فستحضرها المرأة مجدداً. من يعرف ماذا قد يتغير أيضاً بمرور الوقت؟

انقضى وقت طويل قبل أن تنجح غوين في تهدئة ابنة شقيقتها، وقد احتضنتها وحملتها، وانتهزت كل فرصة ممكنة لصرف انتباهها عما جرى بأحجيات ومقاطع من أغاني أطفال. لم تكن واثقة بعد كيف ستجعل خطتها تنجح، لكنها لم تتحمّل ببساطة رؤية الطفلة المسكينة تُبعد عن أمها وقتاً أطول. لطالما اتصفت حنّا بالعناد، وخشيت غوين أن يعميها هذا. تساءلت عن الطريقة لإخفاء ذلك اللقاء عن حنّا، وحتى إذا لم تستطع، فالأمر يستحق المحاولة. عندما هدأت غريس أخيراً، سألت غوين: «هل تعرفين ما السر يا حبيبتي؟».

تمتمت: «نعم».

«جيد. إذاً سنلعب لعبة بشأن الأسرار، اتفقنا؟».

رفعت الفتاة الصغيرة بصرها إليها، تنتظر أن تفهم.

«أنتِ تحبين ماما إيزابيل، أليس كذلك؟».

«أجل».

«وأنا أعرف أنكِ ترغبين برؤيتها مجدداً، لكن حنّا قد تعترض؛ لأنها حزينة جداً، لذا لن نخبرها شيئاً، أو الجد، حسناً؟».

تجهّم وجه الطفلة.

«ينبغي أن يكون هذا سراً خاصاً. وإذا سألك أحد عمّا قد فعلناه اليوم، فستقولين إننا ذهبنا إلى منزل الجد. ينبغي ألا تخبري أحداً عن رؤيتك ماما، هل تفهمين يا حبي؟».

زمّت الفتاة شفتيها حين أومأت ببطء، والارتباك بادٍ في عينيها.

«إنها طفلة ذكية، وتعرف أن إيزابيل شربورن ليست ميتة. رأيناها في متجر موشمور». جلست حنّا مجدداً في غرفة فحص د. سومبتون، هذه المرة من دون ابنتها.

«أخبـرك بوصفـي طبيبـاً أن الـدواء الوحيـد لابنتـك هـو الوقـت، وإبعادها عن السيدة شربورن».

«تساءلت فقط... حسناً، فكّرت أنني إذا جعلتها تتكلم معي عن حياتها الأخرى، على الجزيرة، فهل سيفيد هذا؟».

مجَّ من غليونه. «فكّري في الأمر هكذا: إذا استأصلت للتو زائدتك الدودية، فإنّ آخر شـيء ينبغي فعله هو فتح الجرح كل خمس دقائق والعبث به مجدداً لنرى إن كان قد شُفي. أعرف أن هذا صعب، لكنها حالة كلّما قلَّ الحديث عنها، تحسّنت أسرع، وهي ستتغلّب على الأمر».

لكـن، لـم تظهـر عليهـا أي علامـة لتغلّبهـا علـى الأمـر، وفقاً لما رأته حنّا. فقد أضحت الطفلة مهووسة بتنظيم دماها وترتيب سريرها. وضربـت الهـر لتخريبـه منـزل الدمـى، وأبقـت فمها مغلقـاً مثل محفظة بخيل، لا تريد أن تزلَّ بأي كلمة عاطفة تجاه تلك الأم المحتالة.

رغـم هـذا، ثابـرت حنّـا، وأخبرتهـا قصصاً عـن الغابات والرجال الذين عملوا فيها، وعن الدراسة في بيرث والأشياء التي فعلتها هناك، وعن فرانك؛ وحياته في كالغورلي. أنشدت لها أغاني قصيرة بالألمانية، رغـم أن الطفلـة لـم تعرهـا أي اهتمـام خـاص، وخاطـت ثيابـاً لدماها، وحضّرت الحلوى لعشـائها. اسـتجابت الفتاة الصغيرة برسـم لوحات؛ اللوحـات نفسـها دائمـاً: ماما وبابـا ولولو في المنارة، وشـعاعها يصل إلى حافة الصفحة، فيبدّد الظلمة حولها.

من المطبخ، رأت حنّا غريس جالسة على أرضية حجرة الجلوس، تتكلم إلى حيواناتها القماشية. بدت الصغيرة هذه الأيام أكثر قلقاً عمّا كانت عليه من قبل، باسـتثناء الوقت الذي تقضيه مع سـبتيموس، لذا

سُرّت أمها برؤيتها تلعب بهدوء، واقتربت قليلاً من الباب، ترهف السمع.

قال حيوان: «لوسي، تناولي الحلوى».

قال حيوان آخر، مطلقاً صوت كركرة أحدثته الطفلة بأطراف أناملها: «لذيذ».

قال الحيوان الأول: «لدي سر خاص. تعالي مع الخالة غوين، حين تكون حنّا نائمة».

راقبت حنّا بعناية، وشعور بالغثيان يداهمها.

من جيب مئزرها، أخرجت غريس ليمونة وغطّتها بمنديل. قالت الخالة غوين: «عمتِ مساءً يا حنّا. الآن سنزور ماما في المتنزه».

تعانق حيوانان آخران وقبّلا بعضهما: «مرحى، مرحى. عزيزتي لوسي، تعالي يا حبيبتي، سنذهب إلى جانوس». وهرولت الحيوانات على البساط لبعض الوقت.

أفزع صفير المِغلاة الطفلة، فاستدارت ورأت حنّا عند الباب. رمت الحيوانات أرضاً، قائلة: «لوسي سيئة!». وضربت يدها.

تحوّل اشمئزاز حنّا من التمثيلية إلى يأس من هذا العتب الأخير: هذه هي الطريقة التي تراها ابنتها بها. ليس بوصفها أماً تحبها، وإنما مستبدّة. وحاولت أن تبقى هادئة حين فكّرت في ما ينبغي فعله.

اهتزّت يداها قليلاً حين حضّرت بعض الكاكاو وجلبته لها. قالت وهي تكافح الارتعاش في صوتها: «كانت تلك لعبة لطيفة يا حبيبتي».

جلست الطفلة ساكنة، لا تتكلّم أو تشرب من الكوب في يدها.

«هل تعرفين أي أسرار يا غريس؟».

أومأت الفتاة ببطء.

«أظن أنها أسرار لطيفة».

مجدداً، تحرّك الذقن الصغير إلى الأعلى والأسفل، في حين حاولت العينان معرفة القواعد التي ينبغي اتّباعها.

«هل نلعب لعبة؟».

حرّكت الطفلة إصبع قدمها يميناً ويساراً على شكل قوس على الأرضية.

«لنلعب لعبة أخمّن فيها سرّك، وبهذا سيبقى سراً لأنكِ لم تخبريني به. وإذا خمّنته بشكل صحيح، فستحصلين على قطعة حلوى؛ جائزة لك». تجهّم وجه الطفلة حين ابتسمت حنّا بارتباك. «أخمّن... أنك ذهبت لزيارة السيدة من جانوس، هل هذا صحيح؟».

بدأت الطفلة تومئ، ثم توقفت. «رأينا الرجل في المنزل الكبير، وكان وجهه متورّداً».

«لن أغضب منك يا حبيبتي، فالزيارة لطيفة أحياناً، أليس كذلك؟ هل عانقتك السيدة بقوة؟».

قالت ببطء: «نعم». وحاولت أن تكتشف وهي تنطق بالكلمة إن كان هذا جزءاً من السر أم لا.

عندما أنزلت حنّا الغسيل عن الحبل بعد نصف ساعة، كانت معدتها لا تزال تؤلمها. كيف تستطيع شقيقتها أن تفعل شيئاً مماثلاً؟ تذكّرت التعبيرات على وجوه الزبائن في متجر موشمور مجدداً، وانتابها إحساس أن بمقدورهم رؤية شيء قد غفلت عنه. كان الجميع، ومن ضمنهم غوين، يضحكون من خلف ظهرها. تركت تنّورة تتدلّى من الحبل، وعادت إلى المنزل، ثم اقتحمت غرفة غوين.

«كيف استطعت؟».

سألت غوين: «ما الخطب بالله عليك؟».

«وكأنكِ لا تعرفين!».

«ماذا يا حنّا؟».

«أعرف ما فعلته، وأعرف إلى أين أخذتِ غريس».

حان دور حنّا لكي تشعر بالدهشة حين بدأت الدموع تفيض من عيني شقيقتها التي قالت: «تلك الفتاة الصغيرة مسكينة يا حنّا».

«ماذا؟».

«إنها مسكينة! نعم، أخذتها لرؤية إيزابيل شربورن في المتنزه، وتركتهما تتحدثان إلى بعضهما بعضاً، لكنني فعلت هذا من أجلها. لا تعرف الطفلة إن كانت آرثر أم مارثا، وقد فعلت هذا لأجلها ياحنونة؛ من أجل لوسي».

«اسمها غريس! اسمها غريس، وهي ابنتي، وأريدها فقط أن تكون سعيدة و -». فقد صوتها قوته حين نشجت. «أفتقد فرانك. أوه يا إلهي، أفتقدك يا فرانك». نظرت إلى شقيقتها. «وأنتِ أخذتها إلى زوجة الرجل الذي دفنه في حفرة! كيف استطعت حتى التفكير في هذا؟ ينبغي أن تنساهما غريس، أن تنسى كليهما. أنا أمها!».

تردّدت غوين، ثم اقتربت من شقيقتها، وعانقتها بلطف. «حنّا، تعرفين كم أنتِ عزيزة علي. لقد حاولت فعل كل ما يمكنني فعله لمساعدتك... منذ ذلك اليوم. وقد حاولت جاهدة منذ مجيئها إلى المنزل، لكن هذه هي المشكلة، فهذا ليس منزلها، صحيح؟ لا يمكن أن أتحمّل رؤيتها تعاني، ولا يمكن أن أتحمّل كم يؤذيك هذا».

سحبت حنّا نفساً بين غصّة ولهاث.

شدّت غوين كتفيها. «أظن أنكِ يجب أن تعيديها إلى إيزابيل شربورن. لا أظن أن هناك طريقة أخرى؛ من أجل الطفلة، ومن أجلك يا عزيزتي حنّا، ومن أجلنا».

تراجعت حنّا إلى الخلف، وصوتها قاسٍ: «لن ترى تلك المرأة أبداً مجدداً، طالما حييت؛ أبداً!».

لم ترَ أي من الشقيقتين الوجة الصغير وهو يختلس النظر عبر شق الباب، والأذنين الصغيرتين اللتين سمعتا كل شيء في ذلك المنزل الغريب.

جلس فيرنون نوكي إلى الطرف الآخر من الطاولة قبالة توم. «ظننت أنني قد رأيت كل أنواع الرجال، حتى ظهرت أنت». نظر إلى الصفحة أمامه مجدداً. «مركب جرفته الأمواج وقلت لنفسك: تبدو هذه طفلة رائعة، ويمكنني الاحتفاظ بها، ولن يعرف أحد أبداً».

«هل هذا سؤال؟».

«هل تحاول أن تكون مشاكساً؟».

«لا».

«كم طفلاً أجهضت إيزابيل؟».

«ثلاثة، وتعرف هذا».

«لكن، أنت من قرّر الاحتفاظ بالطفلة، وليس المرأة التي فقدت ثلاثة أطفال!؟ كل هذا فكرتك أنت؛ لأنك ظننت أن الناس لن يصدّقوا أنك رجل حقيقي من دون أن تنجب أطفالاً. كم تظنني مغفلاً؟».

لم يقل توم شيئاً، فمال نوكي نحوه، وقد لان صوته: «أعرف كيف يبدو الأمر؛ أن تفقد صغيراً، وأعرف ما فعله هذا بزوجتي. تحوّل المنطق إلى جنون لبعض الوقت». انتظر، لكن لم يحصل على رد. «سيعاملونها برفق، وتعرف هذا».

قال توم: «لن يمسّوها أبداً».

هزَّ نوكي رأسه. «ستُعقد جلسة الاستماع الأسبوع القادم، حين

يأتـي القاضـي إلـى البلـدة. منـذ ذلك الوقت فصاعداً، سـتكون مشـكلة ألباني، وسيرحب سبراغ بك بذراعين مفتوحتين، ويعلم الله ماذا أيضاً. هو يكرهك، وهناك لا يمكنني فعل شيء لمنعه».

لم يرد توم.

«هل تريد مني إبلاغ أحد بشأن الجلسة؟».

«لا، شكراً».

رمقـه نوكـي بنظـرة، وكاد يغـادر حيـن قـال تـوم: «هـل يمكن أن أكتب إلى زوجتي؟».

«طبعـاً لا يمكنـك الكتابـة إلـى زوجتك، ولا يمكنك التحدّث مع شـاهدة محتملـة. إذا كانـت هـذه هـي الطريقـة التي سـتمضي قدماً بها، فينبغي أن تلتزم بالقواعد يا صديقي».

نظـر تـوم إليـه. «أريـد ورقـة وقلم رصاص فقط، ويمكنك قراءتها إن شئت... هي زوجتي».

«وأنا الشرطة، حباً بالله».

«لا تخبرنـي أنـك لـم تخـرق قانونـاً قـطّ، ولم تغـض الطرف عن وغد مسكين مطلقاً... ورقة وقلم رصاص».

نقـل رالـف الرسـالة إلـى إيزابيـل أصيل ذلك اليـوم، وأخذتها منه بتردّد؛ بيد ترتعش.

«إذاً سأتركك لتنهي قراءتها». مدَّ يده ليلمس ساعدها، وقال بحزم: «ذلك الرجل يحتاج إلى مساعدتك يا إيزابيل».

قالت وعيناها تفيضان دموعاً: «وكذلك ابنتي الصغيرة».

عندما غادر، أخذت الرسـالة إلى غرفة نومها وحدّقت إليها، ثم رفعتهـا إلـى وجههـا وشـمّتها، لتعثـر علـى أثـر لزوجهـا، لكـن لم يكن

هناك شيء مميز فيها؛ لا أثر للرجل. أخرجت مقص أظافر من المزينة وبدأت تقص الزاوية، لكن شيئاً ما جمّد أصابعها. طاف وجه لوسي أمامها وهي تصرخ، وارتعشت حين تذكّرت أن توم هو الذي سبّب هذا. وضعت المقص جانباً، ورمت الرسالة في درج، ثم أغلقته ببطء ومن دون صوت.

كيس الوسادة رطب بالدموع، وهناك هلال معلّق في النافذة؛ باهت جداً ليضيء حتى دربه في السماء. راقبته حنّا، وفكّرت أن هناك أشياء كثيرة في العالم ترغب بمشاركتها مع ابنتها، لكن الطفلة والعالم قد أُبعدا بطريقة ما عنها.

حروق شمس؛ في البداية، احتارت من الذكرى التي فرضت نفسها، من غير دعوة أو علاقة بالموضوع. لقد وضعتها مربية أطفال إنكليزية، لا فكرة لديها إطلاقاً عن حروق الشمس، فضلاً عن معالجتها، في ماء ساخن «لإخراج الحرارة من» الحرق الذي أُصيبت به من جرّاء السباحة طويلاً في الخليج حين كان والدها بعيداً. كانت المرأة قد أخبرت حنّا وعمرها آنذاك عشرة أعوام: «لا فائدة من التذمّر، فهذا الألم يفيدك». تابعت حنّا الصراخ حتى جاء الطاهي ليرى من يُذبح، ورفعها من الماء المغلي.

كان الطاهي قد أعلن: «هل سمعت قط بمثل هذا الهراء في حياتك! آخر شيء تفعلينه لحرق هو أن تحرقيه. لا داعي أن تكوني فلورنس نايتنجل لتعرفي هذا!».

لكن حنّا تذكّرت أنها لم تشعر بالغضب، فمربّية الأطفال ظنّت حقاً أنها تفعل الصواب، وأرادت فقط الأفضل لها، وزادت ألمها لتساعدها فحسب.

غاضبة فجأة من القمر الباهت، رمت الوسادة عبر الغرفة وضربت بقبضتها على الفراش؛ مراراً وتكراراً. قالت وهي تبكي: «أريد استعادة غريس، هذه ليست ابنتي غريس!». لقد ماتت طفلتها، بالمحصلة.

سمع توم خشخشة المفاتيح.

قال جيرالد فيتزجيرالد، يتقدّمه هاري غارستون: «مرحباً، آسف لأنني تأخرت. واجه القطار قطيع أغنام خارج بونبوري تماماً، وقد أبطأنا هذا قليلاً».

هزَّ توم كتفيه: «لم أكن لأذهب إلى أي مكان».

رتّب المحامي أوراقه على الطاولة. «جلسة الاستماع بعد أربعة أيام».

أومأ توم.

«هل غيّرت رأيك؟».

«لا».

تنهّد فيتزجيرالد. «ماذا تنتظر؟».

نظر توم إليه، وكرّر الرجل. «ماذا تنتظر بالله عليك؟ لن تأتي الخيّالة من فوق التلة يا صديقي. لن يأتي أحد لإنقاذك باستثنائي، وأنا هنا فقط؛ لأن القبطان أديكوت يدفع أجري».

«طلبت منه ألا يبذّر ماله».

«لا ينبغي أن يكون هذا تبذيراً للمال! يمكن أن تسمح لي بجنيه، كما تعرف».

«كيف؟».

«دعني أقول الحقيقة وأمنحك الفرصة لتخرج رجلاً حراً».

«هل تظن أن تدمير زوجتي قد يجعلني رجلاً حراً؟».

«كل ما أقوله هو إنه يمكننا تحضير دفاع لائق ضد نصف تلك التهم، كل ما فعلته: على الأقل لنجعلهم يحاولون إثباتها. إذا أنكرت أنك مذنب، فينبغي أن يثبت الادّعاء كل عنصر من كل جريمة. سبراغ اللعين ذاك واتهاماته المقزّزة: دعني أحاول معه، وإن يكن لأجل شرفي المهني فقط!».

«إذا أقررت بالذنب عن كل شيء فسيتركون زوجتي وشأنها؛ كما قلت. تعرف القانون، وأعرف ما أريد فعله».

«ستكتشف أن التفكير في هذا وفعله شيئان مختلفان. إن سجن فريمانتل جحيم، ومكان سيئ لقضاء عشرين سنة».

نظر توم إلى عينيه. «هل تريد أن تعرف مكاناً سيئاً تقضي الوقت فيه؟ اذهب إلى بوزيرس، أو بوليكورت، أو باسشنيدل. اذهب إلى هناك، ثم أخبرني عن فظاعة أي مكان آخر؛ حيث يمنحونك سريراً وطعاماً وسقفاً فوق رأسك».

نظر فيتزجيرالد للأسفل إلى أوراقه وعلّق بملحوظة. «إذا أردت مني الإقرار بالذنب، فهذا ما سأفعله، وستُدان وتلقى عقاباً قاسياً. لكن، ينبغي أن تستعيد رشدك، إذا أردت رأيي... ومن الأفضل أن تتضرّع إلى الله حتى لا يزيد سبراغ التهم حين تصل إلى ألباني».

الفصل الثاني والثلاثون

سأل فيرنون نوكي حين أغلق هاري غارستون الباب خلفه ووقف صامتاً في مكتب الرقيب: «ما الأمر الآن بالله عليك؟».

حرّك غارستون قدميه وتنحنح، مشيراً برأسه إلى الخلف نحو مقدمة المخفر.

«ادخل في صلب الموضوع أيها الشرطي».

«لدينا زائر».

«لي؟».

«ليس لك يا سيدي».

رمقه نوكي بنظرة تحذير.

«من أجل شربورن يا سيدي».

«حسناً، تعرف ما يجدر بك فعله، حباً بالله. سجّل اسمه وأرسله إليه».

«إنها حنّا رونفيلدت يا سيدي».

شدَّ الرقيب قامته. «أوه». أغلق ملفاً على طاولته وفرك ذقنه.

«أظن أنني يجب أن أتحدث معها».

وقف نوكي قرب الزاوية في مقدمة المخفر. «ليس إجراءً معتاداً أن ندع أفراد أسرة الضحية يرون المتهم يا سيدة رونفيلدت».

رمقت حنّا الرقيب بنظرة صامتة ثابتة؛ ما أرغمه على الكلام مجدداً.

«سيكون هذا غريباً حقاً، كما أخشى. مع كل الاحترام...».

«لكن، ليس ضد القواعد وضد القانون، أليس كذلك؟».

«اسمعي يا سيدتي، سيكون الأمر قاسياً كفاية عليك حين تبدأ المحاكمة. خذي هذا عني: إنها شيء محزن؛ محاكمة مثل هذه. لا تريدين حقاً إثارة المشاكل لنفسك قبل أن تبدأ».

«أريد أن أراه، وأرغب بالنظر إلى عينيه؛ ذلك الرجل الذي قتل طفلتي».

«قتل طفلتك؟! على رسلك الآن».

«الطفلة التي فقدتها لم تعد قطّ أيها الرقيب؛ مطلقاً. لن تكون غريس نفسها أبداً».

«اسمعي، لست واثقاً بما تعنينه يا سيدة رونفيلدت. لكن، بأي حال أنا -».

«يحق لي هذا، ألا تظن ذلك؟».

تنهّد نوكي. كان منظر المرأة يرثى له، وقد بقيت تتجوّل في البلدة طوال أعوام آنذاك، وربما سيسهم هذا في إنهاء محنتها. «إذا انتظرت هنا...».

كان توم قد نهض على قدميه وهو لا يزال محتاراً من ذلك النبأ. «حنّا رونفيلدت تريد أن تتكلم معي؟ لماذا؟».

«لستَ مضطراً طبعاً، ويمكنني ردّها على أعقابها».

قال توم: «لا... سأراها، شكراً لك».

«كما تريد».

بعد بضع لحظات، دخلت حنّا يتبعها الشرطي غارستون حاملاً كرسياً خشبياً صغيراً وضعه على بعد بضع خطوات من القضبان.

«سأترك الباب مفتوحاً يا سيدة رونفيلدت وأنتظر في الخارج، أو

يمكنني الانتظار هنا إن أردت؟».

«لا داعي إلى هذا، فأنا لن أتأخر».

عبّر غارستون عن استيائه بأن «بوّز» وخشخش بمفاتيحه. قال: «لا بأس، سأتركك يا سيدتي». ومشى عائداً على الممر.

حدّقت حنّا بصمت، وهي تتأمل كل تفصيل في توم؛ تأمّلت ندبة الشظية الصغيرة بشكل خطّاف تحت أذنه اليسرى تماماً، وشحمتي الأذنين المنفصلتين، والأصابع الطويلة والرقيقة رغم تقرّحات الجلد.

أذعن لمعاينتها من دون وجل؛ مثل فريسة تقدّم نفسها إلى صيّاد ضمن مدى قريب. أحياناً، ومضت مشاهد في ذهنه: المركب، الجثة، الخشخيشة، كلها زاهية وواضحة. وكذلك الذكريات الأخرى: كتابة أول رسالة في وقت متأخر من الليل في مطبخ آل غرايسمارك، والألم في بطنه حين اختار الكلمات، ونعومة جلد لوسي، وقهقهتها، والطريقة التي يطفو بها شعرها مثل أعشاب بحرية حين يمسكها في الماء على شاطئ حطام السفن. وتلك اللحظة التي اكتشف فيها أنه يعرف أم الطفلة منذ وقت طويل، ثم شعر بالعرق على ظهره.

«شكراً للسماح لي برؤيتك يا سيد شربورن...».

لو أن حنّا قد شتمته أو رمت الكرسي على القضبان لكان توم أقل دهشة من اندهاشه لكياستها.

«أدرك أنك لست مرغماً».

أومأ قليلاً.

تابعت: «هذا غريب، أليس كذلك؟ قبل بضعة أسابيع ماضية، إذا كنت قد فكّرت فيك على الإطلاق، فسيكون ذلك مترافقاً مع الشكر. لكن تبين أنك الشخص الذي كان ينبغي أن أخاف منه تلك الليلة وليس ذلك الرجل على السفينة. قلت: الوجود هناك يغيّر الرجل،

ولا يمكن معرفة الفرق بين الصواب والخطأ. فهمت أخيراً ما عنيته».

سألته بصوت ثابت: «ينبغي أن أعرف، هل كانت هذه كلها فعلتك؟».

أومأ توم ببطء ووقار.

بدا الألم على وجه حنّا؛ وكأنها قد صُفعت. «هل أنت نادم على ما فعلته؟».

طعن السؤال توم، وركّز على العقدة في لوح الأرضية. «أنا أشدُّ أسفاً مما يمكنني التعبير عنه».

«ألم تفكّر حتى لحظة واحدة في أن الطفلة قد تكون لها أم؟ ألم يخطر لك أنها قد تكون موضع محبّة واشتياق؟». نظرت في أرجاء الزنزانة، ثم إلى توم. «لماذا؟ إذا استطعت فهم سبب قيامك بهذا...».

كان فكّه متيبّساً. «لا يمكنني حقاً شرح سبب ما أقدمت عليه».

«حاول، من فضلك؟».

كانت تستحق الحقيقة. لكن، لا يستطيع قول شيء لها من دون أن يفضح أمر إيزابيل. لقد فعل ما ينبغي فعله؛ لقد عادت لوسي، وهو يتحمّل العواقب، والباقي مجرد كلمات. «حقاً، لا يمكنني إخبارك».

«يظن ذلك الشرطي من ألباني أنك قتلت زوجي، هل فعلت؟».

نظر إلى عينيها مباشرة. «أقسم لك إنه كان ميتاً حين وجدته... أعرف أنني كان ينبغي أن أفعل بعض الأشياء بنحو مختلف. أنا آسف حقاً بشأن الضرر الذي أحدثته القرارات التي اتخذتها منذ ذلك اليوم، لكن زوجك كان ميتاً أصلاً».

سحبت نفساً عميقاً، وأوشكت على المغادرة.

قال توم: «افعلي ما يحلو لك بي، فأنا لا أطلب الصفح... لكن زوجتي... لم يكن لديها خيار. هي تحب تلك الفتاة الصغيرة، وتهتم بها وكأنها المخلوق الوحيد في العالم، فأظهري لها بعض الرأفة».

تلاشت المرارة التي بدت على في وجه حنّا ليظهر عليه حزن كئيب، وقالت: «كان فرانك رجلاً رائعاً». ومشت ببطء عائدة أدراجها.

في الضوء الخافت، أصغى توم إلى الزيز الذي بدا أنه يعدُّ الثواني؛ بالآلاف في الوقت نفسه. لاحظ أنه يفتح كفّيه ويغلقهما؛ وكأنهما قد تأخذانه إلى مكان لا تستطيع قدماه إيصاله إليه، فنظر إليهما، وللحظة واحدة فقط، فكّر في كل ما قد فعلتاه. كانت هذه المجموعة من الزنزانات والعضلات والأفكار حياته؛ وبالتأكيد هناك المزيد منها. عاد إلى الحاضر، إلى الجدران الساخنة والجو الخانق، وأدرك أن الدرجة الأخيرة من السلّم الذي قد يُخرجه من الجحيم قد انتُزعت.

طوال ساعات كل مرة، كانت إيزابيل تُبعد توم عن تفكيرها؛ حين تساعد أمها في المنزل، وحين تنظر إلى اللوحات التي رسمتها لوسي في أثناء زياراتها القصيرة واحتفظت فيوليت بها، وحين تشعر بأسى عميق على فقدان طفلتها. ثم تتسلل الأفكار عن توم إليها، وتتخيّل الرسالة التي قد أوصلها رالف، المنفية إلى الدرج.

لقد وعدت غوين بإحضار لوسي لتراها مجدداً، لكنها لم تظهر في المتنزه في الأيام التي أعقبت ذلك؛ رغم أن إيزابيل قد انتظرت ساعات. لكن، ينبغي أن تبقى صلبة؛ لأن هناك مجرد أمل صغير بأن ترى ابنتها مجدداً. ينبغي أن تكره توم من أجل إبعاده لوسي. ورغم هذا أخرجت الرسالة، وحدّقت إلى الشق في الزاوية حيث كانت قد بدأت تفتحها، ثم أعادتها، وانطلقت مسرعة إلى المتنزه، لتنتظر، تحسباً فقط.

«أخبرني عمّا تريد مني فعله يا توم، فأنت تعرف أنني أريد مساعدتك. أرجوك أخبرني فقط عمّا أفعله». كان صوت بلوي مجهداً،

وعيناه تلمعان.

«لا شيء آخر يمكن فعله يا بلوي». كانت زنزانة توم حارّة، وتفوح منها رائحة الكربوليك نتيجة مسحها قبل ساعة.

«تمنّيت كثيراً ألا أكون قد رأيت تلك الخشخيشة أبداً، فذلك كان سيُبقي فمي مغلقاً». أمسك القضبان. «جاء ذلك الرقيب من ألباني لرؤيتي، وطرح كل أنواع الأسئلة عنك: هل كنت بارعاً باستخدام قبضتيك؟ أو هل كنت تحتسي الكثير من الشراب؟ ذهب لرؤية رالف أيضاً. الناس يتكلمون عن... هم يتكلمون عن جريمة، حباً بالله يا توم، وفي المقهى يتحدّثون عن شنق!».

نظر توم إلى عينيه. «هل تصدّقهم؟».

«بالطبع لا. لكن، أظن أن هذا النوع من الكلام يؤثر سلباً، وأظن أن رجلاً بريئاً قد يُتّهم بشيء لم يفعله قطّ. الأسف ليس مفيداً بعد موت الشخص». استمر تعبير بلوي في مناشدة توم بصمت.

قال توم: «هناك أشياء يصعب شرحها، وهناك أسباب جعلتني أفعل ما فعلته».

«لكن، ماذا فعلت؟».

«فعلت بعض الأشياء التي قد أفسدت حياة أشخاص آخرين، وحان الوقت لأدفع الثمن».

«يقولون إن الرجل العجوز بوتس يظن أنه إذا لم تقف زوجة رجل بجانبه، فلا بدّ أنه قد فعل شيئاً سيئاً جداً».

«شكراً يا زميل، أنت مريح فعلاً».

«لا تستسلم من دون قتال يا توم، عدني!».

«سأكون بخير يا بلوي».

لكن، عندما تردّدت أصداء خطوات بلوي بعيداً، تساءل توم عن

مدى صحّة هذا. لم تكن إيزابيل قد ردّت على رسالته، وينبغي أن يواجه حقيقة أن ذلك قد يكون لأسوأ الأسباب. رغم ذلك، يجب أن يتشبّث بما يعرفه عنها؛ حقيقة الشخص الذي كان يعرفه.

توجد على مشارف البلدة أكواخ عمّال الأخشاب القديمة؛ أبنية خشبية هزيلة تتراوح ما بين المتداعي إلى الجيد، وتقوم على قطع صغيرة من الأراضي، قرب محطة الضخ التي تزوّد البلدة بمائها. تعرف إيزابيل أن حنّا رونفيلدت تعيش في إحداها، وقد أُخذت ابنتها العزيزة لوسي إليها. لقد انتظرت إيزابيل عبثاً ظهور غوين، وتسعى يائسة آنذاك لإيجاد لوسي، فقط لترى أين هي، فقط لتعرف أنها تتكيّف. الوقت منتصف النهار، وليس هناك شخص في الشارع العريض الذي تحيط الجكرندة به من الجانبين.

لا يزال أحد المنازل بحال جيدة، وخشبه مطلي أخيراً، وعشبه مقصوص، وبخلاف المنازل الأخرى يحيط به وشيعٌ عالٍ، أكثر فاعلية من سياج في حجب العيون المتطفلة عنه.

تذهب إيزابيل إلى الدرب في مؤخر المنازل، ومن خلف الوشيع، تسمع الصرير المتكرّر للحديد. تنظر عبر ثغرة صغيرة بين الأوراق، وتتسارع أنفاسها حين ترى ابنتها الصغيرة تركب دراجة عادية جيئة وذهاباً على الطريق. هي بمفردها، ولا يظهر عليها تعبير سعادة أو حزن، وإنما تركيز قوي في أثناء تحريك الدوّاستين. وهي قريبة جداً، تكاد إيزابيل تمسّها، تمسكها، تواسيها. فجأة، يبدو سخيفاً ألا تكون مع الطفلة؛ كأن البلدة بأسرها قد جُنّت، وهي العاقلة الوحيدة الباقية.

تفكّر في أشياء؛ يقوم القطار برحلة واحدة يومياً من بيرث إلى ألباني، ورحلة واحدة من ألباني إلى بيرث، وإذا انتظرت حتى اللحظة

الأخيرة لتصعد على متنه، فقد تحظى بفرصة ألا يلاحظها أحد، وألا يُكتشف غياب الطفلة. في بيرث، سيكون سهلاً الاندماج في المجهول، ثم قد تستطيع الذهاب إلى سيدني على متن مركب، وحتى إلى إنكلترا وبدء حياة جديدة. لا تبدو حقيقة أنه لا يوجد شلن باسمها – لم تفتح قط حساباً مصرفياً باسمها – قد توقفها. تراقب ابنتها، وتفكّر ملياً في عملها التالي.

قرع هاري غارستون بقوة على باب آل غرايسمارك، وفتح بيل بعد أن نظر عبر الزجاج ليرى من الطارق في تلك الساعة.

قال الشرطي، وهو يومئ بحزم: «سيد غرايسمارك».

«مساء الخير يا هاري. ماذا أحضرك إلى هنا؟».

«عمل رسمي».

قال بيل، مستجمعاً قواه لسماع المزيد من الأنباء السيئة: «فهمت».

«أبحث عن فتاة رونفيلدت».

«حنّا؟».

«لا، ابنتها غريس».

انقضت لحظة ليدرك بيل أنه يعني لوسي، ورمق الشرطي بنظرة مستفسرة.

سأل غارستون: «هل هي لديكم هنا؟».

«ليست لدينا طبعاً. لماذا بحق الله...؟».

«حسناً، هي ليست مع حنّا رونفيلدت، وقد فُقدت».

«هل أضاعتها حنّا؟».

«أو أُخذت. هل ابنتك في المنزل؟».

«نعم».

سأل، خائب الأمل قليلاً: «هل أنتَ واثق؟».

«أنا واثق طبعاً».

«هل بقيت هنا طوال اليوم؟».

«ليس كل اليوم، لا. ماذا تعني؟ أين لوسي؟».

آنذاك كانت فيوليت واقفة خلف بيل. «ما المسألة؟».

قال غارستون: «أريد رؤية ابنتك يا سيدة غرايسمارك. هل يمكنك إحضارها من فضلك؟».

بتردّد، ذهبت فيوليت إلى غرفة إيزابيل، لكنها وجدتها خالية، فأسرعت إلى الخلف حيث وجدتها جالسة على المقعد المتأرجح، تحدّق إلى الخواء.

«إيزابيل! إنه هاري غارستون!».

«ماذا يريد؟».

قالت فيوليت: «أظن أنه من الأفضل أن تأتي وترينه». وجعل شيء ما في نبرتها إيزابيل تتبع أمها عبر المنزل إلى الباب الأمامي.

شرع غارستون: «مساء الخير يا سيدة شربورن، أنا هنا بشأن غريس رونفيلدت».

سألت إيزابيل: «ماذا عنها؟».

«متى رأيتها آخر مرة؟».

احتجّت أمها: «لم تقترب منها منذ عادت». ثم صحّحت لنفسها، «حسناً، فعلت... التقتها، مصادفة، في متجر موشمور. لكن، تلك هي المرة الوحيدة –».

«هل هذا صحيح يا سيدة شربورن؟».

لم تتكلم إيزابيل، لذا قال أبوها: «طبعاً هذا صحيح. ماذا تظن أنها –».

«لا يا أبي، في الواقع رأيتها».

استدار كلا الوالدين نحوها، فاغري الفم ارتباكاً.

«في المتنزه، قبل ثلاثة أيام، أحضرتها غوين بوتس لتراني». فكّرت إيزابيل في قول المزيد. «لم أذهب بحثاً عنها. أحضرتها غوين إلي، أقسم. أين لوسي؟».

«ذهبت، اختفت».

«متى؟».

قال الشرطي: «ظننت أن بمقدوركم إخباري بهذا. سيد غرايسمارك، هل تمانع إن ألقيت نظرة في أرجاء المنزل؟ فقط لأتوثّق».

كاد بيل يحتج، لكن المعلومة الجديدة من إيزابيل أقلقته. «لا شيء نخفيه في هذا المنزل، انظر حيث تشاء».

قام الشرطي الذي لا يزال يتذكّر ضرب بيل له بعصا – لأنه غشَّ في امتحان رياضيات – بفتح الخزائن والنظر تحت الأسرّة، رغم أنه فعل هذا بعصبية؛ وكأن من الممكن أن يلقّنه مدير المدرسة درساً قاسياً مجدداً. أخيراً، عاد إلى المدخل. «شكراً لكم، إذا رأيتموها، فتوثّقوا من إبلاغنا».

«نبلغكم!». كانت إيزابيل غاضبة. «ألم تبدأوا البحث! لماذا لم تخرجوا للبحث عنها؟».

«هذا ليس من شأنك يا سيدة شربورن».

عندما غادر غارستون، استدارت إيزابيل إلى أبيها. «أبي، ينبغي أن نجدها! أين قد تكون بحق الله؟ ينبغي أن أذهب و –».

«تمالكي نفسك يا إيز. لنرَ إن كان بمقدوري فهم شيء من فيرنون نوكي. سَأتصل بالمخفر، وأعرف ما يجري».

الفصل الثالث والثلاثون

منذ أيامها الباكرة، اختبرت الطفلة من صخرة جانوس أقسى ما في حياة البشر على أنه عادي. من يعرف ما هي ذكرياتها الباطنية عن رحلتها الأولى إلى الجزيرة، والمشهد الذي أثارته، وبقي أثره في جسدها؟ حتى إذا مُحي ذلك تماماً، فقد نزّت أيامها في المنارة، في عالم لا يقطنه إلا ثلاثة أشخاص، إلى شخصيتها. العروة مع الزوجين اللذين ربّياها قوية وخارج نطاق التساؤل، ولا يمكنها تسمية إحساس فقدانها بأنه أسى، ولا كلمة لديها للحنين أو اليأس.

لكنها تحنُّ إلى ماما وبابا، وتتوق إليهما، وتقضي أيامها وهي تفكّر فيهما، حتى آنذاك بعد أن وصلت إلى البر الرئيس قبل بضعة أسابيع. لا بدّ أنها قد فعلت شيئاً سيئاً جداً لتجعل ماما تبكي بتلك القوة، أما في ما يخص المرأة ذات الشعر الداكن والعينين الداكنتين التي تقول إنها أمها الحقيقية... الكذب خطيئة. إذاً، لماذا تصرُّ تلك السيدة الحزينة على قول مثل هذه الكذبة الكبيرة، وللجميع؟ لماذا يسمح الراشدون لها بذلك؟

تعرف أن ماما هنا في بارتاجو، وتعرف أن الرجال الأشرار أخذوا بابا بعيداً، لكنها لا تعرف إلى أين. لقد سمعت كلمة «شرطة» عدّة مرات، لكن فكرتها عمّن يكونون مبهمة. سمعت مصادفة أحاديث عديدة؛ من أشخاص في الشارع يتمتمون: «يا لها من قضية! وموقف مروّع». وحنّا تقول إنها لن ترى ماما مجدداً.

جانوس ضخمة، لكنها تعرف كل بوصة فيها: شاطئ حطام السفن، والخليج الهادئ، والقمة العاصفة. للوصول إلى المنزل، لا تحتاج إلا للبحث عن المنارة، كما يقول بابا دائماً. تعرف - لأنها قد سمعت هذا عدّة مرات - أن بارتاجو مكان صغير جداً.

عندما كانت حنّا في المطبخ، وغوين في الخارج، ذهبت الفتاة الصغيرة إلى غرفتها، ونظرت حولها، وبحرص ربطت شريطي نعليها. في الحقيبة، وضعت رسماً لمنارة مع ماما وبابا ولولو، وأضافت التفاحة التي أعطتها السيدة إياها هذا الصباح، والحيوانات التي تعدّها دمى لها.

أغلقت الباب الخلفي بهدوء، وبحثت في الوشيع عند مؤخر الحديقة، حتى وجدت ثغرة ضيقة يمكن أن تنسلَّ عبرها. لقد رأت ماما في المتنزه، وستذهب إلى هناك، وستجدها. ستجدان بابا، وسيذهبون إلى المنزل.

الوقت متأخر من بعد الظهر حين تباشر مهمتها، والشمس تميل من جانب السماء، وظلال الأشجار ممدودة آنذاك مثل مطاط إلى أطوال غير ممكنة.

بعد أن زحفت عبر الوشيع، جرّت الفتاة حقيبتها على الأرض، وهي تشق طريقها عبر شجيرات منخفضة خلف المنزل. الأصوات هنا مختلفة جداً عن جانوس، وتوجد طيور كثيرة، تنادي بعضها بعضاً. وعندما تتجوّل، تصبح الأجمة أكثر كثافة، والأوراق أشدُّ اخضراراً. ليست خائفة من السقنقور الذي تراه يزحف الآن - إنه أسود وسريع وحرشفي - عبر الأوراق، وتعرف جيداً أنه لن يؤذيها. لكنها لا تعرف أنه، بخلاف جانوس، ليس كل شيء أسود وينزلق سقنقور، ولم تضطر قطّ إلى التفريق بين السحالي ذات القوائم، وأخرى من دونها، ولم تر قط أفعى.

بحلول وقت وصول الفتاة الصغيرة إلى المتنزه، تلاشى الضوء، وركضت إلى المقعد الخشبي، لكنها لم تجد أثراً لأمها. جرّت حقيبتها خلفها، وجلست هناك ونظرت إلى البيئة الخالية. أخرجت من الحقيبة التفاحة، المتضرّرة من الرحلة، وقضمت لقمة.

في هذه الساعة، مطابخ بارتاجو أماكن صاخبة، مملوءة أمهات نزقات وأطفالاً جائعين، وتُغسل جيداً أيادٍ ووجوه، متسخة من لعب النهار بين الأشجار، أو السير عودة من الشاطئ. يجيز الآباء لأنفسهم تناول الشراب من خزانة تبريد، وتراقب الأمهات قدوراً تغلي فيها بطاطا وأفراناً تضم يخنات، وتجتمع أسر، بأمان وسلام، في نهاية يوم آخر. وينسلُّ الظلام إلى السماء ثانية بعد أخرى، حتى لم تعد الظلال تسقط على الأرض، وإنما ترتفع منها لتملأ الجو تماماً. ينسحب البشر إلى بيوتهم، ويسلّمون الليل إلى المخلوقات التي تنشط فيه: الصراصير، والبوم، والأفاعي. يستيقظ عالم لم يكن قد تغيّر منذ مئات آلاف السنين، ويمضي قدماً؛ وكأن ضوء النهار والبشر والتغييرات التي طرأت على البيئة مجرد وهم. لا أحد يمشي في الشوارع.

بحلول وقت وصول الرقيب نوكي إلى المتنزه، لا توجد إلا حقيبة على المقعد الخشبي، وتفاحة تحمل آثار أسنان صغيرة، رغم أن النمل قد اجتاح البقايا آنذاك.

عندما يرخي الليل ستاره، تبدأ الأضواء تلمع في العتمة؛ وتبدو نقاطاً في الظلام، أحياناً من مصباح غاز في نافذة، وأحياناً أخرى من مصابيح كهربائية من المنازل الأحدث. توجد في الشارع الرئيس في بارتاجو مصابيح إنارة كهربائية معلّقة على طوله من كلا الجانبين، وتنير

النجوم أيضاً الجو الصافي، وتترك درب التبّانة لطخة ساطعة في الظلمة.

تتمايل بعض النقاط اللامعة بين الأشجار مثل فاكهة ملتهبة: أشخاص يحملون فوانيس ويبحثون في الدغل. لا الشرطة فقط، وإنما رجال من مصانع أخشاب بوتس، ورجال من إدارة الميناء والمنارات. تنتظر حنّا قلقة في المنزل، كما طُلب منها، ويسير آل غرايسمارك على الدروب الحرجية وهم ينادون باسم الطفلة. ملأ كل من «لوسي» و»غريس» الجو، رغم أن طفلة واحدة فقط تائهة.

متشبّثة برسمها، لماما وبابا والمنارة، تتذكّر الطفلة قصة الأشخاص الذين يجدون طريقهم بالاستفادة من نجم. لقد رأت ضوء جانوس، في البحر: ليس بعيداً إطلاقاً؛ الضوء لا يكون بعيداً. هناك شيء ليس صائباً تماماً، فالضوء يتميّز بشعاع أحمر بين الأشعة البيضاء، لكنها تتبعه.

تتجه نزولاً نحو المياه، حيث تتلاطم الأمواج في الليل وتتخذ من الشاطئ رهينة. في المنارة، ستجد ماما وبابا، لذا سلكت طريقها نزولاً نحو الخليج الطويل والضيق؛ «رأس» بوينت بارتاجو، حيث علّمت إيزابيل توم قبل أعوام أن يستلقي حين ينظر إلى الفتحة النافذة لتفادي طرحه أرضاً. كل خطوة تقرّب الفتاة الصغيرة من الضوء، البعيد في المحيط.

لكنها لا تتبع شعاع جانوس. لكل ضوء شخصية مختلفة، ويخبر الوميض الأحمر المتقاطع بآخر أبيض البحّارة أنهم يقتربون من مياه ضحلة عند مدخل ميناء بارتاجو الذي يبعد نحو مئة ميل عن صخرة جانوس.

تشتد الريح، وتضطرب المياه، وتمشي الطفلة، وتزداد الظلمة.

من زنزانته، سمع توم أصواتاً حملها الهواء في الخارج. «لوسي؟ لوسي، أين أنت؟»، ثم «غريس؟ أين أنت يا غريس؟».

وحيداً في السجن، نادى توم نحو مقدمة المخفر: «أيها رقيب نوكي، أيها الرقيب؟».

سمع خشخشة مفاتيح، وظهر الشرطي لينش. «أتريد شيئاً؟».

«ماذا يجري؟ هناك أشخاص في الخارج، ينادون لوسي».

فكّر بوب لينش في ردّه. كان الرجل يستحق أن يعرف، ولا يمكنه فعل شيء بأي حال. «هي مفقودة، الفتاة الصغيرة».

«متى؟ كيف؟».

«قبل بضع ساعات، هربت كما يبدو».

«يا الله القدير! كيف جرى ذلك؟».

«لا فكرة لدي».

«حسناً، ماذا يفعلون بشأن هذا؟».

«هم يبحثون».

«دعني أساعد، لا يمكنني الجلوس هنا فحسب». كان التعبير على وجه لينش رداً كافياً. قال توم: «أوه بالله عليك! أين يمكن أن أذهب؟».

«سأخبرك إذا سمعت شيئاً يا زميل، وهذا أفضل ما يمكنني فعله».

ومع رنين معدني آخر، خرج.

في الظلام، عادت أفكار توم إلى لوسي؛ الفضولية دائماً لاستكشاف محيطها. لم تخشَ قطّ من الظلمة، وربما كان ينبغي أن يعلّمها الخوف، وقد فشل في تحضيرها للحياة خارج جانوس. ثم خطرت له فكرة أخرى: أين هي إيزابيل؟ ماذا يمكنها أن تفعل في حالتها الراهنة؟ تضرّع ألا تكون قد تولّت زمام الأمور بيديها.

الحمد لله أنه لم يكن الشتاء، وقد شعر فيرنون نوكي بالبرودة تتسلّل إليه مع اقتراب منتصف الليل. كانت الطفلة ترتدي فستاناً قطنياً ونعلين. وعلى الأقل، في كانون الثاني ستكون لديها فرصة للنجاة في الليل، لكن في آب ستصبح زرقاء من البرد آنذاك.

لا فائدة من البحث في هذه الساعة، وستبزغ الشمس بعد الخامسة بقليل، ومن الأفضل أن يكون الأشخاص نشيطين ومتيقظين حين يصبح الضوء إلى جانبهم. قال حين التقى غارستون في نهاية الطريق: «انشر النبأ، سنوقف البحث الليلة. ليعد الجميع إلى المخفر مع أول ضوء، وسنبدأ مجدداً».

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لكنه يحتاج إلى تصفية ذهنه. سار على الدرب المألوف لنزهته المسائية، وهو لا يزال يحمل فانوساً، ويميل في الظلام مع كل خطوة يمشيها.

في الكوخ الصغير، تضرّعت حنّا: «احفظها سالمة يا الله، وارحمها وأنقذها. لقد أنقذتها من قبل...». قلقت حنّا؛ إذ ربما استنفدت غريس حصتها من حصول الأعاجيب. ثم هدّأت من روعها، فالأمر لا يتطلّب أعجوبة لتعيش طفلة ليلة واحدة هنا، وكل ما تحتاج إليه هو تفادي الحظ السيئ. كان ذلك شيئاً مختلفاً تماماً، لكن تلك الفكرة نُحّيت جانباً بالخوف الأكثر إلحاحاً وإثارة للفزع. مرهقة، خطرت لها فكرة مشوّشة؛ وهي أنه لا يُقدّر لغريس أن تكون معها، وربما يقع اللوم عليها في كل ما جرى. انتظرت، وتضرّعت، وعقدت العزم على القيام بأمر ما إن عادت غريس سالمة.

هناك أحد يركل باب منزل حنّا، ورغم إطفاء الأضواء، كانت لا

تزال مستيقظة تماماً، فقفزت من مكانها لتفتحه. وقف أمامها الرقيب نوكي، وهو يحمل جسد غريس بين ذراعيه، وأوصالها رخوة.

«أوه يا الله!». واندفعت حنّا إليها، وبصرها ثابت على الفتاة، لا الرجل، لذا لم ترَ أنه يبتسم.

قال: «كدت أتعثّر بها عند الرأس البحري، نامت بسرعة. تتمتع بسبع حيوات هذه الصغيرة، وهذا أمر أكيد». ورغم أنه يكشّر، إلا أن هناك دمعة في عينه، حين تذكّر وزن الابن الذي لم يستطع إنقاذه قبل عقود.

بالكاد سمعت حنّا كلماته حين احتضنت ابنتها التي كانت تستغرق في النوم بين ذراعيها.

تلك الليلة، وضعت حنّا غريس بجانبها في سريرها، وراحت تصغي إلى كل نَفَس، وتراقب كل حركة من الرأس أو ركلة من قدم، لكن معرفة أكثر وضوحاً ألقت بظلالها على الارتياح من تحسّس جسد ابنتها الدافئ.

أعاد أوّل أصوات المطر - مثل حصى تتبعثر على السقف القصديري - حنّا إلى يوم زفافها: إلى وقت سقوف تتسرب منها المياه، ودلاء في كوخهما المتواضع، والحب والأمل؛ والأمل أهم من كل شيء. فرانك، بابتسامته، ومرحه بغض النظر عمّا يحمله اليوم إليه. أرادت أن تحظى غريس بهذا، وأرادت أن تكون ابنتها فتاة صغيرة سعيدة، وتضرّعت إلى الله لكي تتحلّى بالشجاعة والقوة لفعل الأشياء الضرورية لتحقيق هذا.

عندما أيقظ الرعد الطفلة، نظرت نعسة إلى حنّا، ودنت منها، قبل أن تعود إلى أحلامها، تاركة أمها تبكي بصمت، وهي تتذكّر نذرها.

لقد عاد عنكبوت المنزل الأسود إلى شبكته في زاوية زنزانة توم، وراح يتحرك باستمرار فوق الخيوط المتشابكة؛ مرتّباً الشكل إلى تصميم لا يعرفه إلا هو. لماذا ينبغي أن يكون الخيط في هذا المكان تحديداً، وبهذه القوة أو الزاوية بالذات؟ يخرج في الليل لإصلاح شبكته؛ قمع من الخيوط يكدّس الغبار، ويكوّن أنماطاً عشوائية، وينسج عالمه الاعتباطي، ويحاول دائماً إصلاحه، ولا يهجر شبكته أبداً إلا مرغماً.

لوسي بأمان، والارتياح يملأ جسد توم، لكن لم تصله بعد كلمة من إيزابيل، ولا علامة على أنها قد سامحته، أو ستفعل ذلك. قوّى اليأس الذي شعر به نتيجة عجزه عن فعل شيء للوسي آنذاك عزيمته لفعل ما يمكنه فعله من أجل زوجته، وبدت تلك هي الحرية الوحيدة الباقية له.

إذا كان سيعيش هذه الحياة من دونها، فسيكون من الأسهل تركها تمضي، وأن يدع الأشياء تسلك مسارها. تجوّل ذهنه في الذاكرة؛ رائحة بخار الزيت يشتعل ملتهباً حين يمسُّ عود الثقاب، وأقواس قزح تُخرجها المواشير، والمحيطان يمدّان نفسيهما أمامه حول جانوس مثل هبة سرّية. إذا كان توم سيأخذ إجازة من العالم، فهو يريد أن يتذكّر جماله، وليس المعاناة فقط. ترتبط أنفاس لوسي - التي وثقت بغريبين - بقلبيهما مثل جزيء. وإيزابيل؛ إيزابيل القديمة هي التي أنارت طريق عودته إلى الحياة، بعد كل سنوات الموت.

حمل مطر خفيف روائح الغابة إلى زنزانته: التراب، والخشب الرطب، والعطر اللاذع للبنفسيّة التي تشبه أزهارها ثمار بلّوط كبيرة مكسوّة بالريش. خطر له أن هناك شخصيات مختلفة من نفسه يودّعها: الفتى المهجور البالغ من العمر ثمانية أعوام، والجندي الواهم الذي يحوم في مكان من الجحيم، وعامل المنارة الذي تجرّأ على ترك قلبه

من دون حماية، ومثل دمى روسية، تعيش هذه الشخصيات ضمنه.

تغني الغابة له: تنقر الأمطار على الأوراق، وتسيل لتتحول إلى بُرك صغيرة، وتضحك طيور الكوكابورة مثل مجانين على دعابة خارج نطاق فهم البشر. راوده إحساس أنه جزء من كُلٍّ مترابط، من كينونة كافية، ويوم آخر أو عقد آخر لن يغير هذا. طوّقته الطبيعة التي تنتظر في النهاية لتستقبله، وتعيد تنظيم ذرّاته في شكل آخر.

المطر يهطل بقوة أكبر. ومن بعيد، يدوّي الرعد لتخلّفه عن البرق.

الفصل الرابع والثلاثون

عـاش آل أديكـوت فـي منـزل سـيحرّك - لـولا بضـع ياردات من أعشاب البحر - قدميه في المحيط. كان رالف قد أبقى الألواح الخشبية والآجر بحال جيدة، واعتنت هيلدا بحديقة صغيرة من التربة الرملية في الجزء الخلفي من المنزل: زينيّة وأضاليا مبهرجة مثل فتيات راقصات تحـدُّ دربـاً إلـى قفـص صغيـر تزقـزق فيه العصافيـر بمرح؛ ما يثير حيرة الطيور المحلية.

فاحـت رائحـة المربّـى عبـر النوافـذ، واسـتقبلت رالف حين تقدم ببـطء علـى الـدرب الأمامـي بعـد يـوم مـن العثـور على لوسـي. عندما خلع قبعته في المدخل، أسـرعت هيلدا لاعتراضه، والملعقة الخشـبية في يدها تلمع مثل كراميل بالبرتقال، ثم وضعت إصبعها على شفتيها وقادته إلى المطبخ. همست، وعيناها واسعتان: «في حجرة الجلوس! إيزابيل شربورن! إنها تنتظرك».

هزَّ رالف رأسه. «لقد جُنَّ العالم».

«ماذا تريد؟».

«هذه هي المشكلة، كما أظن. لا يمكنها تحديد ما تريده حقاً».

لـم تكـن حجـرة الجلـوس الصغيرة المرتّبة للقبطان البحري مزيّنة بسفن في قوارير أو نماذج صغيرة لرجال حرب، وإنما بلوحات.

كانت كأس الماء بجانب إيزابيل فارغة تقريباً، وبصرها ثابتاً على

إحدى اللوحات. جعلت سحبٌ كثيفة الغرفة عاتمة، وبدت اللوحات بركاً باهتة من ذهب، تتمايل في الظلام.

لم تلحظ رالف يدخل، وراقبها لبعض الوقت قبل أن يقول: «كانت تلك أول لوحة أحصل عليها. أنقذت بحّاراً روسياً خارج المشرب، قرب سيفاستوبول، قبل أربعين عاماً، ومنحني إياها شكراً لي». تكلم ببطء، متوقفاً بين الحين والآخر. «انتقيت اللوحات الأخرى في أثناء مسيرتي في أيام تجارتي البحرية». ضحك بصوت خافت. «أنا لست من النوع المهتم بالفن، ولا يمكنني إبلاغك أبسط معلومة عن الرسم، لكن هناك شيئاً ما في هذه المجموعة يجعلها تتكلم إليك. تقول هيلدا إنها تبقى بصحبتها حين أكون بعيداً».

وضع يديه في جيبيه، وأومأ نحو الصورة.

أطبق الصمت على الغرفة، وبدا أن الريح تجعل النوافذ تقعقع بإلحاح أكبر، وتطلب انتباه إيزابيل. كل الطريق إلى الأفق، تلاطمت الأمواج في فوضى، وبدأت السماء تتلبّد بوابل آخر يقترب، واندفعت أفكارها عائدة إلى جانوس؛ عادت إلى الخواء الشاسع، وإلى توم. بدأت تنتحب، بنشيج كبير مثل أمواج تجرفها إلى شاطئ مألوف أخيراً.

جلس رالف بجانبها، وأمسك يدها. بكت وجلس، ولم يُقَل شيء إطلاقاً لمدة نصف ساعة كاملة.

أخيراً، تجرأت إيزابيل: «هربت لوسي في الليلة الماضية بسببي يا رالف؛ حاولت إيجادي. كادت تموت، أوه يا رالف، يا لها من فوضى! لا يمكن أن أتكلم إلى ماما وبابا بشأن هذا...».

رغم هذا، بقي الرجل العجوز صامتاً، ممسكاً يد إيزابيل، وينظر إلى الأظافر التي قُضمت حتى اللحم. أومأ رأسه ببطء، قليلاً فقط. «هي حية، وبأمان».

«أردت فقط أن تكون بأمان يا رالف. ومنذ لحظة وصولها إلى جانوس، أردت فعل الشيء الأفضل. كانت بحاجة إلينا، ونحن بحاجة إليها». توقفت. «أنا كنت أحتاج إليها. عندما ظهرت - من العدم - بدت تلك أعجوبة يا رالف. كنت واثقة أنها ينبغي أن تكون معنا، وبدا ذلك واضحاً تماماً: طفلة صغيرة قد فقدت والديها، ونحن فقدنا طفلاً صغيراً...

«أحبّها كثيراً». نظّفت أنفها. «هناك... رالف، أنت أحد الأشخاص القلائل في العالم الذين يعرفون طبيعة العيش على جانوس، وأحد الأشخاص القلائل الذين يمكن أن يتخيّلوا، لكن حتى أنت لم تودّع مركباً قطّ. تقف على ذلك الرصيف وتسمع صوت المحرك وهو يخبو، وتراقب المركب وهو يصبح أصغر فأصغر. لا تعرف ما يعنيه توديع العالم سنواتٍ في كل مرة. كانت جانوس حقيقية، ولوسي حقيقية، وكل شيء آخر مظاهر.

«بحلول وقت اكتشافنا أمر حنّا رونفيلدت. أوه، كان الأوان قد فات آنذاك يا رالف. لم أتحلَّ بالقوة للتخلّي عن لوسي: لم أستطع فعل ذلك لها».

جلس الرجل العجوز، وهو يتنفس ببطء وعمق، ويومئ بين الحين والآخر. قاوم أي رغبة بسؤالها أو معارضتها، وكان التزام الصمت أفضل طريقة لمساعدتها؛ مساعدة الجميع.

«كنا أسرة سعيدة، ثم عندما جاءت الشرطة إلى الجزيرة - حين سمعت بما قد فعله توم - لم يعد شيء آمناً. لم يكن هناك مكان آمن، ولا حتى داخل نفسي. تألمت كثيراً، وغضبت كثيراً، وذُعرت، فلا شيء بدا منطقياً، منذ اللحظة التي أخبرني فيها الشرطي عن الخشخيشة».

نظرت إليه. «ماذا فعلت أنا؟!». لم يكن السؤال بلاغياً، وبدا أنها

تبحث عن مرآة؛ عن شيء يُظهر لها ما لا يمكنها رؤيته.

«لا يمكنني القول إن ذلك يقلقني مثل ما ستفعلينه الآن».

«لا شيء يمكن أن أفعله، فقد دُمّر كل شيء. لا فائدة من أي شيء بعد الآن».

«ذلك الرجل يحبك كما تعرفين، وهذا ينبغي أن يستحق شيئاً».

«لكن، ماذا عن لوسي؟ هي ابنتي يا رالف». بحثت عن طريقة للشرح. «هل يمكن أن تتخيّل الطلب من هيلدا التخلّي عن أحد أبنائها؟».

«هذا ليس تخلّياً، وإنما إعادة يا إيزابيل».

«لكن، ألم تُمنح لوسي لنا؟ أليس هذا ما كان الله يطلبه منا؟».

«ربما كان يطلب منكما العناية بها، وقد فعلتما، وربما الآن يطلب منكما السماح لشخص آخر بالقيام بهذا». نفث زفيراً. «يا للهول! أنا لست رجل دين، لكنني أعرف حقاً أن هناك رجلاً يكاد يتخلّى عن كل شيء– كل شيء– ليحميك. هل تظنين أنّ هذا صائباً؟».

«لكنك رأيت ما جرى أمس، وتعرف مدى يأس لوسي. هي تحتاج إليّ يا رالف، كيف يمكن أن أشرح لها هذا؟ لا تتوقع أن تفهم، ليس في عمرها».

«أحياناً تكون الحياة قاسية يا إيزابيل، وأحياناً تنال منك، وأحياناً عندما تظنين فقط أنها قد أظهرت أسوأ ما لديها، تعود وتقضم قطعة أخرى».

«ظننت أنها قد فعلت كل ما بوسعها لي؛ قبل سنوات».

«إذا كنتِ تظنين أن الأمور سيئة الآن، فستكون أسوأ كثيراً إذا لم تتكلمي مع توم. هذه قضية جدّية يا إيزابيل، ولوسي يافعة، وحولها أشخاص يرغبون في العناية بها، ومنحها حياة جيدة. توم ليس لديه أحد، ولم أرَ قط أحداً يستحق ألا يعاني مثل توم شربورن».

تابع رالف: «الله يعلم ما تعرّض له كلاكما هناك. كانت هناك كذبة بعد أخرى، وكلها بنوايا حسنة، لكن الأمر تعدّى الحد، وكل ما فعلتماه لمساعدة لوسي قد آذى شخصاً آخر. يا إلهي، طبعاً أفهم صعوبة هذا الأمر عليك، لكن سبراغ ذاك شخص شرير ولا يمكن الوثوق به أبداً. توم زوجك، في السرّاء والضرّاء، وفي المرض والصحة. إن لم ترغبي برؤيته في السجن، أو -». لم يستطع إنهاء الجملة. «أظن أن هذه فرصتك الأخيرة».

بعد ساعة، تنبّهت فيوليت لحال ابنتها. «إلى أين تذهبين؟ لقد دخلت من الباب للتوّ».

«سأخرج يا ماما، هناك شيء ينبغي أن أفعله».

«لكن المطر يهطل غزيراً، انتظري حتى يتوقف على الأقل». أشارت إلى كومة من الملابس على الأرضية بجانبها. «لقد قرّرت التخلّي عن بعض أغراض الصبيين؛ بعض قمصانهما وأحذيتهما القديمة؛ فقد تكون مفيدة لأحد. فكّرت في أن أتبرّع بها إلى دار العبادة». تسلل ارتعاش إلى صوتها. «لكن، سيكون لطيفاً أن أحظى ببعض الرفقة في أثناء ترتيبها».

«ينبغي أن أذهب إلى المخفر الآن».

«لماذا بحق الله!».

نظرت إيزابيل إلى أمها، وللحظة كادت تجرؤ على إخبارها، لكنها قالت: «ينبغي أن أرى السيد نوكي». صرخت وهي تسلك الممر وتتّجه إلى الباب الأمامي: «سأعود لاحقاً».

عندما فتحته، فزعت لرؤية ظل في المدخل، يكاد يرنُّ الجرس. كان الشخص، المبلل بالمطر، حنّا رونفيلدت، فتوقفت إيزابيل واجمة.

على العتبة، تكلّمت حنّا بهدوء وهي تثبّت بصرها على أصيص ورود على الطاولة خلف إيزابيل، تخشى من أن يجعلها النظر إليها مباشرة تغيّر رأيها. «لقد جئت لقول شيء؛ لأقوله فقط وسأذهب. لا تسأليني شيئاً من فضلك». عادت أفكارها إلى النذر الذي قد أقسمت على تنفيذه قبل ساعات: لم يكن النكث به ممكناً. سحبت نفساً، لتجهّز نفسها. «بدا من الممكن أن يحدث أي شيء لغريس الليلة الماضية، فقد بدت يائسة جداً لتراك. الحمد لله أنه جرى العثور عليها قبل أن تتعرّض لأي أذى». رفعت بصرها. «هل لديك أي فكرة عن هذا الشعور؟ أن تري الابنة التي حملتها وأنجبتها، الابنة التي اعتنيت بها وأرضعتها، تنادي امرأة أخرى أمها؟». انحرف بصرها إلى الجانب. «لكن، ينبغي أن أقبل هذا، مهما يكن مؤلماً، ولا يمكن أن أضع سعادتي فوق سعادتها.

الطفلة التي أنجبتها - غريس - لن تعود، ويمكن أن أرى هذا الآن. الحقيقة البسيطة هي أن بمقدورها العيش من دوني، حتى إن لم يكن بمقدوري العيش من دونها. لا يمكنني معاقبتها على ما جرى، ولا يمكنني معاقبتك على قرارات زوجك».

بدأت إيزابيل تحتج، لكن حنّا رفعت صوتها. قالت وبصرها مثبّت مجدداً على الورود: «عرفت فرانك تماماً، وربما لم أعرف غريس إلا قليلاً». نظرت إلى عيني إيزابيل. «غريس تحبّك، وربما تخصّك». بجهد كبير، نطقت الكلمات التالية: «لكن، أريد أن أتوثق من تحقيق العدالة، وإذا أقسمت لي أن هذا كله كان من فعل زوجك - إن أقسمت بحياتك - فسأدع غريس تأتي لتعيش معك».

لم تخطر ببال إيزابيل فكرة واعية، وقالت بشكل غير إرادي: «أقسم».

تابعت حنّا: «إذا كنتِ ستشهدين ضد ذلك الرجل، وعندما يصبح بالتأكيد خلف القضبان، يمكن أن تعود غريس إليك». فجأة بدأت تبكي، وقالت: «أوه، ليساعدني الله!». وغادرت مسرعة.

ذُهلَت إيزابيل، وفكّرت مراراً في ما قد سمعته، وهي تتساءل إن كانت قد ابتكرته، لكن هناك آثار الأقدام الرطبة على الشرفة، وأثر القطرات من مظلّة حنّا رونفيلدت الدائرية.

نظرت عبر باب الغربال الموصد بإحكام ما جعل البرق يبدو مقسّماً إلى مربّعات صغيرة، ثم دوّى الرعد وهزَّ السقف.

«ظننت أنك ستذهبين إلى المخفر!». اصطدمت الكلمات بأفكار إيزابيل، وللحظة لم تكن لديها فكرة عن مكانها. استدارت ولاحظت أمها. «ظننت أنكِ قد ذهبت، ماذا جرى؟».

«هناك برق».

«على الأقل لن تشعر لوسي بالخوف». ضبطت إيزابيل نفسها تفكّر حين فُتحت شقوق في السماء ليخرج منها وميض ساطع. منذ أن كانت صغيرة، علّم توم الفتاة أن تحترم - لا أن تخاف من - قوى الطبيعة؛ البرق الذي قد يضرب برج الضوء على جانوس، والمحيطين اللذين يدكّان الجزيرة. فكّرت في الوقار الذي أظهرته لوسي في غرفة الفانوس: فهي لم تمس المعدّات، وأبقت أصابعها بعيدة عن الزجاج. تتذكّر صورة للطفلة بين ذراعي توم، تلوّح وتضحك من الشرفة لإيزابيل عند حبل الغسيل على الأرض. «في قديم الزمان كانت هناك منارة...». كم من قصص لوسي بدأت بتلك الطريقة؟ «وهبّت عاصفة، وعصفت الريح بقوة، وجعل عامل المنارة الضوء يلمع، وساعدته لوسي حقاً.

كان الظلام حالكاً، لكن عامل المنارة لم يشعر بالخوف؛ لأن لديه الضوء السحري».

برز وجه لوسي المعذّب في ذهنها. يمكن أن تحتفظ بابنتها، وتبقيها بأمان وسعيدة، وتضع كل هذا خلفهما. يمكن أن تحبها وترعاها وتراقبها تنمو... خلال بضعة أعوام، ستتبدّل أسنانها اللبنية مقابل ثلاثة بنسات، ثم تدريجياً ستصبح لوسي أطول، وستتكلمان معاً عن العالم وعن -

إذاً، يمكن أن تحتفظ بابنتها. تكوّرت على نفسها في سريرها، تنشج: «أريد ابنتي، أوه يا لوسي، لا أتحمّل هذا».

إعلان حنّا، توسّل رالف، قَسَمها الزائف، وخيانة توم بالتأكيد كما خانها. تدور الأفكار في رأسها مثل أرجوحة خيول خشبية من احتمالات تتداخل وتتشابك، وتسحبها معها، أولاً في اتجاه، ثم في آخر. سمعت الكلمات التي قيلت، لكن الصوت الوحيد الغائب هو لتوم؛ الرجل الذي يقف الآن بينها وبين لوسي، بين لوسي وأمها.

عاجزة عن مقاومة ندائها، اقتربت من الدرج، وأخرجت الرسالة، وفتحت المغلّف ببطء.

إيزي حبي،

آمل أن تكوني بخير، وتحافظي على قوتك. أعرف أن أمك وأباك سيعتنيان بك جيداً. كان الرقيب نوكي طيباً كفاية معي ليسمح لي بالكتابة إليك، لكنه سيقرأ هذه قبلك. أتمنى لو نستطيع التكلم وجهاً لوجه.

لست واثقاً إن كنت سأتمكّن من التحدث إليك مجدداً، أو متى. تتخيلين دائماً أنك ستحظين بفرصة لقول ما ينبغي قوله، وتوضيح أشياء، لكن ذلك لا يحدث دائماً.

لا يمكنني الحديث عن الأشياء التي جرت، لا يمكنني العيش مع نفسي. أنا أشدُّ أسفاً مما يمكنني التعبير عنه؛ لأنني آذيتك.

شهد كل منا تحولاً في حياته، وإذا تبين أن حياتي ستسلك ذلك الطريق، فسيكون الأمر يستحق المحاولة. كان ينبغي أن ينتهي وقتي منذ سنوات طويلة، لكن لقاءك - حين ظننت أن الحياة انتهت - وحبك لي، فإنني إذا عشت مئة عام أخرى لم أكن لأطلب أفضل من هذا. لقد أحببتك حبّاً جماً يا إيز، ولا أبالغ بقولي هذا. أنت امرأة رائعة، وتستحقين شخصاً أفضل مني بكثير.

أنت غاضبة ومتألمة ولا شيء يبدو منطقياً لك، وأعرف هذا الشعور جيداً. إذا قرّرت غسل يديك مني، فلن ألومك.

كل ما يمكنني فعله هو أن أطلب من الله، وأطلب منك، الصفح عني للضرر الذي قد تسببّت به، وأن أشكرك على كل يوم قضيناه معاً.

مهما قرّرت أن تفعلي، فسأقبل به، وسأقف إلى جانب خيارك.

سأكون دائماً زوجك المحب،

توم

كأنها صورة، لا رسالة، مرّرت إيزابيل أطراف أناملها فوق الحروف، تتبع الميلان الثابت، والكتابة الأنيقة؛ وكأن ذلك يجعلها تفهم الكلمات. تخيّلت أصابعه الطويلة على قلم الرصاص في أثناء انتقالها فوق الصفحة. مراراً وتكراراً، لامست أناملها كلمة «توم»؛ تبدو الكلمة بطريقة ما غريبة ومألوفة في آن معاً، وشرد ذهنها إلى اللعبة التي لعباها، حيث رسمت حروفاً بإصبعها على بشرته العارية ليخمّنها، ثم فعل الشيء نفسه معها؛ لكن الذكرى تعترضها بسرعة أخرى عن لمسة لوسي؛ جلدها الطفولي. تخيّلت يد توم مجدداً، هذه المرة حين كتب الرسائل إلى حنّا، ومثل رقّاص تتأرجح أفكارها جيئة وذهاباً، بين

كراهية وندم، بين الرجل والطفلة.

ترفع يدها عن الورقة وتقرأ الرسالة ثانيةً، وتحاول هذه المرة فهم معنى الكلمات على الصفحة، وتسمع صوت توم ينطقها. قرأتها مراراً وتكراراً، وشعرت بأن جسدها قد انفصل إلى اثنين، حتى تتخذ أخيراً، وهي ترتعش وتنشج، قرارها.

الفصل الخامس والثلاثون

عندما ينهمر المطر في بارتاجو، تلقي الغيوم الماء وتبلل البلدة حتى عظامها. كانت ألفية من هذه الهطولات الغزيرة قد أنتجت غابات من التربة الخصبة القديمة. تتلبّد الغيوم في السماء، وتهبط درجة الحرارة، وتُحفر أخاديد عميقة في الطرق الترابية، وتجعلها فيضانات مفاجئة غير سالكة للمركبات. تصبح حركة الأنهار أسرع، وتصل أخيراً إلى المحيط الذي قد افترقت عنه وقتاً طويلاً، ولن يوقفها شيء في اندفاعها لتعود إليه؛ تعود إلى البيت.

يطبق الهدوء على البلدة، وتقف الخيول الأخيرة القليلة بائسة مع عرباتها، في حين يقطر المطر من غماماتها، وتفقد حيويتها مقارنة بالمركبات الآلية التي تفوقها عدداً هذه الأيام. يقف الناس تحت الشرفات العريضة لمتاجر في الشارع الرئيس، ويشبكون أذرعهم، ويزمّون أفواههم في تكشيرات إحباط، وفي الجزء الخلفي من ساحة المدرسة، يضرب متهوران أقدامهما في برك ضحلة، وتنظر نساء بسخط إلى الغسيل الذي لم يُنزلنه عن الحبال، وتتسلّل قطط عبر أقرب بوابة، وهي تموء ازدراءً. يسيل الماء على النّصب التذكاري العسكري، حيث تختفي الحروف الذهبية الآن، ويثب عن سقف دار العبادة، وعبر فم الميزاب إلى القبر الجديد لفرانك رونفيلدت، ويصل الماء إلى الأحياء والأموات من دون تمييز.

«لن تشعر لوسي بالخوف». خطرت الفكرة في ذهن توم أيضاً، وتذكّرت الإحساس في صدره؛ ذلك الارتعاش الغريب الناجم عن الدهشة بشأن الفتاة الصغيرة، حين تواجه البرق وتضحك. ستصيح: «اجعله يفرقع يا بابا!». وتنتظر أن يدوّي الرعد.

صرخ فيرنون نوكي: «تباً! لدينا تسرّب لعين مجدداً». كان السيل من التلة فوق المخفر أكثر من «تسرب» بالتأكيد، والماء يتدفّق إلى الجزء الخلفي من المبنى، الأدنى مستوى من المقدمة. خلال ساعات، وصل ارتفاع الماء في زنزانة توم إلى ست بوصات، يدخل إليها من الأعلى والأسفل، وقد هجر العنكبوت المنزلي بيته إلى مكان أكثر أمناً.

ظهر نوكي، وهو يحمل مفاتيح في يده. «إنه يوم حظك يا شربورن».

لم يفهم توم.

«يحدث هذا عادة حين تمطر كثيراً، ويكاد السقف في هذا القسم ينهار. يقولون دائماً إنهم سيصلحونه، لكنهم يرسلون رجلاً ما ليضع بعض الطحين والغراء المائي عليه؛ مما يمكن أن أراه. رغم هذا، يحمّلوننا المسؤولية إذا تأثر السجناء سلباً قبل محاكمة، ومن الأفضل أن تبقى في المقدمة بعض الوقت، حتى تجف الزنزانة». ترك المفتاح في القفل من دون أن يديره. «لن تكون غبياً بشأن هذا، أليس كذلك؟».

نظر توم إليه بإمعان، ولم يقل شيئاً.

«حسناً، اخرج الآن».

تبع نوكي إلى المكتب الأمامي، حيث وضع الرقيب قيداً واحداً على معصمه وآخر حول أنبوب مكشوف. قال لهاري غارستون: «لن يفيض المكان بالعملاء طالما بقي هذا ثابتاً». وضحك بصوت خافت

من تلاعبه بالألفاظ. «آه، مو مكاكي، لتمت غيظاً».

لم يكن هناك صوت باستثناء المطر الذي يهطل غزيراً، محولاً كل سطح إلى طبل أو صنج. لقد سكنت الريح ولا شيء يتحرك في الخارج إلا الماء. استعد غارستون لذلك بممسحة وبعض المناشف، محاولاً السيطرة على الوضع في الداخل.

جلس توم ناظراً عبر النافذة إلى الطريق، متخيلاً المنظر من الشرفة على جانوس آنذاك: سيشعر عامل المنارة أنه في غيمة، مع التغير المفاجئ في الهواء. راقب العقربين على الساعة يتقدّمان ببطء حول القرص؛ وكأن لديهما كل الوقت في العالم.

لفت شيء ما انتباهه؛ شخص ضئيل يشق طريقه نحو المخفر، من دون معطف مطري أو مظلة، وذراعاه مشبوكتان، وينحني إلى الأمام وكأنه يستند إلى المطر، وتعرّف الشكل فوراً. بعد لحظات، فتحت إيزابيل الباب، ونظرت مباشرة أمامها حين تقدّمت إلى النضد حيث قد تجرّد هاري غارستون من ثيابه حتى خصره، وكان مشغولاً بمحاولة تجفيف بركة ماء صغيرة.

شرعت إيزابيل: «ينبغي...».

استدار غارستون ليرى المتكلم.

«ينبغي أن أرى الرقيب نوكي...».

تورّد الشرطي المرتبك، شبه العاري، الذي يحمل ممسحة في يده، وتحرّك بصره نحو توم. تبعت إيزابيل نظرته، وشهقت.

نهض توم على قدميه بسرعة، لكنه لم يستطع الابتعاد عن الجدار. مدَّ يده إليها، في حين نظرت مليّاً إلى وجهه مذعورة.

«إيزي! إيزي! حبي!». شدَّ الأصفاد، ماداً ذراعه حتى أطراف أصابعه. وقفت، يعوقها الخوف والندم والخجل، وهي لا تجرؤ على

الحركة. فجأة، تملّكها خوفها واستدارت لتخرج مجدداً.

بدا أن جسد توم كله قد نبض حيوية لدى رؤيتها، وكانت فكرة اختفائها مجدداً أكثر مما يستطيع تحمّله. شدَّ مجدداً المعدن، هذه المرة بقوة كبيرة انتزعت الأنبوب من الجدار، ما جعل الماء يتدفق عالياً في الهواء.

«توم! أوه توم!». تنهّدت إيزابيل حين أمسكها بذراعيه، وجسدها يرتعش رغم قوة قبضته. «ينبغي أن أخبرهم، يجب أن –».

«صه يا إيزي، صه، لا بأس يا حبيبتي، لا بأس».

ظهر الرقيب نوكي من مكتبه. «غارستون، ماذا بحق الله –». توقف حين رأى إيزابيل بين ذراعي توم، وكلاهما مبتلان من ماء الأنبوب.

صرخت إيزابيل: «سيد نوكي، ليس هذا صحيحاً. ليس أي منه صحيحاً! كان فرانك رونفيلدت ميتاً حين جرفت الأمواج المركب، والاحتفاظ بلوسي فكرتي. منعته من تقديم تقرير عن المركب، وهذه غلطتي».

كان توم يمسكها بقوة، ويقبّل أعلى رأسها. «صه يا إيزي، دعي الأمر كما هو». تراجع إلى الخلف وأمسك كتفيها حين ثنى ركبتيه ونظر مباشرة إلى عينيها. «لا بأس يا حبيبتي، لا تقولي أي شيء آخر».

هزَّ نوكي رأسه ببطء.

كان غارستون قد استبدل رداءه بسرعة، ويسوّي شعره بنوعٍ من الترتيب. «هل أعتقلها يا سيدي؟».

«أظهر بعض المنطق لمرة واحدة في حياتك اللعينة أيها الشرطي. اشغل نفسك وأصلح الأنبوب المكسور قبل أن نغرق جميعاً!». استدار نوكي إلى الآخرَين اللذين يحدّقان بإمعان إلى بعضهما بعضاً؛ صمتهما

لغة بحد ذاتها. «وفي ما يتعلق بكما أنتما الاثنين، فمن الأفضل أن تدخلا مكتبي».

اشمئزاز؛ لدهشتها شعرت حنّا بالاشمئزاز أكثر من الغضب، حين زارها الرقيب نوكي حاملاً أنباء ما كشفته إيزابيل شربورن. تورّد وجهها حين فكّرت في زيارتها إلى إيزابيل قبل يوم فقط، والصفقة التي قد عقدتها معها.

سألت: «متى؟ متى أخبرتك هذا؟».

«أمس».

«في أي وقت أمس؟».

دُهش نوكي من السؤال؛ فما الفرق الذي قد يُحدثه هذا؟ «عند الساعة الخامسة تقريباً».

«إذاً، بعد...». تلاشى صوتها.

«بعد ماذا؟».

ازداد تورّد حنّا، وهي تشعر بالخزي من فكرة أن إيزابيل قد رفضت تضحيتها، وبالاشمئزاز من أنها قد كذبت عليها. «لا شيء».

«ظننت أنك تريدين أن تعرفي».

«طبعاً، طبعاً...». لم تكن تركّز على الشرطي، وإنما على اللوح الزجاجي للنافذة الذي يحتاج إلى تنظيف. كان ينبغي تنظيف المنزل كله: لم تكن قد مسّته منذ أسابيع. تشبّثت أفكارها بتلك المجموعة من الأعمال المنزلية التي أبقتها على بر الأمان، حتى استطاعت إبعادها. «إذاً، أين هي الآن؟».

«أُطلق سراحها بكفالة، وهي في منزل والديها».

اقتلعت حنّا سأفاً من إبهامها. «ماذا سيجري لها؟».

«ستُحاكم إلى جانب زوجها».

«كانت تكذب، طوال الوقت... جعلتني أصدّق...». هزّت رأسها، تائهة في أفكارها.

سحب نوكي نفساً. «قضية غريبة جداً. كانت إيزابيل غرايسمارك من النوع المحترم قبل أن تذهب إلى جانوس. الوجود على تلك الجزيرة لم يكن مفيداً لها إطلاقاً، ولا أظن أنه قد يفيد أحداً. بالمحصلة، لم يحظَ شربورن بالوظيفة إلا بعد أن أنهك تريمبل دوشرتي نفسه».

لم تكن حنّا واثقة بطريقة صياغة سؤالها. «كم سيقضيان في السجن من أجل هذا؟».

نظر نوكي إليها. «باقي حياتيهما».

«باقي حياتيهما».

«لا أتكلم عن مدة السجن. هذان الاثنان لن يكونا حرّين بعد الآن، ولن يفلتا أبداً مما قد جرى».

«ولا أنا أيها الرقيب».

نظر نوكي إليها مليّاً، وقرر انتهاز الفرصة. «اسمعي، لا يحصل المرء على الوسام العسكري لأنه جبان، ولا يحظى بتلك السمعة إن... إن لم ينقذ الكثير من أرواح زملائه بالمخاطرة بحياته. توم شربورن رجل محترم، كما أظن، وسأمضي بعيداً لأقول إنه رجل جيد يا سيدة رونفيلدت. وإيزابيل امرأة جيدة، وقد أجهضت ثلاث مرات هناك، من دون وجود أحد يساعدها. لا يختبر أحد ما قد تعرّض له هذان الاثنان من دون أن يؤثر ذلك سلباً عليه».

نظرت حنّا إليه، ويداها ثابتتان، وهي تنتظر أن تفهم ما يقصده.

«من المؤسف جداً حقاً رؤية شخص مثله في مثل هذا الموقف، فضلاً عن زوجته».

«ماذا تقول؟».

«لا أقول شيئاً لن يخطر لك في الأعوام القليلة القادمة، لكن سيكون الأوان قد فات آنذاك».

أدارت رأسها قليلاً؛ وكأنها تريد أن تفهمه على نحو أفضل.

«أسأل فحسب: هل هذا حقاً ما تريدينه؟ محاكمة؟ سجن؟ لقد استعدت ابنتك، وقد يكون هناك سبيل آخر...».

«سبيل آخر؟».

«فقد سبراغ الاهتمام بالقضية الآن، وسيُسقط هراء القتل عنه. ولأن هذه القضية لا تزال تخص بارتاجو، فلدي بعض الوقت. ربما يمكن إقناع القبطان هاسلك بتزكيته من إدارة المنارات، إذا لم تمانعي التحدّث بالحسنى عنه أيضاً. يمكن أن نطلب الرأفة...».

ازداد وجه حنّا احمراراً مجدداً، ووقفت على قدميها فجأة. تدفّقت من فمها كلمات بقيت تعتمل داخلها أسابيع، أعواماً؛ كلمات لم تعرف حنّا من أين جاءت: «سئمت هذا! سئمت من التآمر علي، وتخريب حياتي نتيجة نزوات أشخاص آخرين. ليست لديك فكرة عن حال من تكون مكاني أيها الرقيب نوكي! كيف تجرؤ على المجيء إلى منزلي وتقديم مثل هذا الاقتراح؟ كيف تجرؤ!».

«لم أقصد أن -».

«دعني أنهي كلامي! لقد عانيت كفاية، هل تفهمني؟». كانت حنّا تصرخ آنذاك. «لن يخبرني أحد أبداً كيف أعيش حياتي مجدداً! أولاً، أبي يخبرني بمن يمكنني الزواج، ثم البلدة اللعينة بأسرها تنقلب على فرانك مثل مجموعة همجيين، ثم غوين تحاول إقناعي بإعادة غريس إلى إيزابيل غرايسمارك، وأنا أوافق... أوافق فعلاً! لا تحدّق إليّ مصدوماً؛ أنت لا تعرف كل ما يجري حولك هنا!

ويتبيـن أن المـرأة كذبـت علـي من دون حياء! كيف تجرؤ؟ كيف تجـرؤ علـى أن تخبرنـي، أو حتـى تقتـرح علـي، أنني يجـب أن أضع، مجدداً، شـخصاً آخر أولاً!». شـدّت قامتها. «اخرج من منزلي! الآن! اذهب! قبل أن -»، أمسـكت أقرب شـيء إلى يدها؛ زهرية زجاجية، «أرمي هذه عليك!».

وقـف نوكـي ببـطء شـديد، فأصابـت الزهرية كتفـه، وارتدّت عن الأرضية حيث تحطّمت إلى قطع صغيرة.

توقفـت حنّـا، غيـر واثقـة إن كانـت تتخيّل ما قـد فعلته. وحدّقت إليه، تنتظر إشارة.

وقف ساكناً تماماً. خفقت الستائر في النسيم، وأزَّت ذبابة كبيرة عنـد الغربـال، وأصـدرت آخـر شـظية مـن الزجـاج رنينـاً مكتومـاً حين خضعت أخيراً للجاذبية.

بعد صمت طويل، قال نوكي: «هل تشعرين بتحسّن؟».

كان فم حنّا لا يزال فاغراً، فهي لم تضرب أحداً في حياتها قطّ، ولم تشتم إلا نادراً، ولم تفعل بالتأكيد أياً من هذين الأمرين لشرطي.

«لقد رُميت بأشياء أسوأ بكثير».

نظرت حنّا إلى الأرضية. «أعتذر».

انحنى الشرطي ليلتقط بعض القطع الكبيرة من الزجاج، ووضعها على الطاولة. «لا نريد أن تجرح قدمَي الصغيرة».

تمتمت حنّا: «ذهبت إلى النهر مع جدّها». أشارت بغموض نحو الزجاج وأضافت: «لا أفعل عادة...»، لكن الجملة تلاشت.

«لقد عانيت كفاية، أعرف. والأفضل أنك رميتها علي وليس على الرقيب سبراغ». سمح لأثر ابتسامة بالظهور.

«لم يكن ينبغي أن أتكلم هكذا».

«الناس يفعلون ذلك أحياناً، أشخاص ليس لديهم ما يناقشونه مثلك. لا نتحكم دائماً بأفعالنا، وسأخسر عملي إذا كنا نفعل هذا». التقط قبعته. «سأتركك بسلام، وأدعك تفكرين في الأمور، لكن لم يبق وقت طويل. عندما يصل القاضي إلى هنا ويرسلهما إلى ألباني، فلن أتمكن من فعل شيء بشأن القضية».

مشى عبر الباب إلى ضوء النهار الساطع، حيث الشمس تحرق آخر الغيوم وتبعدها من الشرق.

جلبت حنّا المكنسة، وجسدها يتحرّك من دون أي تعليمات ظاهرة. كنست قطع الزجاج، وهي تتوثّق بعناية ألا تغفل عن أي شظايا، ورمتها على صحيفة قديمة، ولفّت الزجاج بأمان ونقلته إلى الخارج لتضعه في سلة النفايات. فكّرت كيف امتحن الله أبا الأنبياء إبراهيم إلى أقصى حد، ليرى إن كان سيتخلّى عن أعزّ من لديه في العالم... كانت ابنتها لا تزال معها.

كادت تعود إلى الداخل حين رأت أجمة عنب الثعلب، وتذكّرت ذلك اليوم المروّع بعد عودة غريس، حين حشرت ابنتها نفسها خلفها. عندما جثت على ركبتيها على العشب ونشجت، عادت ذكرى حديثها مع فرانك إلى وعيها. كانت قد سألته: «لكن، كيف؟ كيف يمكنك التغلب على تلك الأمور يا حبيبي؟ لقد عانيت كثيراً لكنك سعيد دائماً. كيف تفعل هذا؟».

قال: «اخترت هذا. يمكن أن أترك نفسي تتعفّن في الماضي، وأقضي وقتي وأنا أكره الناس لما جرى - كما فعل أبي - أو يمكن أن أصفح وأنسى».

«لكن الأمر ليس سهلاً».

ابتسم ابتسامة فرانك تلك. «أوه، لكن يا كنزي، هذا أقل استنزافاً بكثير. ليس عليك إلا أن تصفحي مرة، لكن أن تمتعضي، فستفعلين هذا طوال اليوم، وكل يوم، وستتذكّرين كل الأشياء السيئة». ضحك، متظاهراً أنه يمسح العرق عن جبينه. «ينبغي أن أضع قائمة؛ قائمة طويلة جداً وأتوثق من أنني كرهت الناس فيها بالمقدار الصحيح، وأنني قمت بعمل كراهية ملائم أيضاً». أضحى صوته هادئاً، «لدينا دائماً خيار، جميعنا».

الآن، تستلقي على بطنها فوق العشب، وتشعر بقوة الشمس توهنها. مرهقة، شبه غافلة عن النحل ورائحة الهندباء بجانبها، شبه غافلة عن اللسعات الحادّة تحت أصابعها حيث تفرط الأعشاب بالنمو، تنام أخيراً.

لا يزال توم يشعر بلمسة جلد إيزابيل الرطب، رغم أن الماء قد جفّ من الزنزانة الآن، وثيابه جافة، ولم شمله معها مساء أمس مجرد ذكرى. يريد أن تكون حقيقة، ووهماً في الوقت عينه. إذا كانت حقيقة، فقد عادت إيزي حبيبته إليه، كما تضرّع، وإذا كانت وهماً، فهي لا تزال بأمان من احتمال التعرض للسجن. امتزج ارتياح وفزع داخل نفسه، وتساءل إن كان سيشعر بلمستها مجدداً.

في غرفة نومها، فيوليت غرايسمارك تبكي. «أوه يا بيل، لا أعرف كيف أفكّر، أو ماذا أفعل. قد تذهب فتاتنا الصغيرة إلى السجن، وهذا مؤسف».

«ستتجاوز هذا يا عزيزتي، وستتجاوز هذا هي أيضاً، بطريقة ما».

لم يذكر حديثه مع فيرنون نوكي، فهو لا يريد زيادة آمالها، لكن قد يكون هناك خيال فرصة.

تجلس إيزابيل بمفردها تحت الجكرندة، وحزنها على لوسي قوي كالسابق: ألم لا موضع له ولا دواء. كان إنزال عبء الكذبة عن كاهلها يعني التخلّي عن الحرية بالحلم. الألم على وجه أمها، وفي عيني أبيها، ومحنة لوسي، وذكرى توم المكبل بالأصفاد؛ تحاول إبعاد جيش الصور عنها، وتخيُّل ما سيكون عليه السجن. أخيراً، ليست لديها أي قوة، ولا مزيد من الكفاح، وحياتها مجرد شظايا لن تستطيع جمعها أبداً. ينهار عقلها بفعل هول المسألة، وتنزل أفكارها إلى بئر سوداء عميقة؛ حيث يبدأ الخجل والخسارة والخوف بإغراقها.

سبتيموس وحفيدته بجانب النهر، يشاهدان المراكب. «سأخبرك من كان بحاراً جيداً: ابنتي حنّا، حين كانت صغيرة. كانت بارعة في كل شيء في طفولتها، وذكية جداً، وأبقتني دائماً متحفّزاً؛ مثلك تماماً». مسّد شعرها. «أنت غريس منقذتي!».

أصرّت: «لا، أنا لوسي!».

«سُمّيت غريس يوم مولدك».

«لكن، أريد أن أكون لوسي».

نظر إليها بإمعان. «سأخبرك أمراً، لنعقد صفقة تجارية. سنتقاسم الفرق، وسأدعوك لوسي - غريس. هل نتصافح على هذا؟».

استيقظت حنّا من نومها على العشب حين أطلَّ ظلٌّ فوق وجهها. فتحت عينيها ووجدت غريس واقفة على بعد بضع أقدام، تحدّق. جلست حنّا ومسّدت شعرها مرتبكة.

ضحك سبتيموس: «أخبرتك أن هذا سيلفت انتباهها». ابتسمت غريس ابتسامة باهتة.

بدأت حنّا تقف، لكن سبتيموس قال: «لا، ابقي هناك. الآن أيتها الأميرة، لمَ لا تجلسين على العشب وتخبرين حنّا عن المراكب. كم واحداً رأيت؟».

تردّدت الفتاة الصغيرة.

«هيا، تذكّري كيف عددتها على أصابعك؟».

رفعت يديها وقالت: «ستة». وهي تُظهر خمس أصابع في إحدى اليدين، وثلاثاً في الأخرى، قبل أن تطوي اثنتين مجدداً.

قال سبتيموس: «سأذهب وأبحث في المطبخ وأجلب بعض الشراب. ابقي أنتِ وأخبريها عن النورس الجشع مع تلك السمكة الكبيرة».

جلست غريس على العشب، بعيدة بضع أقدام فقط عن حنّا، وتألق شعرها الأشقر في الشمس. أرادت حنّا أن تخبر أباها عن زيارة الرقيب نوكي، وتطلب نصيحته، لكنها لم ترَ غريس بهذا الاستعداد للكلام واللعب، ولم تتحمّل إفساد اللحظة. على غير المعتاد، قارنت الفتاة بذكراها عن طفلتها؛ وهي تحاول استعادة ابنتها المفقودة، لكنها توقفت. «لدينا دائماً خيار». رنّت الكلمات في ذهنها.

سألت: «هل نصنع سلسلة من أزهار الربيع؟».

«أزهار الربيع!».

ابتسمت حنّا وقالت: «سلسلة. هيا سنصنع لك تاجاً». وبدأت تقطف الهندباء بجانبها.

عندما علّمت غريس طريقة ثقب ساق بظفر الإبهام وإدخال الساق التالية عبره، راقبت يدي ابنتها والطريقة التي تتحرّكان بها. لم تكونا يدي طفلتها، وإنما هما يدا فتاة صغيرة ينبغي أن تتعرّف إليها كلياً مجدداً، والتي بدورها ينبغي أن تتعرّف إلى أمها أيضاً. «لدينا دائماً خيار». شعرت بارتياح في صدرها؛ وكأن نفَساً كبيراً قد اندفع إلى رئتيها.

الفصل السادس والثلاثون

عندما تدلّت الشمس فوق الأفق، عند نهاية الرصيف في بارتاجو؛ وقف توم ينتظر، ورأى حنّا تقترب ببطء. لقد مضت ستة شهور منذ أن رآها للمرة الأخيرة. وبدا أنها تغيّرت؛ فوجهها مشرق، وأكثر استرخاء. وعندما تكلمت أخيراً، كان صوتها هادئاً. «حسناً؟».

«أردت القول إنني آسف، وأن أشكرك على ما فعلته».

قالت: «لا أريد شكراً منك».

«لو أنكِ لم تتكلمي لمصلحتنا لكنت قد قضيت أكثر من ثلاثة شهور في سجن بونبوري». قال توم الكلمتين الأخيرتين بصعوبة، وبدت المقاطع الصوتية مثقلة بالخجل. «وحكم إيزابيل مع وقف التنفيذ؛ كان ذلك بفضلك في المقام الأول، كما قال محاميّ».

نظرت حنّا إلى البعيد. «لم يكن إرسالها إلى السجن ليصلح شيئاً، أو إبقاؤك هناك سنوات. ما حدث قد حدث».

«مع ذلك، لم يكن قراراً سهلاً بالنسبة لك».

«أول مرة رأيتك فيها كنت قد جئت لإنقاذي، عندما كنت غريبة تماماً، ولم تكن تدين لي بشيء، وهذا يُحتسب لك كما أفترض. أعرف أنك لو لم تجد ابنتي، لكانت قد توفيت، وحاولت أن أتذكّر هذا أيضاً». توقفت. «لا أسامح أيًّا منكما لأنكما كذبتما على هذا النحو... لكن، لن أحبس نفسي في الماضي. انظر إلى ما جرى لفرانك بسبب قيام الناس بهذا». توقفت، وهي تدير خاتم زفافها لحظة. «والمفارقة أن

فرانك سيكون أول من يسامحكما، وهو أول شخص سيتكلم دفاعاً عنكما، دفاعاً عن الناس الذين يقترفون أخطاء.

كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتكريمه: فعلت ما أعرف أنه كان سيفعله». نظرت إليه، وعيناها تلمعان. «أحببت ذلك الرجل».

وقفا بصمت، ينظران إلى الماء، وفي النهاية تكلم توم: «السنوات التي قَضَيتها من دون لوسي... لا يمكننا إعادتها أبداً. هي فتاة صغيرة رائعة». جعلته ملامح حنّا يضيف: «لن نقترب منها مجدداً أبداً، أعدك».

علقت كلماته التالية في حلقه، وحاول مجدداً: «ليس لي الحق في أن أطلب شيئاً، لكن في يوم ما - ربما حين تكبر - إذا تذكّرتنا وسألت عنا، إن تحمّلت هذا، فأخبريها أننا أحببناها، رغم أنه لم يكن لنا الحق بذلك».

وقفت حنّا، تزن شيئاً في ذهنها. «ذكرى ميلادها في الثامن عشر من شباط. لم تكن تعرف هذا، أليس كذلك؟».

«لا». كان صوت توم هادئاً.

«وعندما ولدت، كان الحبل السري ملتفاً حول عنقها مرتين، وفرانك... اعتاد فرانك أن يغني لها لتنام، فهمت؟ هناك أشياء أعرفها عنها ولا تعرفها أنت».

أومأ ببطء: «نعم».

«ألومك أنت، وألوم زوجتك طبعاً». نظرت مباشرة إليه. «شعرت بخوف شديد من ألا تحبني ابنتي أبداً».

«الحب هو ما يفعله الأطفال».

أشاحت بناظريها إلى زورق صغير يمس الرصيف مع كل موجة، وعبست من فكرة جديدة. «لم يذكر أحد هذا مطلقاً هنا... أعني كيف وصل فرانك وغريس إلى ذلك المركب في المقام الأول. لم يعتذر أحد

قـطّ، حتـى أبـي لا يحـب التكلـم عن الأمر. على الأقل، أنت اعتذرت، ودفعت ثمن ما فعلته له».

بعد مرور بعض الوقت، قالت: «أين تعيشان؟».

«فـي ألبانـي. سـاعدني رالـف أديكـوت في العثـور على عمل في الميناء هناك حين خرجت، أي قبل ثلاثة شهور، وهذا يعني أن بمقدوري البقـاء قـرب زوجتـي. قـال الأطبـاء إنها تحتاج إلى راحة كاملة، وحالياً هـي بحـال أفضـل فـي دار الاستشـفاء، حيـث يمكـن العنايـة بهـا بنحو ملائـم». تنحنـح. «الأفضـل أن أتـركك تذهبيـن، وآمـل أن تكون الحياة جيدة معك، ومع لو - مع غريس».

قالت حنّا: «وداعاً». وسلكت طريقها عائدة على الرصيف.

غمرت شـمس الغروب أوراق الصمغ بلون ذهبي حين صعدت حنّا على الدرب إلى منزل أبيها لتأخذ ابنتها.

كان سبتيموس يقول وهو يداعب قدم حفيدته الجالسة على ركبته على الشرفة: «بقي هذا الحيوان الصغير في المنزل... أوه، انظري من هنا يا لوسي - غريس».

«ماما! إلى أين ذهبت؟».

دُهشت حنّا مجدداً لنسخة ابنتها من ابتسامة فرانك، وعيني فرانك، وشعره الأشقر. قالت: «ربما سأخبرك يوماً ما أيتها الصغيرة». وقبّلتها برفق. «هل نذهب إلى المنزل الآن؟».

«هل يمكننا العودة إلى الجد غداً؟».

ضحك سبتيموس. «يمكنك زيارة الجد في أي وقت ترغبين أيتها الأميرة، وقت تشاءين».

كان د. سـومبتون محقـاً؛ فبمـرور الوقـت، بـدأت الفتـاة الصغيرة

تعتاد تدريجياً على حياتها الجديدة، أو ربما القديمة. مدّت حنّا ذراعيها وانتظرت أن تصعد ابنتها عليهما. ابتسم أبوها: «تلك هي الطريقة يا صغيرتي، تلك هي الطريقة».

«تعالي يا عزيزتي، سنذهب الآن».

«أريد أن أمشي».

أنزلتها حنّا أرضاً، وسمحت لها الطفلة أن تقودها نحو الخارج عبر البوابة وعلى طول الطريق. حافظت حنّا على خطواتها بطيئة، حتى تستطيع لوسي - غريس مجاراتها. سألت: «هل ترين الكوكابورة؟ يبدو أنه يبتسم، أليس كذلك؟».

لم تُعرها الفتاة اهتماماً كبيراً، حتى خرجت نوبة ضحك سريعة من الطائر حين اقتربتا منه. توقفت مندهشة، وراقبت المخلوق الذي لم تره قط قريباً جداً. مجدداً، أطلق نداءه الأجش.

قالت حنّا: «إنه يضحك، ويحبك بالتأكيد، أو ربما سيهطل المطر. يضحك الكوكا دائماً حين يوشك المطر على الهطول. هل يمكنك تقليد صوته؟ إنّه يصيح هكذا». وشرعت في تقليد صراخه الذي قد علّمتها أمها إيّاه قبل عقود. «هيا، جرّبي هذا».

لم تستطع الفتاة إصدار الصوت المعقّد، وقالت: «سأكون نورساً». وأخرجت تقليداً مثالياً تقريباً لصوت الطائر الذي تعرفه جيداً؛ صراخاً حادًّا وأجش. قالت: «افعلي ذلك الآن». وضحكت حنّا من محاولاتها الفاشلة.

قالت: «يجب أن تعلّميني يا حبيبتي». وتابعت الاثنتان المشي معاً.

على الرصيف، عادت أفكار توم إلى أول مرة رأى فيها بارتاجو، والأخيرة، وبينهما كيف استطاع فيتزجيرالد ونوكي إسقاط التهم

والتخلص من «بالوعة مطبخ» سبراغ. كان المحامي بليغاً في إثبات أن تهمة سرقة الطفلة لن تصمد وينبغي لهذا أن تسقط أيضاً كل التهم المتصلة بها. بدا أن الإقرار بالذنب في التلاعب بالسجلات الإدارية، التي أقيمت محاكمتها في بارتاجو وليس في ألباني، سيؤدي إلى عقوبة قاسية لو أن حنّا لم تتكلم بوضوح دفاعاً عنهما وتطلب الرأفة، ثم إن سجن بونبوري، في منتصف الطريق إلى بيرث، أقل قسوة مما ستكون عليه الحال في فريمانتل أو ألباني.

الآن، مع تلاشي الشمس في الماء، ينتاب توم شعور مزعج. فبعد شهور من مغادرته جانوس، لا تزال ساقاه مستعدتين لصعود مئات الدرجات إلى الفانوس في الأعلى. ولكنه بدلاً من ذلك، يجلس على نهاية الرصيف، ويراقب النوارس القليلة الأخيرة على الماء الهادئ.

فكّر في العالم الذي استمر بالدوران من دونه، وقصصه التي تنكشف تدريجياً، سواء أُوجد لرؤيتها أم لا. ستكون لوسي على الأرجح تحت الغطاء في السرير، وتخيّل وجهها المكشوف في أثناء نومها، وتساءل عمّا تبدو عليه الآن، وإن كانت تحلم بالوقت الذي قضته على جانوس، وتفتقد ضوءها؟ فكّر في إيزابيل أيضاً، في سريرها الحديدي الصغير في دار الاستشفاء، وهي تبكي على ابنتها، وحياتها القديمة.

سيعيدها الوقت إلى ما كانت عليه، يعدها بذلك، ويعد نفسه؛ ستتكيّف.

سيغادر القطار إلى ألباني بعد ساعة، وسينتظر حلول الظلام ليمشي في البلدة، عائداً إلى المحطة.

في حديقة دار الاستشفاء في ألباني بعد عدّة أسابيع، جلس توم

على نهاية المقعد الحديدي، وإيزابيل على الأخرى. كانت أفضل أيام الزينية الوردية قد انتهت آنذاك، وتبدو ذابلة وتصطبغ بالبني، وقد بدأت الحلزونات تقضم الأوراق النجمية، في حين ذرت الريح الجنوبية تويجاتها بعيداً.

«على الأقل، بدأت تستعيد وزنك مجدداً يا توم. بدوت مخيفاً جداً حين رأيتك أول مرة مجدداً. هل تتدبّر أمورك جيداً؟». كانت نبرة إيزابيل قلقة، لكن رصينة.

«لا تقلقي بشأني. أنتِ من ينبغي أن نركّز عليها الآن». راقب صرصاراً يستقر على ذراع مقعد خشبي، ويبدأ الصرير. «يقولون إنك بخير ويمكن أن تغادري متى شئت يا إيز».

أحنت رأسها ودفعت خصلة من شعرها خلف أذنها. قالت: «لا عودة إلى الوراء كما تعلم، ولا يمكن إلغاء ما جرى؛ ما قد مرَّ به كلانا». نظر توم إليها بثبات، لكنها لم تنظر إلى عينيه حين تمتمت: «وإضافة إلى هذا، ماذا بقي؟».

«بقي ممَّ؟».

«من أي شيء، ماذا بقي من... حياتنا؟».

«لا عودة إلى إدارة المنارات، إن كان هذا ما تعنينه».

تنهّدت إيزابيل بحدّة. «ليس هذا ما أعنيه يا توم». اقتلعت صريمة جدي من النبات المعترش على الجدار القديم بجانبها، وتأمّلتها، وعندما مزّقت ورقة، ثم أخرى، سقطت الأجزاء الصغيرة في فسيفساء محزّزة على تنورتها. «فقدان لوسي... كأن شيئاً قد بُتر. أوه، أتمنى لو كان بمقدوري إيجاد الكلمات للتعبير عن الأمر».

«ليست الكلمات مهمة». مدَّ يده إليها، لكنها انكمشت مبتعدة.

قالت: «أخبرني أنك تشعر بالشيء نفسه».

«كيف يُجعل قول هذا أي شيء أفضل يا إيز؟».

دفعت الأوراق جانباً وشكّلت كومة مرتّبة. «أنت لا تفهم حتى ما أتكلم عنه، أليس كذلك؟».

عبس منزعجاً، ونظرت بعيداً إلى غيمة بيضاء منتفخة تهدّد الشمس. «أنت رجل لا يمكن تعرّفك بسهولة. وأحياناً، كان العيش معك موحشاً».

صمت قليلاً. «ماذا تريدين مني أن أقول عن هذا يا إيزي؟».

«أردت أن نكون سعداء، جميعنا. تسلّلت لوسي إلى داخلك، وفتحت قلبك بطريقة ما، وكانت رؤية هذا رائعة». أطبق الصمت وقتاً طويلاً، قبل أن يتغير تعبيرها مع عودة ذكرى. «طوال ذلك الوقت، لم أعرف ما قد فعلته. في كل مرة مسستني بها، كل مرة، لم تكن لدي فكرة أنك تخفي أسراراً».

«حاولت أن أتكلم عن الأمر يا إيز، لكنكِ لم تسمحي لي».

نهضت على قدميها، وتهاوت الورق لولبياً إلى العشب. «أردت أن أؤذيك يا توم، كما آذيتني، هل تدرك هذا؟ أردت الانتقام، أليس لديك ما تقوله بشأن هذا؟».

«أعرف هذا يا حبيبتي، أعرف. لكن ذلك الوقت انتهى».

«ماذا؟ إذاً، أتسامحني ببساطة؟ وكأن شيئاً لم يكن!».

«ماذا يمكن أن أفعلَ غير هذا؟ أنتِ زوجتي يا إيزابيل».

«أتعني أنك تريد البقاء معي...».

«أعني أنني وعدت بقضاء حياتي معك، ولا أزال أريد قضاء حياتي معك. إيز، لقد تعلّمت بالطريقة الصعبة أنه إذا أراد المرء أن يحظى بأي مستقبل ينبغي أن يتخلّى عن الأمل بتغيير ماضيه».

استدارت بعيداً عنه، واقتلعت المزيد من صريمة الجدي من

النبات المعترش، «ماذا سنفعل؟ كيف سنعيش؟ لا يمكنني النظر إليك كل يوم وأمتعض منك لما فعلته، وأنا خجلة من نفسي أيضاً».

«لا يا حبي، لا يمكنك».

«كل شيء خراب، ولا يمكن تصويب شيء».

وضع توم يده على يديها. «لقد صوّبنا أشياء قدر استطاعتنا، وهذا كل ما يمكننا فعله. ينبغي أن نتعايش مع الوضع كما هو الآن».

مشت على طول الدرب بجانب العشب، تاركة توم على المقعد، وعادت بعد أن أنهت دورة كاملة حول المرج. «لا يمكنني العودة إلى بارتاجو، فلم أعد أنتمي إلى ذلك المكان». هزّت رأسها وراقبت تقدّم الغيمة. «لا أعرف إلى أين أنتمي هذه الأيام».

وقف توم، ووضع يده على ذراعها. «أنتِ تنتمين إلي يا إيز، ولا يهم المكان الذي سنكون فيه».

«هل لا يزال هذا صحيحاً يا توم؟».

كانت تحمل حفنة من صريمة الجدي، وتمس الأوراق مذهولة. أخذ توم إحدى الأزهار الصفراء منها. «كنا نأكل هذه حين كنا صغاراً. هل أكلتها أنت؟».

«أكلتها؟!».

قضم النهاية الضيقة للزهرة، ومصَّ قطيرات الرحيق من قاعدتها. «تتذوّقينها لمدّة ثانية فقط، لكنها تستحق ذلك». أمسك أخرى، ووضعها على شفتيها لتقضمها.

الفصل السابع والثلاثون

هوبتون، الثامن والعشرون من آب 1950

لـم يكـن هنـاك شـيء مثيـر فـي هوبتون آنذاك، باسـتثناء الرصيف الطويل الذي لا يزال يهمس بأيام المجد حين أدّت البلدة دور المرفأ لحقـول الذهـب، لكـن الميناء نفسـه قـد أُغلـق عـام 1936؛ بعد بضعة أعوام من انتقال توم وإيزابيل إليها. كان سيسل، شقيق توم، قد عاش سـنتين فقـط بعـد أبيـه، وعندمـا مـات ورث الأخير أموالاً كافية لشـراء مزرعـة خـارج البلـدة. كانـت الملكية صغيرة بالمعاييـر المحلية، لكنها تحد السـاحل أميالاً عديدة، والمنزل يقع على تلة داخل البر الرئيس، ويطل على الشـاطئ في الأسـفل. عاشـا حياة هادئة، وذهبا إلى البلدة أحياناً، وساعدهما عمّال زراعيون في العمل.

كانـت هوبتـون - الواقعـة علـى خليـج واسـع يبعـد أربع مئة ميل تقريباً شـرق بارتاجو - بعيدة كفاية، ولم يكن من المحتمل تقريباً أن يلتقيـا أحـداً هنـاك، لكنهـا قريبـة كفاية من والدي إيزابيل للقيام بالرحلة في الكريسـماس، في الأعوام التي سـبقت وفاتهما. تبادل توم ورالف الرسائل بين الحين والآخر؛ مجرد تحية، قصيرة وبسيطة، لكن بالشعور العميـق نفسـه. كانـت ابنـة رالـف وأفـراد أسـرتها قد انتقلـوا إلى كوخه الصغيـر بعـد وفـاة هيلـدا، واعتنـوا به جيداً، رغم أن صحته كانت عليلة

تلك الأيام. عندما تزوج بلوي من كيتي كيلي، أرسل توم وإيزابيل هدية، لكنهما لم يحضرا الزفاف، ولم يعد أي منهما إلى بارتاجو مطلقاً.

وانساب القسم الأكبر من عشرين عاماً مثل نهر ريفي هادئ، يعمّق مساره بمرور الوقت.

رنّت الساعة، وحان وقت المغادرة تقريباً، والرحلة قصيرة إلى البلدة تلك الأيام على الطرق الممهّدة، بخلاف وقت وصولهما. بعد أن عقد توم ربطة عنقه، لمح غريباً أشيب الشعر في طرفة عين فقط، ثم تذكّر أنه هو نفسه من يبدو في المرآة. الآن، تبدو البزّة فضفاضة أكثر على جسده، وهناك فجوة بين الياقة والعنق داخلها.

عبر النافذة، ترتفع الأمواج، وتضحي بنفسها في عاصفة بيضاء، بعيداً في البحر. لا تخرج من المحيط أدنى علامة تشير إلى أن الوقت قد انقضى، أبداً. والصوت الوحيد هو تلاطم عواصف آب.

بعد وضع المغلّف في صندوق الكافور، أغلق توم الغطاء بوقار. قريباً ستفقد المكوّنات كل معنى، مثل اللغة الضائعة للخنادق، حبيسة ذلك الوقت. تبدّد الأعوام منطق الأشياء حتى لا يبقى إلا ماضٍ أبيض؛ مجرّد من المشاعر والأهمية.

كان السرطان ينهي عمله منذ شهور؛ يقضم الأيام منها، ولم يكن هناك شيء يمكن فعله إلا الانتظار. لقد أمسك يدها أسابيع، جالساً بجانب سريرها. سيسأل: «أتتذكّرين ذلك الفونوغراف؟ أتساءل عمّا قد جرى للسيدة مويت العجوز؟». وستبتسم ابتسامة ضعيفة. أحياناً، استجمعت طاقتها لتقول: «لا تنسَ التقليم، هل ستفعل؟». أو «أخبرني قصة يا توم، أخبرني قصة بنهاية سعيدة». وسيداعب وجنتها ويهمس:

«في سالف العصر والأوان، كانت هناك فتاة تدعى إيزابيل؛ وكانت الأكثر حيوية على نطاق أميال...». وعندما يسرد القصة، سيراقب الكَلَف على يدها، ويلاحظ كيف تورّمت مفاصلها قليلاً تلك الأيام، والخاتم يتحرّك بحرية على الجلد بين العقد.

في النهاية، عندما لم يعد بمقدورها ارتشاف الماء، أعطاها زاوية قطعة قماشية رطبة لتمصّها، ومسح شفتيها بمرطب ليمنع تشقّقهما من الجفاف. لقد داعب شعرها، الذي تخلّله الشيب آنذاك، والمربوط بضفيرة ثقيلة خلف ظهرها، وقد راقب صدرها الصغير وهو يرتفع وينخفض مع ذلك التردّد نفسه الذي يذكّره في لوسي حين وصلت لأول مرة إلى جانوس: كل نَفَس كفاح وانتصار.

«هل أنت آسف لأنك التقيتني يا توم؟».

قال: «لقد ولدت لألتقيك يا إيز، وأظن أن هذا ما قد ولدت لأجله». وقبّل وجنتها.

تذكّرت شفتاه القبلة الأولى قبل عقود، على الشاطئ العاصف تحت الشمس الغاربة: الفتاة الجريئة والشجاعة التي يرشدها قلبها فقط. تذكّر حبها للوسي الذي كان مباشراً وقويًّا وأكيداً؛ نوع الحب الذي سيدوم مدى العمر لو أن الوضع كان مختلفاً.

كان قد حاول إظهار حبّه لإيزابيل، في كل فعل من أفعاله، كل يوم طوال ثلاثين عاماً. لكن الآن، لن تكون هناك أيام أخرى. لن يكون هناك المزيد من المظاهر، ودفعه الإلحاح قدماً، فقال متردّداً: «إيز، هل هناك شيء تريدين أن تسأليني عنه؟ أي شيء تريدين مني أن أخبرك به؟ أي شيء على الإطلاق. لست بارعاً في هذا، لكن إذا كان هناك شيء، فأعدك أنني سأبذل قصارى جهدي لأجيب عن تساؤلاتك».

حاولت إيزابيل أن تبتسم. «هذا يعني أنك تظن أن الأمر قد انتهى

تقريباً يا توم». وأومأت برأسها قليلاً، وربتت على يده.

نظر إلى عينيها. «أو ربما أصبحت مستعداً أخيراً للكلام...».

كان صوتها واهناً: «لا بأس، لا شيء آخر أحتاج إليه الآن».

داعب توم شعرها، ناظراً إلى عينيها لوقت طويل. وضع جبينه على جبينها، وبقيا على تلك الحال من دون حراك، حتى تغيّر تنفّسها، وأصبح أكثر إرهاقاً.

قالت وهي تتشبّث بيده: «لا أريد أن أتركك. أنا خائفة جداً يا حبي؛ خائفة جداً. ماذا إن لم يغفر الله لي؟».

«الله غفور رحيم».

سألت بقلق: «الرسالة، هل ستعتني بالرسالة؟».

«نعم يا إيز، سأعتني بها». وهزّت الريح النوافذ كما قد فعلت قبل عقود على جانوس.

«لن أقول وداعاً». وضغطت على يده مجدداً. بعد ذلك، لم تعد الكلمات تخرج من فمها. وبين الحين والآخر، فتحت عينيها فرأى فيهما شرارة؛ ضوءاً يزداد سطوعاً حين يزداد تنفّسها صعوبة؛ وكأنها قد أُبلغت سراً وفهمت فجأة شيئاً ما.

ثم، في تلك الأمسية الأخيرة، عندما فرّق القمر الباهت غيوماً ماطرة، تغيّر تنفّسها بالطريقة التي كان توم يعرفها جيداً، وانسلّت من بين يديه.

رغم وجود كهرباء لديهما، جلس في الضوء الباهت الصادر عن مصباح الكاز الذي يغمر وجهها. بدا وجهها أكثر رقة بكثير، وأكثر لطفاً. بقي بجانب الجسد كل الليل، ينتظر بزوغ الفجر قبل الاتصال بالطبيب؛ متأهباً كما في الأيام الخوالي.

عندما يمشي توم نزولاً على الدرب، ينتزع برعماً أصفر من إحدى

أجمات الزهور التي زرعتها إيزابيل حين انتقلا إلى هناك، فيفوح شذاها قوياً، ويعيده عقدين تقريباً إلى صورتها وهي جاثية قرب الحوض المحروث حديثاً، ويداها تضغطان على التراب حول الأجمة اليافعة. كانت قد قالت: «حصلنا أخيراً على حديقة أزهار يا توم». لاحظ أن تلك كانت أول مرة يرى فيها ابتسامتها منذ غادرت بارتاجو، وبقيت الذكرى معه، واضحة مثل صورة ضوئية.

يوجد حشد صغير في قاعة دار العبادة بعد الجنازة، وبقي توم المدة التي تتطلّبها الكياسة، لكنه تمنّى أن يعرف الناس حقاً المرأة التي يودّعونها؛ إيزابيل التي التقاها على الرصيف، المملوءة حيوية وجرأة وإثارة؛ إيزي زوجته، نصفه الآخر.

بعد يومين من الجنازة، جلس توم وحيداً، في منزل خاوٍ وصامت آنذاك، ورأى عمود غبار يصعد إلى السماء، دلالة على اقتراب سيارة. ظنَّ أن أحد العمّال الزراعيين عائد على الأرجح. وعندما اقتربت المركبة أكثر، نظر مجدداً واكتشف أنها غالية الثمن وجديدة، وتحمل لوحة أرقام بيرث.

توقفت السيارة قرب المنزل، وجاء توم إلى الباب الأمامي.

ظهرت امرأة، وانقضت دقيقة لترتّب شعرها الأشقر المربوط في جديلة عند مؤخر عنقها. نظرت حولها، ثم مشت ببطء إلى الشرفة، حيث ينتظرها توم.

قال: «أهلاً، هل أنت تائهة؟».

ردّت المرأة: «آمل ألا أكون كذلك».

«هل يمكنني مساعدتك؟».

«أبحث عن عقار آل شربورن».

«لقد وجدته، أنا توم شربورن». انتظر توضيحاً.

«إذاً، أنا لست تائهة». ابتسمت ابتسامة باهتة.

قال توم: «آسف، فقد كان أسبوعاً طويلاً. هل نسيت شيئاً؟ هل نسيت موعداً؟».

«لا. لم أحدّد موعداً، لكن أنت من جئت لرؤيته، و...». تردّدت. «السيدة شربورن، سمعت أنها مريضة جداً».

دُهش توم، وقالت: «اسمي لوسي - غريس رذرفورد؛ رونفيلدت سابقاً...». ابتسمت مجدداً. «أنا لوسي».

نظر غير مصدّق، وقال لنفسه تقريباً: «لولو! لولو الصغيرة». لم يتحرّك.

تورّدت المرأة. «لا أعرف ماذا أدعوك، أو... السيدة شربورن». فجأة، خطرت لها فكرة وسألت: «آمل أنها لن تمانع، وآمل ألا أكون قد تطفّلت».

«أملت دائماً أن تأتي».

قالت: «مهلاً، لقد أحضرت شخصاً لأعرفكما إليه». وعادت إلى السيارة. مدّت يدها إلى المقعد الأمامي، وعادت وهي تحمل سلّة، وعلى وجهها مزيج من الرقة والفخر.

«هذا كريستوفر، ابني الصغير، عمره ثلاثة شهور».

رأى توم طفلاً يشبه لوسي تماماً حين كانت طفلة ينظر من تحت بطانية؛ ما جعل قشعريرة تسري في جسده. «كانت إيزي ستحب لقاءه، وسيعني هذا الكثير لها؛ أنك جئت».

«أوه، آسفة جداً... متى...؟». تركت الجملة من دون إنهاء.

«الأسبوع الماضي، كانت جنازتها يوم الاثنين».

«لم أعرف. إذا كنت تفضّل فسأغادر...».

تابع التحديق إلى الطفل لبعض الوقت، وعندما رفع رأسه أخيراً، ظهرت ابتسامة حزينة على شفتيه. «تفضلي».

جلب توم صينية عليها إبريق شاي وكأسان، في حين جلست لوسي - غريس تنظر إلى المحيط، والطفل بجانبها في السلّة.

سألت: «من أين نبدأ؟».

ردَّ توم: «ما رأيك أن نجلس بهدوء قليلاً حتى نعتاد الأمر؟». وتنهّد. «لوسي الصغيرة، بعد كل تلك السنين».

جلسا صامتين، يشربان الشاي، ويصغيان إلى الريح التي تعصف من المحيط، وتدفع أحياناً غيمة مسافة كافية لتسمح لشعاعٍ من ضوء الشمس بالتسلّل عبر الزجاج والوصول إلى السجادة. استنشقت لوسي روائح المنزل؛ روائح خشب قديم، ودخان نار، ومادة تلميع. لم تجرؤ على النظر مباشرة إلى توم، لكن بصرها جال في أرجاء الغرفة. زهرية من ورود صفراء، وصورة زفاف توم وإيزابيل وهما يبدوان شابين يتقدان حيوية ومفعمين بالأمل. كانت على الرفوف كتب عن الملاحة والضوء والموسيقى، وبعضها - مثل ذاك المعنون أطلس نجم براون - كبير جداً؛ ما تطلّب وضعها على جانبها، وهناك بيانو في الزاوية، ونوتات مكدّسة فوقه.

سأل توم أخيراً: «كيف سمعت؟ أعني عن إيزابيل».

«أخبرتني أمي. عندما كتبت إلى رالف أديكوت لتعلمه بمرضها الشديد، ذهب لرؤية أمي».

«في بارتاجو؟».

«عادت لتعيش هناك الآن. أخذتني أمي إلى بيرث حين كنت في الخامسة؛ فقد أرادت أن نبدأ مجدداً. لم تعد إلى بارتاجو إلا حين

انضممت إلى سلاح الجو عام 1944. بعد ذلك، حسناً، بدت مستقرة هناك مع الخالة غوين في برموندسي؛ المنزل القديم الذي كان لجدّي، في حين بقيت أنا في بيرث بعد الحرب».

«وزوجك؟».

أشرق وجهها بابتسامة. «هنري! قصة حب في سلاح الجو... هو رجل رائع. تزوجنا في العام الماضي، وأشعر أنني محظوظة جداً». نظرت إلى الخارج نحو المياه البعيدة وقالت: «لقد فكّرت في كليكما كثيراً بمرور السنين، وتساءلت عنكما، لكن لم -»، توقفت، «حسناً، لم أفهم حقاً حتى أنجبت كريستوفر سبب إقدامكما على ما فعلتماه، ولماذا لم تستطع أمي أن تسامحكما عليه. يمكن أن أقتل من أجل ابني، بالتأكيد».

مسّدت تنورتها. «أتذكّر بعض الأشياء. على الأقل أظن هذا؛ أشياء مثل مقتطفات من حلم: الضوء طبعاً، والبرج، وشرفة من نوع ما حوله... ماذا كانت تدعى؟».

«المنصة».

«أتذكّر جلوسي على كتفيك، وعزف البيانو مع إيزابيل، وشيئاً عن بعض الطيور على شجرة، وتوديعك...

ثم، كل شيء متشابك معاً، وأنا لا أتذكّر الكثير. أعرف فقط الحياة الجديدة في بيرث، والمدرسة، لكن الأهم من ذلك كلّه أنني أتذكّر الريح والأمواج والمحيط: لم أستطع إخراجها من دمي. أمي لا تحب الماء، ولا تسبح إطلاقاً». نظرت إلى الطفل. «لم أستطع المجيء في وقت أبكر، واضطررت إلى الانتظار حتى منحتني أمي... حسناً، موافقتها كما أفترض».

ناظراً إليها، رأى توم لمحات من وجهها اليافع. لكن، بدت

مقارنـة المـرأة بالطفلـة أمـراً صعبـاً. كما كان العثور على الشـاب نفسـه الـذي قـد أحبّهـا كثيـراً أمـراً صعبـاً أيضاً. ورغم هذا، كان لا يزال هناك بطريقة ما. وفي لحظة واحدة صافية تماماً، استرجع ذكرى صوتها وهو يقول: «بابا! احملني يا بابا!».

قـال: «تركـت شـيئاً لـك». وذهـب إلى صنـدوق الكافور. مدَّ يده داخله، ثم أخرج مغلّفاً سـلّمه إلى لوسـي - غريس التي حملته لحظة قبل أن تفتحه.

حبيبتي لوسي،

لقـد مـرَّ وقـت طويـل؛ وقـت طويـل جداً. وَعـدت أن أبقى بعيدة عنك، وقد التزمت بكلمتي؛ وإن كان ذلك صعباً جداً علي.

لقـد رحلـت الآن، ولهـذا تتسـلّمين هذه الرسـالة، وهذا يفرحني؛ لأنـه يعني أنـكِ جئـت للعثـور علينـا. لم أتخلَّ مطلقـاً عن الأمل بأنك ستفعلين هذا.

توجـد فـي الصنـدوق مـع هـذه الرسـالة بعـض أغراضـك: رداء الاحتفال الديني الخاص بك، بطانيتك الصفراء، بعض اللوحات التي رسـمتها حيـن كنـت طفلـة. وهنـاك أشـياء صنعتها لك بمرور السـنين؛ بياضات وغيرها. أبقيتها سليمة من أجلك. إنها أشياء من ذلك الجزء الضائع من حياتك؛ في حال جئت بحثاً عنا.

أنتِ امرأة راشـدة الآن، وآمل أن تكون الحياة لطيفة معك. آمل أن تصفحي عني لاحتفاظي بك، وتركك تذهبين.

اعرفي أنكِ كنت دائماً محبوبة.

مع كل حبي.

المناديـل الورقيـة المطـرّزة بأناقـة، والجوربـان المحبـوكان مـن

الصوف، والقبعة الحريرية كانت مطوية بعناية في صندوق الكافور، ومخفية تحت أشياء ترجع إلى طفولة إيزابيل. لم يكن حتى توم يعرف، حتى آنذاك، أن إيزابيل قد احتفظت بها هناك. أشياء من وقت آخر، من حياة أخرى. أخيراً، فتحت لوسي - غريس لفافة، مربوطة بشريط حريري صقيل؛ إنها خريطة جانوس، وقد زيّنتها إيزابيل منذ وقت طويل: شاطئ حطام السفن، والخليج الغادر... لا يزال الحبر لامعاً. شعر توم بغصّة حين تذكّر اليوم الذي قدّمتها فيه إليه، ورعبه من خرق القوانين، وفجأة غمرته مجدداً مشاعر المحبة تجاه إيزابيل والحزن لفقدانها.

عندما قرأت لوسي - غريس الخريطة، سالت دمعة على وجنتها، وقدّم توم لها منديله المطوي بعناية. مسحت عينيها، وهي تفكّر في شيء ما، وقالت أخيراً: «لم أحظَ قط بفرصة شكركما، أنت و... وماما، على إنقاذي والعناية بي جيداً. كنت صغيرة جداً... ثم فات الأوان».

«لا شيء لتشكرينا عليه».

«أنا حيّة فقط بفضلكما».

بدأ الطفل يبكي، ومالت لوسي لتحمله. «صه، صه أيها الصغير، أنت بخير. أنت بخير أيها الأرنب الصغير». حرّكته إلى الأعلى والأسفل فهدأ البكاء. استدارت إلى توم. «هل تريد أن تحمله؟».

تردّد. «لم أعد معتاداً على ذلك هذه الأيام».

قالت: «هيا». ودفعت الحزمة الصغيرة برفق بين ذراعيه.

قال مبتسماً: «حسناً، ها أنت ذا، أنت تشبه أمك تماماً حين كانت طفلة، أليس كذلك؟ الأنف نفسه، والعينان الزرقاوان ذاتهما». عندما نظر الطفل إليه مليّاً، فاضت أحاسيس كان قد نسيها منذ أمدٍ طويل. «أوه، كانت إيزي ستحب لقاءك». لمعت فقاعة لعاب على شفتي

الطفل، وراقب توم قوس القزح الذي صنعه ضوء الشمس هناك. قال: «كانت إيزي ستحبّك». وحاول إخفاء الشرخ في صوته.

نظرت لوسي - غريس إلى ساعتها. «من الأفضل أن أغادر الآن، كما أفترض. سأبقى في رافنسثورب الليلة، فلا أريد أن أقود في الظلام. ستكون هناك حيوانات على الطريق».

«طبعاً». أومأ توم نحو صندوق الكافور. «هل أساعدك في وضع الأشياء في السيارة؟ أعني، إذا كنتِ ترغبين بأخذها. سأتفهّم الأمر إذا لم ترغبي بهذا».

قالت: «لا أريد أخذها». وعندما تجهّم وجه توم، ابتسمت: «لأننا بهذه الطريقة سيكون لدينا عذر للعودة؛ في يوم قريب، ربما».

الشمس مجرد شظية تلمع فوق الأمواج حين جلس توم على الكرسي القديم على الشرفة. كانت إلى جانبه، على كرسي إيزابيل، الوسائد التي صنعتها، مطرّزة بنجوم وهلال. لقد هدأت الريح، واصطبغت الغيوم بلون برتقالي داكن على الأفق، واخترقت نقطة ضوء الغسق: منارة هوبتون. أضحت هذه الأيام آلية، فلا حاجة إلى عمّال منارة منذ إغلاق الميناء الرئيس. عادت أفكاره إلى جانوس، والضوء الذي اعتنى به هناك وقتاً طويلاً، وكل وميض منه لا يزال يرحل إلى مكان ما في الظلام نحو حافة الكون.

لا تزال ذراعاه تشعران بثقل طفل لوسي، وأطلق الإحساس الذكرى البدنية لحمل لوسي ذاتها، وقبل ذلك، الابن الذي حمله بيديه وقتاً قصيراً. كم حياة ستكون مختلفة لو أنه قد عاش؟ تنفّس بعمق وهو يفكر في ذلك وقتاً طويلاً، ثم تنهّد مدركاً ألا فائدة من هذا التفكير؛ فعندما تبدأ الطريق، ليست هناك نهاية له. لقد عاش

الحياة التي عاشها، وأحب المرأة التي أحبها، ولن يسلك أحد أبداً الدرب نفسها تماماً على هذه الأرض، ولا بأس لديه بذلك. لا يزال يحنُّ إلى إيزابيل؛ إلى ابتسامتها، وملمس جلدها. سالت الدموع التي حبسها أمام لوسي الآن على وجهه.

نظر خلفه، حيث يسلك البدر طريقه إلى السماء مثل ثقل موازن على الأفق، تدفعه إلى الأعلى الشمس المحتضرة. كل نهاية بداية شيء آخر، وقد ولد كريستوفر الصغير إلى عالم لم يكن توم ليتخيّله قطّ، وربما لن يخوض حرباً، هذا الفتى. تنتمي لوسي - غريس أيضاً إلى مستقبل لا يستطيع توم إلا تخمينه. وإذا استطاعت أن تحبّ ابنها بمقدار نصف ما أحبتها إيزابيل، فسيكون الطفل بخير.

لا تزال هناك أيام أخرى يرتحلها في هذه الحياة، ويعرف أن الرجل الذي يقوم بالرحلة قد أثّر فيه كل يوم وكل شخص على طول الطريق. الندوب مجرد نوع آخر من الذاكرة، وإيزابيل جزء منه - أينما تكون - كما هي الحرب والضوء والمحيط. قريباً كفاية ستُغلق الأيام على حياتهم، وسينمو العشب فوق قبورهم؛ حتى تصبح قصتهم مجرد شواهد قبور لا يزورها أحد.

راقب المحيط وهو يستسلم لليل، وعرف أن الضوء سيبزغ مجدداً.

شكر وتقدير

لقد لعب عدّة أشخاص دوراً في جلب هذا الكتاب إلى العالم، وتسمية كل فرد منهم تتطلّب مجلداً منفصلاً. لقد شكرتهم - كما آمل - شخصياً في أثناء عملي، لكن أود الإقرار بأهميتهم مجدداً هنا، فقد أسهم كل منهم بشيء فريد ونفيس: بعضهم في لحظة محدّدة، وبعضهم على مدى طويل، وبعضهم لمدى الحياة.

شكراً لكم - كل واحد منكم - لمساعدتي في سرد هذه القصة. أنا محظوظ بلطفكم.

ولدت م. ل. ستدمان وترعرعت في غربي أستراليا، وتعيش الآن في لندن.

نورٌ بين محيطين روايتها الأولى وستنشر في عشرين دولة.

الروايـة الأكـثر مبيعـاً طـوال شـهور علـى قائمـة «نيويـورك تايمـز»

«لا تُقـاوم... مغريـة... تتمتـع بحبكـة عاليـة المسـتوى تُبقيـك متشـبثاً بها منـذ الصفحة الأولى». مجلة «أوبرا» (أو O).

بعد أربـع سـنوات مروّعـة أمضاهـا علـى الجبهـة الشـرقية، يعـود تـوم شـربورن إلى أسـتراليا، ويحظى بوظيفة عامل منارة لإرشـاد السـفن على صخرة جانوس التي تبعد مسـافة رحلـة نصـف يـوم تقريباً عـن السـاحل. إلى هذه الجزيـرة المعزولـة، حيث يصل مركـب مـؤن مـرة في الموسـم، يُحضـر تـوم زوجـة شـابة، وجريئـة، ومملـوءة حيويـة؛ إيزابيـل. بعـد أعـوام، وحالتَـي إجهاض وولادة طفـل ميت، تسـمع إيزابيـل الكئيبة صرخات طفلة تنقلها الريح. كانت الأمواج قد جرفت إلى الشاطئ مركباً يحمل على متنه رجلاً ميتاً وطفلة حية.

عندهـا، يريـد تـوم، شـديد التدقيـق في التفاصيـل والـذي صمـدت مبادئـه الأخلاقيـة في أثنـاء الحـرب المروّعـة، إرسـال تقريـر عـن الرجـل والرضيعـة فـوراً، لكن إيزابيل تصر علـى أن الطفلة «هبة من الله»، وتزعـم، ضـد إرادة تـوم، أنهـا ابنتهمـا وتسـمّيها لوسـي. عندمـا تبلـغ الصغـيرة الثانيـة مـن العمر، يعـود تـوم وإيزابيـل إلى البـر الرئيـس، ويتذكـران أن هنـاك أشـخاصاً آخرين في العـالم. ويـدركان أن خيارهمـا قـد دمّـر حيـاة أشـخاص أبريـاء.

مكتبة بغداد

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
ISBN 978-614-01-1243-8
9 786140 112438
نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com